

التعريب



مجلة نصف سنوية محكمة تصدر عن المركز العربي للدراسات واللغة والتأليف والنشر بدمشق

اللغة
العربية
هي
القومية

المنظمة
العربية
للتربية
والثقافة
والعلوم

52

رمضان 1438 هـ - حزيران (يونيه) 2017 م

السنة السابعة والعشرون
العدد الثاني والخمسون

التعريب



التعريب

مجلة نصف سنوية

العدد الثاني والخمسون

حزيران (يونيه) 2017

المدير المسؤول:

الأستاذ الدكتور زيد إبراهيم العساف

مدير المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر بدمشق

رئيس التحرير:

الأستاذ الدكتور محمود السيد

هيئة التحرير:

الأستاذ الدكتور دفع الله عبد الله الترابي

الأستاذ الدكتور عدنان الحموي

الأستاذة الدكتور زهيدة درويش جبور

الأستاذ الدكتور محمد حلمي هليل

الأستاذ الدكتور صالح بلعيد

الأستاذ الدكتور محمد مكي الحسني

الأستاذ الدكتور عبد اللطيف عبيد

الأستاذ الدكتور ميلود حبيبي

مجالات اهتمام المجلة

إن اهتمامات المجلة مركزة في الإسهام في تحقيق أهداف المركز في مجال تعريب التعليم العالي في الوطن العربي وتطويره، ومتابعة الجديد مما ينشر في ميادين المعرفة في العالم، للتعريف به وترجمة الجيد الملائم منه، وكذلك ترجمة روائع الفكر العربي في العلوم والآداب والفنون إلى اللغات الأجنبية العالمية.

وفي هذه الأطر تفتح المجلة صفحاتها للدراسات والبحوث الجادة والأصيلة فكرياً وموضوعياً في أحد المجالات التالية:

- * تعريب التعليم العالي في الوطن العربي.
 - * بحوث مترجمة ودراسات في التعريب.
 - * التعليم العالي في الوطن العربي وتطويره.
 - * من أعلام الحضارة العربية والإسلامية.
 - * عروض للجديد من الكتب والرسائل الجامعية.
 - * الإعلام بالأنشطة العربية والدولية في مجال أهداف المركز.
- إن مضامين المواد المنشورة في المجلة تعبر عن آراء أصحابها ولا تمثل بالضرورة رأي المنظمة أو المركز**
- *يسمح باستعمال ما ورد في هذه المجلة من مواد بشرط الإشارة إلى مصدرها***
- *التنضيد والإخراج الفني حسنة تلو***

التعريب: مجلة نصف سنوية مُحَكَّمة تصدر عن المركز العربي للتعريب والترجمة

والتأليف والنشر بدمشق — المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

دمشق — ص.ب: 3752 — هاتف 3334876 / www.acatap.org - acatap2@gmail.com E-mail:

السنة الأولى: 1991 — دمشق ع 2017/6/15

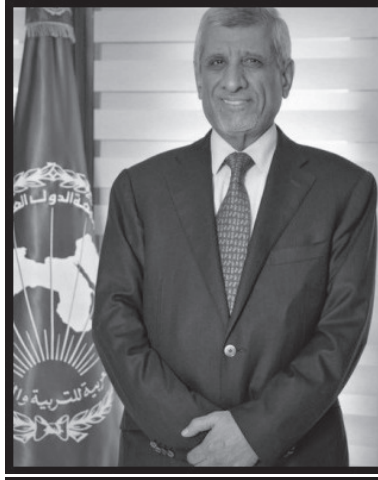
الاشتراك: قيمة الاشتراك السنوي: داخل الوطن العربي: 25 دولاراً أمريكياً

خارج الوطن العربي: 35 دولاراً أمريكياً

قيمة النسخة الواحدة بدون أجور البريد 5 دولارات أمريكية أو ما يعادلها

الأستاذ الدكتور عبد الله حمد محارب في ذمة الله

تتعى أسرة المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر بدمشق المغفور له بإذن الله، الأستاذ الدكتور عبد الله حمد محارب، المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الذي توفاه الله صباح يوم الخميس الثامن من شهر شعبان 1438 هـ الموافق للرابع من شهر مايو 2017م، بعد رحلة طويلة زاخرة بالعمل والعطاء في خدمة الأمة العربية ورفع شأن اللغة العربية.



لقد كان فقيد الثقافة العربية من العلماء الأعلام، يتصف بصفاتهم: بالخلق الرفيع، والتواضع الجَمِّ، وحُبِّ البساطة، والشغف بالعلم والكتب والمخطوطات التي كانت شغله الشاغل.. إن غيابه عن الساحة الثقافية يُعدُّ خسارة كبيرة لها، نظراً إلى ما كان يتحلَّى به من إخلاصٍ وتفانٍ في خدمة الثقافة العربية.

رحم الله فقيدنا الفاضل، وأسكنه فسيح جناته، وألهم أهله ومُحبِّيهِ الصبر والسلوان.

وإنا لله وإنا إليه راجعون

في هذا العدد

* افتتاحية العدد 11

* قواعد النشر في المجلة 13

* بحوث لغوية

• جولة في رحاب التجديد اللغوي (القسم الثاني) 19
د. محمود السيد

• النظرية الثنائية في المعجم العربي 43
أ. شوقي المعري

• بين مفهومي الصراع اللغوي والسلم بين اللغات 63
د. محمد بسناسي

* بحوث في الترجمة

• نحو نظرية قرارية في الترجمة 87
د. عادل داود

• نحو سياسة للحراك 109
محمود أحمد عبد الله

• أوليفيه مارتان: البناء الاجتماعي للعلوم 129
أ.د. محمد أحمد طجو

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

- 145 • أثر الترجمة في تطوير اللغة الأم
د. لبانة مشوّح

* بحوث في المصطلحات

- 161 • ترجمة مصطلحات الصوتيات في المعجم اللساني
د. عبد الغني بن صوله
- 187 • الترجمة في مجال الاقتصاد الإيكولوجي
أ. عبد الرحمن مسعود غواز
- 205 • إشكاليات المصطلح السيميائي بين واقع الترجمة واختلاف الهويات
ناسية عادل
- 215 • مساهمات عربية في مفردات صناعة الطباعة
د. منيب خضور
- 241 • مواقف حاسمة في تاريخ موضوع الحساب: اسمه طبيعته، ترجمته
أحمد محمد جواد محسن الحكيم

* بحوث في التعليم العالي

- 263 • بعض معوقات ضمان جودة التعليم العالي في البيئة العربية
د. محمود باكير

* بحوث في الحضارة العربية الإسلامية

- 277 • المكتبات العربية في العصور الوسطى
أ.د. عبد المجيد مهنا

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

* من أنشطة المركز خلال النصف الأول من عام 2017 327

* إصدارات المركز من الكتب 331

الافتتاحية

بقلم: أ. د. زيد إبراهيم العساف

مدير المركز العربي للتعريب

والترجمة والتأليف والنشر

إنَّ التَّنَوُّعَ المعرفيَّ من أهمِّ الأشياء التي يبحث عنها الإنسان مُتَقَفًّا كان أم غير مُتَقَفٍّ، لأنَّ في هذا التَّنَوُّع غنى كبيراً ومفيداً لمن يبحث عنه، فهو يزيد في إغناء فكره أكثر، وعلمه أكثر، بل في اختصاصه إذا كان ما يقرؤه جديداً عليه. وكذلك عند من يبحث عن الثقافة عسى أن يجد ما يبحث عنه متنوعاً في أغراض كثيرة، ومعارف متنوعة متعددة ليصحَّ فيه قول الجاحظ إنَّ المُتَقَفَّ هو من أخذ من كل علم بِطَرَفٍ.

هذا التَّنَوُّع هو سمة هذا العدد من مجلة "التعريب" التي تحاول دائماً البحث عن مصادر الغنى والمعرفة، ومواردهما معاً، كما تحاول دائماً أن تسير بخطاً وثقة في مجالات العلوم التي خُصِّصَتْ لها المجلة، إذ تقرأ في هذا العدد أبحاثاً متنوعة في المعرفة والاختصاص، فنقرأ بحثاً جديداً من حيث الطرح يتحدث عن كيفية تناول الموضوع من طرف الفيزيائي الكلاسيكي، وبحثاً بكرةً عن النظرية الثنائية في المعجم العربي، وقد اعتمد فيه صاحبه الإحصائيات في المعجم العربي، وكذلك نقف عند أبحاث تتصل بالترجمة، وهي أحد أعمدة المجلة، والترجمة صارت علوماً متشعبةً متعددة الأطراف في زمن نبحت فيه عن ثقافة الآخرين، فنقرأ عن المصطلح وصعوبة استعماله في الترجمة، ونقرأ عن النظرية القرارية في الترجمة، وعن أثر الترجمة في تطوير اللغة الأم.

هذا غير بعض الأبحاث المتنوعة من حيث المضمون، مثل مساهمات عربية في مفردات

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

صناعة الطباعة. ومواد أخرى في أدب الرحلات، والمكتبات، ومعوقات ضمان جودة التعليم في الوطن العربي وغيرها، وقبل أن يودّع هذا العدد في المطبعة، علمنا بوفاة المغفور له بإذن الله الأستاذ الدكتور نشأت حمارنة الذي قدّم إسهامات كثيرة في فعاليات المركز وبالأخص ندوات تعريب التعليم العالي. ولقد تميّز بقوة دفاعه عن قضايا الأمة، وبشغفه باللغة العربية وسعيه الدائب لتعريب التعليم العالي في الوطن العربي. نسأل الله أن يتغمده بواسع رحمته ويسكنه فسيح جنانه.

نرجو أن تكون أبحاث هذا العدد بتنوعها وتعدد مراميها قد حققت هدفاً من أهداف المجلة الكثيرة، والله من وراء القصد.

والله ولي التوفيق

قواعد النشر في المجلة

تنشر المجلة المواد المتعلقة بأحد مجالات اهتمامها من دراسات وبحوث وترجمات وفق القواعد التالية:

1. ألا يكون البحث أو المادة المقدمة للنشر في مجلة التعريب قد سبق لهما أن نشرتا أو قدّما للنشر في أيّ من أوعية النشر، وعلى الباحث أن يرفق ببحثه تصريحاً خطياً يفيد بأنه لم يسبق له أن نشر أو أرسل بحثه للنشر لدى أي جهة أخرى.

2. أن تتسم المادة المقدمة للنشر بالمنهجية العلمية في العرض والمعالجة والاستنباط، وأن تتميز بالمتانة في الأسلوب والدقة في الإسناد والتوثيق.

3. ترسل المادة المراد نشرها مرقونة بالحاسوب باستعمال برنامج مايكروسوفت word، ترسل نسخة إلكترونية على بريد المجلة الإلكتروني إلى عنوان المركز التالي:

acatap2@gmail.com

مع مراعاة مايلي:

أ. ألا يتجاوز عدد صفحاتها /20 صفحة/ من الحجم العادي (6000 كلمة).

ب. أن تكون المادة خالية من الأخطاء الإملائية والنحوية واللغوية.

ج. ضرورة استعمال علامات الترقيم أصولاً.

د. أن تكون الجمل مترابطة ومتماسكة.

4. تتلقى المجلة المواد المقدمة للنشر من الرعايا العرب من داخل الوطن العربي ومن خارجه، مكتوبة باللغة العربية، على أن ترفق المادة بملخص واف ودقيق لها بحدود 20/1 من عدد صفحاتها.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

5. ترفق المادة المقدمة للنشر متضمنة:

أ. اسمه الثلاثي بالعربية وبالحروف اللاتينية.

ب. نبذة مختصرة من سيرة المؤلف.

ج. الصفة أو المرتبة العلمية، مثال (دكتور، أستاذ دكتور، باحث أكاديمي....الخ)

د. عنوانه البريدي الكامل.

هـ. عنوان بريده الالكتروني.

6. تُسهل المادة بمقدمة في سطور تبين أهميتها والنتائج والاستنتاجات المستفادة منها، كما تُذيل

بُنيَت للمصادر والمراجع المستعملة بحيث يكتب اسم المؤلف أولاً، فاسم المصدر أو المرجع، يليه مكان النشر، فاسم الناشر (دار النشر)، وأخيراً تاريخ الصدور ورقم الصفحة.

7. تقدم الرسوم والأشكال، في حال وجودها في مكانها في النص، وترسل أيضاً بملف أو

ملفات منفصلة بحيث تكون واضحة وبدقة صالحة للطباعة أعلى من 200 dpi بحيث تتضمن جميع الشروح والإيضاحات اللازمة والحجم المناسب، على أن يشار إشارة واضحة إلى أمكنتها في متن النص، مع ضرورة مراعاة حقوق الملكية الفكرية للشكل.

8. تُعرَّب المقالات والبحوث الصادرة بلغات أجنبية وفقاً لـ "تعليمات تعريب البحوث

والمقالات" المعمول بها في المركز، والتي تقوم رئاسة التحرير بتزويد المعرَّب بها في حال الموافقة المبدئية على تعريب البحث أو المقالة المقترحة من قبله، وعلى المعربين الالتزام التام بهذه التعليمات.

9. تنشر المجلة عروضاً للكتب والبحوث والرسائل الجامعية الحديثة، التي لا يتعدى الفاصل

الزمني بين ظهور المادة المعروضة ووصول العرض إلى المجلة أكثر من عام، هذا ومن الضروري عند تقديم العروض مراعاة التعليمات التالية:

– أن يتضمن العرض ملخصاً يتسم بالإيجاز المحكم للمادة المعروضة.

– أن يكون تركيز العارض على رأيه في المادة المعروضة وتقويمه لها.

.....قواعد النشر في المجلة

- ألا يتجاوز عدد صفحات العرض 7 صفحات /2000 كلمة/.
- أن يَصْنَحَ العرضَ معلوماتٍ بـبليوغرافية دقيقة عن المادة المعروضة.
10. يبلغ أصحاب المواد المقدمة للنشر بتسليم موادهم وبالموافقة المبدئية أو عدمها على النشر، وذلك قبل صدور العدد الجديد بثلاثين يوماً.
11. تعرض المواد المقدمة للنشر في حال قبولها مبدئياً على محكم أو أكثر من ذوي الاختصاص، وذلك على نحو سري، لبيان مدى أصالتها وقيمتها العلمية وسلامة منهجيتها، ومن ثم صلاحيتها للنشر، وللمجلة أن تأخذ بتقرير المحكمين أو أن تعرض المادة مرة أخرى على محكم آخر، ولها أيضاً أن تتخذ قراراً بالنشر أو عدمه إذا رأت خلاف ما يراه المحكم.
12. يحق للمجلة - إذا رأت ضرورة لذلك - إجراء بعض التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر دون المساس بمضمونها، أما إذا رأت المجلة أو المحكم وجوب إجراء تعديلات جوهرية عليها حتى تصبح صالحة للنشر، فإنها تعيدها إلى صاحبها للقيام بهذه التعديلات اللازمة.
13. يبلغ أصحاب المواد المقدمة للنشر بالقرار النهائي بالموافقة على النشر أو عدمها وذلك خلال ستة أشهر من تاريخ تسلمها، علماً بأن المجلة ليست ملزمة بإبداء أسباب عدم النشر، كما أنها ليست ملزمة برد المواد التي لا تنشر لأصحابها.
14. تراعي المجلة في أولوية النشر عدة اعتبارات أهمها: تاريخ التسلم والأهمية العلمية للمادة المقدمة، ومدى صلاحيتها وجاهزيتها للنشر، وكذلك تنوع مادة العدد والتوزيع الجغرافي لمصدرها من مختلف الدول العربية.
15. لا يحق لصاحب المادة المنشورة في مجلة التعريب، ولا لأي جهة أخرى، إعادة نشرها في أي وعاء آخر للنشر إلا بعد مرور ستة أشهر على تاريخ نشرها في المجلة، وبموافقة خطية من رئيس التحرير، مع ضرورة الإشارة إلى هذه الموافقة، وإلى رقم وتاريخ العدد الذي نشرت فيه من المجلة.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

16. إن مضامين المواد المنشورة في المجلة تعبر عن آراء أصحابها، ولا تمثل بالضرورة رأي المركز أو المجلة.

17. تقدم المجلة مكافأة مالية رمزية عن كل مادة تنشر فيها تصل إلى /100/ دولار أمريكي كحد أقصى، علماً أن (الصفحة الواحدة تعادل 300 كلمة حسب الفقرة (3- أ)).

18. تعتذر هيئة التحرير عن نشر أية مقالة لا تلتزم بالشروط الواردة آنفاً.

19. ترسل المواد وتوجه المراسلات باسم الأستاذ الدكتور زيد إبراهيم العساف مدير المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر إلى العنوان:

المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر

دمشق — ص.ب: 3752

هاتف: 3334876 (11 — +963)

فاكس: 3330998 (11 — +963)

البريد الإلكتروني: E-mail: acatap2@gmail.com

الموقع على الإنترنت: www.acatap.org



بحوث لغوية

جولة في رحاب التجديد اللغوي

- القسم الثاني -

د. محمود أحمد السيد

رئيس الموسوعة العربية بدمشق

سبق أن عالجت في القسم الأول من هذا البحث بعض الجوانب المتعلقة بالتجديد اللغوي من حيث مفهوم التجديد اللغوي واتجاهاته في مجال وضع المصطلحات وتيسير النحو. ونكمل في هذا القسم الثاني من البحث التوجه نحو تيسير القواعد الإملائية، والتجديد في مجال البلاغة، والتجديد في مجال إضافات دلالات جديدة لكلمات وعبارات، والتجديد في مجال الجنوسة، وفي المعاجم، وفي مجال تعليم اللغة وتعلمها، لينتهي هذا القسم بخاتمة كاملة للبحث.

1. التوجه نحو تيسير القواعد الإملائية

ساعد اتساع المدرج الصوتي في اللغة العربية على انفرادها بحروف لا توجد في اللغات الأخرى كالضاد والطاء والعين والغين والحاء والطاء والقاف، وهذه الميزة جعلت العربية تستغني عن تمثيل الحرف الواحد بحرفين متلاحقين، فحرف (الثاء) لا يعرفه الفرنسيون في أبجديتهم، ويركبه الإنجليز من حرفين، وحرف الذال لا تعرفه الفرنسية وتؤديه الإنجليزية بحرفين. ومن مزايا العربية التلازم بين الصوت والحرف الدال عليه، فلكل صوت حرف يقابله، ولا يشذ عن ذلك إلا كلمات قليلة مثل (هذا، لكن، هؤلاء، طه) أو كلمات تنتهي بواو الجماعة في الأفعال، ولها قاعدة تنظمها.

وكان الأستاذ إبراهيم مصطفى قد حمل لواء التجديد والتيسير في مجال القواعد الإملائية، ورأى أن كل صوت من أصوات الهجاء العربي يمثل في الكتابة حرف إلا الهمزة والألف

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

اللينة فإنهما يمثلان بحرفين أو بحروف متعددة، فالهمزة ترسم ألفاً وياءً وواواً، والألف ترسم في بعض المواضع ألفاً، وفي الأخرى ياءً، ووجد أن في هذا صعوبة في الكتابة يعانيتها كل من المعلم والمتكلم والطابع، وأن الحل في نظره يتمثل في أن تكتب الهمزة ألفاً في كل موضع، وأن تكتب الألف اللينة ألفاً مطلقاً.¹

وأسهم مجمع اللغة العربية في القاهرة في تسليط الأضواء على تيسير الكتابة والإملاء، ورأى أن تكون القواعد الإملائية ميسرة وسهلة التداول على المتعلم حين يتعلم، وعلى الطابع حين يطبع وينشر، وأن يكون ثمة التزام للشكل في الطباعة وخاصة في كتب المراحل الأولى من التعليم واختصار صور الحروف، ووضع علامات للدلالة على أصوات الحروف التي لا مقابل لها، واتخاذ صورة موحدة لكل حرف هجائي،² وأكد اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية في ندوته التي عقدها في الجزائر عام 1976 ضرورة تيسير الكتابة العربية والالتزام بصورة واحدة للحرف العربي ما أمكن بشرط ألا يكون هناك ابتعاد عن المؤلف حفاظاً على جمال الخط العربي وتوثيقاً للصلة بيننا وبين الماضي.³

وأبان الدكتور مصطفى جواد أن مشكلة رسم اللغة من أعقد المشكلات، ورأى أن إصلاح الرسم يكمن في كتابة الألفاظ العربية كما تلفظ تحقيقاً للمطابقة بين المنطوق والمكتوب، على أن يستثنى من ذلك ما يجعل بعض الحروف متوسطة توسطاً عارضاً مثل (الاختيار، الاستعلام) إذ لابد من إثبات ألف الوصل فيهما لثبوتها في أول الكلام، وزيادة الألف المحذوفة كتابة من بعض الكلمات (هاذا، هاذو، هاؤلاء، أولائك، لائن، ذلك)، وكتابة الهمزة في أول الكلمة على ألف، وكتابة غيرها على حرف من جنس حركتها (يقرؤون، تقرئين) فإن كانت

¹ إبراهيم مصطفى، تيسير الكتابة العربية، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق 1957 المجلد 32 ج 1 ص 117.

² مجلة مجمع اللغة العربية في القاهرة، تيسير الكتابة العربية، ج 9 سنة 1957 ص 283.

³ اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية، تيسير تعليم اللغة العربية، ندوة الجزائر 1976.

.....جولة في رحاب التجديد اللغوي

ساكنة رسمت على ما تسهل عليه (لم يقرأ) (لم يقرأ)، أوماً (أوما).¹

ورأى محمد بهجة الأثري في بحثه «رأي في إصلاح قواعد الإملاء»² المقدم إلى مجمع اللغة العربية في القاهرة أن يكون ثمة تطابق بين الأصوات ورسم صورها أو رموزها، وأن ترسم الهمزة على ألف بصورة واحدة في جميع أوضاعها كبقية الحروف وهو مذهب الفراء من الأقدمين، وكتابة الألف اللينة فيما فوق الثلاثي وغيره طويلة (عصوية)، وهو مذهب أبي علي الفارسي.

ودعا إبراهيم مذكور إلى الاختصار على رأس العين (ء) رمزاً للهمزة أنى وقعت، كما دعا الشيخ عبد الله العلايلي إلى كتابة الهمزة على حرف يجانس حركتها إن كانت متحركة، وعلى حرف يجانس حركة ما قبلها إن كانت ساكنة وسطاً أو آخراً.³

ومن محاولات التيسير ما قام به كل من معهد الدراسات والأبحاث للتعريب في المملكة المغربية والمنظمة العربية للمواصفات والمقاييس في جامعة الدول العربية والهيئة العربية للمواصفات والمقاييس في الرياض، إذ كان ثمة سعي لإيجاد شفرة عربية موحدة تشتمل على جميع الحروف العربية، وتصلح للبرمجة في الحاسوب، وأفردت للهمزة ستة أشكال رأت ضرورة اعتمادها وهي (تحت الألف، على واو، على ياء غير منقوطة، فوق الألف، على نبرة، مستقلة مفردة).

وأسهمت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في برامجها لتطوير تعليم اللغة العربية، بدراسة حول تطوير مناهج تعليم الكتابة والإملاء في مراحل التعليم العام في الوطن العربي،

¹ د. مصطفى جواد، وسائل النهوض باللغة العربية وتيسير قواعدها وكتابتها، المؤتمر الأول للمجامع اللغوية العلمية، دمشق 1956.

² محمد بهجة الأثري، رأي في إصلاح قواعد الإملاء العربي، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد 4 سنة 1965 ص 320.

³ د. يحيى ميرعلم، قواعد الإملاء في ضوء جهود المحدثين، المؤتمر السنوي السابع لمجمع اللغة العربية بدمشق، دمشق 2008 ص 34.

إلا أن هذه الدراسة حافظت على ما هو مألوف في القواعد الإملائية.¹

وتجدر الإشارة إلى أن مجمع اللغة العربية بدمشق وضع كتيباً يشتمل على قواعد الإملاء، وقد جاء في ثلاث وثلاثين صفحة، واشتمل على قواعد كتابة الهمزة (الوصل، القطع، الهمزة المتوسطة، الهمزة المتطرفة) الألف (الألف في وسط الكلمة، الألف في آخر الكلمة)، التاء (المبسوطة، المربوطة) الزيادة، الحذف، الفصل والوصل، علامات الترقيم.²

تلك هي بعض محاولات تيسير الكتابة والإملاء، وما تزال ثمة خلافات بين مجمعي اللغة العربية في دمشق والقاهرة في كتابة بعض الكلمات، ففي الكتابة المصرية لا توضع النقطتان تحت الياء في الكتب المطبوعة في الأعم الأغلب، فلا يميز القارئ المبتدئ بين الألف المقصورة والياء، كما أن كلمة (شؤون) تكتب في بلاد الشام على الواو في حين تكتب في مصر على نبرة (شئون)، وكلمة (يقرؤون) تكتب في الشام على هذا النحو بتطبيق قاعدة الهمزة المتوسطة، في حين تكتب في مصر على هذا النحو (يقرأون). وثمة اتفاق على أن تكتب (مئة) على هذا النحو بتطبيق قاعدة الهمزة المتوسطة في الوقت الذي كانت تكتب فيه من قبل على هذا النحو (مائة).

وعلى اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية مهمة توحيد قواعد الكتابة والإملاء على الصعيد العربي، ووضع المعايير الموحدة للكتابة على الشبكة (الإنترنت) ومراكز التواصل الاجتماعي.

2. التجديد في مجال البلاغة

لا يراد بالدعوة إلى التجديد في البلاغة إلغاؤها، وإنما تيسيرها بالرجوع إلى أصولها

¹ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تطوير مناهج تعليم الكتابة والإملاء في مراحل التعليم العام في الوطن العربي، تونس 1987.

² مجمع اللغة العربية بدمشق، قواعد الإملاء، دار البشائر، دمشق 2016.

.....جولة في رحاب التجديد اللغوي

ورفدها بالجديد الذي يثريها، ويجعلها ملائمة للمستجدات ومحتوية الآداب الحديثة.

ومن الكتب المشهورة في البلاغة في تراثنا العربي كتاب (البديع) لابن المعتز، و(دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) لعبد القاهر الجرجاني، وكان ابن المعتز في كتابه (البديع) قد جعل كتابه في قسمين:

أ. أطلق عليه اسم البديع وهو خمسة فنون: الاستعارة، التجنيس، المطابقة، رد أعجاز الكلام على ما تقدمها، والمذهب الكلامي.

ب. سماه محاسن الكلام وهي ثلاثة عشر: الالتفاف، الاعتراض، الرجوع، حسن الخروج، تأكيد المدح، تجاهل المعارف، الهزل الذي يراد به الجدّ، حسن التضمين، التعريض والكناية، الإفراط في الصفة، حسن التشبيه، لزوم ما لا يلزم، حسن الابتداء.¹

أما الجرجاني فقد عرّف البلاغة قائلاً: «هي بلوغ المتكلم في تأديته المعاني حدّاً له اختصاص بتوفية خواص التراكيب معها، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها. وساد منهج السكاكي بعده على أن للبلاغة قسمين:

أ. علم المعاني وهو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل به من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره.

ب. علم البيان وهو معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة في مطابقة الكلام لتمام المراد منه».²

وأطلّ العصر الحديث، وظهرت دعوة إلى التجديد في البلاغة في مطلعته لم تكن لتخرج عن تأليف كتب في البلاغة جاء في بعضها تيسير في العرض والشرح، إلى أن انطلقت صيحة الشيخ أمين الخولي في كتابه (فن القول) حيث وضع للبلاغة ثلاثة أبواب:

¹ الدكتور أحمد مطلوب، تجديد البلاغة، المؤتمر السنوي السابع لمجمع اللغة العربية «التجديد اللغوي»، دمشق 2008 ص 1.

² سراج الدين يوسف بن أبي بكر السكاكي، مفتاح العلوم، القاهرة 1973 ص 77.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

الأول المبادئ، والثاني المقدمات، والثالث البحوث. وفي المبادئ يدرس تعريف فن القول وغايته وصلته بغيره من الدراسات، وفي المقدمات يدرس مقتبسات من القضايا النفسية التي تعين كثيراً في فهم الأدب وتذوقه والإحساس بما فيه من روعة وجمال، وفي البحوث تدرس ما يتصل بالكلمة وما فيها من إيقاع خلّاب له تأثير في التعبير، وبناء الجملة من حيث التقديم والتأخير والحذف والذكر والإيجاز، والفقرة وما فيها من وصل وفصل، وصور التعبير كالتشبيه والاستعارة والكناية والرمز والإيماء والتورية.¹

وجاء بعده أحمد الشايب في كتابه (الأسلوب) ليضع البلاغة في باين اثنين:

- أ. هو الأسلوب ويدرس فيه القواعد الأساسية للتعبير وهي الكلمة والصورة والجملة والعبارة وعناصر الأسلوب وأنواعه وصفاته ومقوماته وموسيقاه، وتدخل في هذا الباب البلاغة (علم المعاني في بحث الجملة، وعلم البيان وأغلب البديع في باب الصورة).
- ب. الفنون الأدبية كالقصة والمقالة والرسالة والمناظرة.²

وإذا كان ثمة من يرى أن الأسلوبية هي وريثة المنهج البلاغي كما يرى الدكتور صلاح فضل³ فإن الباحث عبد السلام المسدي يرى أن ثمة فروقاً بين المنهجين البلاغي والأسلوبية، وهذه الفروق هي:

1. أن البلاغة علم معياري، والأسلوبية تتفي عن نفسها كل معيارية.
2. أن البلاغة ترسل الأحكام التقويمية بخلاف الأسلوبية.
3. أن البلاغة تسعى إلى غاية تعليمية، ولا تسعى الأسلوبية إلى ذلك.
4. أن البلاغة تحكم بأنماط سابقة، والأسلوبية تتحدد بمنهج العلوم الوصفية.
5. أن البلاغة اعتمدت فصل الشكل عن المضمون في الخطاب اللساني، والأسلوبية ترفض

¹ أمين الخولي، فن القول، القاهرة 1937 ص 223.

² أحمد الشايب، الأسلوب، ط 3، القاهرة 1952 ص 28.

³ الدكتور صلاح فضل، علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته، ط 2 القاهرة 1985 ص 3.

الفصل بين الدال والمدلول.¹

وإن المنهج الذي يدعو إليه الأسلوبيون والبلاغيون الجدد لا يخرج عن تقسيم البلاغة العربية إلى:

1. الفصاحة وما يتصل بالكلمة المفردة، وهو المستوى الصوتي يضاف إليه الإيقاع وبعض فنون البديع.
2. علم المعاني الذي يبحث في التركيب اللغوي، وهو المستوى التركيبي.
3. علم البيان الذي يبحث في الصورة المجازية، وهو المستوى الدلالي.
4. علم البديع الذي يبحث في فنون لها صلة بالإيقاع، وتدخل في المستوى الصوتي وما لها صلة بعلم المعاني وعلم البيان.

وإذا كان السكاكيني قد قسم البلاغة إلى علم المعاني وعلم البيان وعلم البديع فإن البلاغيين الجدد قسموا البلاغة إلى المستوى الصوتي والمستوى التركيبي والمستوى الدلالي، ورأوا أن البلاغة قابلة لاستيعاب ما يلائم أصولها الكلية ويواكب الحياة ويعبر عن روح العصر، وأن تجديد البلاغة ليس كتجديد النحو، ولم تقف عند عصر الاحتجاج، ففي الدراسات البلاغية الجديدة نصوص من الشعر الحديث.

ومن مناحي التجديد في البلاغة وتيسيرها.²

1. إلغاء التقسيم الثلاثي وجعل البلاغة فناً واحداً، وبحث موضوعاتها في ضوء الترابط بين واحد وآخر، وما أشار إليه البلاغيون الجدد من مستويات: المستوى الصوتي والمستوى التركيبي والمستوى الدلالي.
2. الاهتمام بالمستوى الصوتي والألفاظ ودلالاتها وما فيها من جمال وجرس له أثر في التعبير، وأن يكون البحث في الفصاحة من صميم المستوى الصوتي، وهو ما عني به

¹ الدكتور عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، تونس 1982 ص 52.

² الدكتور أحمد مطلوب، تجديد البلاغة، مرجع سابق ص 14 و 15.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

- القدماء كابن سنان الخفاجي وضياء الدين بن الأثير.
3. البحث في الجملة وأحوالها وما يحدث فيها من حذف وذكر وتقديم وتأخير وارتباط الجمل مما بحثه البلاغيون في موضوع الفصل والوصل.
4. البحث في الفقرة والقطعة الأدبية والنص الكامل ما أمكن ذلك.
5. البحث في صور التعبير المختلفة كالتشبيه والاستعارة والكناية وغيرها من مباحث علم البيان.
6. التقليل من التقسيمات والتفريعات التي يضل الدارس فيها.
7. توحيد المصطلحات والأخذ بأكثرها دلالة على الفن البلاغي، وترك التسميات المتعددة للفن الواحد، إذ بلغت مصطلحات البلاغة الأساسية والفرعية أكثر من ألف مصطلح.
8. تنقية البلاغة مما علق بها من مصطلحات الفلاسفة وأهل المنطق والعلوم التي لا تمت إليها بصلة وثيقة مثل: الكم، الكيف، العرض، الجوهر، المؤمن، الدهري، الماهية، التأسيس، الموجبة، السالبة، اللذة، الألم، حرارة الحروف وبرودتها ورطوبتها وبيوستها، الخ.
9. تحليلية البلاغة بما استجد ويستجد من دراسات بلاغية ونقدية وأدبية وجمالية مما يرفدها بكل جديد لا يهدم أصولها ولا يمحو معالمها.
10. الاهتمام بعرض الفنون البلاغية بأسلوب رفيع يثير المشاعر، ويحرك النفوس قبل أن ينفذ إلى العقول فتدركه، لأن البلاغة فن يرتبط بالذوق والإحساس الروحاني.
11. اختيار النصوص الرفيعة، وتلمس البلاغة فيما استجد من فنون أدبية تعبر عن المعاصرة.
12. تحليل النصوص تحليلاً أدبياً، والابتعاد عن المماحكة والتحليل الذي يجعلها طلاسماً.
13. توحيد أسلوب التأليف، وعدم الانتقال من أسلوب إلى آخر كما كان القدماء ينتقلون إلى أساليب الفلاسفة وأهل المنطق عندما يناقشون، وأساليب الفقهاء حين يعللون، وأساليب النحاة حين يعرضون لمباحث علم المعاني، ويفصلون القول فيها.
14. «الدعوة إلى التكامل بين النحو والبلاغة، بمعنى أن نضع ما يتصل من موضوعات النحو بموضوعات علم المعاني في البلاغة في سنة واحدة، فالمعارف في النحو ترافقها في السنة

نفسها دراسة دواعي التعريف والتذكير من علم المعاني، ومواقع ذكر المبتدأ والخبر وحذفهما وتقديمهما وتأخيرهما ترافقها دواعي الذكر والحذف ودواعي التقديم والتأخير، حرصاً على وحدة الموضوعات التي فرقناها مناهجنا وأساليب تعليمنا تأليفاً وتوزيعاً للموضوع الواحد بين المدرسين والامتحانات حتى تمزقت في عقول الطلبة، ولم يبق في عقولهم أنها مادة واحدة، وأن لها جميعاً هدفاً واحداً يحسن أن تبلغه وتبلغه».¹

3. التجديد في مجال إضافة دلالات جديدة لكلمات وعبارات

إن اللغة في سيورتها في الزمان تعتربها تغيرات كثيرة منها التغير الصوتي والتغير النحوي والتغير الدلالي أو السيمانتي. ويشمل التغير الدلالي أموراً متعددة منها التوسع، وذلك في اتساع معنى الكلمة وامتدادها لتشمل ما لم تكن تشمل في الماضي، والتضييق أي تقليص نطاق المعنى واقتصاره على شيء معين من بين أسماء كان يشملها في الماضي، والتحول أي انتقال الكلمة من معنى إلى آخر، والاستعمال المجازي أي تحول في المعنى قائم على المماثلة أو تشابه بين الأشياء، والانحدار الدلالي وهو دلالة سلبية جديدة للمعنى، والارتقاء الدلالي وهو دلالة إيجابية للمعنى الجديد.²

ويرى المحافظون أنه من البدهي أن نتقيد بما ورد في المعاجم من صيغ، وأن علينا أن نرفض ما لم يرد فيها، ولطالما سمعنا عبارة (ليس من كلام العرب)، إلا إذا نص النحويون على أن صيغة بذاتها قياسية، فإذا أراد أحدهم أن يستعمل كلمة (خصوبة) وجب عليه أن يبحث في المعجم: هل وردت فيه أم لم ترد؟ مع أن الصيغة عربية خالصة، والمعنى واضح، ويختلف عن معنى كلمة (الخصب)، ولا عيب فيها إلا أنها لم ترد نصاً في المعاجم، مع أن كلمات كثيرة لم يعرفها لسان العرب مثل (جمعية ومجتمع وتجمع) متناسين أن اللغة أوسع من معاجمها، وأن التقيد بما ورد منها في المعاجم القديمة ينقص قدرتها على التطور والنمو والتجديد.

¹ الدكتور مازن المبارك، التجديد في قواعد العربية ومناهجها، مرجع سابق ص 12.

² الدكتور أحمد زياد محبك، اللغة العربية وثقافة القرن الحادي والعشرين، دار الثريا للنشر، حلب 2009 ص 22.

وتجدر الإشارة إلى أن تطور دلالة المفردات ينطبق على كل ما ينطبق على اللغات من قوانين التطور حيث تتطور دلالة المفردات بالانتقال من العام إلى الخاص، ومن الخاص إلى العام، ومن الحسي إلى المجرد، ومن المجرد إلى الحسي. والمفردات من أكثر العناصر اللغوية استجابة لدواعي التغيير، لأن دلالة المفردات لا يمكن أن تبقى محصورة بحال من الأحوال في أنماط ثابتة من العيش والفكر والثقافة وغير ذلك، فالحياة تشجع على تغيير المفردات لأنها تحدد الأسباب التي تؤثر في المفردات لارتباط الحياة بالزمان والمكان، وما فيهما من التعدد والتنوع والتغير، وهكذا تعمل العلاقات الاجتماعية والمعطيات الحضارية والبيئات المكانية المرتبطة جميعاً بالزمان على تغيير المفردات، فتقضي على المفردات القديمة، أو تحوّر معناها، أو تهبط لوجود كلمات جديدة، فالأسباب التي تؤدي إلى تغيير الظواهر ليست في أي مادة أكثر عدداً ولا تنوعاً منها في هذا المجال.¹

ويجد الدارس مثلاً معاصراً في حياتنا المعاصرة وهو وجود كلمات ذاعت ثم اختفت من التداول، فكلمات (أوتومبيل، إلكترويك، ترين، كمبيوتر، كلوب، حقانية، نيشان) لم تصل إلى مرحلة الاستقرار، فغابت عن الاستعمال، وصارت تدرّس في تاريخ اللغة، على حين ظهرت كلمات جديدة أكثر شيوعاً واستقراراً (سيارة، كهرباء، قطار، حاسوب، ناد، وزارة العدل، وسام) بدلاً من تلك الكلمات التي سادت ثم بادت سريعاً.²

ومن اتجاهات التجديد في حياتنا المعاصرة قبول بعض الألفاظ والعبارات التي لم ترد دلالتها المعاصرة في المعاجم القديمة، إذ يعتمد بعض اللغويين إلى تخطئتها مادامت لم ترد في تلك المعاجم، وفي هذا تضيق على التطور اللغوي. وفيما يلي مجموعة من الألفاظ والعبارات التي رأت لجنة اللغة العربية وعلومها في مجمع اللغة العربية بدمشق جواز استعمالها والتوصية بإضافة دلالتها الجديدة إلى المعجم، ومنها:

¹ المرجع السابق ص 354.

² المرجع السابق ص 355.

..... جولة في رحاب التجديد اللغوي

- جواز استعمال (ارتكن إلى الشيء وعليه) بمعنى اعتمد عليه واستند إليه.
- جواز استعمال (انطلت عليه الحيلة أو الكذبة) بمعنى جازت، على أنها استعمال مجازي.
- جواز استعمال (تأقلم مع البيئة ونحوه) بمعنى تكيف وطوّع نفسه للتواءم مع حالة أو ظرف ما.
- جواز استعمال (البيئة) بمعنى المحيط أو الوسط، وجواز استعمال الفعل (بيأ) ومصدره (تبيئة) بمعنى جعل الشيء ملائماً للبيئة.
- جواز استعمال (أنتج والمنتجات) ومشتقاتها بمعنى أعطى أو أثمر.
- جواز استعمال (أزم وتأزيم) بمعنى إحداث أزمة أي الشدة والضيق.
- جواز استعمال (الأولوية) من (الأولى) بمعنى الأسبقية والأفضلية والأحقية، والتفريق بينها وبين (الأولية) فهي من الأول.
- جواز استعمال (بخ) بمعنى رشّ، وسائر مشتقات الفعل من مثل بخّخ وبخّخة...الخ.
- جواز استعمال (البداية) بمعنى البدء.
- جواز استعمال (برّر) بمعنى (سوَّغ وعلّل)، وإضافة هذه الدلالة إلى مادة برر في المعجم.
- جواز استعمال (ابتزّ) بمعنى أخذ مالاّ من أحدهم أو استغلّه دون رضاه بوساطة التهديد أو التخويف أو الترغيب.
- جواز استعمال (البطال) بمعنى متعطّل عن العمل.
- جواز استعمال (تبنّى الشيء) بمعنى (اهتمّ به ورعاه، وأخذ به، وناصره واعتمده).
- جواز استعمال (بهت اللون) بمعنى شحب وفقد لمعانه وزهوه، وكذا (باهت) بمعنى شاحب وفاقد اللّمعان.
- جواز استعمال (البالة) بمعنى حزمة من الثياب المستعملة وجمعها (بالات).
- جواز استعمال (ثمنّ وثمنين) بمعنى قدر وتقدير ثمن الشيء، وإيلاء أهمية وتقدير للشيء.
- جواز استعمال (شتل) بمعنى نبتّ البذر في مكان لينقله إلى مكان آخر، وبمعنى غرس نبتة صغيرة بعد نقلها من منبتها، وكذا ما يؤخذ من الفعل من مثل (شَتَلَة، وشَتُول، ومَشْتَل).

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

- جواز استعمال (توجَّب ويتوجب) بمعنى تحتم ولزم، والأولى أن يقال: وجب ويجب.
- جواز استعمال (أتمت) بمعنى إنجاز عمل بوساطة الآلة عامة والحاسوب خاصة دون تدخل الإنسان، وجواز استعمال الفعل (أتمت).
- جواز استعمال (البدلة) بمعنى الخلَّة.
- جواز استعمال (تمنرس) بمعنى (تنترس) أي توقي بترس ونحوه مما يتوقى به.
- جواز استعمال (ثلج وتثلج) بمعنى (برد وجمد وتبريد وتجميد).
- جواز استعمال (جبل) بمعنى خلط التراب أو الرمل ونحوهما بالماء، واستعمال مشتقاته مثل (مَجْبَل وجباله).
- جواز استعمال (جابه) بمعنى واجه الأمر وقابله بالقوة والشدة، كأن يقال: جابه الجيش عدوه.
- جواز استعمال (جدارية) بمعنى لوحة فنية تعلّق على الجدار للزينة، وجواز استعمال مجلة جدارية أي معلّقة على الجدار.
- جواز استعمال (جدول) بمعنى عرض تفاصيل موضوع ما في جداول، أو بمعنى نفذ أشياء وفق نظام محدّد، وجواز استعمال مصدره (جدولة).
- جواز استعمال (تجذّر) بمعنى تثبّت وتأصل.
- جواز استعمال (إجراء) بمعنى طريقة التصرف في شأن ما.
- جواز استعمال (جسّر الهوة وجسرها) ومصدريهما (الجسّر والتجسير)، بمعنى ردم الهوة وإزالة الخلاف.
- جواز استعمال (تجوّل) بمعنى جال في البلاد وطاف بها.
- جواز استعمال (الحكومة) بمعنى مجلس الوزراء، ورئيس الحكومة بمعنى رئيس مجلس الوزراء.
- جواز استعمال (الحيدة) بمعنى الحياد.
- جواز استعمال (دردشة) والفعل دردش بمعنى الكلام في أمور متنوعة بغرض التسلية.

..... جولة في رحاب التجديد اللغوي

- جواز استعمال (جايل) بمعنى عاصر، و(جايله) بمعنى عاش في جيله.
- جواز استعمال (حبّذ) ومشتقاته بمعنى فضّل وأحب.
- جواز استعمال (عصّب) بمعنى انفعل مغضباً.¹

4. التجديد في مجال الجنوسة:

طالما ترددت شكاوى من تحيز اللغة العربية للمجتمع الذكوري، وذلك في إسباغ السمات الإيجابية للرجل، والسلبية للمرأة.

وطالما عدّوا أمثلة على هذا التحيز من مثل: حيّ للذكر وحيّة للأنثى، ومصيب للذكر ومصيبة للأنثى، وقاضٍ للذكر وقاضية للأنثى، وهاوٍ للذكر وهاوية للأنثى، ونازل للذكر ونازلة للأنثى... الخ.

ولقد دعت المنظمة الدولية للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) إلى تنقية المناهج التربوية في الدول الأعضاء من الجنسوية أو الجنوسة حيث تصور المرأة في بعض المناهج على أنها ضعيفة وشاكية وغبية في حين يصور الرجل على أنه قوي وذكي، وتسلب الأضواء على أعمال المرأة في البيت من تنظيف وخياطة وطهي للطعام... الخ في حين يبدو الرجل في الصورة قارئاً وكاتباً.

ومن ضروب التجديد في هذا المجال إجازة تأنيث أسماء المناصب مثل رئيس ورئيسة، وعضو وعضوة، وعميد وعميدة، وأستاذ وأستاذة، فتلحق بها تاء التأنيث،² وهذا التوجه مطلب حق في عصر انتفت فيه الفروق بين البنين والبنات من حيث القدرات العقلية والذكاء وسائر ضروب الإبداع.

¹ لجنة اللغة العربية وعلومها، مجمع اللغة العربية بدمشق، من قرارات اللجنة في الألفاظ والأساليب 2009-2015.

² الدكتور أحمد الضبيبي، التجديد اللغوي بين الواقع والمأمول، المؤتمر السنوي السابع لمجمع اللغة العربية بدمشق، تشرين الثاني 2008 ص 10.

5. التجديد في مجال المعاجم:

غني عن البيان أن للتقانة دوراً كبيراً في التجديد اللغوي، وذلك بتوفير الكتب الإلكترونية وخدمة المعلومات عبر خطوط الاتصالات الهاتفية، وعبر الشبكة (الإنترنت)، وتوفير برامج لمعالجة النصوص والمعطيات والصور والرسوم، وتوفير البريد الإلكتروني، وبرامج المحادثة بالشبكة،... الخ.

أما أوجه الاستفادة من التقانات الحديثة في تجديد المعجم العربي¹ فتتجلى في المضمون من حيث الأمثلة والشواهد والدلالة والمترادفات والأضداد والمعلومات الصرفية المتعلقة بالمفردات والعبارات الاصطلاحية والتراكيب اللغوية، وتبيان الفروق اللغوية في المعاني، وتوفير الفوائد اللغوية نحوً وصرفاً وبلاغة، وتبيان أكثر الأسماء مصاحبة للصفات، وأكثر الصفات مصاحبة للأسماء، وأكثر الأفعال مصاحبة للأسماء، وأكثر الأسماء مصاحبة للأفعال، إضافة إلى تبيان الأخطاء الشائعة، وتبيان أشهر المصطلحات العلمية المتداولة في جميع ميادين المعرفة... الخ.

6. التجديد في مجال تعليم اللغة وتعلمها

يرى المفكر الدكتور قسطنطين زريق² أن ثمة سباقاً مرهقاً بين تحديث اللغة من جهة، وتصميم مهمتها في مجازاة ذلك التطور من جهة أخرى، ويجد في ذلك صعوبة خارجية ناتجة عن تسارع تطور العلم وتكاثر محدثاته في جميع الحقول. أما الصعوبة الداخلية فيراها متمثلة في تعثر قضية تيسير قواعد اللغة العربية من جهة، وفي قلة العناية التي بذلتها السلطات التربوية في البلدان العربية في تدريب معلمي اللغة وتنقيفهم، لأن المعلم لا المنهج ولا الكتاب، ولا المقررات، هو مبعث العملية التربوية، ولو يوهل فكرياً وثقافة فإنه يحجب إلى طلابه هذه

¹ مروان البواب، دور التقانات الحديثة في تجديد المعجم العربي، المؤتمر السنوي السابع لمجمع اللغة العربية بدمشق، تشرين الثاني 2008، ص 4.

² فتاوى كبار الكتاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية، سلسلة آفاق ثقافية، وزارة الثقافة السورية، دمشق 2003 ص 187.

..... جولة في رحاب التجديد اللغوي

اللغة ويقربها من مداركهم، ويشيع في نفوسهم الرغبة في إتقانها والتمتع بغناها وغنى ثرواتها. والواقع كما يذهب إليه الدكتور قسطنطين، يؤكد أن للمعلم دوراً كبيراً في الارتقاء باللغة والتمكين لها، فعلى طريقته في العملية التعليمية التعلمية يتوقف جذب الطلبة إلى المادة وتحبيب اللغة إليهم إذا كانت تتسم بالمنهجية واليسر والرفق، والمعلم لا يعلم بطريقته فحسب، وإنما بما يضربه لطلبته من مثل أعلى وقدوة حسنة، وكم من معلم حبيب إلى طلبته مادته! وكم من معلم نفر طلبته من مادته بسبب سوء تصرفه ونأيه عن الأصول التربوية!

ولقد تجلّت مناحي التجديد في مجال تعليم اللغة وتعلمها فيما يلي:¹

آ. الانتقال من التحفيظ والتسميع والتلقين إلى التمهير:

كانت التربية التقليدية تنظر إلى اللغة على أنها مجموعة من الحقائق والأحكام والقواعد، وما على المعلم إلا أن يلقيها للمتعلم تلقيناً، وما على المتعلم إلا أن يحفظها ويستظهرها، وبقدر درجة حفظه لها يعد متمكناً من اللغة في ضوء هذه الرؤية.

وهذه الطريقة النمطية في تعليم اللغة أحالت اللغة إلى قوالب جامدة لا حياة فيها ولا روح، وحرمت المتعلمين من المشاركة والتفاعل. إلا أن التربية المعاصرة رأت أن تعليم اللغة هو كتعلم أي عادة من العادات التي يكتسبها المرء في حياته، إلا أن الوصول إلى العادة يسبقه تعلّم المهارة، والمهارة هي الأداء المتقن القائم على الفهم وعلى الاقتصاد في الوقت والمجهود معاً، والمهارات اللغوية هي أربع: المحادثة والاستماع والقراءة والكتابة. ومما يساعد على تكوين المهارة اللغوية الممارسة والتكرار، على أن يكون هذا التكرار مبنياً على الفهم، وعلى أن يكون المشرف على تعليم اللغة وتعلمها أنموذجاً ومثالاً في ممارسة اللغة، وعلى أن يتبع أسلوب التعزيز في أثناء أداء المتعلم وممارسته، وأفضل أنواع التعزيز هو التعزيز الداخلي عندما يحس المتعلم بالمتعة والسرور في ممارسة اللغة، ويدفعه ذلك الإحساس إلى تكرار الممارسة حباً

¹ الدكتور محمود السيد، التجديد في مجال تعليم اللغة وتعلمها، المؤتمر السنوي السابع لمجمع اللغة العربية بدمشق،

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

وشغفاً لا خوفاً ولا طمعاً، وتتكوّن لديه مهارة التعلم الذاتي الذي هو أساس للتعلم المستمر .

ب. التهيئة اللغوية قبل البدء بتعليم القراءة والكتابة:

ثمة تدرج في تقديم المهارات اللغوية، إذ من الأساليب التي كانت تتبعها التربية التقليدية أن تبدأ بتعليم القراءة والكتابة فوراً دون أن يسبق ذلك عملية تهيئة، أما التربية المعاصرة فترى أن يكون هناك تدرج في تقديم المهارات اللغوية، وذلك بأن يبدأ بتعليم المحادثة والاستماع أولاً، ومن ثم ينتقل إلى تعليم القراءة والكتابة، وهذا الأسلوب يساير مراحل الطفولة نفسها، كما يساير المراحل التي مرت بها المجتمعات البشرية، إذ من المعروف أن الطفل يفهم بعض الألفاظ قبل أن ينطق بها، فالاستماع أولاً، ويأتي الكلام الشفهي ثانياً، فالقراءة والكتابة ثالثاً.

وهذه الطريقة تحقق نوعين من التهيئة أولاًهما صوتية وتتمثل في تذليل صعوبات النطق والتمرين على سماع الأداء اللغوي والنبرة الصوتية فتألف آذان الأطفال اللغة وأنماطها وصيغها. وأما التهيئة الثانية فهي نفسية، إذ إن المحادثة تعمل على إزالة الخوف، وتكسر حدة الخجل والانطواء عند الأطفال.

ج. استعمال الألعاب اللغوية في العملية التعليمية التعليمية:

للألعاب اللغوية فوائد في تزويد المتعلمين بالمعلومات والخبرات وتنمية قدراتهم على التفكير كالقدرة المكانية والعديدية واللغوية وإغناء خيالهم، وتنمية مهاراتهم، وزيادة الرصيد اللغوي لديهم، وتنمية التعبير عن النفس والتوجه إلى الآخرين، استماعاً ومحادثة.

د. تعليم اللغة من خلال قوالبها وبناها لا من خلال مفرداتها:

يرى اللسانيون المعاصرون أن تعليم اللغة لا يكون من خلال مفرداتها بل من خلال بناها وتركيباتها المتجانسة، وهذه البنى والتراكيب هي التي ينبغي أن يركز عليها في تعليم اللغة وتعلمها دون الدخول في المصطلحات النحوية في المراحل الأولى من تعليم اللغة، إذ يمكن تعلم آلاف المفردات من خلال قالب واحد أو بنية واحدة، والطفل نفسه يستخدم الكثير من التراكيب والبنى اللغوية بصورة لا شعورية. وفي عملية الارتقاء من القوالب التي يستخدمها

.....جولة في رحاب التجديد اللغوي

الطفل لا شعورياً يقوم المعلم بمساعدته على الإدراك والفهم، والانتقال به من اللاشعور إلى الشعور أي من اللا إدراك العفوي إلى الفهم والإدراك.¹

هـ. استعمال التعليم الإلكتروني في تعليم اللغة وتعلمها:

لم يكن هذا معروفاً من قبل في تعليم اللغة وتعلمها. أما التجديد الذي حصل في هذا المجال فيتمثل في توفير مواقع تعليمية على الشبكة (الإنترنت)، والاتصال الكتابي بالمحادثة عبر الشبكة، والاتصال الشفهي بين المتعلمين والمعلمين في أي وقت ومن أي مكان، والاتصال البصري باستخدام عرض الرسوم والصور والأفلام الرقمية ومشاهدة الآخر، والمشاركة في مؤتمرات الفيديو عن بعد لمناقشة القضايا اللغوية والتعليمية، وعرض أنشطة المتعلمين التعليمية والثقافية على أنها أحد أساليب التعليم الحديثة، واستخدام الصحف الإلكترونية لعرض إبداعاتهم، وتقديم خدمة تعدد المصادر التعليمية وتوفيرها بالاتصال المباشر.

والتجديد في مجال طرائق تعليم اللغة وتعلمها يركز على الحاسوب والشبكة (الإنترنت) لتنمية مهارات القراءة الأساسية والمتقدمة بدءاً من مهارة تمييز الحروف والكلمات إلى استيعاب النصوص الأدبية وتنمية الرصيد اللغوي ومهارة انتقاء الكتب والبحث عن المعلومات وزيادة سرعة القراءة.

وثمة صيحات تنطلق حالياً لنقول: «وداعاً قراءة المطالعة والتلقي السلبي والاقتصار على النصوص، ومرحباً بقراءة النفاعل والإبحار والسيولة الرمزية لانصهار المكتوب والمرئي والمسموع في وسائل الوسائط المتعددة».²

و. التركيز على وحدة اللغة والتكامل بين مهاراتها

كانت طرائق تعليم اللغة وتعلمها من قبل تعمل على تجزئة اللغة وتفكيك أوصالها إلى

¹ Pierre, Clarac, 'l' enseignement du français', Press universities de France -Paris, 1969 P25

² الدكتور نبيل علي، ثقافة المعلومات والثقافة، دار العين للنشر، القاهرة 2006 ص 264.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

قراءة ونحو وتعبير وبلاغة وعروض، مع تخصيص كتاب لكل فرع منها. أما الطرائق الجديدة فتتظر إلى اللغة على أنها وحدة متكاملة، وأن التدريب على مهاراتها يجري في ضوء النص المتكامل، وأن تعليم القواعد النحوية ليس غاية في حد ذاته وإنما هو وسيلة لتقويم القلم واللسان من الاعوجاج والزلل، كما أن تعليم القواعد الإملائية ما هو إلا وسيلة لتقويم القلم من الأخطاء، وأن القراءة والنصوص وسيلتان لتزويد المتعلم بالمفردات والقوالب اللغوية والمعاني والفكر والصور والأخيلة والاتجاهات والقيم لتوظف بعد ذلك في التعبير والتواصل.

ز. التركيز على الوظيفية في اختيار المادة

وتجلى التجديد في هذا المجال بأن تُختَبر المادة اللغوية في المناهج التعليمية في ضوء مبدأ الشيوع والتواتر، فما كثر استعماله في الحياة عدّ وظيفياً ينبغي التركيز عليه، وما قلّ استعماله عدّ ثانوياً يترك للمراحل اللاحقة، ومن هنا شقّ التعبير الوظيفي والنحو الوظيفي طريقيهما إلى بناء المناهج اللغوية.

ح. اعتماد أسلوب الأتمتة في الاختبارات

كانت الطريقة التعليمية من قبل تركز على أسئلة المقال في قياس الأداء اللغوي، إلا أن التجديد في هذا المجال ركّز على استعمال الأتمتة والأسئلة الموضوعية التي تقيس الأداء دون الاعتماد على أسئلة المقال، ويقوم المعلم بتصحيح اختبارات بطريق الحاسوب، وغدت الأسئلة تعتمد على وضع إشارة (✓) أمام الإجابة الصحيحة، وإشارة (X) أمام الإجابة الخاطئة، وعلى الاختيار من متعدد، وعلى التكملة بكلمة أو جملة... الخ.

خاتمة

بعد هذه الجولة في رحاب التجديد في لغتنا العربية نسأل:

هل حقق دعاة التجديد ما كانوا يطمحون إلى إنفاذه في المنظومة اللغوية نحواً وصرفاً وبلاغة ودلالة؟ وهل حقق معلمو اللغة ما كانوا قد أهّلوا له في اعتماد الطرائق التربوية

..... جولة في رحاب التجديد اللغوي

الحديث في تعليم اللغة وتعلمها؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة تدفع بنا إلى الاعتراف بأن ثمة جهوداً بذلت في رحاب التجديد اللغوي كما رأينا. ومع تقديرنا لهذه الجهود فإن لغتنا العربية تتسم بسمات إيجابية في أصواتها وحروفها ومفرداتها وإيجازها وإعرابها ودقة التعبير فيها، وذلك كله يدفع بأبنائها إلى الاعتزاز بها والحفاظ عليها.

بيد أن المبتكرات الحضارية وتطور العلوم والتدفق المعرفي يسير في هذا العالم بخطوات سريعة لا يمكن اللحاق بها دون جهود مخططة ومبرمجة ومدرسة، وهو أمر مازلنا مقصرين فيه إن في نطاق الجامعات أو في نطاق مجامع اللغة العربية، أو في مراكز البحوث العلمية على الصعيد العربي. كما أن تعليم اللغة العربية إن لأبنائها أو لغير أبنائها مازال يحتاج إلى جهود كبيرة ترتقي بهذا التعليم والتعلم إلى مصاف تعليم اللغات الأجنبية على الصعيد العالمي، إذ ما يزال التعليم الإلكتروني في مجال تعليم اللغة العربية وتعلمها أو في مجال المعاجم يخطو خطواته الأولى، وهو في أمس الحاجة إلى التفعيل والاهتمام مواكبة لروح العصر، عصر العلم والتقانة (التكنولوجيا).

ولكم كان الدكتور طه حسين مصيباً في رأيه عندما قال: «إن لنا في هذه اللغة التي نتكلمها ونتخذها أداة للفهم والإفهام حظاً يجعلها ملكاً لنا، ويجعل من الحق علينا أن نضيف إليها ونزيد فيها كلما دعت إلى ذلك الحاجة، وقضت ضرورة الفهم والإفهام، أو كلما دعا إليه الظرف الفني، لا يفيدنا في ذلك إلا قواعد اللغة العامة التي تفسد اللغة إذا جاوزناها، فليس لأحد أن يمنعك أو يمنعني أن نضيف إلى اللغة لفظاً جديداً، أو تدخل فيها أسلوباً جديداً مادام هذا اللفظ، أو هذا الأسلوب ليس من شأنه أن يفسد أصلاً من أصول اللغة، أو يخرج بها عن طريقها المألوفة».¹

ذلك هو الرأي الصواب، وما على أبناء الأمة إلا أن يكونوا جديرين بهذه اللغة التي شرفها

¹ الدكتور طه حسين، حديث الأربعاء، دار المعارف، القاهرة، الطبعة التاسعة، 29:3 سنة 1974.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

رب العالمين بأن أنزل رسالته بها، وعاملين على الاعتزاز بها والتمكين لها موحدة وموحدة على الصعيد القومي وفي ميادين الحياة كافة إعلاماً وتواصلًا وتراسلاً وتعليمًا وتأليفًا ونشرًا وترجمة منها وإليها...الخ، وإغناءً لها بالمصطلحات الجديدة، مع الأخذ بالحسبان أن لغتنا ولادة وطبعة، وتستجيب لكل ما هو جديد نافع، ولا ينهض بذلك إلا أبنائها الغيرون عليها ذوو الإرادة القوية والإيمان العميق بمكانتها ودورها على جميع الصعد.

مصادر البحث ومراجعته

1. إبراهيم مصطفى، إحياء النحو، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1951.
2. إبراهيم مصطفى وآخرون، تجديد النحو العربي، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1958.
3. ابن مضاء القرطبي، الرد على النحاة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1947.
4. أبو بكر الزبيدي الاشبيلي النحوي، كتاب الواضح، تحقيق عبد الكريم خليفة، مطبعة دار جليس الزمان للنشر والتوزيع، عمان 2011.
5. أبو جعفر النحاس النحوي، كتاب التفاحة في النحو، تحقيق كوركيس عواد، بغداد، مطبعة العاني 1965.
6. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة 1973.
7. الاتجاهات الحديثة في النحو العربي، مجموعة المحاضرات التي أقيمت في مؤتمر مفتشي اللغة العربية، دار المعارف، القاهرة 1958.
8. اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية، سجل ندوة الجزائر، تيسير تعليم اللغة العربية، القاهرة، 1977.
9. الدكتور أحمد زياد محبك، اللغة العربية وثقافة القرن الحادي والعشرين، دار الثريا للنشر، حلب 2009.
10. الدكتور أحمد الشايب، الأسلوب، الطبعة الثالثة، القاهرة 1952.
11. الدكتور أحمد محمد قدور، مدخل إلى فقه اللغة العربية، دار الفكر بدمشق، 2010.
12. الدكتور أحمد مطلوب، تجديد البلاغة، المؤتمر السنوي السابع لمجمع اللغة العربية بدمشق 2008.
13. أدونيس، المحيط الأسود، دار الساقي، 2005.
14. أمين الخولي، فن القول، القاهرة 1937.
15. الدكتور جعفر العقيلي، اللغة العربية وهوية الأمة، ملف أفكار العدد 300 كانون الثاني 2014.
16. جمال الدين بن هشام الأنصاري، شرح قطر الندى وبل الصدى، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة 1963.
17. حسن خيرى المنشاوي، نصوص في علم النحو والصرف، مصر، شبرا، الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع، القاهرة 2010.
18. خلف بن حبان الأحمر البصري، مقدمة في النحو، مديرية إحياء التراث القديم بوزارة الثقافة السورية، دمشق 1961.
19. سراج الدين يوسف بن أبي بكر السكاكي، مفتاح العلوم، القاهرة، 1937.
20. الدكتور شوقي ضيف، تجديد النحو، دار المعارف، القاهرة 1982.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

21. الدكتور صلاح فضل، علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته، الطبعة الثانية، القاهرة 1985.
22. الدكتور طه حسين، حديث الأربعاء، دار المعارف بالقاهرة، ط 9، 1974.
23. الدكتور طه حسين، يسروا النحو والكتابة، مجلة الآداب، بيروت، العدد 21.
24. الدكتور عادل مصطفى، مغالطة التأثيل في كتاب المغالطات المنطقية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2007.
25. الدكتور عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، تونس 1982.
26. الدكتور عبد السلام محمد هارون، الأساليب الإنشائية في النحو العربي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة 1959.
27. عبد العليم إبراهيم، النحو الوظيفي، دار المعارف بمصر، القاهرة 1969.
28. عبد القادر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني الشافعي، العوامل المثة، دار المنهاج للنشر والتوزيع، جدة 2009.
29. عبد الله بن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة 1954.
30. علي الجارم ومصطفى أمين، النحو الواضح في قواعد اللغة العربية، دار المعارف، القاهرة . د. د. ت.
31. علي بن مؤمن المعروف بابن عصفور، المغرب، تحقيق أحمد عبد الستار الجواري وعبد الله الجبوري، بغداد 1972.
32. فتاوى كبار الكتاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية، سلسلة آفاق ثقافية، وزارة الثقافة السورية، دمشق 2003.
33. لجنة اللغة العربية وعلومها بجمع اللغة العربية بدمشق، من قرارات اللجنة في الألفاظ والأساليب -2015 2009.
34. الدكتور مازن المبارك، التجديد في قواعد اللغة العربية ومناهجها، المؤتمر السنوي السابع لمجمع اللغة العربية بدمشق 2008.
35. محمد بهجة الأثري، رأي في إصلاح قواعد الإملاء العربي، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الرابع 1965.
36. الدكتور محمد فؤاد الحوامة، اللغة العربية ومجتمع المعرفة، ملف أفكار، العدد 300، 2014.
37. الدكتور محمد كامل حسين، العربية المعاصرة، دار المعارف بمصر، القاهرة 1976.
38. الدكتور محمود أحمد السيد، أساسيات القواعد النحوية مصطلحاً وتطبيقاً، الهيئة العامة السورية للكتاب

..... جولة في رحاب التجديد اللغوي

- بوزارة الثقافة السورية، دمشق 2010.
39. الدكتور محمود أحمد السيد، أسس اختيار موضوعات القواعد النحوية في منهج تعليم اللغة العربية بالمرحلة الإعدادية، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة عين شمس، كلية التربية، القاهرة 1972.
40. الدكتور محمود أحمد السيد، تطوير مناهج القواعد النحوية وأساليب التعبير في مراحل التعليم العام في الوطن العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس 1987.
41. الدكتور محمود أحمد السيد، التجديد في مجال تعليم اللغة العربية وتعلمها، المؤتمر السنوي السابع لمجمع اللغة العربية بدمشق، 2008.
42. الدكتور محمود أحمد السيد، شؤون لغوية، دار الفكر بدمشق، 1989.
43. محمود تيمور، مشكلات اللغة العربية، القاهرة 1956.
44. محمود تيمور، مجلة مجمع اللغة العربية في القاهرة، الجزء التاسع.
45. مروان البواب، دور التقانات الحديثة في تجديد المعجم العربي، المؤتمر السنوي السابع لمجمع اللغة العربية بدمشق 2008.
46. مجمع اللغة العربية بدمشق، قواعد الإملاء، دار البشائر، دمشق 2016.
47. مصطفى جواد، وسائل النهوض باللغة العربية وتيسير قواعدها وكتابتها، المؤتمر الأول للمجامع اللغوية العلمية بدمشق، 1956.
48. مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة، كشف الظنون عن أساليب الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، د. ت.
49. مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، مراجعة وتنقيح الدكتور محمد أسعد النادري، بيروت، المكتبة العصرية، 1998.
50. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تطوير مناهج تعليم الكتابة والإملاء في مراحل التعليم العام في الوطن العربي، تونس 1987.
51. ناصر بن أبي المكارم المطرزي، المصباح في علم النحو، تحقيق ياسين محمود ومراجعة وتقديم الدكتور مازن المبارك، دار النفائس، بيروت 1997.
52. الدكتور نبيل علي، ثقافة المعلومات والثقافة، دار العين للنشر، القاهرة 2006.
53. وزارة المعارف المصرية، تقرير لجنة تيسير قواعد اللغة العربية، مكتبة وزارة التربية والتعليم في القاهرة، علوم عربية (نحو 216)، القاهرة 1938.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

54. الدكتور يحيى مير علم، قواعد الإملاء في ضوء جهود المحدثين، المؤتمر السنوي السابع لمجمع اللغة العربية بدمشق، 2008.

55. الدكتور يوسف بكار، من سبل الحفاظ على اللغة العربية وتنميتها، ملف أفكار، العدد (300)، كانون الثاني 2014.

النظرية الثنائية في المعجم العربي

أ. شوقي المعري

باحث / سورية

1. النظرية بين القدماء والمعاصرين

تعود فكرة الثنائية المعجمية إلى محاكاة الأصوات الطبيعية التي اعتمدها القدماء في تحديد صوت الحروف، مثل صوت الإنسان أو الطبيعة في بعض أحداثها... وتوصل بعضهم إلى معاني الحروف مفردة ثم مجتمعة مع غيرها، وإن كانت هذه غير دقيقة، أو لا تصلح على كل الحروف، فلا يجوز القول: إن حرف الغين يدل على الغياب! فهذا القول يحتاج إلى رصد كل الألفاظ كما كل نظرية إذا أردنا اعتمادها.

وقد أيد هذه النظرية ابن جني (ت 393هـ) فهو يقول في كتاب الخصائص "وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدويّ الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيج الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس ونزيب الطي ونحو ذلك، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد، وهذا عندي وجه صالح، ومذهب متقبّل".¹

وقد بدا هذا عند أقدم العلماء، بدءاً من سيبويه (ت 180هـ) الذي قال "ومن المصادر التي جاءت على مثال واحد حين تقاربت المعاني قولك النزوان، والنقّزان، وإنّما هذه الأشياء في زعزة البدن واهتزازة في ارتفاع،..."² وقال: "... ومثل هذا الغليان لأنه زعزة وتحرك،

¹ الخصائص لابن جني (46/1-47).

² الكتاب لسيبويه (14/4).

ومثله الغنيان... واللّهان...¹ ويضيف "وكما جاء فعيل في الصوت كما جاء فُعَالٌ وذلك نحو الهدير، والضجيج، والقليخ، والصَّهيل، والنَّهيق، والشَّحيج، فقالوا: قَلَخَ البعير يَقْلَخُ قَلِيخاً وهو الهدير".²

إنَّ اعتبار ابن جني صلاحية هذا الوجه وقبوله، جعله يتعمق أكثر فأكثر في دراسات تتصل بهذه النظرية، فبثَّ آراءه في كتبه، ولاسيما الخصائص، وسرَّ صناعة الإعراب... وهذا - أيضاً - شجَّع من جاء بعده فاعتمد ما اعتمده ابن جني، ومن هذا ما نقله السيوطي في كتابه "المزهر" قال: "المسألة العاشرة: نقل أهل أصول الفقه عن عباد بن سليمان الصيمري من المعتزلة أنه ذهب إلى أن بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة للواضع أن يضع، قال: وإلا لكان تخصيص الاسم المعين بالمسمَّى المُعَيَّن ترجيحاً من غير مُرَجِّح...".³

لقد كانت حكاية أصوات الطبيعة الأساس الذي بُنيت عليه نظرية الثنائية المعجمية... التي قامت على "وحدة المقطع المؤلف من صوتين بسيطين فقط"⁴ أي من حرفين يتبدل معنى الكلمة من الحرف الثالث الذي يتصل بهما، وقد بدت ملامح هذه النظرية منذ القرن السادس الهجري وبرزت واضحة عند الأصبهاني الذي أبرزها في معجمه "غريب القرآن". وقد بنى الأصبهاني معجمه هذا على اعتبار المضاعف هجاءً واحداً، ولم يبال تكرار حرفه الأخير، فالفعل (مدّ) عنده حرفان لا ثلاثة لأنه لا يعتبر التضعيف وهو بهذا خالف المعاجم العربية.

ولو أردنا التحقق من هذه النظرية عند القدماء لما وجدنا إلا هذه الإشارات القليلة التي لا يمكن البناء عليها، أو قيام نظرية، فهذا يحتاج إلى رَصْدٍ عامٍّ وكامل، وهذا أيضاً لم نجده عند المُحدِّثين الذين تيسرت لهم الدراسات والأبحاث، والكتب، وتوفرت لهم آلات معاصرة

¹ نفسه (14/4).

² نفسه (14/4).

³ المزهر للسيوطي (47/1).

⁴ دراسات في فقه اللغة، صبحي الصالح 153.

..... النظرية الثنائية في المعجم العربي

كالحاسوب تساعدهم في التطبيق للوصول إلى النتيجة المرجوة، وإن كان رَصْدُ المعجم لا يحتاج كل هذا، ويكفي رصده ليصل الباحث إلى نتيجة...

لقد بدأ المعاصرون قراءة هذه النظرية منذ أواخر القرن التاسع عشر، وكان الأب أنستاس الكرمللي من أوائل الذين دافعوا عن النظرية، وكانت له أبحاث ودراسات نشرها في الصحف والمجلات،¹ وتبعه الأب مرمجي الدومني الذي كان أكثر حماسة منه في هذه النظرية، وألّف بعض الكتب المختصرة فيها تحت عنوان "أبحاث ثنائية ألسنية" نشرها في الأعوام 1937-1947-1950 وأقام أعماله على الألسنية السامية المقارنة، ورأى أن هذه النظرية تقوم على المضعف، وأنَّ الحرف الثالث هو ما يميز لكنها جميعاً في معنى عام، ومن أبرز ما اعتمده أيضاً أنَّ هذه الأصول كانت تقوم على أسماء الأصوات، ودعاء الحيوانات، وبعض أسماء الأفعال القائمة على حرفين مثل أفّ، وصهّ، ومهّ، ...

كل هذا قدّم إلى القول أنَّ الحرف الثالث يضيف معنى إلى الكلمة، لكنّ الكلمات كلّها تدور حول معنى ما، وقد ذكر معظم المعاصرين هذا، وتناقلوه، واحداً عن آخر، وكانوا يستشهدون ببعض الكلمات،² لكنّ هذا كما تقدم لا يقيم نظرية، فالنظرية يجب أن تقوم على رصد كل ما في المعجم، وهذا ما لم يفعله أحد، بل إنّ البعض أخذ بعضاً من جذر من معجم مقاييس اللغة لابن فارس ليدلّ على ما يقول كما فعل صبحي الصالح في كتابه دراسات في فقه اللغة³ فقد استشهد على رأيه بكلمات من (باب القاف والطاء وما يثلاثهما) وقال: إنها تدل على معنى القطع، ومن (باب الفاء والراء وما يثلاثهما) وقال: إنها تشير إلى معنى التمييز والإفراد... ثم أخذ عن مجمل اللغة لابن فارس أيضاً بعض الأمثلة⁴ ومن معجم جمهرة اللغة لابن دريد في باب الثنائي الصحيح؛ لأنه اعتمد المضعف للتدليل على ما ذهب إليه... وكان ابن فارس قد

¹ نشوء العربية ونموها، أنستاس الكرمللي 2.

² انظر مثلاً صبحي الصالح 155.

³ السابق 156.

⁴ نفسه 157.

سبقه إلى هذا في معجمه "مقاييس اللغة".

لم تكن الطريق التي سار فيها المعاصرون واضحة إذ لم تصل بهم إلى نتيجة واضحة صريحة، فعمدوا إلى التكلف البعيد جداً عن النظرية التي يتكلمون فيها... وصار عندهم الظن والتأويل أساساً يبنون عليهما آراءهم وأفكارهم، ومن هؤلاء عبدالله العلايلي في كتابه "مقدمة لدراسة لغة العرب"¹.

ويلاحظ أنّ بعض المعاصرين في موضع آخر، وهو أنّ الحرف الثالث هو الوسط لها الأخير. وقد توقف محمد المبارك في كتابه فقه اللغة وخصائص العربية عند هذا قليلاً محاولاً رصد بعض الجذور، فوجد أن:

- في الحرفين (نف) ست عشرة كلمة، وقال: وتتضمن كلها معنى الخروج والانتقال أو الإخراج.

- وفي (نب) ست عشرة كلمة وقال: وتتضمن كلها معنى الخروج والانتقال أو الإخراج.

- وفي (غم) ست كلمات وقال: وتتضمن كلها معنى الإخفاء.

- وفي (غا) أربع كلمات وقال: وتتضمن كلها معنى الاختفاء.

- وفي (فل) خمس كلمات وقال: وتتضمن كلها معنى الشق.

- وفي (فر) ست عشرة كلمة وقال: وتتضمن كلها معنى الفصل والتفريق.²

ويرى أنّ تفسير هذه الظاهرة يعود إلى عدد من الاحتمالات والآراء، أهمها:

1. الأصل في اللغة هو المجموعات الثلاثية، فالمادة الأصلية في الكلمات العربية تتألف من حروف ثلاثة، ولكن قد يعترى أحد هذه الحروف تبدل صوتي بتوالي الأزمان أو باختلاف القبائل والبيئات.

2. أنّ الألفاظ العربية ترجع في منشئها التاريخي إلى أصول ثنائية زيدت حرفاً ثالثاً في مراحل

¹ مقدمة لدراسة لغة العرب 200.

² فقه اللغة وخصائص العربية، لمحمد المبارك 88 وما بعدها.

..... النظرية الثنائية في المعجم العربي

تطورها التاريخي، وقد جاء هذا الحرف الثالث مُنوعاً للمعنى العام الذي تدل عليه تلك الأصول الثنائية... وأكثر من يقول بهذا يقول إنَّ هذه الأصول الثنائية نشأت عن حكاية الأصوات الطبيعية.¹

إنَّ ما كتب فيه المعاصرون والمحدثون في "الثنائية المعجمية" لم يكن جديداً، أو مُبتكراً، بل كان صدى لما ورد عند القدماء، وهذا - ويا للأسف - واقع في كثير من أبحاث اللغة التي لم يستطع فيها المعاصرون الخروج من عباءة القدماء. فكانت آراؤهم وأفكارهم تفتقر هي أيضاً إلى الرصد والإحصاء، وما هذا بصعب على من يريد أن يصل إلى الإقرار والحكم على رأي أو نظرية...

2. النظرية في ضوء الرصد والاستقصاء

إنَّ كلَّ ما سبق حدا بي إلى أن أدخل هذا الباب، ولنتأكَّد لي من صحَّة ما ذهب إليه القدماء، وتبعهم فيهم المعاصرون، فقرأت معاجم العربية التي ضمَّت جذور اللغة، وقارنت بين ما ورد فيها في كل جذر، ويمكن - بعدئذ - الاطمئنان إلى ما سنصل إليه؛ لأننا أمام مادة علمية صريحة لا لبس فيها، قرأناها ثم قارنا بين ألفاظها، ووصلنا إلى حكم يمكن القول إنه صحيح.

1.2 تآلف الحروف

تفترض طبيعة البحث أن نقف على تآلف الحروف بعضها مع بعض؛ لأنَّ هذا التآلف هو الأصل في معرفة "الثنائية المعجمية" فأَيُّ حرف من حروف المعجم لا يآلف حرفاً بعده فإنه يسقط من هذه الثنائية، وما من حرف - إلا الواو - يآلف كل الحروف بعده... وبعد جرد هذه الحروف وتآلفها وصلت إلى النتائج التالية:

1. الحروف ذات المخرج الواحد نادراً ما تآلفت فيما بينها مثل (ب - ف - م) إذ ليس من كلمة مشتركة بينها، وكذلك الزاي التي لا يليها السين أو الصاد، وبالمقابل السين لا يليها الزاي

¹ السابق 93.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

أو الصاد، والصاد التي لا يليها الزاي والسين، ومثلها الهمزة والعين والغين والتاء والثاء، والجيم والظاء.

2. حرف الظاء هو أقلّ الحروف تآلفاً، فهو لا يألّف، أو لا يليه إلا ثمانية أحرف: الهمزة، والباء، والعين، والفاء، واللام والميم والنون والياء.

3. حرف الظاء نفسه لا يلي خمسة عشر حرفاً...

وهذان جدولان يلخصان هذا الجانب، الأول للحروف التي لا يليها حروف، والثاني للحروف التي لا ترد بعد حروف أخرى.

جذور العربية الثلاثية

الحرف	في أول الكلمة	في وسط الكلمة	في آخر الكلمة	المجموع العام
1. الهمزة (ء)	169	103	136	408
2. الباء (ب)	316	257	262	835
3. التاء (ت)	084	113	105	302
4. الثاء (ث)	078	083	088	249
5. الجيم (ج)	192	153	163	508
6. الحاء (ح)	221	153	165	539
7. الخاء (خ)	186	116	102	404
8. الدال (د)	166	188	219	573
9. الذال (ذ)	061	83	042	186
10. الراء (ر)	259	359	356	974
11. الزاي (ز)	132	128	115	375
12. السين (س)	226	166	295	687
13. الشين (ش)	222	132	116	470
14. الصاد (ص)	134	99	100	333
15. الضاد (ض)	059	90	072	221
16. الطاء (ط)	117	119	124	360
17. الظاء (ظ)	019	034	043	096
18. العين (ع)	251	175	229	655

..... النظرية الثنائية في المعجم العربي

281	058	098	125	19. الغين (غ)
601	221	194	186	20. الفاء (ف)
594	208	164	222	21. القاف (ق)
446	114	140	192	22. الكاف (ك)
748	329	228	191	23. اللام (ل)
818	336	256	226	24. الميم (م)
922	274	218	330	25. النون (ن)
419	074	176	169	26. الهاء (هـ)
764	215	318	231	27. الواو (و)
471	193	251	027	28. الياء (ي)
14145	4754	4600	4791	المجموع

النسبة المئوية للجنود

عدد الجنود كاملة

الحرف $784 \times 3 = 2352$

الحرف	في أول الكلمة	في وسط الكلمة	في آخر الكلمة	العام
ء	%21,55	%13,13	%17,34	%17,34
ب	%40,30	%32,78	%33,41	%35,50
ت	%10,71	%14,41	%13,39	%12,84
ث	%09,94	%10,58	%11,22	%10,58
ج	%24,48	%19,51	%20,79	%21,59
ح	%28,18	%19,51	%21,04	%22,91
خ	%23,72	%14,79	%13,01	%17,17
د	%21,17	%23,97	%27,93	%24,36
ذ	%07,78	%10,58	%05,35	%07,90
ر	%33,03	%45,79	%45,40	%41,41
ز	%16,83	%16,32	%14,66	%15,94
س	%28,82	%21,17	%37,62	%29,20
ش	%28,31	%16,83	%14,79	%19,98
ص	%17,09	%12,62	%12,75	%14,15

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

ض	%07,52	%11,47	%09,18	%09,39
ط	%14,92	%15,17	%15,81	%15,30
ظ	%02,42	%04,33	%05,48	%04,08
ع	%32,01	%22,32	%29,20	%27,84
غ	%15,94	%12,50	%07,39	%11,94
ف	%23,72	%24,74	%28,18	%25,55
ق	%28,31	%20,91	%26,53	%25,25
ك	%24,48	%17,85	%14,54	%18,96
ل	%24,36	%29,08	%41,96	%31,80
م	%28,82	%32,65	%42,85	%34,77
ن	%42,09	%27,80	%34,94	%39,20
هـ	%21,55	%22,44	%09,43	%17,81
و	%29,46	%40,56	%27,42	%32,48
ي	%03,44	%32,01	%24,61	%20,02

العام 65856، المستعمل 14145، النسبة %21,47

ترتيب جذور الكلمات بحسب العدد والنسبة

الحرف	عدد الجذور	النسبة المئوية
1. الراء (ر)	974	%14,41
2. النون (ن)	922	%39,20
3. الباء (ب)	835	%35,10
4. الميم (م)	818	%34,77
5. الواو (و)	764	%32,48
6. اللام (ل)	748	%31,80
7. السين (س)	687	%29,20
8. العين (ع)	655	% 27,84
9. الفاء (ف)	601	%25,55
10. القاف (ق)	594	%25,25
11. الدال (د)	573	%24,36
12. الحاء (ح)	539	%22,91

..... النظرية الثنائية في المعجم العربي

13. الجيم (ج)	508	%21,59
14. الياء (ي)	462	%19,64
15. الشين (ش)	470	%19,98
16. الكاف (ك)	446	%18,96
17. الهاء (هـ)	419	%17,81
18. الهمزة (ء)	408	%17,34
19. الخاء (خ)	404	%17,17
20. الزاي (ز)	375	%15,94
21. الطاء (ط)	360	%15,30
22. الصاد (ص)	333	%14,15
23. التاء (ت)	302	%12,84
24. الغين (غ)	281	%11,94
25. الناء (ث)	294	%10,58
26. الضاد (ض)	221	%09,39
27. الذال (ذ)	186	%07,90
28. الظاء (ظ)	096	%04,08

3. هل النظرية الثنائية قائمة؟

إن الوصول إلى إقرار نظرية ما يتطلب عملاً وجهداً كبيرين مع الإحاطة والشمول في هذا الباب، وهذا قد يكون سهلاً في العلوم غير الإنسانية، فكيف الحال باللغة العربية ذات الحدود البعيدة التي يصعب على الكثيرين الوصول إلى شطآنها... إنها بحاجة إلى جهود مضنية وشاقّة ومنتعبة لتنشيط قول أو رأي، وإن كان الوصول إلى قاعدة نحوية أو صرفية أو إملائية سهلاً؛ لأنّ هذه العلوم من العربية تعتمد المنطق العلمي والرياضي... لكنّ أن تصل إلى نظرية أو رأي في المعجم العربي فهذا - لعمرى - أكثر الأمور صعوبة، ولا يستطيع الإنسان الوصول إليه إلا بعد ثلاث مراحل:

1. جرد المعجم العربي كلّهُ.

2. المقارنة بين المعاجم العربية.

3. قراءة ما ورد في المعاجم كلها قراءة متأنية ثم الحكم على هذه المادة المجموعة، والوصول إلى النتيجة المرصية التي اعتمدت الإحصاء والمقارنة، وهذا عملان واجبان لمن أراد الوصول إلى نتيجة علمية دقيقة.

لقد سمعنا بالنظرية الثنائية، ولم نقرأها، قرأنا أن ثمة من يقول بالنظرية الثنائية، لكننا لم نجد الرأي الدقيق القائم على ما يجب القيام به، أقصد الجرد والإحصاء، فما قرأناه لا يتعدى وجهة نظر أو رأياً لمح أحد القدماء في عدد من الألفاظ، ولكن هذا لا يقدم نظرية، فكثيرون وجدوا قريباً من هذا في الكلمات التالية: نفث، نفج، نفح، نفخ، نفذ، نفر، نفس وكذلك في: حجب، حجر، حجز، حجم... وبعض الكلمات الأخرى في غير جذر، لكننا لو أخذنا هذه الكلمات وأجرينا عليها نسبة مئوية فإننا نجد أنها قليلة جداً، ولا تتجاوز 1%، وهذا - طبعاً - لا يوصل إلى إقامة نظرية يمكن الاطمئنان أو الاستناد إليها، والحكم على صاحبها... وأظن أن هذا الاستسلام لكل ما قاله القدماء بعفوية، أو عدم دقة هو ما جعلنا نقيم الرأي، وندلّ عليه، ونحكم على صاحب الرأي، ولكنه - كثيراً - لم يكن محفزاً لنا، أو منبهاً لدراسته، وأظن بل أنا على يقين أن الكثيرين لا يجرؤون على القيام بمثل هذه الدراسات خوفاً من نقد الآخرين، وأقول بل إن الاستسلام لرأي لم يكن صحيحاً ولا دقيقاً هو الخوف نفسه، فما قاله القدماء لا يجوز أن يكون مقدساً، ومن قال إن القدماء لم يخطئوا فكم من كتاب خطأ الشعراء في استعمال النحو، وكم من عالم اختلف مع آخر في وجهة نظر أو رأي لغوي، فهل يحقّ لهم، ولا يحقّ لنا؟!

يبدو أننا بحاجة إلى قليل من الجرأة العلمية، لا الجرأة لمجرد الجرأة، والنقد لمجرد النقد، إن الجرأة في نقد القديم تكون في دراسة هذا القديم، والحكم عليه... ونحن في عصر استوت فيه المعارف اللغوية منذ زمن، وتطورت ووصلت إلينا فنستطيع الآن الحكم صحيحاً؛ لأنّ المعجم العربي لم يدخل إليه جذور جديدة، وإن دخلت بعض الألفاظ الأعجمية والدخيلة، وهذا

..... النظرية الثنائية في المعجم العربي

لا يعنينا في هذا البحث، وهذا ما جرّأني على الغوص في المعجم ودراسة آراء كثيرة لا تزال غير دقيقة يتداولها الناس كما تتداولها الكتب.

أما المنهج الذي اعتمدته للوصول إلى الحكم الدقيق فيعتمد على النقاط التالية:

1. جرد جذور المعجم العربي، فكان عندي ما يزيد على 14,145 أربعة عشر ألف ومئة وخمسة وأربعين جزءاً، تضمّ الحرف في أول الكلمة وفي وسطها وفي آخرها.
2. أخذت من كل حرف العدد الأكبر الذي يشترك فيه الحرفان الأولان عماد النظرية الثنائية وقد أثبت العدد عند كل جذر.

3. أما المعاجم التي اعتمدتها في عملية الإحصاء فكانت كل المعاجم القديمة، أقصد من العين للخليل بن أحمد الفراهيدي حتى تاج العروس للزبيدي وهو الأوسع والأشمل، مروراً بصحاح الجوهري، واللسان، والمقاييس، والتهذيب، وأساس البلاغة... ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أمرين مهمّين:

الأول: أنّ الجذور التي اعتمدتها لم تكن واحدة في كل المعاجم بل كان بينها تفاوت، لكنّ الاتفاق كان - غالباً - بين التاج واللسان.

الثاني: أنّ كثيراً من الجذور لم يستعمل منها صاحب المعجم الفعل، ولا سيما الخليل في معجم العين... والمعلوم أنّ عماد النظرية الثنائية يقوم على الحرف الثالث في الفعل الذي يُبدّل معناه.

4. أثبت الكلمات التي تتألف من الحرفين المعتمدين مع بقية الحروف التي دخلت عليهما، ثم أثبت معاني الكلمات التي وردت في هذه الجذور المؤلفة من ثلاثة أحرف... وهذه هي كاملة:

1. أر⁽¹⁸⁾

أرب- أرت- أرث- أرج- أرخ- أرر- أرز- أرس- أرش- أرض- أرط- أرف- أرق- أرك- أرل- أرم- أرن- أري.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

اختلفت معاني الكلمات بين القطع وانتشار العطر، واسترخاء الناقة وإنهاكها، إلى صوت الماجن المغامر، إلى تقسيم الأرض وتحديدتها، أو إلى الأرق وعدم مغادرة المكان وهزل النعائم... علماً بأن بعض الجذور لم يستعمل منها الفعل.

2. بر⁽²⁴⁾

برأ- برت- برث- برج- برح- برخ- برد- برر- برز- برس- برش- برص- برض- برط- برع- برغ- برق- برك- برل- برم- برن- بره- برو- بري.
فيه البراءة، والحيرة، والتبرج، والمغادرة، والبرد، والصدق والبرّ، والخروج إلى البراز، وبروز الإنسان، والتبرع، والبرق، والبرك، والضجر، والبري...

3. تر⁽¹⁷⁾

ترب- ترج- ترح- ترخ- ترر- ترز- ترس- ترش- ترص- ترض- ترع- ترف- ترق- ترك- ترم- ترن- تره.
فيه معاني للصوص بالتراب، والحزن، والامتلاء، والإحكام بالشدة، والترك...

4. ثل⁽⁹⁾

ثلب- ثلث- ثلج- ثلخ- ثلط- ثلغ- ثلّ- ثلم- ثلو.
فيه الثلج، والثلاجة، وشدخ الرأس، وزوال العرش.

5. جر⁽²²⁾

جراً- جرب- جرث- جرج- جرح- جرد- جرر- جرز- جرس- جرش- جرص- جرض- جرط- جرع- جرف- جرق- جزل- جرم- جرن- جره- جرو- جري.
من المعاني الرئيسية: الجرأة، والجرب، والجرح، والمكان الأجرد، وجرّ الحبل، وجرش الحَبّ وجرع الماء، والجري.

..... النظرية الثنائية في المعجم العربي

6. حو (19)

حوب- حوت- حوث- حوج- حوذ- حور- حوز- حوس- حوش- حوص- حوض-
حوط- حوف- حوق- حوك- حول- حوم- حوو- حوي.
فيه الإثم، والحاجة، والإحاطة، والرجوع إلى شيء والمخالطة، وحياسة الشعر، والجمع والاحتواء.

7. خر (18)

خرأ- خرب- خرت- خرث- خرج- خرد- خرر- خرز- خرس- خرش- خرص-
خرض- خرط- خرع- خرف- خرق- خرك- خرم.
فيه معاني الخراب ومعرفة الأمر، والخروج، وصوت المياه، والخرس، والتخريش، وسلُ
السيف، وخرف الإنسان وتمزيق الثوب...

8. دل (16)

دلب- دلت- دلج- دلح- دلخ- دلس- دلص- دلظ- دلع- دلف- دلق- ذلك- دلل- دلم-
دله- دلو.
فيه: السير ليلاً، والتناقل في المشي، والتدليس، واسترخاء اللسان، والسير ببطء، واستلال
السيف، ودلال المرأة، وذهاب العقل.

9. ذأ (11)

ذأب- ذأت- ذأج- ذأح- ذأر- ذأط- ذأف- ذأل- ذأم- ذأو- ذأي.
من أشهر معانيه: الخوف، والغيط، واشتداد الحنق، والتحقير، والخلق.

10. رب (22)

ربأ- ريب- ربت- ربث- ربح- ربج- ربد- ربذ- ربس- ربش- ربص-
ربض- ربط- ربع- ربق- ربك- ربل- رbm- ربن- ربو- ربي.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

فيه: إصلاح الشيء وتربيته، وحبس الشيء واسوداد الشيء، واختلاط الأمر، والربط، والربط بالخيط، والارتباك، والتربية..

11. زي (14)

زيب- زيت- زيح- زيح- زيد- زير- زيز- زيغ- زيف- زيق- زيل- زيم- زين- زبي.
فيه: الزيت، والزيج، والزيادة، والشدة والاكتناز .

12. سو (18)

سوأ- سوب- سوج- سوح- سوخ- سود- سور- سوس- سوط- سوع- سوغ- سوف- سوق- سوك- سول- سوم- سون- سوي.
فيه: السوء، وسيحان الماء، وتسويغ الشيء، والاسوداد، والسورة من الشراب، وساغ الشراب، والسوق، وسولت له نفسه، والسير والتسوية.

13. شر (23)

شرب- شرت- شرث- شرح- شرح- شرد - شرر- شرز- شرس- شرص- شررض- شرط- شرع- شرغ- شرف- شرق- شرك- شرم- شرن- شره- شري- شرو.

من معانيه: الشراب، والغلط، والتضييد، والسعة، والانشقاق، والشرود، والشر، والشرط في البيع والشراء، والشروع، والشرف، والشرق بالريق، والاشتراك بالعمل، والقطع.

14. صو (17)

صوب- صوت- صوج- صوح- صود- صور- صوص- صوع- صوغ- صوف- صوق- صوك- صول- صوم- صون- صوو- صوي.
فيه: إصابة الهدف، والصوت وإصابة البقل، والصولان، والصون، ويباس النبت..

..... النظرية الثنائية في المعجم العربي

15. ضر (11)

ضرب- ضرج- ضرح- ضرر- ضرز- ضرس- ضرط- ضرع- ضرك- ضرم- ضرر.

فيه: الضرب، والتضريح بالدم، ودفع الأمر والشيء، والعض بالضرس، والتضرع من الضعف، وإضرار النار.

16. طر (16)

طراً- طرب- طرث- طرح- طرخ- طرد- طرز- طرس- طرش- طرف- طرق- طرم- طرن- طرو- طري.

فيه: المفاجأة، والفرح من الطرب، وطرح الشيء، وطرده، والطرق...

17. ظل (4)

ظلع- ظلف- ظلل- ظلم.

فيه: الطمع، والبقاء، والظلم.

18. عن (18)

عنّب- عنث- عنث- عنج- عند- عنز- عنس- عنش- عنص- عنط- عنظ- عنف- عنق- عنك- عنم- عنن- عنو- عني.

فيه: العنت، والعناد، والعنوسة، والعنف، والاهتمام والعناية.

19. غم (13)

غمت- غمّج- غمد- غمر- غمز- غمس- غمض- غمط- غمق- غمل- غمم- غمن- غمي.

فيه: جرع الماء، وغمد السيف، وعلو الماء وغمره الأشياء، والغمز، وغياب النجم،

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

وإغماض العين، وغطت النعمة، وجحودها، وكثرة الشعر، وتليين الجلد.

20. فر (24)

فراً - فرب - فرت - فرث - فرج - فرح - فرخ - فرد - فرر - فرز - فرس - فرش - فرص -
فرض - فرط - فرع - فرغ - فرق - فرك - فرم - فرن - فره - فرو - فري.
فيه: تفتيت الكبد من الضرب، وتفريخ الحمام وغيره، والإفراذ، والابتسام والعزل، وبسط
الشيء، وذلك الشيء، وافتراق القوم، والشق.

21. قر (21)

قراً - قرب - قرت - قرث - قرح - قرد - قرر - قرس - قرش - قرص - قرض - قرط -
قرظ - قرع - قرف - قرق - قرم - قرن - قره - قرو - قري.
فيه: القراءة، والقرب، واليبس، وقرح القلب، والذل والخضوع، والبرد القارس، والقرص
بالأصابع، والقرض، والقرط، والقرف، وقرن الشيء إلى مثله.

22. كر (20)

كرب - كرت - كرث - كرج - كرخ - كرد - كرر - كرز - كرس - كرش - كرس -
كرض - كرع - كرف - كرم - كرن - كره - كرو - كري.
فيه: الغم، والمشقة، وكرع الماء، والكره...

23. لو (22)

لواً - لوب - لوت - لوث - لوج - لوح - لوخ - لود - لوذ - لوز - لوس - لوص - لوط -
لوع - لوغ - لوف - لوق - لوك - لوم - لون - لوه - لوي.
فيه: العطش، والتغيير، وعدم الانقياد، واللجوء، والحزن، والالتناع، وليّ الحبل وغيره.

24. مر (22)

مرأ - مرت - مرث - مرج - مرح - مرخ - مرد - مرد - مرز - مرز - مرس - مرش -
مرص - مرض - مرط - مرع - مرغ - مرق - مرن - مره - مرو - مري.
فيه: مرؤ الطعام، ومص الصبي ثدي أمه، والأرض الواسعة، والتمرد والعصيان،
والمرارة، والمرض ومنتف الشعر وتمريغ الأنف، والمروق في الدين...

25. نب (24)

نبأ - نبب - نبت - نبث - نبج - نبخ - نبد - نبذ - نبر - نبز - نبس - نبش - نبص -
نبض - نبط - نبع - نبغ - نيق - نيك - نبل - نبه - نبو - نبي.
تتطبق النظرية الثنائية على هذين الحرفين إلى درجة بعيدة فكل حرف أضيف إليهما
خصص المعنى أكثر، ولكنها كلها تدل على النبؤ والبروز والخروج، من النبأ (نبأ)، ونبّ
التيس (نبب)، وخروج النبات (نبت)، ونبث التراب أي استخراج (نبث)، وخروج القبجة من
جحرها، ومثله الصوت الشديد، أو الضراط (نبج) وقريب منه النباح (نبج) وطرحك الشيء
(نبذ) ونبر الكلام وهمزة (نبر) والنبز بالألقاب (نبز) ونبس الكلام أي لفظه (نيس)، ونبش
القبر أي إخراج ترابه (نبش) وإصدار الصوت في (نبص) ونبض العرق (نبض) واستخراج
الماء في (نبط) وقريب منه ما ورد في (نبع) والنبوغ ظهور وبروز (نبغ) واستخراج الكلام
في (نيق) وتنبيه النائم وبروز ونباهة الإنسان في (نبه) والنبؤ عن الشيء وبروزه وظهوره
(نبو).

26. هو (18)

هوأ - هوب - هوت - هوج - هود - هوذ - هور - هوز - هوس - هوش - هوع - هوف -
هوك - هول - هوم - هون - هوه - هوي.
فيه: الهمة، والتوبة، والانهيال، والتخليط، والحمق، والتحويم، والسكينة والوقار

27. وق⁽¹⁹⁾

وقب- وقت- وقح- وقد- وقذ- وقر- وقرز- وقس- وقش- وقص- وقط- وقظ- وقع- وقف- وقق- وقل- وقم- وقه- وقى.

فيه: دخول الظلام، وصلب الحافر، وإيقاد النار، والتقل في السمع، والفخر الشديد، والوقوف والوقوف...

28. يق⁽⁵⁾

يقت- يقط- يقق- يقن- يقه.

يق: الاستيقاظ واليقين.

النتيجة

تبين لنا من قراءة ما تقدم أن النظرية الثنائية ليست نظرية؛ لأنها لا تقوم على إحصاء ما ورد في المعجم، وقد تصح في عدد من الألفاظ قليل جداً في جذر واحد، ولكنها لا تصلح في معظم ما ورد في المعجم؛ وهذا لاحظناه في عرض ما جرد من المعجم، ووجدنا أن (نب) هما الحرفان اللذان جازت فيه هذه النظرية إن سمحنا أن نسميها نظرية، وهي ليست كذلك.

..... النظرية الثنائية في المعجم العربي

المصادر والمراجع

1. أبحاث ثنائية السنية - مرمجي الدومني 1937-1947-1950.
2. أساس البلاغة تحقيق مزيد نعيم وشوقي المعري مكتبة لبنان ناشرون ط 1998/1.
3. الأصوات اللغوية، د. إبراهيم أنيس - ط 1950/2.
4. الافتراح في علم أصول النحو للسيوطي حققه د. أحمد سليم الحمصي ود. محمد أحمد قاسم، جروس برس، ط 1998/1.
5. تاج العروس للزبيدي، تحقيق مجموعة من الأساتذة، طبعة الكويت.
6. الخصائص لابن جني، حققه محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت- لبنان- ط 2.
7. دراسات في فقه اللغة د. صبحي الصالح - دار العلم للملايين بيروت ط 1978/7.
8. دراسات في اللغة إبراهيم السامرائي - بغداد 1961.
9. رسالة الاشتقاق لأبي بكر السراج ت 316، تحقيق: محمد علي الدرويش، ومصطفى الحديري، منشورات دار مجلة الثقافة في دمشق 1972.
10. سر صناعة الإعراب لابن جني، دراسة وتحقيق د. حسن هندواي دار القلم- ط 1993/2.
11. الصاحب في فقه اللغة لابن فارس.
12. الصحاح للجوهري تحقيق أحمد عبد الغفور العطار - دار العلم للملايين بيروت ط 1984/3.
13. العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي تحقيق د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي - منشورات دار الهجرة - إيران - ق 1405هـ.
14. الفائق في غريب الحديث للزمخشري، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية بمصر 1945.
15. فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك، دار الفكر بيروت - دمشق ط 1981/7.
16. الكتاب لسبويه ط 1980/5.
17. لسان العرب لابن منظور، دار المعارف بمصر، وهو الذي قُلب إلى أوائل الكلمات.
18. المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي تحقيق محمد أحمد جاد المولى وعلي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم مطبعة عيسى البابي الحلبي - دار إحياء الكتاب العربي - مصر.
19. مقاييس اللغة لابن فارس تحقيق عبد السلام هارون - مركز النشر قم - طهران 1404هـ.
20. مقدمة لدراسة لغة العرب عبد الله العلي.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

21. من أسرار اللغة، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية ط 1975/5.

22. نشوء العربية أنستاس الكرمل، القاهرة 1948.

بين مفهومي الصّراع اللغوي والسّلم بين اللغات

د. محمد بسناسي*

تمهيد

إنّ الصراعات منذ القديم وحتى يومنا هذا، تلوّنت بعدة ألوان، وقامت قائمتها على طائفة من البواعث المحركة لها؛ فنشأت أشكال الصراع وفقاً لجملة من الأسس، كالتباين الديني، والتمايز العرقي، والمطامح السياسيّة، والمصالح الاقتصاديّة، والاختلافات في الاتجاهات المذهبيّة والعقديّة. ولم تكن اللغات البشريّة بمنأى عن الصراعات؛ ففي الجزائر التي عرفت احتلالاً استيطانياً، جرّت محاربة اللغة العربيّة بكلّ الأشكال، وفي بلجيكا تحتدم الصراعات ذات البعد اللساني/الثقافي بين الفرنكوفونيين والفلمنكية بين الفينة والفينة، وفي إسبانيا يطالب الكتالانيون مراراً بالانفصال عن إسبانيا، نظراً لتباين لسان الطرفين، والحال كذلك بالنسبة إلى الكورسيكيين، الذين ينادون بالانفصال عن السيادة الفرنسيّة، تحت ذريعة الاختلافات اللغويّة والثقافيّة. ويعرف الوطن العربي صراعات في المجال اللغوي، وبخاصّة بين دعاة استعمال العربيّة، ونظرائهم عرّابي اللغات الأجنبية من جهة، وبين من يؤثرون توظيف العربيّة الفصحى، ومناوئهم من المدافعين عن استعمال اللهجات المحكيّة من جهة أخرى، ولا غرو أنّ معطيات الصراع اللغوي وتجليّاته، تخلق جواً من التشاحن بين المتحمسين لهذا الخيار أو ذاك. ولقد اهتمت بعض الدول تفادياً للصراعات اللغويّة، وما قد ينجّر عنها من قلاقل، إلى بلورة فكرة سلّم اللغات، لما نتيجته من مجال فسيح من التعايش بين الألسنة، ومن اعتراف متبادل بواقع التعدّد اللغوي، ولقد كانت سويسرا أنموذجاً رائداً مترجماً لهذا الخيار. فلنستهلّ خطابنا

* دكتور من جامعة ليون 2، مختصّ في التّرجمة، والتعدّد اللغوي، واللسانيات

باستيضاح ظاهرة التعدّد اللغوي؛ ذلك أنّها سياق خصيب للصراع اللغوي، ومنطلق ما يؤول إليه التعاطي الرسمي والنخبويّ له.

1. ظاهرة التعدّد اللغوي في المجتمع البشري

قبل الحديث عن الصراع أو السّلم بين اللغات، ينبغي التّويه بداءة بظاهرة التعدّد اللغوي، وإبراز مفهومها وتجليّاتها، وبخاصة حين نأخذ بعين النظر واقع العولمة، إذ أفرزت من بين إفرزاتها تقليص المسافات بين الشعوب، وأرست مبادئ التّشارك والتواصل والانفتاح؛ فتولّد عن كلّ هذا وذاك تزايد الهجرات البشرية من كلّ الاتجاهات وإليها، وحصل تماس بين اللغات، وتجاوز بينها، مما طرح مسألة التعدّد اللغوي في دوائر النقاش والجدال. والتعدّد اللغوي بمفهومه البسيط يقتضي تعايش أكثر من لسان في حيّز مكاني واحد. "والتعدّد اللغات هو من يتكلّم أو يمتلك عدّة لغات".¹

وتتفاوت أسباب رسوخ التعدّد اللغوي من بلد إلى آخر، لكن يمكن القول إنّ تقاسم كتل ثقافيّة متباينة البلد الواحد، يستتبعه غالباً تجاوز ألسنتهم الخاصّة بعضها إلى جانب البعض. هذا، وقد ورثت العديد من الدول لغات البلدان التي احتلتها مدّة من الزمن، كما أنّ عامل الهجرة أدّى دوراً حاسماً، في توطّن ألسنة وافدة إلى البلد المستضيف للجماعة المهاجرة، إذ تحتضن الكثير من الدول زمراً من الأقليّات العرقيّة، وهذا ما يُفضي بتحصيل حاصل إلى تغلغل لغاتها في واقع التداول اللساني الحاضن لها، وإنّ كان حجم استعمال اللغات الوافدة ضيقاً في البيئة اللغويّة المستقبليّة، إلّا أنّه مع ذلك يولّد تعدّداً لسانياً. ولا يعزب عن البال أنّ اللغة هي ناقل حيوي لواقع ثقافي، ولسان حال الهويّة، وما تزخر به من ملامح وخصائص حضاريّة؛ ولذا فالتعدّد اللغوي مرتبط أَيْما ارتباطاً بالتعدّد الثقافي، وقد "ظهرت التعدديّة الثقافيّة في الخطابات العامة في أواخر الستينيّات وأوائل السبعينيّات من القرن العشرين، عندما بدأت

¹ Josette Rey-Debove & Alain Rey, *Le Petit Robert*, Le Robert, Paris, 2015, p. 1654

..... بين مفهومي الصراع اللغوي والسلم بين اللغات

كلُّ من أستراليا وكندا في التصريح بتأييدهما لها".¹ وغير خاف أن التعدد اللغوي، ينبثق كذلك مما تقدّمه المناهج التعليمية في كلِّ الدول، من تشجيع على تعليم اللغات، بغية النظر والتأمل في الثقافات والحضارات الأخرى من جهة، وللإفادة منها من طريق الترجمة من جهة أخرى؛ "فالتعددية اللغوية أكثر من ضرورة، إن لم تقم على الاستلاب اللغوي الذي يُعتبر مُشكِلاً. وأما اللغات فيجدر بنا تعلّم الكثير منها وتفعيلها تفعيلاً حقيقياً، والاستفادة منها بالعمل بمبدأ النفعيّة".² والعامل السياسي لا يقلُّ شأنًا عن سابقه في الدفع بترسيخ التعدد اللغوي؛ أي حين يتم فرض لغة رسميّة مكان لغة أخرى، فتحلّ محلّها، وما يستتبع هذا الإجراء من إعادة رسم موازين الغلبة اللغويّة. وأصبح التعدد اللغوي أهمّ ميزة، تتسم بها المجتمعات المنفتحة، والمتصلة اتصالاً وثيقاً بغيرها. ولا غرو أن التعدد اللغوي يمثل حالة لسانية/اجتماعيّة، تُعرّف بها الكثير من الدول، مع فارق في حدة وحجم التنوع اللساني بينها، ومع تفاوت في طبيعة السياسات اللغويّة المنتهجة إزاءها. وصارت العولمة الآن بمفهومها الكاسح للقارات والحدود، تفرض منطق تعاملٍ متجدّد، تبعاً للترشح المستمر للخريطة اللغوية، ومن ذلك إعطاء الأولوية للغات كالإنجليزيّة والصينيّة، لما بلغته دولها من شأو سامق، في الجانبين الاقتصادي والتجاري.

2. في مفهوم الصراع اللغوي

إنّ مسألة تعدد اللغات، لم يُنظر إليها دائماً من منظور نابع من تقبّل طبيعي، أو من منطلق ينبني على تفهّمها، بل كانت تُستعمل ذريعةً للتصارع والتغالب، "وإنّ اعتبرنا أنّ العنف أكبر

¹ علي راتانسي، التعددية الثقافية، ترجمة لبنى عماد تركي، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط 1، 2013م، ص 17.

² صالح بلعيد، "اللغة العربية في التعليم العالي بالجزائر - واقع وبديل -"، المغرب، مجلة اللسان العربي، العددان 56/55، 2003م، ص 347.

مولد للتاريخ - وهذه فكرة ليست بالجديدة المبتكرة -، فإنّ هذا العنف يطول تاريخ اللغات¹، وهذا الاستشهاد يطفح بالصحة، إذ لما عُدَّت التباينات اللسانية بين الجماعات البشرية جزءاً لا يتجزأ من جملة الفوارق الثقافية والحضارية؛ شكّل الانصواء تحت انتماء لغويّ حصناً، يجد فيه المنتسبون إلى حيّزه احتماً وقاسماً مشتركاً بينهم. غير أنّ هذا الانتماء، قد يحدث أن تحسبه الجماعة اللغوية أحياناً، وكأنّ فيه عمفاً مركزياً، صالحاً بالضرورة للجماعات اللغوية الأخرى المشكّلة للبلد الواحد؛ فتنشأ إذّاك صراعات مستندة إلى الخلفيّة اللغوية. ولقد أكّد التاريخ أنّ معظم القوى المستعمرة، فرضت لسانها على الشعوب المحتلة، نتيجة للغلبة العسكرية، وإذا ما تغاضينا عن الفضول الأنثروبولوجي الاستعماري، الذي تناول دراسة لغات ولهجات الشعوب التي تعرّضت للبطش الاستعماري، فإنّه في الآن نفسه، لم يعترف بها كلغات رسمية، ولم تحظ بأية مكانة ثقافية أو سياسية، بل على النقيض من ذلك؛ فقد حوربت في عقر دارها، كما كانت الحال في الجزائر بين (1830م-1962م). وقد يستمدّ الصراع جذوته من التباعد الجغرافي، بين منطقتين، مع ما يستتبع هذا التباعد البيئي من فوارق لسانية؛ فجزيرة كورسيكا يفصلُ بينها البحر عن الأراضي الفرنسية، كما أنّها تتمتع بلغة مختلفة عن الفرنسية، وهذا ما غدّى، وما زال يغدّي الشعور لدى ساكنيها، بتميّز هويّتهم عن الهوية الفرنسية، وقد أدّت محاولات الانفصال المستمرة، إلى ارتكاب أعمال عنف، إزاء كلّ ما يبدو عنصراً غريباً عن ملامح الانتماء الكورسيكي. وتطفو بين الفينة والفينة صراعات لغوية، متشعبة بالخلفيات السياسية والاقتصادية في بعض الدول، ومن ذلك ما عهدته بلجيكا من تعطلّ في مسار الشؤون السياسية، تبعاً للخلافات بين الفلمنكية والفرنكوفونيين. وفي إسبانيا ينظم الكتالانيون مظاهرات دورية بين الحين والآخر، مبعثها المطالبة بالانفصال عن السيادة الإسبانية، بحجّة الاختلافات اللسانية، بين لغة إقليم كتالونيا ولغة بقية البلاد الإسبانية. وقد يكون الصراع اللغوي أقلّ حدة، في بعض المناطق من العالم، حين يتعلق الأمر بمناوشات بين اللغة المعيارية واللهجات المحكية.

¹ جان لويس كالفي، حرب اللغات، ترجمة حسن حمزي، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ط 1، 2008م، ص

3. تجليات وآثار الصراع اللغوي

قد يتجلى التعدّد اللغوي في تجاور طائفة من الألسنة وتعايشها، كما قد ينحصر في ضروب المحكيّات المنتمية إلى اللسان الواحد. تتبلور صور الصراع اللغوي في الكثير من التجليات المختلفة، تبعاً للفوارق المميّزة للمجتمع سياسياً، واقتصادياً وإثنيّاً؛ لذلك سنزجي طائفة من التظاهرات، التي تعكس سيرورة الصراع، وتستوضح بعضاً من تمفصلاته وآثاره.

1.3 الاهتمام الرّسمي بالمسألة اللغوية

إنّ انتهاج سياسة لغوية هو أساساً إقرار بخطر، يتهدّد اللغة الرّسميّة، إذ لو سارت الأمور بدون مشكل ما، يحوم حول لغة البلد، لما بادرت السلطات إلى اتّخاذ تدابير، تُقنّن لمركزيّة اللغة الواحدة. وبطبيعة الحال، يستتبع تسطير السياسات جملة من الآليات، التي تحاول تطبيق السياسة المنتهجة في أرض الواقع، وذلك هو دور التّخطيط اللغوي؛ فهو يتصدّى لترجمة القرارات والقوانين النازمة للخيارات اللغوية لبلد ما. وتحيل ترسانة الآليات الرّسميّة - الموجهة لبلوغ الأهداف المتوخاة - إلى خطوات استباقية، تسعى إلى حماية اللسان الرّسمي من أخطار، قد تتهدده، كزحف لسان ما تبعاً لسبب أو لآخر، أو أنّها تحاول إسعاف اللسان الرّسمي والذود عنه؛ لأنّه يتصارع مع ألسنة أو جملة من اللهجات، التي قد تضعضع من مكانته المحوريّة، المفروض تبوؤها، في التّنظيم العام للدولة والمجتمع. وإنّ مجمل الجهود الرّامية إلى تنقيّة المعجم وتفصيله، هي أمانة دالة على ما خالط اللسان الرّسمي، من شوائب ورواسب غير أصيلة، ومن مقترضات وافدة ودخيلة. وبمعنى آخر، حين تتصدّى لجان المصطلحات لتنقيّة المعجم؛ فهي تحارب - قدر الطاقة - تعالق كلمات أعجبيات الأصل باللسان المحلي، وهذا شكل جليّ من أشكال الصراع، تدور دائرته بين الرّغبة في ترشيح وتصفيّة معجم اللغة، وبين محاولة كبح تغلغل مفردات ذات أصول أجنبية.

2.3 التشنجات السياسية ذات الخلفية الثقافية

وقد تطفو الصراعات اللغوية أحياناً عياناً، حين تطرأ تشنجات حادة بين أفراد الجماعات اللغوية المكوّنة للمجتمع الواحد؛ فتتشكّل الجمعيات المدافعة عن هذه اللغة أو تلك، وقد تطالب جماعة ما بضرورة الاعتراف بلسانها، في التداول ووسائل الإعلام؛ فتتادي بتنظيم مظاهرات علنية، وقد تتأزم العلاقات بين الجماعات اللغوية والثقافية، ممّا يفضي إلى تعطلّ الشؤون السياسية، لاسيّما إذا كان النظام السياسي، يتأسّس على ضرب من الحاكمية التشاركية. كما قد تدعو جماعات لغوية إلى الانفصال النهائي، وتشكيل كيّان سياسي خاص بها، يحمي لغتها وثقافتها.

3.3 العولمة وتأجيج الصراع اللغوي

ومن أهمّ بل ومن أميز تجلّيات الصراع اللغوي، ما ساقه هبوب رياح العولمة، وما استجلى منها من ملامح لأمركة الشعوب، وفرض أنموذج الغرب الثقافي، لذا وأمام اكتساح أمريكا العالم من طريق سياساتها الخارجية والاقتصادية والعسكرية، وكذا بفضل نتائجها السينمائي والغنائي، حتّى لا نعمّم ونقول نتائجها الثقافي؛ فإنّ الكثير من الدول، تشوّفت في هذا الامتداد تهديداً محدقاً، يطول لغاتها، ويُداهم خصوصياتها الثقافية، ولم تنأ حتى دول غربية عن تبعات الهيمنة الأمريكية، بمختلف أشكالها ومناحيها، وآية ذلك ما أقرّته فرنسا في هذا الشأن من مبدأ "الاستثناء الثقافي" (l'exception culturelle)، دفاعاً عن الإبداع الثقافي والعمل على ترقّيته، بغرض صونه من مغبة اكتساحه وتراجعها أمام المنتج الأمريكي. ولا تُحصّن الثقافة بدون تحصين اللسان وتقويته. ومثلما يتراءى، فتأثيرات العولمة تمسّ مختلف الثقافات، ممّا يولّد صراع الألسنة الناطقة بها، غير أنّ فارق تأثير العولمة في الثقافات واللغات متفاوت من بلد إلى آخر. وينبغي الإقرار، في الوقت نفسه، بأنّ للعولمة منافع شتى، ومن ذلك الوسائط الرقمية الحديثة، وما تمنحه من فرصٍ ثمينة لترقية اللغات، ومُدّها بوسائل ذبوعها، وقوّة تأثيرها، إذا ما حسنَ توظيفها بطبيعة الحال.

4.3 بين اللغات المكتوبة واللغات الشفهية

يُشار ههنا إلى شكل آخر من أنواع الصراع، وهو ذلك الذي تعرفه الكثير من اللغات الشفهية، وما تعانیه من أجل البقاء، ونعني جملة اللغات التي لم يُقيَّض لها نظام كتابي خاص بها؛ فهي غالباً ما تكون قاب قوسين أو أدنى من الاضمحلال والزوال، مقارنة بنظيراتها من اللغات المكتوبة، ومن ثمّ فاللغات الشفهية، لا تتوفر على آليات تضمن لها الحماية والبقاء. "والخطر اليوم هو أن تهيم لغة واحدة في مجال العلوم، ووسائل الإعلام، والنقائات الجديدة [...] بحيث لا تسهم في نهاية المطاف سوى في نكوص اللغات التي تكون قناتها الناقلة شفهيّة".¹ وبذا، فاللغات المحكيّة تخوض صراعاً لغوياً مرغمةً، وهو صراع طاحن لها، قد يفضي إلى فقدانها، "وموت اللغة [...] يكون غياباً بالاستبدال، أو غياباً بالتحوّل، أو غياباً بالانقراض".² ذلك أنّ اللغة الشفهية غير مهيأة بعدّة فاعلة من الآليات، بحيث تقيها مساوئ العولمة اللغوية؛ ومبعث هذا المذهب من القول هو ما أُتيح للألسنة المكتوبة من تعزيز تقاني، بفضل وسائل الاتصال والتواصل الحديثة؛ فاستفادت ممّا أمدتها به من أجهزة وأدوات، وحصلت لها غلبة على لغات لم تخطّ بوسائط رقميّة ناقلة لها. ومن البين أنّ جملة اللغات الذائعة الانتشار، تواصل زحفها بدون هوادة، في مناطق نفوذٍ كثيرات، وتكتسح الفضاءات التابعة للغات الشفهية.

5.3 مزاحمة اللغات العالمية للغات المحليّة

وغير خاف أيضاً أنّ تعميم التّعليم في مختلف مناطق العالم، نجم عنه النزوع إلى اعتماد ألسنة مهيمنة كالإنجليزية، والإسبانية، والفرنسيّة، على حساب اللغات المحليّة، ونشأ صراع بين اللغات الغالبة (الناقلة للمعرفة) واللغات المغلوبة (المتلقية للمعرفة)، وهذا ما يشكّل تهديداً محدقاً بالتنوّع اللغوي في العالم أجمع. ومن الطرائق التي قد تحدّ من زحف التوحّد اللغوي،

¹ Gilbert Dalgalian, *Enfances plurilingues : témoignages pour une éducation bilingue et plurilingue*, L'Harmattan, Paris, 2000, p. 137.

² جان لويس كالفي، مرجع مذكور، ص 399.

الآخذ في الاستيعاب، هو تأكيد ضرورة حذق اللغة الأم أولاً، دون أيّ تغافل عن تعلم اللغات الأجنبية؛ "فمع تعلّم اللغة الأم، يجب تعلّم لغات أخرى، بحيث تتيح تجارب اتصالية رحبة".¹

6.3 الصراع داخل اللغة الواحدة

والصراع قد تتشكل معالمه داخل اللغة الواحدة، ومن ذلك الصراع بين اللغة المعيارية المقنّنة، وكيفيات كتابتها في وسائل الاتصال والتواصل الجديدة؛ فغالباً ما يُنظر إلى العولمة على أنها تهدّد الكثير من المكتسبات، والقيم، والمبادئ الرّاسخة، وحتّى عناصر الهوية، ولمن يذهب إلى هذا المذهب من الرّأي تبريرات لا تُتكرر، ومخاوف مشروعة، ولكن العولمة وما حملته من مستحدثات، على مستوى التقانات التواصلية، ليست بذلك التهديد للعربية وحدّها فقط، بل وطالت تهديداتها كلّ اللغات، ومنها اللغات ذات التداول الواسع؛ فالفرنسيون أيضاً يشكون من تدنّي المستوى اللغوي للناشئة، وكثرة أخطائهم الإملائية والنحوية، تبعاً للغة الشبّانية، التي لا تعبر اهتماماً لصحة رسم المفردات، ولا استعاضتها عن الحروف بكتابة، تميل ميلاً بائناً، إلى تفضيل الرموز والأرقام، بحسب النطق الصوتي؛ وبذا فوسائط الاتصال - من هواتف وحواسيب-، وشبكات التواصل الاجتماعية، والشابكة أفرزت لغات مصطنعة تؤثر الاختصار، والكتابة بالرموز والإيقونات، مما يخلق أنموذجاً منافساً لطرائق الكتابة التقليدية للغات الطبيعية، بل وصراعاً ضارياً، بين من لا يبالون البتّة، بخرق النظام الكتابي وما ينطوي عليه من أجدديات، وبين من ينادون بالنقيّد الحرفي، بسُنن وقوانين اللغة المعيارية، لاسيما خلال التواصل بالوسائط الرقمية والافتراضية والتفاعلية الحديثة.

7.3 التبعية اللغوية

قد ينشأ الصراع اللغوي - بين اللغة الرّسمية لبلد ما، ولغة أجنبية واحدة، أو بين اللسان المحلي، وجملة من اللغات الوافدة -، نتيجة لما أفضت إليه مدة احتلال معينة، يكون قد مرّ بها

¹ Félix Martin Ambel, « Diversité des communautés linguistiques et diversité des politiques linguistiques », in : Nadine Ly (dir), *Plurilinguisme et multilinguisme*, pp. (155-160), Presses Universitaires de Bordeaux, France, 2009, p. 157

..... بين مفهومي الصراع اللغوي والسلم بين اللغات

شعب من الشعوب؛ فتنسخ التبعيّة اللغويّة، ويُتوارث إذّاك لسان المستعمر جيلاً بعد جيل، ومن ذلك تداول متواصل، للسان الفرنسي، في البلدان المغاربيّة، وفي الكثير من الدول الإفريقيّة. وينشأ الطلب على اللغة الأجنبيّة - بدل الرّسميّة - عندما يقتضي الواقع الاقتصادي ذلك، إذ قد تلجأ طائفة من الجماعة اللغوية، إلى لغة أو لغات أخرى، ويوظفونها "عندما يُقدّرون أنّ استعمالها يجلب مزايا اجتماعيّة، ولاسيّما المزايا الاجتماعيّة/الاقتصاديّة"¹ أي حين يفرض سوق العمل شرط إتقان اللغة الأجنبيّة، ابتغاء الحصول على الوظيفة. وبذا، يترأى أنّ التبعيّة الاقتصاديّة، والتبعيّة الثقافيّة الموروثة، ترسخ في بعض المجتمعات تبعيّة لغويّة، من شأنها أن تنافس مكانة اللغة الرّسميّة للبلد.

4. الحالة الجزائرية والصراع اللغوي

يحتدم الصراع اللغوي في الكثير من الدول، نظراً لأسباب عدّة، تتباين بحسب الواقع التاريخي، والتّشكيل الإثني، والنسيج الاجتماعي الذي تتميّز به الجماعة اللغويّة، وإذا ما انعدمت رؤية واضحة المعالم للواقع اللساني؛ فإنّ الصراع اللغوي يطول مداه، ويتغلغل في صميم المجتمع. لذا، فالحال مع التعدّد اللغوي، تقتضي تحديد أدوار الألسنة التي تتقاسم الحيز الجغرافي، وتراتبيتها، ورسم نظرة استشرافيّة لوظائف التعدّد اللغوي مستقبلاً، كتحديد ما هو منوط ابتغاؤه من اللغات الأجنبيّة؛ أي تلك اللغات الوافدة في الفضاء اللساني المحلي.

وتعرف الجزائر تعدّداً لغوياً، لما تحتضنه من تداول لساني عربي وفرنسي وأمازيغي، وما تنفرد به من انتشار فسيفسائي لمحيّيات عاميّة متنوّعة. والعربية كانت إلى وقت قريب اللغة الرّسميّة الوحيدة، لتلتحق بها الأمازيغيّة وتصبح أيضاً لغة رّسميّة منذ التّعديل الدستوري لسنة 2016م. ومع ذلك، فالعربيّة ليست اللغة المستعملة في كلّ القطاعات، ويقتصر استعمالها بخاصّة على المدارس، وعلى عدد كبير من الجامعات، والصحافة، والخطابات الرّسميّة،

¹ Christiane Loubier, *Langues au pouvoir politique et symbolique*, L'Harmattan, Paris, 2008, p.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

والكثير من الدوائر الإدارية، وتشغل المحكيّات الحيّز الأعظم في التداول والاستعمال. ومبعث عدم استتباب أمر العربية، بصفة نهائية وصريحة، هو مزاحمة الفرنسية لها، وللتأسيس الذي عرفته قضية التعريب. وعملياً، شهدت المسألة اللغوية الكثير من التطوّرات والتغييرات؛ فعقب الاستقلال مباشرة، تواصل التعليم بالفرنسيّة، نظراً لقلّة الإطارات المعرّبة، ليتحوّل واقع التعليم، بعد ذلك، إلى ضرب من التعليم الثنائي اللغة (فرنسي/عربي)، وشيئاً فشيئاً أصبحت العربية تجد مكانتها، إلى أن صارت مهيمنة على الفرنسيّة. وانتهج الكثير من القطاعات الوزارية مسار التعريب، لكنّها استراتيجياً تأثّرت بالقرار السياسي وتقلّباته. وإنّ المتنبّع لتاريخ التعريب في الجزائر يلاحظ أنّ القوانين والنصوص الرّسميّة لا تسهّل من مسيرة التعريب بقدر ما تجعله يدور في مآهات التأويل ويطوف في فلك المواد القانونيّة الرتيبة¹. ويبدو أنّ الانكباب على التعريب، وضع جانباً ضبط مكانة اللغة الأمازيغيّة؛ لذا فقد دافع الناطقون بالأمازيغيّة، عن قضية اعتراف الدّولة بها، كلغة مشكلة لهويّة الجزائريين، وهذا ما تمّ تداركه في التّعديل الدستوري لسنة 2008² حيث أصبحت لغة وطنيّة، وجاء تعديل 2016م³ الدستوري جاعلاً منها لغة رسميّة. وأقلّ ما يمكن قوله عن معالجة المسألة اللغوية في الجزائر، إنّها أثّرت توجّهات متصادمة، وصراعات طالّت حتّى المجالين الأدبي والسياسي. وما زالت آثار تباين الرّؤى قائمة إلى هذه السّاعة. وكانت انتماءات النخب، تغذّي باستمرار وطيس النقاشات، حول الدفاع عن هذا اللسان أو ذاك.

وما يُلاحظ فعلاً هو أنّ الوضع اللغوي الجزائري شاذ، إذ حدّثَ الشروع في التعريب، ثمّ تعرّض في بعض المناحي، وبالمقابل هناك دفاع مستميت عن الفرنسيّة، لتكون لغة في الكثير من

¹ فراجي بوبكري، الترجمة، التعريب والمصطلح، وهران، دار الغرب للنشر والتوزيع، ط 1، 2004م، ص 95.

² الدستور الجزائري، القانون رقم 08-19 المؤرخ في 17 ذي القعدة عام 1429 الموافق 15 نوفمبر سنة 2008 المتضمن التّعديل الدستوري.

³ الجريدة الرّسميّة، العدد 14، السنة الثالثة والخمسون، الاثنين 27 جمادى الأولى عام 1437 هـ الموافق 7 مارس سنة 2016م.

..... بين مفهومي الصراع اللغوي والسلم بين اللغات

المجالات والحقول المعرفية، على الرغم من انعدام أي أقلية أجنبية فرنكوفونية، وكل ما هناك هو أنّ الفرنسية هي ميراث من الحقبة الاستعمارية، وأنّ هناك بعضاً من الجزائريين، لم يتعلّموا إلّا الفرنسية، نظراً لظروف تاريخية قاهرة، غُيّبت فيها العربية بصورة تعسّفية، بل وعُدّت لغة أجنبية في ديارها. وبعد استقلال البلد، طفقت العربية، تستعيد مساحتها المغيبة، وجمهورها ومتعلّميها، تبعاً لارتباط الشعب الجزائري الوثيق بالإسلام، وبالتقافة العربية؛ فانطلق التعريب سياسياً، وعُطِّلَ كذلك سياسياً، ومع ذلك تبقى العربية حاضرة، لكن ليس بالقوّة والحجم اللاتنيين بوصفها لغة رسمية للدولة. ومن الطريف أنّ بعض السفراء الأجانب في الجزائر، يجتهدون بالحديث بالعربية، في حين يستنبح السياسي الجزائري استعمال لغة أجنبية استعمالاً مرضياً.

1.4 مواقف النخب من المسألة اللغوية في الجزائر

إذا كانت هذه هي الحال مع توجهات الدولة فيما يتصل بالمسألة اللغوية، فيلاحظ أنّ مواقف الأفراد، تكاد تتباين بالكلية من مثقف إلى آخر، وقد راح مالك حداد إلى القول ما نصّه: "سوف تحتضن الجزائر حقاً وحقيقاً شخصيتها واستقلالها، حين يتمكن كلّ جزائري، من قراءة لغته والكتابة بها"¹؛ أي حين يحذق الجزائري العربية، بعدما تمّ تغييبها ومحاصرتها في ديارها، إثر هيمنة الفرنسية في الاستعمال والتداول، نتيجة للاحتلال الفرنسي، ومعلوم ما عاناه مالك حداد، من آلام نفسية حادة، بسبب عدم معرفته للغة العربية، ممّا أدّى به إلى التوقف المبكر عن الكتابة بالفرنسية. أمّا كاتب ياسين مثلاً، فقد نظر إلى الفرنسية على أساس أنّها غنيمة حرب، وكان "مؤيداً لاستعمال العربية الدارجة"² في التخاطب والاستعمال، من منطلق أنّها لغة الشعب الشائعة، وانتصر مثقفون آخرون للعربية الفصحى، ومن أبرز أولئك الذين دافعوا عنها باستماته، نذكر الروائي الطاهر وطار، الذي قضى حياته في مجابهة التيار الفرنكوفيلي،

¹ Khaoula Taleb Ibrahimi, *Les Algériens et leur (s) langue (s)*, Les éditions EL- Hikma, Alger, 1997, p. 225

² Gilbert Grandguillaume, *Arabisation et politique linguistique au Maghreb*, Maisonneuve & Larose, Paris, 1983, p.131

المتحيز إلى الفرنسية ولتمكّن ثقافتها في الجزائر، كما أنّ الناطقين بالأمازيغية، كانوا يطالبون بترقية اللغة إلى مرتبة اللغة الرسمية، وهذا ما تسنّى لهم تحقيقه أخيراً، وغداً حضورها الإعلامي ملموساً، وهي تُدرس في مستويات التعليم المختلفة.

2.4 السياسة اللغوية الجزائرية: نحو نهاية الصراع اللغوي؟

أُخذت قرارات هامة بخصوص اللغة الأمازيغية، بترقيتها من لغة وطنية إلى لغة رسمية، وهي تُدرّس الآن في المستويات التعليمية المختلفة، وهذه قرارات تاريخية، ينبغي التنويه بها، نظراً للبعد الأمازيغي الأصيل الضارب في تاريخ المجتمع الجزائري، والذي هو بُعد هام من أبعاد الهوية ومكوّن من مكوناتها. وهذا ما من شأنه تلطيف أجواء التطاحن اللغوي، وخلق روح من الألفة اللسانية، ومن التقارب بين المدافعين عن العربية والمدافعين عن الأمازيغية. وبذا يتحقّق التكامل بين اللغات، مما يعود بالفائدة المرجوة على المتعلّمين، ويبثّ في أنفسهم معالم الشخصية الجزائرية، وما تنفرد به من امتدادات راسخة. ولقد تغافل القائمون على التعليم إدراج اللغة الأمازيغية في سياساتهم اللغوية، لكن منذ العقود الثلاثة الماضية، بدأ مسار التغيير في ترسيخ التعدّد اللغوي، وشرع الاعتراف به، يأخذ مجراه الطبيعي، وتمّ إقرار المحافظة السامية للأمازيغية، وأصبح حضور الأمازيغية عادياً في وسائل الإعلام الثقيلة، واعترف التعديل الدستوري عام 2016م بأنّها لغة رسمية، وبدأت وزارة التربية في تدريسها في مختلف أطوار التعليم. كما أنّ الجزائر، لم تغفل تعليم اللغات الوافرة التداول في عالم اليوم: من لغة إنجليزية وفرنسية وألمانية، إضافة إلى تعليم لغات أخرى في شاكلة الإسبانية والإيطالية. وبذا، فمعالجة المسألة اللغوية للبلاد هي خطوة هامة، بغية التصالح مع الذات، لما لهذه الخطوة من أهميّة في تفعيل شروط السلم اللغوي، الذي ينعكس بالإيجاب على السلم القومي، من جهة، وبالانفتاح الإيجابي على العالم الخارجي من جهة أخرى.

5. تبلور مفهوم سلم اللغات

برز مفهوم سلم اللغات أو السلم اللغوي، كردّ فعلٍ على الصراع اللغوي، وما قد يفضي

..... بين مفهومى الصراع اللغوى والسلم بين اللغات

إليه، من تقويض لكيان المجتمع ووحدته. وإذا كانت بعض الدول، قد اختارت نهج التجانس اللساني (l'uniformité linguistique)، بإخضاع جميع الأقليات اللغوية إلى سلطة اللغة الرسمية، كما هي عليه الحال في النموذج الفرنسي؛ فقد أقرت بالمقابل دول أخرى، بواقع التعدد اللغوي، وكانت الغاية من وراء ذلك تحقيق السلم الاجتماعي، وتفادي النزعات، التي قد تستيقظ بين الحين والآخر. ومن ثمّ كان السبيل إلى خلق شروط سلم سياسي واجتماعي، ضمان سلم بين اللغات؛ أي تنظيم توافقي لجملة التلويّنات اللسانية المشكّلة للمجتمع الواحد. وتعدّ سويسرة رائدة في انتهاج هذا النوع من السياسة اللغوية؛ فلما عرفت البلاد بين الحربين مرحلة اضطراب بين المجموعات اللسانية/الثقافية المكوّنة للبلد؛ رأت السلطة المركزية أن تتخبر المسلك الحيادي، وأن تقرّ بمبدأ التعددية اللغوية، بغية "الحفاظ على الوحدة الوطنية من منطلق إبراز رمزية التعدد اللغوي".¹ والسلم بين اللغات هو مدعاة إلى تقويض ركائز الصراع اللغوي، أو التخفيف من وطأته، وذلك أضعف الإيمان، كما أنّه معالجة كيسة لمسألة التعدد اللغوي؛ ومبعث ذلك أنّه يقرّ بهذا الأخير، ويعترف به، وي طرح فلسفة الاحترام والتقدير المتبادل بين الجماعات اللغوية، كطريقة حضارية راقية للتجاوز والتجاور. وإذا كان (السلم) عنصراً مركباً لتسمية مفهوم السلم اللغوي؛ فليس ذلك من الترف في شيء، وإنّما الغاية تكمن في أن يوائم الاسم مسماه مواعمة تامة، إذ السلم بين اللغات، يتغيّ معالجة هادئة للصراع اللغوي، باستئثار حسن التجاور، وألفة التعايش، وهذا الضرب من السياسة اللغوية، يستهدف في نهاية المطاف، توفير الطمأنينة المواتية للازدهار الاقتصادي، وفي أيامنا هذه؛ أصبح معترفاً به أنّ الحماية الفعّالة للتعدّد اللغوي، تُعدّ عاملاً للتقدم الاقتصادي، وللاستقرار والسلم.² وقديماً عرفت الحضارة العربية الإسلامية سلماً لغوياً إلى حدّ ما، من منطلق أنّ النص القرآني اعترف بالتعدّد اللغوي والتنوّع العرقي، ولما فتحت الأمصار، وعلت راية الإسلام،

¹ Bernhard Altermatt, « La notion de paix des langues dans les débats sur la politique linguistique en Suisse », in : Aline Gohard-Radenkovic (éd), *Plurilinguisme, interculturelité et didactiques des langues étrangères dans un contexte bilingue*, pp (191-212), Peter Lang, Bern, 2005, p. 201

² Félix Martin Ambel, *Op.Cit.*, pp. 158/159

وانضوت الأقاليم تحت سيادته، حصل أنّ هذه الأخيرة حافظت على لغاتها، وأقبل أبنائها على تعلّم اللغة العربية، بل إنهم اشتغلوا بالترجمة من اللغات التي يتقنون إلى العربية، إذ لما "انتشرت العربية لغة القرآن ولغة الدين الجديد؛ [...] رغب من اعتنق الإسلام من سكان الشام والعراق ومصر ومن الفرس وغيرهم في إدخال علومهم التقليدية إلى لغة دينهم"،¹ ومن ثمّ فالسلم اللغوي، يطرح نقاعلاً إيجابياً بين الألسنة، ويسهم في تحاورها البيني المثمر.

1.5 النموذج الكندي

إذا ما اتّسم المجتمع الواحد، بتجاور زخم من اللغات واللهجات، التي ينتظم بها واقعه اللغوي؛ فلا مناص من توخي سبل التقارب بينها، بإيجاد حلول ترضي الأغلبية من الجماعات اللغوية، إنّ تعذّرت الاستجابة لمطالب كلّ لون لساني، "وينبغي الوصول إلى تعايش سلمي ومنسجم بين الجماعات اللسانية كضامن للسلام السياسي"،² وتحقيق الطمأنينة في المجتمع - ولاسيما إذا كان متعدّد التلوينات اللسانية - لا يتأتّى من دون التوافق على أرضيّة تفاهم لسانية، ترضي قطاعاً هاماً من الأطراف اللغوية، وتُحقّق آمال الأغلبية من الجماعات الثقافية المكوّنة لنسيج المجتمع؛ فمن المؤكد أنّ الاستجابة لمطالب الجميع، ستكون مهمّة في غاية الصعوبة، أمّا مسألة التوفيق الإيجابي بين عموم المطالب اللغوية؛ فتلك قضية يمكن تداركها، بما يتوصّل إليه من حلول تسترضي الانشغالات المشتركة، الصادرة عن الجماعات اللسانية، التي تتقاسم الرقعة الجغرافية الواحدة. ولذا نرى من مزايا السلم اللغوي أنّه "يتّسم عموماً بكونه حالة من التفاهم المتبادل بين الجماعات اللسانية المختلفة أو على أساس أنّه يعمل على تغييب الخلافات داخل الجماعة المتعددة الألسن".³ ولقد اعتمدت العديد من الدول - من طريق رسم سياساتها اللغوية - فكرة السلم اللغوي، بالنظر في مسألة التعدّد اللغوي ومعالجتها بجدية، من

¹ محمد سويس، اللغة العربية في مواكبة التفكير العلمي، أو من وحي مجلة المباحث التونسية، بيروت، دار

الغرب الإسلامي، ط 1، 2001م، ص 56.

² Félix Martin Ambel, *Op.Cit.*, p 157

³ Bernhard Altermatt, *Op.Cit.*, p 196

..... بين مفهومي الصراع اللغوي والسلم بين اللغات

منطلق إشراك ممثلي الجماعات اللسانية، في بلورة ما يُراد كمشروع لغوي مشترك، وبضبط تدريس اللغات المتداولة في البلد الواحد، ورسم مستويات تعليمها، وتأطير مجالات الاستعمال وحدوده. وسنعرض، فيما سيأتي، تجربة الكنديين في مساعهم إلى إيجاد حلول لغوية، ترضي الجماعات اللسانية.

يُستحسن الإشارة، ههنا، إلى أنّ فكرة سلم اللغات لها الكثير من التمثّلات؛ وذلك بحسب تباين المعطيات اللسانية/الاجتماعية للدول من جهة، وبحسب تراكمات معطياتها التاريخية، وطبيعة تفاعلاتها فيما بينها من جهة أخرى. فإذا كانت سويسرة أقرّت التعددية اللغوية، باتّخاذ ثلاث لغات رسمية، وزادت أن اعترفت بلغة أخرى، ووسمتها باللغة الوطنية، فإنّ كندا أقرّت الثنائية اللغوية.¹ لذا، لمعرفة سبب لجوء السلطات الكندية إلى سياسة الثنائية اللغوية، وما ابتغت من ورائها، من تحقيق لفكرة سلم اللغات، ينبغي الالتفات إلى طبيعة الواقع اللغوي، واستجلاء تاريخه في السياق الكندي، حتّى نقف على فهم مسار السياسة اللغوية في هذا البلد.

يُشار إلى أنّ مسألة التنوّع اللغوي، تمتدّ في كندا إلى بواكير تشكّل البلاد؛ وقد كان مبعث تعدّد الألسنة في ربوعها عائداً إلى توافد المعمّرين الفرنسيين والإنجليز إليها، وكان ذلك في خضمّ حمى الهجرة إلى العالم الجديد. "ولقد أنشئت أول مستعمرة فرنسية دائمة سنة 1605م في أكاديا، أي ما يُعرف اليوم بـ: نوا سكوتيا".² ومع مقدّم المستوطنين الفرنسيين، سمّيت المناطق الكندية بفرنسا الجديدة (la Nouvelle-France)، ولم يحظ الأهالي من الهنود بأيّ نصيب من التخطيط اللغوي، وتسيّدت الفرنسية البلد، إلى غاية وصول موجات متتالية من الإنجليز بعد 1760م، ممّا أفضى إلى تغيّر المعطيات الديموغرافية، واستتبّع ذلك ترحل موازين القوى اللسانية، ودخلت اللغة الإنجليزية في البلد، بفضل ناطقيها، وفي خضمّ هذا

¹ سنكتفي ببعض الإشارات فيما يخصّ الأئموذج السويسري؛ ذلك أنّنا تحدّثنا عنه بشيء من التفصيل في دراسة تحت الطبع موسومة بـ: "التعدّد اللغوي: نظرة في بعض التجارب".

² Tuija Helle, "Bilingual Education: A Study of the French Immersion Program in Canada Considering the possibilities of Adaptation to Finnish School", in: Hakan Ringbom, *Foreign Language Learning and Bilingualism*, pp. (99-190), Abo Akademi, Finland, 1985, p. 103

التسارع بين الجماعتين اللسانيتين المهميتين، لم يُنظر إلى ثقافات ولغات الأهالي الأصليين، ومُشوا من الواقع اللساني تهميشاً خطيراً. ثمّ غَدَتْ رَحَى الصراع دائرةً بين الفرنسية والإنجليزية، حتّى إنّه أصبح يُطلق على كلّ من الطرفين المتصارعين "بالوحدتين المنعزلتين اللتين يتقابل بموجبهما شعبان أسسا دولة كندا"،¹ غير أنّ الفرنسيين لم يحتفظوا بمكاسبهم في كندا، وتخلّوا عنها للإنجليز سنة 1763م. وإثر ذلك، حدث التجاور اللغوي بين الفرنسية والإنجليزية في الأراضي الكندية؛ فإذا كانت أمريكا اللاتينية ورثت لغة الإسبان، ما عدا البرازيل التي أخذت عن البرتغاليين لغتهم، وإذا كانت الحال انتهت بتمكّن الإنجليزية في ربوع الولايات المتحدة الأمريكية، فإنّ تاريخ كندا المعقّد والمتشابك، أفرز تجاور شعبين، ولغتين هما: الفرنسية والإنجليزية. وهذه الحال تكاد تكون استثناءً في الأمريكيتين.

وسعت السياسة اللغوية في كندا إلى احتواء الفرنكوفونيين، خشية التفكير في الانفصال، ولما تخلّت فرنسا عن كندا لمصلحة إنجلترا، كان ناطقو الفرنسية مازالوا نسبة سكانية هامة؛ لذلك لم تطرح السلطات الكندية سياسة تفضيل اللغة الانجليزية، بل أقرّت استعمال الفرنكوفونيين للفرنسية، ورمى هذا التوجه السياسي بخاصّة إلى حماية استعمال الإنجليزية في منطقة الكيبك. وعندما تمّ إعلان الكونفدرالية سنة 1867م، وفي سياق تجاور جماعتين لغويتين متباينتين، استدعى الأمر اعتماد الثنائية اللغوية، واستعمالها في المؤسسات الرّسمية؛ فالعديد منها هي "إذاً ثنائية اللغة قانونياً، كالبرلمان (بغرفتيه)، والوزارات، والمحاكم الفدرالية، والشركات التابعة للدولة، وأي تنظيم مُنتم للحكومة الكندية"،² وهذا ما يعطي للمواطنين الحقّ في استعمال اللغة التي يريدون، في أيّ مؤسسة حكوميّة، ومع ذلك فنسبة ضئيلة من الناطقين، يمكن وصفهم حقّاً بثنائيي اللغة (locuteurs bilingues).

¹ Pierre Auger, « Le contact des langues et des cultures au Canada : un bilan du modèle multiculturaliste », in : Nadine Ly (dir), *Plurilinguisme et multilinguisme*, pp. (83-104), Presses Universitaires de Bordeaux, France, 2009, p. 85

² Jacques Leclerc, « Les législations linguistiques en Amérique du Nord », in : Nadine Ly (dir), *Plurilinguisme et multilinguisme*, pp. (137-154), Presses Universitaires de Bordeaux, France, 2009, p. 138/139

..... بين مفهومي الصراع اللغوي والسلم بين اللغات

ولقد شكّل حَسْمُ السياسة اللغوية بالنسبة إلى الكنديين - بإقرار خيار الثنائية اللغة- أمراً ساعد على تقوية الوحدة الوطنية، وعلى تخفيف حدّة الصراع اللغوي التاريخي، وأسهم في تجنب مأزق الانفصال، ومن ثَمَّ فَهَمْنَا مبعث ازدهار التّرجمة في كندا، ولاسيما ما يتصل بالتّرجمة الإدارية منها بين اللغتين الرسميتين. وبلغ مدى التّشجيع الرّسمي، بترسيخ الثنائية اللغوية، إلى تخصيص مَنَحٍ للموظفين ثنائيي اللغة، كما تحفّز الحكومة المركزية، وتدعم مالياً المؤسسات التربوية، التي تقدّم دروساً باللغتين في مناهجها التربوية، هذا مع أنّ "الأرقام المستمدّة من إحصائيات 2006، تشير إلى التّوزيع اللساني التّالي في كندا: (57,8%) ناطقون بالإنجليزية، (22,1%) فرونكوفونيون، (20,1%) ناطقون بلغات أخرى، و فقط (17,4%) من الكنديين صرّحوا بأنّهم ذوي لغتين".¹

ويعرف التّوزيع اللغوي انتشاراً غير منتظم بين منطقة ومنطقة أخرى؛ ففي منطقة الكيبك، تُعدّ اللغة الفرنسيّة لغة مهيمنة، ولكنها تمثّل صورة اللغة المغلوبة في الواقع اللساني الكندي، إذ اللغة الانجليزيّة هي اللغة الغالبة. وعلى الرّغم من جملة الاختلافات القائمة، بين الكيانيين المشكّكين لتضاريس كندا اللسانية، فإن هناك وحدة تجمّع بينهما؛ فهناك هويّة كندية قويّة مشتركة بين الفرنكوفونيون والناطقين بالإنجليزية، وطبيعة هذه الهوية، أنّها عرفت كيف لا تنفي بالضرورة الاختلافات، ما بين أفراد عائلة البلد الواحد، ولما تحقّق السلم اللغوي، والرفاهية الاجتماعيّة، اجتذب الأنموذج الكندي، في النصف الأوّل من القرن العشرين، هجرات آتية خاصّة من القارة الأوربيّة، لتصبح في النصف الثاني، آتية من آسيا والشرق الأوسط وإفريقيا وأمريكا اللاتينيّة. "في عام 2006، تمّ إحصاء 200 لغة ولهجة يتكلّم بها المهاجرون في كندا".² وقد تمكّنت السياسة اللغوية، من احتواء كل هذا الزخم، من التّوّع العرقي والتعدّد اللساني، بفضل خيار الثنائية اللغوية، التي تمثّل تمظهراً بارزاً، من تمظّهرات السلم اللغوي. إذ هذا التّوجه، ضمّن أسباب التّعايش بين الأكثرية اللغوية والأقليات، كما أنّه

¹ Pierre Auger, *Op.Cit.*, p. 93

² *Ibid.*, p 86

خلق جواً من العَدَد اللغوي، بين الأطياف المكوّنة للواقع اللساني؛ فبدل الهرولة إلى المغالبة، حدث اعتراف متبادل واحترام بين الجماعات اللسانية والثقافية. وبذا، يتراءى أمر فاعلية مقترح السلم اللغوي، كسياسة لغوية، تجمع الشمل، ونفضَ الفرقة، وتلغي الانكفاء على الذات، ومن هذا المنطلق قد يكون السلم اللغوي، في بعض السياقات التجاءً لا غنى عنه، لما له من مزايا شتى، في الحفاظ على وحدة البلد، وفي الذبّ عنه من أخطار التشرذم.

الخاتمة

إنّ من طبيعة الأشياء التنوّع والتعدّد، والحال كذلك مع اللغات، إذ تنوّع الألسنة خصيصة من خصائص المجتمعات البشرية، إلّا أنّ التعدّد اللغوي، يقود أحياناً إلى التصادم والصراع؛ فحين تُشكّل طائفة من اللغات تضاريس حيز مكاني واحد؛ قد يقع تعصّب الجماعة اللسانية، ذات النسبة الأغلبية إلى لسانها، ويحصل لديها ضرب من الاحتقار للألسنة الأخرى، فتشتعل النعرات بين الجماعات اللسانية المتجاورة، ولقد بسطنا في بحثنا هذا طائفة من البواعث المحركة للصراع اللغوي. وتلافياً لصنوف الصراع المتنوّعة، تشوّفت بعض الدول، إلى توحيد اللغة والثقافة حلّاً لهذه المعضلة، وغير خاف أنّ التشبّث بلسان مركزي واحد، لم يكن دائماً خياراً محفوفاً بالبرد والسلام، بل اعترته صرامة شديدة، وإفحام قسري لقبوله، إذ غالباً ما استتبّ الانسجام اللساني، على حساب خصوصيات الأقليات الثقافية ولهجاتها المحلية؛ فقد اكتنف التجانس اللساني عنفٌ حسّي ومعنوي.

وبالمقابل، هناك دول اختارت سبيل التعدّد اللغوي والثقافي، بوصفه حلّاً نهائياً وجذرياً لمشكلة التعدّد اللغوي، تَبَعاً لعسر فرض انسجام ثقافي وتوافق لساني. وسعيّاً لتجاوز القلاقل ذات الطبيعة اللسانية، اهتدت دولٌ إلى ما يُسمى بالسلم بين اللغات، ومبعث هذا الخيار، هو ابتغاء تحقيق تعايش هادئ، بين الجماعات المتباينة اللسان. وكان طرح السلم بين اللغات، في سويسرة، حلّاً لا بديل عنه، لتأمين الوحدة الوطنية، ولتبيد أفكار، تدعو إلى التشتّت والانقسام، وقد خلق السلم بين اللغات جواً من الاحترام، وهياً أسباب القبول بواقع التعدّد اللغوي، وما

..... بين مفهومي الصراع اللغوي والسلم بين اللغات

يُصاحبه من تباينات ثقافية. وفكرة التعايش بين الجماعات اللغوية، جاءت لتسحب البساط، من تحت أرجل عرابي الانقسامات؛ أي دحر نيات أولئك الذين حاولوا اللعب على وتر الخصوصيات اللسانية والثقافية، لهذه الجماعة أو تلك. ومع هذا، فإن السلم اللغوي، لا يعني القضاء نهائياً على النزعات الظرفية، التي تتولد بمناسبة أو بدونها، ولا ينبغي أن يفهم أيضاً، أنه حل سحري وجذري، حين نتشارك طائفة من اللغات في حيز جغرافي واحد؛ ففي الحالة السويسرية، حتى ولو لم يفض السلم اللغوي، إلى تفاعل دينامي بين الجماعات اللغوية، وإلى تحاور بيني خصب، فإنه سمح بحصول تجاور هادئ، في كنف من الاحترام المتبادل.

وقد تأسس التشكل اللغوي في كندا، نتيجة للصراع الضاري بين إنجلترا وفرنسا على امتلاك الأرض في العالم الجديد، ثم انتهى الأمر بتأسيس نظام فدرالي جامع للكل، لتحقيق تعايش وجودي بين الفرنكوفونيين والناطقين بالإنجليزية، وإقرار ما يحدّهما من تباين لغوي وثقافي. ومن ميزات السلم اللغوي، أنه يصبو إلى الاعتراف المتبادل بين الجماعات اللغوية، التي تنقسم أرضاً واحدة وبلداً واحداً وجنسية واحدة. وسارت كندا بعد أخذ وردّ، في مسار إرساء معالم الثنائية اللغوية، على نطاق واسع، من أجل إرضاء الجماعتين اللسانيتين معاً، ولا يعني هذا، أن ليس هناك تفاعلات بين اللغتين، وتداخلات على المستوى المعجمي، بين الفرنسية والإنجليزية، المتجاورتين في الأراضي الكندية، إذ "تنشأ روابط طبيعية بين اللغات [...]، ويحدث اتصال [بينها] من طريق الترجمة".¹ وعلى أي حال، يبدو السلم اللغوي خياراً لا مناص منه، إذا ما اتسم الواقع اللغوي بالتعقيد والتشابك، وإذا ما تعدّر ترضية مطالب كل الجماعات اللسانية، وإذا ما استعسر تحقيق تطلّعاتها المختلفة.

ثم أن إقرار التعدّد اللساني، هو أثر طبيعي، لحقبة من الصراع نشأت بين طائفة من اللغات، وهو بذلك تعبير عن عدم غلبة لسان على لسان آخر، وإقرار بوجود تعايش ألسنة موجودة في حيز جغرافي مشترك، وقد يأخذ التعدّد اللساني وجهة النظر والتّظهير التراتبية

¹ Mohammed Besnaci, *La contextualisation dans la lexicographie bilingue*, Editions Oum-El-Kitab, Mostaganem, 2014, p. 333

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

(بتعيين اللغة الرّسميّة واللغة الوطنيّة مثلاً)، أو بانتهاج مقارنة تقضي بحمل اللغات المتصارعة، على قدر واحد من المساواة. وكلّ خيار من الخيارين، هو بمثابة اجتهد، يبتغي فضّ النزاع، وكلّ من المقاربتين ترميان إلى احتواء واقع ما، من أشكال الصراع اللغوي. وقد شرعت الجزائر في إعادة تنظيم سياستها اللغوية، بانتهاج ترسيخ عناصر الهوية، واللغة مكوّن رئيس لها، فرسمت العربية، والأمازيغية، وانفتحت على تعليميّة اللغات الأجنبية، ولا نقول إنّ الصراع اللغوي قد تبدّد بالكلية؛ فهو يشتعل بين حين وحين، ولكن طفقت جدّة تخفّ نوعاً ما، بفضل التدبير اللساني، الذي استرشد بآليات من سياسة السّلم بين اللغات، وكلّ سياسة لغويّة، ينبغي أن تتعرّض للتّقييم، والنّقويم الدائمين، حتّى يتحقّق مأمول الجماعات اللغويّة من جهة، وحتّى يغدو الصراع اللغوي نسيّاً منسيّاً من جهة أخرى.

..... بين مفهومي الصراع اللغوي والسلم بين اللغات

مكتبة البحث:

بالعربية:

- بلعيد صالح، "اللغة العربية في التعليم العالي بالجزائر: واقع وبديل"، الرباط، مجلة اللسان العربي، عدد 56/55، جامعة الدول العربية للتربية والثقافة والعلوم، مكتب تنسيق التعريب، 2003م.
- بويكري فراحي، الترجمة، التعريب والمصطلح، وهران، دار الغرب، 2004م.
- الجمهورية الجزائرية، الجريدة الرسمية، العدد 14، السنة الثالثة والخمسون، الاثنين 27 جمادى الأولى عام 1437 هـ الموافق 7 مارس سنة 2016م.
- الجمهورية الجزائرية، الدستور الجزائري، القانون رقم 19-08 المؤرخ في 17 ذي القعدة عام 1429 الموافق 15 نوفمبر سنة 2008 المتضمن التعديل الدستوري، 2008م.
- رستاني علي، التعددية الثقافية، ترجمة لبنى عماد تركي، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2013م.
- سويس محمد، اللغة العربية في مواكبة التفكير العلمي أو من وحي مجلة المباحث التونسية، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ج 1، 2001.
- كالفي جان لويس، حرب اللغات والسياسات اللغوية، ترجمة حسن حمزة، ط 1، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، 2008م.

باللغة الأجنبية:

- ALTERMATT Bernhard, « La notion de paix des langues dans les débats sur la politique linguistique en Suisse », in : Aline Gohard-Radenkovic (éd), *Plurilinguisme, interculturalité et didactiques des langues étrangères dans un contexte bilingue*, pp (191-212), Peter Lang, Bern, 2005.
- AMBEL Félix Martin, « Diversité des communautés linguistiques et diversité des politiques linguistiques », in : Nadine Ly (dir), *Plurilinguisme et multilinguisme*, pp (155-160), Presses Universitaires de Bordeaux, France, 2009.
- AUGER Pierre, « Le contact des langues et des cultures au Canada : un bilan du modèle multiculturaliste », in : Nadine Ly (dir), *Plurilinguisme et multilinguisme*, pp. (83-104), Presses Universitaires de Bordeaux, France, 2009.
- BESNACI Mohammed, *La contextualisation dans la lexicographie bilingue : le cas du dictionnaire français-arabe*, Editions Oum-El-Kitab, Mostaganem, 2014.
- DALGALIAN Gilbert, *Enfances plurilingues : témoignages pour une éducation bilingue et plurilingue*, L'Harmattan, Paris, 2000.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

- GRANDGUILLAUME Gilbert, *Arabisation et politique linguistique au Maghreb*, Maisonneuve & Larose, collection : « Islam d'hier et d'aujourd'hui », Paris, 1983.
- HELLE Tuija, "Bilingual Education: A Study of the French Immersion Program in Canada Considering the possibilities of Adaptation to Finnish School", in: Hakan Ringbom, *Foreign Language Learning and Bilingualism*, pp. (99-190), Abo Akademi, Finland, 1985.
- LECLERC Jacques, « Les législations linguistiques en Amérique du Nord », in : Nadine Ly (dir), *Plurilinguisme et multilinguisme*, pp. (137-154), Presses Universitaires de Bordeaux, 2009.
- LOUBIER Christiane, *Langues au pouvoir politique et symbolique*, L'Harmattan, Paris, 2008.
- REY-DEBOVE Josette & REY Alain, *Le Petit Robert*, Le Robert, Paris, 2015.
- TALEB IBRAHIMI Khaoula, *Les Algériens et leur (s) langue (s)*, Les éditions El Hikma, Alger, 1997.

بحوث في الترجمة

نحو نظرية قرارية في الترجمة

د. عادل داود

جامعة البعث/كلية الآداب

حمص - سورية

مقدمة

علم الترجمة: ابتكر المفردة - على ما يبدو - بريان هاريس سنة 1972 لتتناسب تسمية تفكرٍ كان قد بدأ باكتساب مادته، وتكوين هيكله.

ولاشك أن النقاش بين الأمانة للحرف والأمانة للفكر يعود إلى العهد القديم؛ وقد استمر حتى أيامنا هذه، عابراً الأنماط والأفكار السائدة، ومفسحاً المجال أمام ظهور مصطلحات متنوعة. فربما لم يعد ممكناً بعد تخاصم القدماء والمحدثين بهذا الشأن جعلُ "الخائنات الجميلات" في القرن السابع عشر تمرُّ مرور الكرام. وقد استمر استحسانها حتى القرن الثامن عشر، ليُحكَمَ عليها من خلال الموقف التي اتخذها فولتير (1734)¹: "تعساً لصانعي الترجمات الحرفية الذين يغضبون المعنى مع ترجمتهم لكل كلام! فها هنا يمكن القول إن الحرف يُميت، وإن الروح تُحيي". بيد أن ذلك لم يكن بعد سوى رأي حول أسلوب الترجمة. وتلا هذا الانفتاح الجارف في بعض الأحيان، والمتطرف نحو الحرية في الترجمة - حيث يكون كل شيء مُباحاً - هيمنةُ عودةٍ نحو الحرفية في القرن التاسع عشر؛ وتؤكد ذلك توطئة ناشر ترجمة الإلياذة لـ

¹ نشر فولتير عام 1734 *Lettres philosophiques* (رسائل فلسفية)، وهي نوع من التحقيق حول ما لاحظته في إنكلترا خلال سنواته الثلاث في المنفى، وفي الوقت ذاته نقدٌ للمجتمع الفرنسي في ذلك العصر. وهذا الاقتباس مقتطف من الرسالة الثامنة عشرة عن التراجيديا.

"لو كنت دوليل" (1866) الذي يقول: "ولّى زمن الترجمات الخائنات، وحصلت عودة متميزة نحو الدقة في المعنى والحرفية". ولم يكن في ذلك العصر يوجد بعد - باستثناء بعض الأعمال المتألفة عن فن الترجمة أو طريقة الترجمة¹ (جيداً) - إلا بعض مقدمات المؤلفات المترجمة وبعض الانتقادات لترجمة ما، والتي تعرض معلومات عن مزاولة الترجمة. وكان ذلك مرتبطاً أكثر بانطباعات مذهلة لما ينبغي أن تكون عليه الترجمة "الجيدة". فقد كانت وجهات النظر المعبر عنها تصدر عن موقف عقائدي يتعدى كونها تفكيراً في الترجمة بصفاتها عملية متسلسلة. وتوقف إدراك الترجمة في القرن العشرين على أنها فنٌ فقط، وبدأت تُعد أيضاً فرعاً علمياً. ولكن النقاش لم يحسم مع ذلك، واستمرت التعارضات بين مناصري الحرفية ما أمكن إلى ذلك سبيلاً وما دامت لغة الوصول لا ترى نفسها مُفسدة، وبين مناصري إعادة الكتابة التي تقدم سلسلة كتابة النص الأصلي ذاتها، وتحدث لدى القارئ الانفعالات عينها. وقد توضع التطور الحاصل - عن وجه قصد - خارج هذا النقاش العقيم، وحاول تقفّي أثر تطور التفكير العلمي في الترجمة منذ انغماسه في البنيوية حتى اندراجه الحالي في نموذج تشابكي.

النظريات اللسانية

تدعي النظريات اللسانية - امتداداً للبنيوية - الموضوعية الكبرى، وربما يكون ذلك مبتغاهما الأساسي. فاللغة مادة الترجمة، أي التعبير الكلامي المشكل من خطوط سوداء على أرضية بيضاء ومنسوخة على الورق - إن أردنا أن نورد التمثيل الأكثر شيوعاً للنص المكتوب -. ويلاحظ المدافعون عن هذه النظريات أن المادة الموضوعية الوحيدة التي يمكن

¹ نشر عدة كتّاب متبحرين عرضاً لتاريخ الترجمة والمترجمين. انظر بهذا الشأن: Michel Ballard, *De Cicéron à Benjamin. Traducteurs, traductions, réflexions*, Lille : Presses Universitaires de Lille, 1992 ; Christian Balliu, *Les traducteurs transparents. La traduction en France à l'époque classique*, Bruxelles : Les Editions du Hazard, 2002 ; Paul Horguelin, *Anthologie de la manière de traduire*, Montreal: Linguattech, 1981.

..... نحو نظرية قرارية في الترجمة

للمترجم العمل عليها هي مجموعة من الكلمات المتسقة في جمل¹. فمهمة الترجمة إذن ترجمة كلمات أو مجموعات من الكلمات أو كليتهما. ولتركز انتباهها في هذه الحالة على اللغة، تبعاً لمعنى المصطلح وفقاً لـ سوسير. ويُعد النص بحسب هذا المنظور كياناً مغلقاً، يُرى في بُعد واحد. فيتألف النص من كلمات تتوالى لتشكّل تراكيب، تتمفصل هي أيضاً لتشكّل جملاً تتسلسل بدورها. بالمختصر، يُحصر النص في تقطّع من الجمل. ويلاحظ من ناحية أخرى أن مادة اللسانيات هي الكلمة أو التركيب أو الجملة، فقلما تذهب الدراسات اللسانية إلى أبعد من ذلك²؛ إذ يرى أنصار هذا الموقف النظري في سعيهم للموضوعية النصّ - مادة الاستكشاف - كياناً مستقلاً، خارجاً عن إطار المراقب ومستقلاً تماماً عنه. فثمة إذن انفصال بين الشخص المترجم والمادة المترجمة. ومن قِبل أخرى، لما كان النص يُعد كياناً منعزلاً ومستقلاً ومنفصلاً عن القارئ، فهو مدرك أيضاً لكونه منفصلاً عن النصوص الأخرى جميعها والتي كان لها أن وجدت قبله أو ستوجد بعده. فلا ينقل النص - بالنظر إليه من هذا المنحى - سوى معنى واحد، ذاك الذي أراده الكاتب والذي رمّزه مستخدماً عناصر لغوية. ومن شأن القراءة الواحدة إتاحة إعادة بناء المعنى. فتكمن الفرضية الأولية هنا في عدم إمكان ترميز معنى ما إلا بطريقة واحدة، تقسح المجال لصناعة لغوية قابلة للترميز بطريقة معاكسة، لإعطاء المعنى الأولي من جديد. فتكون بذلك مجموعة الكلمات التي تؤلف النص حقيقة موضوعية يتاح كتابتها رموزها لتقديم ترجمة "أمنية" لها. فيُفترض كون المعنى داخل الكلمات وداخل اتساقها (أجزاء وتراكيب)، وثمة من الناحية العملية نوع من العلاقة الإجبارية بين وجود الكلمات ومكانها في الجمل، وبين الترجمة التي يتاح إعطاؤها لها. ويقود هذا التصور عن النص إلى اعتبار أنه

¹ يدافع عن وجهة النظر هذه بقوة بيتر نيومارك في كتابه: *A Textbook of Translation*, New York/Londres: Prentice Hall, 1988 : "We do translate words because there is nothing else to translate; there are only the words on the page; there is nothing else there" (73).

² يعي اللسانيون أنفسهم هذا الحد لحقل استكشافهم، وهذا ما تؤكد كاترين فوش: "اعتمدت النظريات اللسانية في الغالب الجملة بكونها وحدة التحليل"، في مؤلفها (أوجه الغموض والحشو في اللغات الطبيعية): *Aspects de les langues naturelles*, Berne: Peter Lang, 1985, 20. *l'ambiguïté et de la paraphrase dans*

من الممكن استيعابه بصورة متجزئة؛ إذ يُرى في الواقع ضمن بعد واحد -بعده الأفقي- المتوافق مع العرض القطعي للكلمات المكوّنة للجمل، وللجمل المكوّنة للنص. ويمكن للنص بهذا أن يُجزأ إلى عناصر ووحدات أولية من المعنى، ويمكن لكل منها أن تكون مادة لتحليل منفصل، أي لترجمة إلى لغة أخرى؛ إذ تُحوّل رموز الجمل أو النص المعد للترجمة - والمقلص في تتابع للجمل- من لغة إلى أخرى. وتكمن العملية في الاستقاء من مقابلات معجمية موضوعة سلفاً ومصنفة في قواميس ثنائية اللغة أو محفوظة عن ظهر قلب، وفي تطبيق قواعد النحو في لغة الوصول لضمان جودة اتساق المقابلات المعتمدة. فنُرد الترجمة إلى تحديد عناصر موجودة سلفاً، وإلى وضعها ورصفها بأسلوب الفسيفساء بطريقة يُقترَب فيها ما أمكن من الصورة الافتراضية للنص المراد تكوينه من جديد في لغة الوصول. فتلك إذن عملية تسلسلية خطية تتناول كياناً مغلقاً. والترجمة المدرسية تتناول مثلاً أجزاء من نصوص منفصلة، ويجرى التمرين باقتطاع مقتطف من نص للترجمة مجزئاً لقطع أصغر، بحجم جملة عموماً أو قطعة من جملة إن قُدِّر أن الجملة طويلة جداً ليجري معالجتها دفعة واحدة. ونقول الفرضية إنه يمكن بعدها إعادة تجميع الأجزاء المترجمة، أو بالأحرى الأجزاء المنسوخة الرموز، لإعادة تكوين الكل. ويكون الكل في هذه الحالة مساوياً لمجموع الأجزاء. ونقدم الترجمة بذلك سمات من التنبؤية والتعاكسية. وهذا المفهوم عن الترجمة هو منطلق الأعمال حول الترجمة الآلية، والذي أوصل إلى طريق مسدود ما زلنا نلاحظه حتى اليوم. فالمقاربة في إطار النظرية اللسانية في الترجمة هي في الواقع تقابلية. ونقصد بالتقابلية البحث عن المقابلات بين لغتين، فنُنفذ الترجمة وفقاً لهذه النظرية عن طريق وضع أشكال التعبير بعضها مقابل بعض في اللغة المصدر واللغة الهدف¹؛ وتلك مقابلات موضوعة سلفاً ومسجلة في وقت

¹ أفسحت هذه المقاربة الشائعة بصورة واسعة في الوسط المدرسي والجامعي المجال أمام ظهور النزعة المقارنة.

ويُرى التوضيح المثالي لتطبيق هذه المقاربة على ثنائية الإنكليزية والفرنسية في كتب تعليمية، من مثل: J. P. *comparée du français et de l'anglais*, Paris : Didier, 1968, Vinay & J. Darbelnet, *Stylistique* Flescher, *Syntaxe comparée du français et de l'anglais*, reed. 1976; & Jacqueline Guillemin-

..... نحو نظرية قرارية في الترجمة

سابق للترجمة. فتكمن العملية الترجمية نوعاً ما في استقاء المصطلحات والعبارات المطلوبة من فهرس المقابلات بين اللغات، وتتضمن هذه المقاربة نهجاً من نوع الاستتساخ. وتُرى الترجمة - أي العملية الترجمية - بكونها قلباً للرمز اللغوي إلى رمز لغوي آخر، والأداة المثالية لتحقيق هذا النوع من القلب هي بالطبع القاموس الثنائي اللغة. ونجد هنا أيضاً فرضية التعاكسية المسلّم بها، لأنه معلوم وجود دالة تقابلية بين كلمات لغة ومقابلاتها في اللغة الأخرى (مثلاً في المقطع أدناه: ligne (خط بالفرنسية) $\leftrightarrow$ line، وjaune (أصفر بالفرنسية) $\leftrightarrow$ yellow).

ويحمل التقويم مثلاً تطبيقاً آخر عن السمة التناظرية للتعاكسية؛ إذ يجري تقويم ترجمة ما وفقاً للنظرية اللسانية بالمقارنة بـ نص الانطلاق. ليرتبط الأمر بالنظر: أنجذُ مجدداً في الترجمة المنتجة العناصر كلها الموجودة في النص الأصلي. ويذهب بعض الكتاب من ناحية أخرى إلى تأكيد أن الترجمة الجيدة رهْنُ القدرة على إجراء ترجمة معاكسة تتيح إيجاد صياغات النص الأصلي ذاتها من جديد. والمرجعية في تقويم ترجمة ما هي - زيادةً على ذلك - سلّم تصحيح مثالي وحيد (ديريو 2005ب). وتُطبّق النظرية اللسانية على وجه الخصوص لكونها تبريراً منهجياً في حالة تدريس/تعلم اللغات الأجنبية¹، ويجري تقويم الترجمة عندئذ بالرجوع إلى إجابة يعدها المدرس. ولما كان مفروضاً أن تقدم هذه الإجابة الترجمة المثالية، جرى التقويم تبعاً لها، وكل ابتعاد بالنسبة إلى هذا المرجع يفسح المجال أمام عقاب على شكل علامات محذوفة من الدرجة العظمى المأمولة. ويمكننا حينها التساؤل عما تكون عليه جودة الترجمة؛ إذ تقدر جودتها - مع البقاء في هذا الإطار النظري - على الصعيد الداخلي، أي في

Paris: Ophrys, 1981 reed. 1986. يوصي هذان العاملان بشدة بتطبيق مقاربة تعاكسية، ويشيدان النزعة المقارنة ضمن طريقة في الترجمة.

¹ تتوضع الكتب التعليمية الموصى بها عادةً لدراسات اللغات الأجنبية الحية ضمن هذا الإطار النظري، كما يشهد على ذلك كتاب هيلين شيكه & ميشيل بايارد الشائع الاستخدام (مقاربة لسانية لمشاكل الترجمة): *Approche linguistique des problèmes de traduction*, Paris : Ophrys, 1989.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

بُعدها اللغوي حصراً ومقارنة بـ النص الأصلي. فإن استُسخِرت رموز الوحدات اللغوية كلها، فيذاع عن الترجمة بأنها ذات جودة. ويتأتى بالطبع مما تقدم أن الأمانة في الترجمة أمانة لمصدر إرسال النص، وأمانة لشكل النص الأصلي، وأمانة للحرف. وغاية الترجمة في هذا الإطار هي طبعاً تدريس/تعلم اللغات الأجنبية، وههنا في الواقع أفضل تطبيق للنظرية اللسانية. فالمدرس هو القارئ الوحيد لنتيجة تمرين الترجمة، وهو الذي يقدّر أداء تلاميذه وفقاً لما درّسهم ولما يفترض أنهم تعلموه. فتستعمل الترجمة في دراسات اللغات الأجنبية بكونها اختباراً مذاكرة عن المعارف، وهذا يسوّغ دور الترجمة الحرفية المستعملة والمتنطرة عموماً. فتسلّم الفرضيات الكامنة في النظريات اللسانية في الترجمة على وجه الخصوص بأن كل شيء موجود في النص الأصلي، ويكون المعنى في الكلمات، وفي حال تعدد المعنى، يسمح السياق وحده بإزالة الغموض، ومن المناسب لتنفيذ ترجمة ما حشد المعارف اللغوية. وهكذا، يفضي توجه استقلالية المعنى وتوجه التبعية السياقية بصورة طبيعية إلى اعتماد المبدأ التعليمي. وتقود القناعة بصلاحية هذا المبدأ إلى اعتماد نهج تصاعدي (bottom up) في بناء المعنى. ويعمل هذا النهج التحليلي من خلال النقاط مؤشرات وأدوات وصل تتيح بطبيعتها حساب المعنى، معتبرة أنه يفترض للاقتربات المنطقية والدلالية ضمان المقروئية الأفقية لجزء معين. فينتج معنى المنطوقة بذلك عن معالجة المعلومات اللغوية الحاضرة في السياق وحدها؛ إذ يحدث كل شيء في وسط مغلق. وينطوي النص (المادة) في آن واحد على معلومات لفك الترميز في المستوى الأول من المعنى (الصيق النص)، وعلى معلومات للانتقال (الإجباري من خلال السياق) في المستوى الثاني من المعنى. وتقدم الفقرة أدناه المقترحة من افتتاحية مُخصّصة لـ "قضية الخلايا الجذعية الكاذبة" مثلاً على ذلك:

بات من المؤكد أن العالم الكوري الجنوبي المشهور هوانغ هو-سوك لم يوجد قط خلايا جذعية خاصة بالمرضى، على الرغم من تأكيدات ذلك في المجلة المرموقة Science (ساينس) في شهر أيار 2005. فقد حدث بهذا الدجل العلمي تجاوز للخط الأصفر. فالصفة (أصفر) بالمستوى الأول معروفة بكونها نعتاً لـ (خط)، وتؤدي إلى فهم من نحو:

..... نحو نظرية قرارية في الترجمة

سمة اللون الأصفر. والخط الأصفر في المستوى الثاني - مع مراعاة السياق - يفهم بكونه حداً قد لا ينبغي المخاطرة بتجاوزه، نسبةً إلى اللون الأصفر الذي يجسد في قانون السير حداً لا يجب تجاوزه.

النظريات التأويلية

تعطي النظريات التأويلية، في مواجهتها للواقعية المفرطة في النظريات اللسانية في الترجمة، حصة كبرى للبنائية، بتضمينها الفاعلين جميعاً في التواصل. وتضع النظريات التأويلية العنصر البشري في صلب عملية التواصل، بخلاف النظريات اللسانية التي لا تهتم في الواقع إلا باللغة: "بلغ الأمر في تعريف عملية الترجمة حداً تغيب الشخص الذي يترجم والآليات الدماغية المدرجة، لكي لا يُنظر إلا في اللغات، ولكي لا تُرى في عملية الترجمة سوى ردة فعل تبديل لغة بأخرى" (سيليسكوفيتش، 1984:294).

وتتمركز النظريات التأويلية بحزم - في مناهضة تامة للنظريات اللسانية - ضمن منطقية التواصل. وقد وقعت أول قطيعة منهجية معرفية بنفي رأي استقلالية المعنى والتبعية السياقية الصارمة، فالنموذج التأويلي جاء في إصداره الأول نتيجة الملاحظة التنظيرية عن المزاولة المهنية لترجمة المحاضرات الفورية؛ وأفضت بذلك عملية التعليل الاستدلالي إلى صيغة من الحكم العام.

فالموقف التأويلي ينقلب - نوعاً ما - على الحجة اللسانية؛ فلم تعدّ مادة الترجمة في هذا الإطار القول، ولا اللغة، ولا التعبير اللغوي؛ وإنما القصد، المشير إلى ما يعنيه النص. ومن جديد نلقى هنا تقريباً التضاد السوسيري بين اللسان والكلام. فلم تعدّ الكلمات ما ستتناوله الترجمة، بل إنتاج الفعل الكلامي الموضوع مجدداً في موقف التواصل؛ إذ ينبغي عدم التمسك بالكلمات، بل البحث الحثيث عن المعنى الذي ينجلي عنها. ولا تكون الكلمات على نحو معين سوى محرّصات تتيح للقارئ بناء معنى ما. فيستحضر القارئ - ضمن التفاعل بينه وبين النص - ما يعلمه عن الموضوع وعن موقف التواصل، ثم يُسقط معرفته ومكتسبه المعرفي

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

بالعموم، دامجاً إياه في نتيجة تحليله للترميز اللغوي للنص، لإخراج معنى معين. وتؤثر هذه العملية في إسباغ شيء من السمة الذاتية للمترجم على النص المُعد للترجمة، بمشاركة المترجم بفعالية في بناء المعنى - أو القصد - مع إضافته شيئاً من ذاته إليه¹. ويظهر النص في هذا الإطار بصفته كياناً مفتوحاً، فبإمكانه نقل معانٍ متعددة؛ إذ يُسقط كل قارئ - والمترجم قارئ من نوع خاص - على النص ما في حقيقته المعرفية الخاصة لكون المعنى يولد في ذهن القارئ من تلاحم المعارف اللغوية والمعارف الموضوعاتية والمعارف المرتبطة بموقف التواصل وبالظروف المسوَّغة للكلام...

وبذلك يفهم المترجم على الفور في المثال السابق عن قضية الخلايا الجذعية الكاذبة أن اللون الأصفر حدٌّ لا ينبغي تجاوزه، لعلمه بأن الوسط العلمي يحكم بعدم قبول هذا النوع من التزوير العلمي. فلا يتصرف المترجم خلال فك ترميز معنى خاص متبوع بتحديد مؤشرات ضمن السياق - ... لم يوجد قط ... على الرغم من تأكيدات ... هذا الدجل العلمي ... - ليبني معنى متجانساً. ولا تكفي الكلمات لتأويل اللون الأصفر بكونه دالاً على حد لا ينبغي تجاوزه. فما يمتلكه المترجم من معارف عن العالم هي التي تتيح له تفسير هذه المنطوقة بوجه صحيح، من دون أن يرى فيها إحالة ممكنة إلى قانون السير أو إلى إحدى خطوط قطار الأنفاق في مدينة مونتريال².

ويستند الإصدار الأولي للنظرية التأويلية في الترجمة إلى فرضية وجود طور من التجريد الكلامي بين طور الفهم وطور إعادة التعبير. ويستحوذ هذا المنهج المقسم إلى ثلاث وقعات على تقدير عال - على الصعيد التربوي - لجعله المتعلمين للترجمة الفورية والترجمة يتقبلون عدم كون عملية الترجمة تمريناً بسيطاً من الاستنساخ، ومن تحويل رمز لغوي إلى رمز لغوي

¹ انظر بخصوص هذه النقطة كتاب يومبرتو إيكو (المؤلف المفتوح): *L'Euvre ouverte*, Paris : Seuil, 1965; et *Lector in fabula*, Paris : Grasset, 1985.

² تكون خطوط قطار الأنفاق في مدينة مونتريال مرقمة، ولكنها تُعرف على وجه الخصوص من اللون: الخط الأخضر - الخط البرتقالي - الخط الأزرق - الخط الأصفر.

..... نحو نظرية قرارية في الترجمة

آخر، بل لكونها تتضمن استيعاباً للمعنى الذي يتناسب التعبير عنه بعدها (سيليسكوفيتش: 1984). وينطوي هذا الطور الوسيط على فصل بين لغة الانطلاق ولغة الوصول. وبذلك أقيم التجريد الكلامي ضمن نظرية، مع استناده إلى الحدس. ويقود الاعتقاد بهذه الصورة من التنظير القائم على ملاحظة الفرد لمزاولته المهنية الخاصة إلى ضمان صحة فكرة النواظم الكلامية (Think about protocols) لتفسير عمل الآليات الدماغية لدى المترجم - بطريقة علمية كما يعتقد -. وتكمن فكرة البداية بأنه إذا سُمحت مراقبة أداء مترجم المحاضرات الفوري بالاستدلال على ما يجري في دماغه، كان الشخص - بالصورة ذاتها - متيقناً تماماً مما يقوم به، ومن شأن تأمل بسيط في نفسه التمكين من الحصول على مفتاح ما يحدث في العلبة السوداء. وأظهرت هذه الاعتقادات بالتأكيد محدوديتها، واستُخدم الإصدار الأولي للنظرية التأويلية ركيزة لإصدار أكثر تطوراً. ويجد هذا الإصدار المتطور -الوظيفي والمتوائم- جذوره في نموذج رايس & فيرير (1984) المؤسس لنظرية سكوبوس. ويمكن تطبيق هذا النمط النظري على الترجمة التحريرية خصوصاً. فتعود أشد الاختلافات بين مهمة مترجم المحاضرات الفوري ومهمة المترجم إلى ظروف عملية التواصل؛ إذ يستفيد المترجم الفوري من هوية الزمان والمكان والمستقبلين في التواصل، في وقت يعمل فيه المترجم حكماً في وقت لاحق لإنتاج النص الأصلي¹، ويتوجه إلى جماعة من القراء مختلفة عن مستقبلي النص الأصلي. ويمكن أن تتوافق نقاط الاختلاف هذه مع تباين في الـ سكوبوس، أي في وظيفة النص. فيصبح مستقبل الترجمة بهذا، مع الأثر الذي يُود إحداثه فيه وردة الفعل التي يؤمل إحداثها لديه، أحد الحدود المأخوذة بالحسبان في العملية الترجمية. والحاصل أن المواءمة لا تُعد إضافة على الترجمة تدرج بعد إنتاجها، بل طوراً مدمجاً في العملية الترجمية. ويمنح هذا

¹ قمنا بتقديم موازنة بين ظروف مزاولة مهنة المترجم، والمترجم الفوري في مقال بعنوان: (الترجمة الفورية والترجمة: نقاط تشابه واختلاف): «Interpretation et traduction: similitudes et divergences», in Hasan-Ali Yücel, Publication de l'Université technique de Yildiz et de la Hommage à Turquie de l'Unesco, 1996, 173-182. Commission nationale

البعد التواؤمي المترجمَ حرية كبيرة، فيسمح له بإطلاق العنان لإبداعه.¹ بيد أنه يجري تقويم الترجمة حينها قياساً إلى وظيفية نص الوصول. فيمر عندئذ تقويم ترجمة ما من خلال تقدير لنفعها الوظيفي؛ ولما وُجِدَتْ في الغالب أساليب عدة في التعبير بطريقة صحيحة عن قصد ما، وبصورة يمكن للقارئ فهمه واستعماله، كان ثمة ترجمات عدة ممكنة. فالترجمة التي ترضي معايير الوضوح والفعالية والوظيفية هي ترجمة ممكنة، وتكون بمعنى آخر ترجمة يمكن للقارئ تشبيهها على الفور بنص كتبه بعفوية ناطق أصلي، إذ ينقل فعلياً قصد النص الأصلي عينه، الذي يمكن للقارئ استعماله. ولما كانت ترجمات عدة للنص ذاته ممكنة، قُدِّرَتْ جودة الترجمة على الصعيد الخارجي، أي في توافقها مع موقف التواصل. ولا تُفند هذه النظرية الوظيفية في الترجمة أساس النظرية التأويلية التي تشير إلى الدور الأساسي الذي تسهم فيه المكملات المعرفية في بناء المعنى، والذي يجعل من المعنى مادة الترجمة عينها. وهي تذهب إلى أبعد من الموقف العام المرتبط بترجمة المحاضرات الفورية، فاتحة المجال أمام التفكير بظروف الترجمة التحريرية. فتتناول الترجمة التحريرية نصوصاً، وينبغي من الوجهة هذه تحديد ما يُعنى بـ نص. فالنص يجد نفسه متصلاً بـ نصوص أخرى، بعلاقات تُسمى مُتناصّة، تُقود على طريق استحضار دليل مرجعي إلى إسباغ معنى - يفترض أنه - خاص بالتعبير اللغوي الصرف. فنجد إذن أن القراءة تكمن في بناء معنى يتبع المكتسب المعرفي للقارئ. فللنص اعتبار من خلال أبعاده الثلاثة مع مراعاة سياق موضوعاتي وظرفي واسع، واتصاله الخارجي بـ شبكة من النصوص الأخرى. ويتوافق البُعد الأفقي مع معيار الاتصال، أي مع تتالي الجمل المتسلسلة بصورة قِطْعِيَّة؛ وينبغي إضافة بُعد شاقولي متوافق مع معيار الترابط المتمثل بتمفصل الأفكار داخل النص، أي بعبارة أخرى مع حيوية النص. ويتعين أيضاً زيادة بُعد ثالث، وهو بعد تقاطعي متوافق مع معيار التجانس الذي يشارك الصلات التي

¹ وضحنا هذا الموقف النظري في مقال بعنوان (الإبداع في الترجمة التقنية) الذي يستعيد نص محاضرة أقيمت في جامعة هايدلبرغ في كانون الأول 1990 بناء على دعوة البروفيسور هانس فيرمير: «La creativite en traduction technique», Heidelberg TextContext, 9-19, 1991

..... نحو نظرية قرارية في الترجمة

يحوزها النص المراد ترجمته مع نصوص أخرى منتجة قبله¹. فلم يعد بذلك مطروحاً استيعاب النص بطريقة متجزئة وقطعية، لأن نهجاً كذاً قد يجهل بُعدي النص الثاني والثالث؛ ولا يمكن للنهج إذن إلا أن يكون شاملاً. ويمكن الإشارة على هذا الصعيد إلى أن النص يقدم بوتقة يكون فيها الكل أسمى من مجموع الأجزاء. وهكذا فمن الممكن التأكيد بأن معنى المنطوقة أسمى من معاني الكلمات التي تكونها. ويؤثر ذلك في المقاربة الترجمية؛ إذ لم يعد مطروحاً البحث عن مقابلات اللغة، بل عن مكافئات الخطاب؛ سنطرح بمعنى آخر على أنفسنا تساؤلاً لمعرفة كيفية تعبير ناطق أصلي باللغة الهدف - عفوياً - عن القصد المعرف في النص الأصلي. فلا يُنفذ إذن هذا البحث عن المكافئ في المعاجم، بل في البحث الموثّق (ديريو 2007). ويجري البحث الموثّق بصورته المثالية في اللغتين: اللغة المصدر واللغة الهدف. ولا يعني ذلك بالطبع وجدان نصوص مترجمة قبلاً، بل وجدان نصوص كتبها عفوياً ناطقون أصليون لكلتا اللغتين. فليس المهم في الأمر وضع النصين المتكافئين أحدهما مقابل الآخر، بل تحديد أنماط عفوية في تعبير ناطقين أصليين عن الموضوع ذاته. فلا تتيح المقاربة التوثيقية - في موضوع الترجمة - فهم ما يعالجه النص فحسب، لأن الاستفادة من التوثيق تقدّم مكملاً للمعلومات الموضوعاتية، بل تتيح أيضاً وعلى وجه الخصوص الكشف عن كيفية التعبير بصورة طبيعية عن هذه المعارف بإحدى اللغتين وبالأخرى². والنهج الذي ينحدر منه هو بالطبع إعادة كتابة نص له

¹ لا يمكن لهذا البُعد الثالث تجاهل التذكير بمفهوم التناص الذي قدمته جوليا كريستيفا في مؤلفها (أبحاث من أجل تحليل دلالي): *Recherches pour une sémanalyse*, Paris : Seuil, 1978. ويكون النص وفقاً له نصاً ثانياً على الدوام، أي أنه ينتج في جزء منه من الاقتراضات من نموذج ما. وقُدِّمت آن ريبول لاحقاً في مؤلفها: *Dictionnaire encyclopédique de pragmatique*, Paris : Seuil, 1994. (معجم البراغماتية الموسوعي)، تعريفاً للبُعد المتناص بكونه: "قدرة خطاب على الاقتران بـ (أو الانفصال عن) باقي الخطابات التي تتناول الموضوع ذاته" (324).

² عرضنا مطولاً تطبيق المقاربة التوثيقية في كتابنا (أسس تعليمية للترجمة التقنية): *Fondement didactique de la traduction technique*, Paris: Didier Erudition (1988, 2^{ème} ed. 2009). ويُبين الفصل الثاني -

بنيتها الخاصة، وإعادة تكوينه، وإعادة صناعته.

وتكمن الفرضية الأولية في أنه لكل نص مهمة يتعين تأديتها تجاه القراء. فيُقلد المترجم المحترف بدور الوسيط في سلسلة التواصل، وتكون غاية الترجمة إفهام القارئ، وإحداث ردة فعل لديه، ودفعه بالمحصلة إلى الفعل. بيد أن هذه المقاربة البحثية في استيعاب المعنى تضع مفهوم التجريد الكلامي موضع تساؤل. فما هو التفكير المجرد بلا سند كلامي؟ لا يمكن التشبث كثيراً بتأكيد وجود طور من التجريد الكلامي المحشور بين الفهم وإعادة التعبير، لكون المعنى المجرد من الكلام عائماً بين لغتين، كمن يجلس وسط كرسيين. وكيف يمكن زيادو على ذلك تصور عملية متعمدة من التجريد الكلامي لاحقة للفهم؟ فقد يبدو من المنطق عدّ بلوغ المعنى - المتضمن أفعالاً متتالية من الإسناد - جارياً في أثناء طور الفهم لا بعده. ويقود هذا النقد للتجريد الكلامي إلى قطيعة ثانية في المنهج البحثي تؤدي إلى بناء نموذج نظري جديد.

النظريات الاستدلالية

أتى المبدأ الاستدلالي لينوب بقوة عن مفهوم التجريد الكلامي الضبابي، وليفسر غياب الاتصال بين اللغات، وتحوّر العملية الترجمية حول المعنى. فبات ممكناً عندئذ اقتراح إصدار تقديم متأثر بشدة بالعلوم المعرفية. ويتسم النهج المطبق لتنفيذ ترجمة - تُعد عملاً في التواصل بين اللغات والثقافات - بصيغة من تتالي القرارات المتخذة¹؛ إذ تتسلسل القرارات على امتداد العملية الترجمية (قرارات لا إرادية وقرارات إرادية). فالمترجم لا يولي بوجه عفوي الأهمية ذاتها لجميع الوحدات المعجمية التي تؤلف النص المعد للترجمة. ويقرر نوعاً ما وفقاً لما يبدو له جوهرياً، ولما يستحوذ على انتباهه، ولما سيقف عنده لاستيعاب المعنى. فتميل

المخصّص لهذا الموضوع على وجه الخصوص - مع الأمثلة، فاعلية هذا النهج لتنفيذ الترجمات. "يسمح التوثيق الجاد وحده بفهم ما يجري الحديث عنه وكيفية التحدث عنه" (69).

¹ سبق أن عالجت هذه الفكرة مبرزين أنه إن كانت العملية المتفق عليها في اتخاذ القرار قابلة للتطبيق فعلاً، فهي تحدث في إطار خاضع إلى سلسلة من الضوابط (ديريو، 2003).

..... نحو نظرية قرارية في الترجمة

القرارات اللاإرادية للتوضع أكثر في أثناء طور الفهم؛ والقرارات الإرادية في أثناء طور إعادة التعبير عندما ينبغي على المترجم القيام باختيار من بين صياغات ممكنة لإنتاج الترجمة الفعالة أكثر. ويبدو في الواقع أن المقابلات اللغوية المصنّفة كما ينبغي - بما في ذلك في أرقى المعاجم - لا تفرض نفسها بالإجبار على المترجم. فللمترجم كلمة الفصل، وهو الذي يقرر اعتماد مقابل موجود سلفاً، أو يقرر بخلاف ذلك إيجاد مكافئ. ففرض المبدأ التعليمي في حساب المعنى (المتجاوب مع النظريات اللسانية) لتبني المبدأ الاستدلالي في بناء المعنى (المتجاوب مع النظريات التأويلية) يسمي، من الوجهة هذه، المرحلة الأولى في تقدم التفكير الترجمي العلمي. وتفسر المقاربة الاستدلالية تأثيرات المعنى بواسطة مبادئ عملية؛ إذ لا يكون بناء المعنى نتاج معاني الكلمات المؤلفة للمنطوقة، ولكنه ناتج عن عملية متسلسلة استدلالية، أي عن تحليل منطقي، يستثمر معلومات لغوية وغير لغوية بأن واحد، من نحو: الموضوع المعالج والعوامل المحيطة بعملية التواصل، والمركبات المجانية للغة في النص. فالآلية الذهنية المطبّقة لدى المترجم هي من نوع: إذا... فإذا، وذلك هو نموذج محرك الاستدلال المعتمد في الذكاء الاصطناعي. وتتضمن هذه العملية استعادة الذاكرة للمعارف الخارجة عن إطار النص. فتكون الاستدلالات على نحو معين معلومات مفعّلة، مع كونها غير مذكورة علناً؛ إذ تجري عملية دمج الاستدلالات المنتجة والمعلومات الظاهرة، وتؤدي إلى تركيب بنيوي للمعنى. وتتمثل الفكرة التي قدمتها النظريات التأويلية في الترجمة بصيغة حدسية في أن بناء المعنى يحدث من تحريك قراءة النص المعد للترجمة للمعارف اللغوية المفعلة ودمجها، وللمعارف الموضوعاتية المكتسبة سلفاً والمخزنة في ذاكرة المترجم، بهدف بلوغ كل متجانس. بيد أن هذا الدمج لا يحدث في المزاولة المهنية الدارجة إثر حساب طويل، بل بطريقة عفوية، ويضمن استيعاب المعنى وفقاً لمبدأ الملاءمة (سبيربير & ويلسن 1986). فالمعنى العام المحتمل والملائم أكثر هو ذاك الناتج عن معالجة المعلومة التي تقدم التكلفة المعرفية الأقل. ويفرض المعنى المدرك نفسه على الفكر؛ فيفصل مثل بروز صورة على خلفية، ويمكن بهذا الخصوص استحضار نظرية "جشطالت". وهذا - من ناحية أخرى - الأساس النظري الوحيد المعقول

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

لتفسير أداء مترجم المحاضرات في أثناء الترجمة الفورية: فهو يبحر بوجه معين على موجة المعنى.

لنتناول مُجَدِّداً مثال قضية الخلايا الجذعية الكاذبة، فالخط الأصفر في هذا السياق يدرك مباشرة بوصفه حَدّاً غير مادي لا ينبغي تجاوزه، من دون المرور بـ تصور ذهني لخط أصفر محدث على الطريق. ويمكن قراءة الآتي في الفقرة المقتطفة من مقال يعالج موضوع "شرطة الفكر" بخصوص الجدل حول الاستعمار:

يرى عدد من الباحثين أنه مع مقاضاة أوليفيه ب.ج - العالم المسالم الذي أصبح بجسده المدافع رمزاً للحرية المهددة - جرى تجاوز الخط الأبيض.

فالخط في هذه المرة أبيض وقد غير لونه، لكن يفهم مباشرة - هنا أيضاً - الآتي: خطٌ غير مادي قد لا يجب المخاطرة بالمضي بعده. وتوجّه الإحالة بصورة مباشرة أيضاً مع تغيير اللون إلى خط يجب عدم تخطيه.

شركة SFR تتجاوز الخط الأحمر باستهدافها أطفالاً بعمر 11 عاماً. فمُشغّل الهاتف الخليوي يبتعد - مع اختياره لوحة إعلانية عدائية - ألف فرسخٍ عن مبدأ الحيطة.

هل الخطر الذي يتضمنه انتهاك الحد ذي اللون الأحمر هو أكثر هولاً؟ قد نزن ذلك بقراءة ما عنوانته الصحافة بخصوص الحرب الإسرائيلية - اللبنانية في صيف عام 2006:

تجاوزت "إسرائيل" الخط الأحمر، فهل غداً نهاية العالم؟

الخط الأحمر ليس مادياً، ويُحيل إلى فعل الحرب. ولكن نلاحظ أيضاً مع الدخول إلى جنوب لبنان أن الجيش الإسرائيلي قد تجاوز "الخط الأزرق"، أي الحد المرسوم من الأمم المتحدة بين لبنان و"إسرائيل".

فأياً كان لون الخط، فإن فهم الحقيقة شامل وفوري، وليس ثمة حساب للمعنى انطلاقاً من وحدات لغوية، بل استيعابٌ عفوي للمعنى الملائم بفضل ما تسهم به المعارف عن العالم والموقف المثار. وإن بيان بناء المعنى وفقاً لعملية استدلالية لمفيد ضمن غاية تربوية،

..... نحو نظرية قرارية في الترجمة

وخصوصاً في إطار تأهيل مترجمي المستقبل المحترفين. فلم يعد من داعٍ لإثبات فاعلية البحث الموثق لتنفيذ الترجمات، بل يجب أيضاً استغلال المعلومات الملتقطة بحذق، وحشدها على شاكلة معارف للتمكن من تشغيل محرك الاستدلال. ويفرض التعليل المنطقي نفسه في هذا الإطار بوصفه أداة المترجم الأولى؛ إذ تشهد الأمثلة الواقعية المطروحة على نفع النهج المحدّد ضمن تسلسل دقيق من الاقتراحات التي يديرها المنطق (ديريو، 1991). ويدين هذا الموقف في الواقع بالكثير لنظرية الاستبيان لـ جون ديوي (1938):

(i) a felt difficulty; (ii) its location and definition; (iii) suggestion of possible solution; (iv) development by reasoning of the bearings of the suggestion; (v) further observation and experiment leading to its acceptance or rejection; that is the conclusion of belief or disbelief. (ديوي، 1991: 72)

ويكون تطبيقه على العملية الترجمية ملائماً بصورة واضحة. فيسمح توضيح التفكير المنطقي الذي يؤدي إلى اتخاذ القرار بالتححرر من مفهوم التجريد الكلامي الضبابي، وبتجريب إلقاء الضوء على عملية الفهم. ويُسلّم بأن كل معالجة للمعلومة هي فعلٌ تَكرّرٌ منطقي. فتطبّق أنظمة الذكاء الاصطناعي هذا المبدأ. ويدرج كينتش، استناداً إلى نموذج كينتش & فان ديجك (1978) في عمل أحدث (1993)، العمليات الاستدلالية ضمن نموذج نظري أعم من الفهم. بيد أن التفكير على هذا الصعيد يبقى راسخاً في نموذج شكلاني، وفق نظام مختلف بالطبع عن حالة النظريات اللسانية في الترجمة، ولكنه مضبوط مع ذلك بآلية منطقية صرفة تخضع بصرامة لقواعد استدلال تطبيقية.

النظريات القرارية

إذا أولينا عناية لآلية عمل الفكر البشري، فثمة سبب لجعل مبدأ العقلانية المحدودة يتدخل، وتلك هي القطيعة المنهجية الثالثة. فالترجمة بالطبع هي تتابعٌ من القرارات المتخذة، ولكن هذه القرارات ليست في الواقع نتيجة عملية عقلانية محضة يُستحضر فيها تفكير مستند إلى قواعد استدلال دقيقة؛ إذ ينبغي إبداء تحفظين بهذا الخصوص:

يبدو من الملائم بدايةً إضافة المعالجات الموازية التي يقوم بها العقل البشري إلى القرارات المتسلسلة المنفردة؛ ثم يبدو مناسباً أيضاً إفراح مجالٍ للانتباه الانتقائي الذي توجهه العاطفة، والذي يؤثر في القناعات والتفضيلات، ويسهم بدورٍ جوهري في اتخاذ القرار؛ وذلك إلى جانب القوة الكاملة للتفكر المنطقي الذي يمارس جذباً شديداً بكونه تصوراً عن العقلانية المثالية، إذ: "ننبثق عن قرن خاضع لقوة العقل (...) وقوة العقل هذه جعلتنا نظن أن القرار صنيعة التفكير". (بيرتوز، 2003: 7-8).

وربما ظهر مفهوم العقلانية المحددة أول مرة في المجال الاقتصادي (سيمون، 1959)، فجاء واضحاً مبدأ الاستدلال البايزياني الإحصائي الأمثل¹ موضع التساؤل. فلا يقتني المستهلك - مثلاً - منتجاً إثر تحليل عقلائي تماماً للموقف، بل يسلم نفسه لتأثير تفضيلاته وقناعاته. فقيمه الذاتية هي التي ستوجه تأويله لسمات منتج أو خدمة ما، لتكون مادةً لتحليله. ويمكن نقل هذه الملاحظة إلى العملية الترجمية، فليست معارف المترجم المكتسبة فقط هي التي تقوده في بلوغه المعنى الذي يحتويه النص المراد ترجمته، بل تتدخل أيضاً في عملية التأويل/الفهم منظومته من القيم كلها، وتساهم في توجيهه. ويقود الانتباه فضلاً على ذلك نهج الترجمة. فالانتباه في الواقع وظيفة معرفية معقدة تتضمن عملية متسلسلة من الانتقاء؛ بيد أنه إذا وجد انتقاء، فهناك قرار. والقرارات التي تتسلسل لتمنح مادتها للعملية الترجمية ولتسمح بعملها، لا تقوم حصرياً على تحليل عقلائي محض، بل تكون متأثرة بكامل البيئة الشخصية الخاضعة للقيم والمزاجيات. "القرار هو إحداث توازن دقيق بين سلطة العاطفة وقوة المعرفة" (بيرتوز، 2003: 307). ويقترح كامبي (1996) إجراء تمييز بين نمطين من المعالجة مُعرِّفاً الانتباه بأنه شيء من النشاطات المعرفية مرتبط بالطريقة التي تعالج بها المنظومة المعرفية المعلومة؛ فثمة من ناحية العمليات التلقائية، والسريعة، والمتقابلة، واللاشعورية؛ ومن ناحية أخرى العمليات

¹ إنها طريقة في الاستدلال الإحصائي تستند على تقدير الاحتمالات. ويكون الاحتمال المرتبط بحدث منوطاً بالظروف (التي تكون هي أيضاً متأثرة بالاحتمالات) الذي يجري فيها الحدث المعني. هذه طريقة للمساعدة على اتخاذ القرار نتيج مراجعة المرء لخياراته بالتناسب مع التقدم في اكتساب المعلومة وفقاً لنتائجها.

..... نحو نظرية قرارية في الترجمة

المضبوطة، والبطيئة، والمتسلسلة، والمتعمدة. ويرى هذان النمطان مستدعيين في أثناء العملية الترجمية كالاتي: النمط الأول عندما لا يبدي المترجم صعوبة ويقوم بالترجمة بطريقة سلسة، وتُستحضر في الواقع في هذه الحالة عمليات تلقائية؛ والثاني عندما لا يكون الفهم أو التعبير عفويًا، وحينما ينبغي على المترجم القيام ببحث أو تفكر منهجي لحل المشكلة التي اصطدم بها. وقد لا ينحصر حل المشكلات بعمليات منطقية، بل قد يستدعي الحل تفكيراً على صورة اقتراحات مستندة إلى أنماط ذهنية (جونسون - ليرد: 1993). ويضع جونسون - ليرد أيضاً - بـ نظريته في الأنماط الذهنية¹ - موضع التساؤل فاعلية الاستدلال بكونه نمطاً في التفكير ذا طبيعة تقضي إلى قرار معين. فيفصل التفكير الاستدلالي عن الاستنتاج ليشبهه بالاستقراء، مع الحدود التي يقدمها كل تفكر استقرائي. فلا يمكن للمنطق تحديد الحل الوحيد وتقديمه لمشكلة ما، من بين التنوع اللامتناهي في الحلول الممكنة. والكائن البشري من قبيل آخر ليس منطقياً بالفطرة، فهو يرتكب أخطاء. والمترجم ليس مختلفاً، وليس أيضاً مقررّاً عقلياً بصورة مثالية. وتثبت التجربة أن استخدام المخططات البيانية - لتعويض هذا النقص - هو مساعدة رائعة لاتخاذ القرار، وذلك يؤكد فكرة وجود مدرجية فاعلة مغايرة لمحرك الاستدلال² وحده. ويكون التفكير المنطقي بطبيعته - في الواقع - متسلسلاً، وخطياً، ومتجزئاً؛ على حين يعود المخطط البياني إلى إنشاء حيز مكاني ناتج عن معالجة متوازية، بيد أنه أثبت قدرة التصور المكاني

¹ يقترح جونسون - ليرد في نظريته عن الأنماط الذهنية ثلاثة أنواع من التصور: الاقتراحات التي تصوّر العالم على شاكلة سلاسل من الرموز؛ والأنماط الذهنية التي تقدم بنية شبيهة بالعالم؛ والصور التي تعكس السمات المحسوسة للحقائق التي تكون مادة الأنماط. فتحوّل التعابير اللغوية في البداية إلى تصورات على صورة اقتراحات. ثم توجد دلالة اللغة الذهنية مقابلات بين الاقتراحات والأنماط الذهنية، أي تُفسر التصورات التي على صورة اقتراحات بأنماط ذهنية.

² بيتاً سابقاً كيفية مساعدة التصوير البياني للمعلومات المستوعبة من نص الترجمة في معرض القراءة على اتخاذ القرارات الترجمية (ديريو، 1997). ووضّحنا كلامنا بتطبيق الطريقة الموصى بها على مقتطفات من نصوص حقيقية.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

على مساعدة الذاكرة ومساندة اتخاذ القرار وتسهيل التفكير، وكذا بالطبع حال الشكل الهندسي. وفُتح مضمار مكمّل من خلال نظريات التثمين لـ مأكدة أرنولد (1960) ومن ثم لـ لازاروس (2001). فالكائن البشري ضمن هذا المنظور يثمن، في أثناء التروي الذي يسبق القرار، العناصر المعنية. ويسبق نشاط التثمين (appraisal) المعرفي هذا الحكم، أي اتخاذ القرار، وقد يكون أساسياً في ظهور انفعال ما. ويضع الشخص بالحسبان قبل أن يتصرف بطريقة انفعالية عاطفية: من جهة، مركبات أولية - من مثل: الملاءمة والتجانس مقارنة بـ الهدف المرجو -؛ ومن جهة أخرى، مركبات جانبية - من مثل: الاستنكار أو القبول -. وتسببت الفكرة القائلة بأن آليات التقويم والتثمين تسيطر على الانفعالات بجدل واسع. وبعبارة أخرى، يُحتمل تدخل الانفعالات - وفقاً للتدخل الزمني - ضمن امتداد الإدراك والتثمين، ويحتمل تحديدها للقرار. فليس القرار بهذا ردة فعل فحسب، بل تحضير للتصرف أيضاً (بيرتوز، 2003). وهذه وجهة نظر دامازيو (1996، 1995) أيضاً الذي يؤكد عدم كون الانفعال ردة فعل، بل أداة لتحضير الفعل. فالعاطفة أداة للقرار، إنها آلة جبارة لتنبؤ العقل، تستبق نيّاته وتبرزها. وتبدو الانفعالات - في ظل منح الخيارات المتنوعة الممكنة أوزاناً مختلفة - ضرورية في الواقع لاتخاذ القرار ووضع التصرفات العقلانية حيز العمل.

وقد تنشّط العاطفة آليات الانتباه الانتقائي، ولا تستقرىء فقط تحويلاً للعالم المدرك بل انتقاءً للأشياء المدركة أو المهملة في العالم، وقد تعدّل بعُمق اتصال الذاكرة بـ إدراك الحاضر. وقد تكون العاطفة - دليل الفعل - إذن مرشحة إدراكية. "هذه الآلية أساسية للقرار، لأن قراراتنا منوطة كثيراً بما ندركه، وبما يعيّنهُ عقلنا في العالم، وبالطريقة التي يصل فيها الأشياء المدركة بـ الماضي" (بيرتوز، 2003:347).

بالمختصر، يمكن للرسم البياني أدناه أن يحل بصورة مفيدة محلّ الرسوم الشائعة ذات الطورين أو الثلاثة أطوار التي يُفترض أنها توضح العملية الترجمية:

مترجم ← إدراك ← تثمين ← عاطفة ← انتباه انتقائي ← معالجة المعلومة ← قرار

خاتمة

ختاماً، يهدف هذا العرض إلى بيان تطور التفكير الترجمي العلمي وحيويته، والذي يجنح نحو الابتعاد عن الضوابط اللغوية الصارمة ليندرج ضمن نموذج متشابه¹، ويراعي العامل الانفعالي في التواصل بين اللغات والثقافات. وتدل المؤشرات المحددة هنا في الواقع إلى قطيعة حقيقية في المنهج البحثي. بداية: تتناول القطيعة بين النظريات اللسانية والتأويلية ماهية المعنى واستقلاليته مقارنة بـ معاني الوحدات اللغوية. ومن ثم: بين الإصدار الأول للنظرية التأويلية في الترجمة والإصدار المطور، فالقطيعة تتناول المفهوم الجوهرى في التجريد الكلامي، ويقود انتقاد التجريد الكلامي إلى دحض هذا المفهوم وإلى تفسير بناء المعنى عن طريق آلية استدلالية تضع مُحاجةً منطقية دقيقة حيزَ العمل. وأخيراً: يظهر في حالة قطيعة مع هذا النموذج الشكلي في أعقاب العلوم المعرفية، إطاراً نظرياً جديداً رافضاً للسلطة المطلقة للمنطق ومدرجاً العاطفة في كل نشاط معرفي، ليفضي هذا الانفتاح إلى صياغة نظرية جديدة في الترجمة تتمحور حول القرار الذي تديره العاطفة.

¹ بينا في مشاركة سابقة أن عملية الترجمة مدرجة معقدة، تضم طوراً طويلاً من عدم الاستقرار بين حالتين مستقرتين يجسدهما النص الأصلي والترجمة المنتجة (ديريو، 2005A).

المراجع

- ARNOLD Magda B., *Emotion and Personality*, vol. 1, *Psychological Aspects*, New York: Columbia University Press, 1960.
- BERTHOZ Alain, *La Décision*, Paris : Odile Jacob, 2003.
- CAMUS Jean-Francois, *La Psychologie cognitive de l'attention*, Paris : Armand Colin, 1996.
- DAMASIO Antonio, *L'Erreur de Descartes*, Paris : Odile Jacob, 1995.
- *Le Sentiment même de soi*, Paris : Odile Jacob, 1999.
- DEWEY John, *Logic: The Theory of Enquiry*, Holt & Co, 1938, [trad. française : *Logique – La théorie de l'enquête*, Paris: PUF, 1967].
- *How We Think*, New York: Prometheus Books, 1991, [ed. originale : Lexington, MA., D.C.: Heath, 1910].
- DURIEUX Ch., « Le raisonnement logique: premier outil du traducteur », in *Etudes Traductologiques*, Minard, 1990, 189-200.
- « Traduction et linguistique textuelle », *Terminologie et Traduction*, Commission des Communautés Européennes, Bruxelles, No. 1, 1997, 48-62.
- « La traduction, exemple d'application de la prise de décisions sous contraintes », in *Les décisions sous contraintes*, Caen : Presses Universitaires de Caen, 2003, 169-182.
- « La traduction : illustration d'un processus complexe », in *Complexité*, Bernard Cadet (dir.), Caen : Presses Universitaires de Caen, 2005a, 179-192.
- « L'enseignement de la traduction : enjeux et démarches », *Meta*, vol. 50/1, Montreal, 2005b, 36-47.
- « Le dictionnaire bilingue : quel outil pour le traducteur ? », Actes du colloque *Sens propre et sens figuré*, Tunis : Dar al-Mouna, 2007, 101-110.
- GIGERENZER Gerd & Reinhard STELTEN, *Bounded Rationality. The Adaptive Toolbox*, Cambridge: MIT Press, 2001.
- JOHNSON-LAIRD Philip & Eldar SHAFIR, « The Interaction between Reasoning and Decision Making: An Introduction », *Cognition*, No. 49, 1993, 1-9.
- JOHNSON-LAIRD Philip, « Mental Models and Deduction », *Trends in Cognitive Science*, Vol. 5, No. 10, 2001, 434-442.
- KINTSCH Walter & Teun VAN DIJK, « Towards a Model of Discourse Comprehension and Production », *Psychological Review*, 85, 1978, 363-394.
- KINTSCH Walter, « Information Accretion and Reduction in Text Processing, Inferences », *Discourse Processes*, 16, 1993, 193-202.
- LAZARUS Richard, « Relational Meaning and Discrete Emotions » in *Appraisal Processes in Emotion*, Oxford: Oxford University Press, 2001, 41 sq.
- MORIN Edgar, *Science avec conscience*, Paris : Fayard, 1990.

نحو نظرية قرارية في الترجمة

- REISS Katharina & Hans J. VERMEER, *Grundlegung einer allgemeinen Translationtheorie*, Tübingen: Niemeyer, 1984.
- SELESKOVITCH Danica & Marianne LEDERER, *Interpréter pour traduire*, Paris : Didier Erudition, 1984, 294-308.
- SIMON Herbert, « Theories of Decision Making » in Economics and Behavioural Science, *American Economic Review*, No. 49, 1959, 253-280.
- SPERBER Dan & Deirdre WILSON, *Relevance, Communication and Cognition*, Oxford: Basil Blackwell, 1986, [trad. fr. *La pertinence. Communication et cognition*, Paris: Ed. de Minuit, 1989].

نحو سياسة للحراك

تيم كريسويل

ترجمة: محمود أحمد عبد الله*

القاهرة

شهدت السنوات القليلة الماضية الإعلانَ عن "نموذج الحراك الجديد"، وإطلاقَ مجلة الحراك، وعدداً من النصوص الرئيسية ومجموعاتٍ من الكتب المحررة التي خصصت للموضوع. ولقد أفادت الأعمال الفكرية المستوحاة من نموذج الحراك الجديد عدداً من الكتابات المتناولة لأشكال الحراك وأماكنها التي تبدأ من الحراك بالقيادة وعبر الطرق إلى الحراك بالطيران ومن الموانئ. وهذا ليس المكان المناسب لاستعراضها. والأحرى أن الهدف العام من هذه الورقة هو مواصلة مناقشة الأفكار المتصلة بنموذج الحراك الجديد، وتطوير بعض الأفكار التي ارتبطت به. على وجه الخصوص، تطور هذه الورقة مقارنة استخداماتها في كتاب "على الطريق: الحراك في العالم الغربي الحديث". ففي هذا الكتاب حددت دور الحراك في عدد من دراسات الحالة، بدءاً من الحركات الدقيقة للجسم حتى سياسة السفر العالمية. ولم يتضمن الكتاب تحليلاً مفصلاً لمختلف جوانب الحراك، يبين قوتها السياسية. وهذه الورقة، إذن، محاولة لتوضيح بعض الأفكار الرئيسية لمقاربة نظرية لسياسة الحراك. استراتيجياً، فإنها تستخدم أفكارَ منظرين آخرين، ومجموعة متنوعة من الأمثلة الواقعية. وهي لا تنتمي إلى نموذج نظري بعينه، ولكنها تسعى إلى المساهمة في تطوير مقارنة جغرافية للتنقل. فهي جزء من عملية مستمرة من البناء النظري.

تسعى الورقة إلى تحقيق هذه الأهداف بطريقتين رئيسيتين: أولاً، تقسيم الحراك إلى ست

* مدرس بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة.

أجزاء مكونة له (قوة الدافع، والسرعة، والإيقاع، والطريق، والخبرة والعائق) من أجل فهم سياسات الحراك، وثانياً، تطوير مفهوم "مجموعات الحراك" كتشكيلات من الحركات ذات الخصوصية التاريخية والجغرافية، والروايات السائدة حول الحراك وممارساته، والتي تكشف عن أهمية المنظور التاريخي الذي يخفف من الشعور الطاعني بالحدثاء والجدة في بحوث الحراك. ومع ذلك علينا أولاً النظر في فكرة نموذج الحراك الجديد.

هل ثمة نموذج جديد للحراك ؟

لقد اقترح برونو لاتور أن هناك ثلاث مشاكل مع مصطلح "نظرية شبكة الفاعل" وهي المشكلات المتمثلة في الكلمات "فاعل" و"شبكة" و"نظرية". والفكرة ذاتها نجدها مع القول بنموذج للتنقلات جديد. ف أولاً كلمة نموذج توحى بالمعنى الذي قصد إليه كون في فهمه للعلوم الطبيعية التي تتغير بالثورات المفاجئة: حيث ما كان سلفاً تذروه الرياح داخل التاريخ الأكاديمي. وعلينا أن نكون حذرين بشأن هذا المعنى. فأني دراسة للتنقل تخاطر بالقول بأن المفاهيم الجامدة (ظناً)، مثل الحدود والأطر والمكان والأرض والمناظر الطبيعية، هي من الماضي ولم تعد ذات صلة بعالم القرن الواحد والعشرين الكثير التقلب. هذا خطأ، ولكي نكون منصفين، لن يكون قائماً في نموذج الحراك الجديد حيث أن الاستقرار له أهمية الحراك. والمشكلة الثانية تتعلق بتنوع فهم صور الحراك الجديد، فلو كان الاهتمام بكلمة "جديد"، فإن هذا يعني أن المهمم معني بنموذج الحراك القديم، ولو كان الاهتمام منصبا على كلمة "تنقلات"، فإن ذلك الاهتمام يعني أن النماذج القديمة اهتمت بالثبات أو الاستقرار. ثاني هذه الخيارات يبدو متعذراً لأن الحركات أياً كان نوعها، هي موضع اهتمام كل العلوم الاجتماعية (لاسيما الجغرافيا) منذ بدايتها.

وفي علم الاجتماع، كانت مفاهيم الحركة والحراك مركزية لدى مفكرين مثل جورج زيمل وعلماء اجتماع مدرسة شيكاغو. وإذا نظرنا إلى علم الجغرافيا، نجد فيه فروعاً علمية تهتم بالأشياء والناس في وضع الحركة، بدءاً من اهتمام سوير suer بالأصول والتفرق، من خلال

..... نحو سياسة للحراك

تركيز العلوم المكانية على نماذج الجاذبية ونظرية التفاعل عبر المكان ومفاهيم الفضاء الهش عند فورير، حتى المقاربات النسوية وأنماط الحراك اليومي، أعني علوم جغرافيا النقل، ونظرية الهجرة وجغرافيات الزمن والسياحة - والقائمة لا تنتهي. ويمكن أن يقال نفس الأمر على الأنثربولوجيا. ومن ثمّ فإن سؤالاً يطرح نفسه: ما الجديد في نموذج الحراك الجديد؟

على الرغم من كل المحاذير المذكورة، من الواضح أن هناك شيئاً جديداً في مناهج مقارنة الحراك حالياً، تختلف عن المناهج السابقة لدراسة الحركة والهجرة والنقل (إن أردنا ذكر ثلاثة من طرق الحراك التي لطالما دُرست). فمقاربة الحراك تجمع مجموعة متنوعة من أشكال الحراك عبر مستويات تبدأ من جسم الإنسان (أو أجزاء منه) إلى العالم. هذه المجالات البحثية قد حددت حدودها تخصصات منضبطة وشبه منضبطة قاومت الفهم الكلي للتنقلات. فضلاً على ذلك فإن المقاربات المذكورة نادراً ما دارت حول الحراك، وإنما تعاملت مع حركة الإنسان كأمر مفروغ منه - مساحة فارغة تحتاج إلى المحو أو التقييد. ففي نظرية الهجرة، تقع الحركة من مكان لآخر لأن المكان الأول يدفع الناس للخروج والآخر يجذبهم إليه، ومع أنها تدور حول الحركة، نجدها تدور حقاً حول الأماكن. وبالمثل، كثيراً ما ظننت دراسات النقل ورأت في الوقت عند العبور "الوقت الجامد" الذي لا يحدث فيه أي شيء - وهي المشكلة التي يمكن حلها تقنياً. ولقد بدأت دراسات الحراك والحراك في التعامل مع الحركة على محمل الجد.

لقد ذهبت إلى أن الحراك مرتبط بعلاقة بالحركة ارتباط المكان بالموقع، وأن الحراك ينطوي على الانخراط في تحريك البدن، وعلى تمثيلات وممارسات. وزيادةً على ذلك، هذا الانخراط له آثار تاريخية وجغرافية. وهناك مجموعات سائدة من الحراك - أنماط معينة من الحركة، وتصورات عن الحركة وسبل ممارستها، لها معنى في وجودها معاً. ومجموعة الحراك القديمة يمكن لها أن تخترق الوقت الحاضر بطرق مدهشة. ولنا قبل أن ننتقل إلى ستة جوانب لسياسة الحراك أن نعرّف الحراك كانخراط في الحركة والتمثيل والممارسة.

الحركة، والتمثيل، والممارسة

انظر، إذن، إلى هذه الجوانب الثلاثة لفعل الحَرَاك، أي جوانب حقيقة الحركة المادية: الانتقال من مكان إلى آخر، وتصورات عن الحركة تضيف عليها معنى مشتركاً، وأخيراً، ممارسة للحركة متحققة ومختبرة. وفي الواقع هذه الجوانب ليس من اليسير فصل بعضها عن بعض. فهي مرتبطة بعضها ببعض. والفصل بينها هو لغرض تحليلي، ولبناء النظرية. ولعل بعض بحوث الحَرَاك تفضل بحث أي جانب من هذه الجوانب الثلاثة. فالمتخصصون في بحوث النقل، على سبيل المثال، بذلوا جهوداً لإفهامنا حقيقة الحركة، وكيف تحدث غالباً، بأي سرعة، وأين. وفي الآونة الأخيرة، قدموا لنا معلومات عن الذي ينتقل وكيف تتغير هويته. ولكنهم لم يبذلوا جهداً كافياً لإفادتنا في التعريف بالتصورات والمعاني الواردة حول الحَرَاك سواء على المستوى الفردي أو على المستوى المجتمعي. ولم يخبرونا كيف يحدث الحَرَاك ويمارس. فحركة الأجساد الحقيقية لم تكن موضع اهتمامهم في دراسات النقل. ولعل فهم الحَرَاك بشكل كلي يعني الالتفات للجوانب الثلاثة السالفة الذكر.

إن الحركة البدنية هي المادة الخام اللازمة لإنتاج الحَرَاك. والناس تنتقل، والأشياء تتحرك، والأفكار تمر. ومع توفر الأدوات العلمية اللازمة يمكن قياس الحركة ووضع خرائط لها. يمكن إجراء القياس باستعمال المعادلات، ومنها نخرج بالقوانين العلمية. هذا التحليل الوضعي للحركة مستعمل في جميع المجالات. فاستعملت فكرة الحركة البدنية للجسم البشري لتطوير نموذج الحَرَاك في دراسات العلاج الرياضي، والرسوم المتحركة. وفي المدن، يقوم مهندسو النقل بوضع نماذج للحركة المادية الميكانيكية من أجل جعل النقل أكثر كفاءة أو أقل ضرراً بالبيئة. وفي المطارات ومحطات السكك الحديدية استعمل المخططون نماذج تحليل المسار النقدي لقياس الوقت المستغرق بين نقطتين والعمل على تقصيره. ولذلك فإن فهم الحركة البدنية هو جانب واحد من جوانب فهم الحَرَاك. ولكن هذا لا يفهمنا ماذا يعني هذا الحَرَاك أو كيف يمارس.

..... نحو سياسة للحراك

وكما يوجد جهود كبيرة لقياس الحَراك ووضع نماذج له، كذلك يوجد تصورات عديدة للحركة. فقد تم تصوير الحَراك بوصفه مغامرة، وشيئاً يدعو للملل، وفرصة للتعلم، والحرية، وأمر حداثي، وخطر داهم. انظر إلى الصلات المعقودة حالياً بين حركة المهاجرين ومعاني التهديد التي نراها في استعارات الفيضانات والغرق التي تستخدم من قبل الصحفيين والسياسيين. أو بالأحرى تفكّر في فكرة الحق في الحَراك باعتبارها عنصراً أساسياً في المواطنة الغربية الحديثة التي يتم التعبير عنها في الوثائق القانونية والحكومية. وانظر في جميع المعاني المستدل عليها في إعلانات السيارات أو الهواتف المحمولة. ولنضرب مثلاً بوحدة من الممارسات المرتبطة بالتحرك، أعني مسألة المشي التي ارتبطت بمجموعة من المعاني العميقة التي تبدأ من معنى الانصياع حتى التمرد في الأدب والسينما والفلسفة والفنون. وقد انخرط الجغرافيون، وأصحاب النظريات الاجتماعية وغيرهم في نسج القصص حول الحَراك. ولقد صورناه في مخيلتنا كأمر مختل، وزائف وبلا أصول، وفي الآونة الأخيرة كدليل على التحرر وآثم ومضادٌ للأصول.

وأخيراً، هناك جانب الممارسة. وأعني بها ما نعيشه من ممارسات في حياتنا اليومية، مثل المشي أو القيادة، وأعني بها ما تعنيه النظرية الاجتماعية أي الممارسات التي يترتب عليها الإنسان. فالحَراك البشري هو برأيي حَراك ممارس، أي يقوم به الإنسان ويخبره بجسمه. أحياناً نتعب وتكون الحركة مؤلمة، وأحياناً نتحرك مفعمين بالأمل ونخطو خطوات سريعة. وحين نهمل بالسفر تعتمد مشاعرنا في الحركة داخل المطار على هويتنا وماذا يمكن أن نتوقع عندما نصل مقدمة الصف. كذلك تختلف مشاعرنا بشأن قيادة السيارة فهي مصدر للحرية، أو مثيرة للحنق، أو تدعو للشعور بالذنب. وسواء اخترنا الحَراك أو اضطررنا إليه، فهو يؤثر فينا. وفي بعض الأحيان تتطابق خبرتنا بالحَراك مع تصوراتنا عنها. فنحن نخبر الحَراك كشعور بالحرية عندما تلع الطائفة وترتفع. وفي أوقات أخرى، يوجد تنافر بين التصورات والممارسة. كما هو الحال حين نقف في ازدحام المرور. فخبرة الحَراك وممارسته تجمع بين العالم الداخلي للإرادة والعادة والعالم الخارجي للتوقع والإكراه. وفي نهاية المطاف، نقول بأن

الجسد هو مصدر إنتاج الحراك البشري وتكراره وتغييره.

إن الانتقال من ألف إلى باء يختلف باختلاف حركة الجسم. فأى دراسة معنية بالحراك عليها أن تشمل كل ما يقوم به الناس من أعمال عندما يتحركون بطرق مختلفة. فالمشي، والرقص، والقيادة، والتحليق، والجري، والإبحار، ممارسات أدّت أدواراً هامة في بناء النظرية الاجتماعية والثقافية، والفلسفة والرواية. ولننظر في فعل المشي مثلاً. يمكننا أن نفكر في طريقة استعمال ميشال دي سيرتو له لدراسة القواعد المتحركة في المكان داخل المدينة التي تصور مشهداً مُعدّاً سلفاً لتكتيكات المشي الماكرة:

تتاور ملحمة المشي التنظيمات المكانية، مهما كان سلطانها الشامل: وهي ليست غريبة عن هذه التنظيمات (فهي تحدث داخلها فقط) ولا تتفق معها (فهي لا تستمد هويتها منها). وتخلق فيها الظلال والغموض.

هذه قصة عن المشي تعيد سرد أدبيات يقف فيها السائر في مقام المتمرد والحر والشخص المستقل في المدينة - بطل المشاة. فممارسة المشي ليست مجرد الحراك من نقطة ألف إلى باء، بل هي، على الأقل جزئياً، تتشكل ممّا يدور حولها من خطابات. فإمكانية المشي مغلفة بروايات عن الجدارة والأخلاق والجمال التي تتناقض باستمرار مع أشكال الحركة المبالغة في ميكانيكيته التي جرى تصويرها باعتبارها حركات أقلّ جدارة، وأصالة، وأقلّ أخلاقية. وما يهم هو أين تجري عملية المشي - فالمشي في القرن التاسع عشر بباريس مختلف جداً عن المشي في المناطق الريفية في مالي أو السير في الريف البريطاني المعاصر.

وإضافةً إلى كون المشي حركة بدنية يمكن تتبع آثارها ورسم خريطة لها ويجري تصويرها رمزياً، فإنه أيضاً ممارسة متجسدة نخبرها على نحو لم يلتفت لأبعادها الموضوعية أو أبعادها الاجتماعية والثقافية. وهنا تساعد مقاربات الدرس الظاهراتي والنظريات غير التمثيلية في إعطاء نظرة ثاقبة لتجربة المشي. ولعل مجموعة مماثلة من الملاحظات يمكن صياغتها حول كافة أشكال الحراك - أن لها حقيقة مادية، ويجري ترميزها ثقافياً واجتماعياً

..... نحو سياسة للحراك

وتعاش من خلال الممارسة. وأهمّ من ذلك، أن كلا من أشكال الحراك وجوانبه سياسية - فهي منخرطة في إنتاج القوة وعلاقات الهيمنة.

سنة عناصر لسياسة الحراك

أعني بالسياسة العلاقات الاجتماعية التي تتطوي على إنتاج القوة وتوزيعها. وأعني بسياسة الحراك كيف تنتج الحراك العلاقات الاجتماعية وتنتج من خلالها. والعلاقات الاجتماعية بطبيعة الحال معقدة ومتنوعة. وتشمل العلاقات بين الطبقات والجنسين والأعراق والقوميات والجماعات الدينية، وكذلك هي وعاء لأشكال أخرى من الهوية الجماعية.

والحراك، كما هو الحال مع الظواهر الجغرافية الأخرى، يقع في قلب كل هذه العلاقات. هو مورد يتباين الناس في حصولهم عليه. ذلك أن سرعة شخص تعني ببطء شخص آخر. فالبعض يتحرك بطريقة تجعل الآخرين يكونون ثابتين في مكانهم. والأمثلة على ذلك وفيرة. انظر إحصار الأبناء من المدرسة حيث يسمح للنساء بممارسة نموذج كفاء للتنقل كثيراً ما حرموا منه. وفي نفس الوقت يؤثر هذا في قدرة الطفل على المشي إلى المدرسة، ويجعل الشوارع أقل أماناً للمشاة. وقليل ما نعرفه حول هذا التشابك بين الجنس والعمر والحراك. وانظر في مسألة فتح الاتحاد الأوروبي للحدود تمكيناً لسنّ شعار الاتحاد الأوروبي، شعار حرية الحركة. وهذا بدوره يعتمد على غلق الحراك على حدود - وفي كثير من الأحيان مطارات - أوروبا الجديدة. فالسرعة والبطء والثبات أمور مترابطة على نحو يجعلها مرتبطة تماماً بالسلطة وتوزيعها بين الناس.

إن سياسة الحراك تربو إذا كنا نفكر فيها من جهة الحركة المادية، والتصوير، والممارسة. ومن الواضح أن هناك سياسة للحركة المادية. من الذي يتحرك أبعد؟ من الذي يتحرك أسرع؟ من الذي يتحرك معظم الأحيان؟ هذه كلها عناصر هامة في سياسة الحراك، يمكن للمقاربات التقليدية الإجابة عنها جزئياً في دراسات النقل. ولكن هذه ليست سوى البداية. هناك أيضاً سياسة التمثيل والتصوير. أي كيف يتشكل معنى الحراك؟ ما الروايات التي بُنيت حول

الحَرَكَ؟ كيف يجري تصوير الحَرَكَ؟ فبعض الروايات التأسيسية للحادثة أنشئت حول حقيقة التحرك الخام - الحَرَكَ كحرية والحَرَكَ كتقدم. حيث تظهر اللغة اليومية وتكشف بعض المعاني التي تصاحب فكرة الحركة. ونحن نحاول دائماً الحصول على مكان ما. ولا أحد يريد أن يكون ثابتاً في مكانه أو موصولاً. تظهر هذه القصص في كل مكان بداية من إعلانات السيارات حتى نظرية الاقتصاد السياسي.

انظر في فعل المشي مرة أخرى. لقد اقترح منظر الإعاقة على مايكل أوليفر أن هناك أيديولوجية للمشي تضيف على المشي مجموعة من المعاني المرتبطة بالإنسان وبالذكر. فعدم القدرة على المشي لا ترقى بصاحبها أن يكون إنساناً كاملاً. فالثقافة الشعبية تخبرنا بأن "المشي لمسافة طويلة" هو علامة على الرجولة: والمهن الطبية تَقِفُ نفسها في السعي لجعل أولئك الذين لا يستطيعون المشي يمشون مرة أخرى. وفيها يُسعى لتطوير جميع أنواع التقنيات التي تمكن الناس من المشي. وتأثير مثل هذه الثقافة الإسعافية، بحسب ما يقوله لنا، يمكن أن يكون تأثيراً مدمراً تماماً على أولئك الذين يتلقون العلاج. وكما يقول أوليفر "إن عدم المشي أو رفض المشي تقريباً كاختيار شخصي يهدد سلطة المتخصصين، ويفضح أيديولوجيا السواء الطبيعي ويطعن في ممارسة إعادة التأهيل كلها". هنا يكون الحَرَكَ، ولاسيما المعاني المتصورة المرتبطة بممارسات معينة، هو عمل سياسي للغاية.

وأخيراً، وربما أهم من ذلك كله، هناك سياسة ممارسة الحَرَكَ. كيف يتجسد الحَرَكَ؟ كيف يكون الحَرَكَ مريحاً؟ هل هو قسري أم مجاني؟ فالرجل والمرأة، أو رجل الأعمال وموظف المحليات، أو السائح واللاجئ قد يمر بخريطة تربط النقطة ألف بالنقطة باء بشكل مختلف تماماً. فحقيقة الحركة، والمعاني المرتبطة بها، والممارسة المعيشة كلها أمور متشابكة معاً. فصورة الحركة يمكن أن تؤثر بالتأكيد في تجربة ممارستها. انظر إلى المهاجرين المكسيكيين في الولايات المتحدة مثلاً. وقارن أحدهم بأحد أعضاء شركة متعددة الجنسيات ينتقل بين مدن العالم. وانظر لصورة قطار البولمان الذي يتحرك خلال المناظر الطبيعية في أمريكا أواخر القرن التاسع عشر. ولعلك تجد في المقطع التالي وصفا يقدمه صحفي في برنامج أخبار شيكاغو:

..... نحو سياسة للحراك

إن العالم يحترم الرجل الغني الذي اعتاد أن يكون متجولاً حول العالم، ويركب في حُجرة الدرجة الأولى وسيارات البولمان، بل ولديه ميل للنظر شزراً إلى المتشرد الذي يضطر لاستخدام المقطورات، تلبية لهذا الدافع القوي جداً، يرفع اللوح الموجود تحت البولمان أو بطرق أخرى يغامر بسلامة حياته وسلامة عظامه.

هنا لدينا بالضبط نفس فعل الانتقال من النقطة ألف للنقطة باء ولكن لدينا ممارسات ومعانٍ مختلفة تماماً عن الحراك. فالرحالة يجلس على مقعد فخم مخملي ويختار من قوائم النوبيذ الطويلة، في حين يسافر المتشرد وهو على وشك الموت على لوح خشبي غير مستقر على محاور عجالات نفس عربة النقل التي يركبها الرحالة. إن الرحالة يدل على عالم مختلف عن عالم المتشرد. والحكايات والخطابات المحيطة بهم تجعل تنقلاتهم ممكنة، وتؤثر في هذه الممارسات المتباينة. وفي الواقع، منذ خمسين عاماً لم يكن هناك وجود للرحالة والمتشرد، تماماً كما لم يوجد عربة البولمان أو طرق السكك الحديدية العابرة للقارات. هذه الأماكن، والذوات والممارسات متشابكة في تلك اللحظة بالذات.

لاشك كما يبدو في أن الحركة مورد من الموارد الرئيسية للحياة في القرن الواحد والعشرين، واختلاف الناس في الحصول عليها وامتلاكها هو الذي ينتج بعض الاختلافات البالغة اليوم. ولكن هذه الحجة لا تزال موحية أكثر من كونها محددة. ولا تزال هناك مهمة تقسيم الحراك إلى جوانب مختلفة من التحركات، لكل منها دور في بناء التسلسل الهرمي للحركة وسياسة الحراك. وفي هذه العملية نستطيع أن نتعرف على كيف يصبح الحراك والحركة سياسياً. سأتناول لاحقاً ستة جوانب للتنقل، ولكل منها سياسة، من الضروري النظر فيها.

أولاً: لماذا يتحرك الإنسان أو الأشياء؟ فالشيء الواحد لا بد أن يمتلك قوة خارجية تدفعه للتحرك. على حين هذه القوة المحركة تبدو مع البشر معقدة لأنها تأتي من داخل الإنسان ومن خارجه. كما تمتاز مثل هذه القوة الدافعة بأن هناك فارقاً هاماً بين أن يكون الإنسان مجبراً

على الحراك أو أن يختار ذلك طوعاً. هذا الفارق هو في صميم مناقشة "ريجمونت بومان" في تمييزه بين السائح والمتشرد: أولئك "العليون" مفتنعون بأن سفرهم عبر الحياة برغبة قلوبهم واختيارها فيختارون وجهتهم وفقاً للأفراح التي يُمنون بها. وهؤلاء "السفليون" يطردون مراراً وتكراراً من مواقع يفضلون البقاء فيها... وإذا لم يتحركوا، فغالباً ما يسحب الموقع بعيداً من تحت أقدامهم، لذلك يشعر الواحد منهم وكأنه في ارتحال.

بطبيعة الحال، الفرق بين الاختيار وعدم الاختيار غير واضح أبداً وهناك درجات بينهما. حتى إن أعضاء النخبة الكثيري الحراك، الذين ينتقلون على ما يبدو بسهولة عبر العالم، يجب أن يشعروا أنهم مضطرون لتسجيل الدخول إلى الفنادق ولحجز رحلات الدرجة الأولى إلى وجهات بعيدة. ومع ذلك، فإن هذا الفارق الأساسي بين الحرية والاضطرار عند الحراك هو محور أي تسلسل هرمي، ومن ثم أي سياسة للتنقل. فاختيار الحراك أو العكس أمر أساسي لكافة حقوق الإنسان في الدولة القومية وداخل الأنظمة "العالمية".

ثانياً: ما مدى سرعة الإنسان أو الأشياء عندما يتحركان؟ فالسرعة هي مورد ثمين وموضوع استثمار ثقافي كبير. ونراها لدى بول فيريليو، في اتصالها بتطور التكنولوجيا العسكرية خاصة، هو المحرك الرئيس للتطور التاريخي. ففي كتابه السرعة والسياسة وفي غيره، يرسم صورة لسرعة متزايدة تغمر الإنسانية. وبحسب فهمه، فإن أموراً شديدة الوضوح مثل المكان هي نتاج سرعات متغيرة وليست نتاج القانون والثبات. وهو يفترض "علماً للسرعة" يمكنه مساعدتنا في فهم مآزقنا الحالي. وكلما كنا أسرع، تعرضت حرياتنا لمزيد من المخاطر:

إن عمى سرعة وسائل نقل الدمار ليس تحريراً من عبودية الجغرافيا، ولكنها إبادة للمكان، كمجال لحرية العمل السياسي. نحن فقط بحاجة إلى الرجوع إلى الضوابط والقيود الضرورية المفروضة على البنية الأساسية للسكك الحديدية، والبنية الأساسية لمجاري الهواء أو الطرق السريعة لمعرفة الدافع القاتل: كلما ازدادت السرعة، تنقص الحرية أسرع.

..... نحو سياسة للحراك

تصبح السرعة في ذروتها فورية - فسرعة الضوء التي يدعيها فيريليو هي في قلب العولمة. إنها السرعة التي يمكن أن تنتقل بها المعلومات في جميع أنحاء العالم ولها تأثيرات عميقة على الأماكن الصلبة والدائمة نسبياً.

ولكن السرعة البشرية هي مركز الهرمية في فعل الحراك. فأن تكون قادراً على الوصول إلى مكان ما بسرعة مسألة ترتبط ارتباطاً قوياً بالتفرد. حتى في السفر الجوي - حيث منذ زوال طائرة الكونكورد، جميع درجات سفر للركاب لها نفس السرعة - فهؤلاء العلويون، بتعبير بومان، قادرون على المرور بسلسلة عبر المطار إلى السيارة المتوقفة بالقرب من المحطة. وفي المطارات مثل مطار شيبول بامستردام، يستطيع المسافرون من رجال الأعمال التوقيع على خطة بريفيام، حيث يتطوعون بإجراء المسح الضوئي لقرحتهم للقيام بمعالجة بيومترية في خط الهجرة السريع. وهذا يحرر مسؤولي الهجرة في مراقبة خط الوافدين الأجانب البطيء الذين هم ليسم مسافرين من رجال الأعمال. وعلى هذا النحو تترابط السرعة والبطء منطقياً وعملياً. فليست دائماً السرعات العالية هي التي موضع تقدير. انظر إلى انتقالات الغذاء والثقافة البطيئة. كيف يمكنك أن تكون من الطبقة البرجوازية؟ ومن لديه الوقت والمكان ليكون بطيئاً بمحض إرادته؟ وعلى حد قول جون توملينسون فيما يتعلق ببطء حركة المدينة الإيطالية، أي مدينة سينا البطيئة:

إن مدينة سينا البطيئة، عند تنمية البلدات الصغيرة (خمسون ألف نسمة أو أقل) تمثل مصالح دائرة مكانية وثقافية معينة ورأس المال. بمعنى أنها يمكن اعتبارها جيوب دفاعية عن المصلحة، بدلاً من أن تمثل نموذجاً معقولاً لمزيد من التحول الاجتماعي العام.

بالنسبة للبعض، البطء أمر مستحيل. انظر إلى العمال في فيلم العصر الحديث لتشارلي شابلن. ففي المشاهد الافتتاحية الشهيرة نرى صفاً من العمال بالقرب من السير المحيط بالمكسرات كعنصر غير محدد في خط الإنتاج الضخم. ونرى مدير المصنع يقرأ الجريدة

ويتمتع بتناول الإفطار على مهل. وتحدث مقاطعة هذا عندما يدلي بأوامره "بزيادة السرعة" على خط الإنتاج أدناه. وهنا يستخدم شابلقن مبادئ مذهب تايلور لنقد إنتاج العمال السريع عبر الزمن والحركة. هنا السرعة ليست بالتأكيد ترفاً. بل فرض يعاني منه هؤلاء "السفليون".

ثالثاً: بأي إيقاع يتحرك الإنسان أو تتحرك الأشياء؟ الإيقاع عنصر هام من عناصر الحراك بمستويات مختلفة. وتتكون الإيقاعات من لحظات متكررة من الحركة ومن الراحة، أو بالأحرى، ببساطة حركات متكررة لها مقياس معين. ولعل مخطط هنري لوفيفر لتحليل الإيقاع وسيلة لتفسير العالم الاجتماعي مخططاً موحّجاً جداً. حيث يعيد إلى الأذهان المفاهيم الظاهرية عن "مكان - الباليه" التي وضعها ديفيد سيمون وأعيدت أخيراً في جغرافيا الإيقاعات عند توم ميلس. ولكن على عكس سيمون، يحدد لوفيفر كيف تكون الإيقاعات، كذلك الرؤية بأي ساحة بالمدينة، إيقاعات لها عضويتها، وحيويتها، وتكوينها الداخلي والخارجي، وميكانيكيته، وطابعها القسري. فالإيقاع، عند لوفيفر، هو جزء من إنتاج الحياة اليومية، ومن ثم، يبدو طبيعياً، عفوياً، لا قانون له غير قانون انطلاقه. غير أن للإيقاع دائماً طابعاً خاصاً (الموسيقا والشعر والرقص والجمباز، والعمل، الخ) وله معيار يقيسه. وفي كل مكان يوجد إيقاع، وهناك إجراء، وهو القانون، والتزام متوقع ومحسوب، وهو مشروع. الإيقاع، إذن، جزء من أي نظام اجتماعي أو مرحلة تاريخية. وتشمل حواس الحركة هذه الحواس التاريخية للإيقاع داخلها. حتى إن الإيقاعات العضوية المتجسدة، بحسب ما يفترض، التي نجدها لدى السائر تختلف تاريخياً: حيث "تظهر الأفلام القديمة أن طريقتنا في المشي قد تغيّرت على مدار القرن: فمشية المتبحر، لها إيقاع لا يمكن تفسيره بالنقاط الصور".

وبشكل حاسم، بحسب رأي لوفيفر، الإيقاع منخرط في إنتاج النظام الاجتماعي والطعن عليه بموضوعية، ولكي يكون هناك تغيير، لابد للجماعة الاجتماعية، والطبقة أو الطائفة أن تتدخل بأن تطبع بإيقاع العصر، سواء كان ذلك عن طريق القوة أو خلسة. وفي الواقع، من الممكن أن نرى سياسة للإيقاع في مجموعة من الأنشطة البشرية. فمثلاً نجد إيقاعات بعض أنواع الموسيقا والرقص قد خيبت آمال "العليين". ومنها موسيقا الجاز، والبانك والراف التي

..... نحو سياسة للحراك

أثارت استفزاز بعض المتفرجين. فموسيقا الراف أدت إلى نشوء قانون العدالة الجنائية والنظام العام لعام 1994 في المملكة المتحدة، الذي أشار صراحة إلى الإيقاعات المتكررة بين أسبابه لتضييق الخناق على الناس الذين يلهون. ولكن الإيقاع هام بطرق أكثر خبثاً. ويمكن بتحليل المشية الآن تعرّف الأجساد التي تتحرك بإيقاعات غريبة في المطارات وتمييزها لعمليات البحث الطويلة والمراقبة المكثفة. إيقاع غريب من الحركات على مدى مدة زمنية طويلة يمكن أن تميز شخصاً بها. وحين يقوم شخص ما بكثير من الرحلات المتجهة في اتجاه واحد على فترات غير منتظمة أو يُرصد تنقله المفاجئ، فإن ذلك يجعله شخصاً مشتبهاً به. جنباً إلى جنب هذه الإيقاعات الغريبة، يوجد الحركات الصحيحة والعادية الضمنية للتنقلات اليومية، والرقص الوقور أو الحركات العادية لرجال الأعمال الأوروبيين عن طريق المطارات. هناك جماليات للتنقل الصحيح، تبرز سياسة الحراك.

رابعاً: ما الطريق المتخذ؟ فالحرّك موجه. يتحرك على طول الطرق والخطوط، مُعدّة له القنوات في المكان. ولا يحدث بالتساوي على مساحة مستمرة كالماء المسكوب الذي يتدفق على طاولة. فالمسألة ليست على غرار تصور جبل دولوز وفيليكس جياتري عن البداوة، أي تصور بدو متنقلين بحرية بما يطعن في تصور "العلم الملكي" العلم الناهض على التقسيم الثابت والتصنيف. الحرّك في حد ذاته "موجه" في قنوات مقبولة. والأرض الخلاء حقل دون قنوات أو خطوط. ولعل إنتاج النظام والقدرة على التنبؤ ليست مجرد مسألة الاستقرار في المكان ولكن توجيه الحركة - إنتاج تنقلات صحيحة بتعيين الطرق والمسالك.

لقد وضع ستيفن جراهام وسيمون مارفن فكرة "تأثير النفق" في المشهد الحضري المعاصر. كيف أن توجيه عناصر البنية الأساسية بداية من الطرق إلى وصلات الحاسوب العالية السرعة، تغمر زمان المدن والمكان فيها. فالمناطق الهامة بالحاضرة ممهدة إليها الطرق، ولذلك هي "في تفاعل مكثف بعضها مع بعض"، في حين أن المناطق الأخرى مفصولة تماماً عن هذه الطرق الممهدة. مثال ذلك الطرق السريعة التي تمر بالمناظر الطبيعية لكنها تمكنك فحسب من النزول في المحاور الرئيسية. أو انظر إلى خطوط القطار الفائق

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

السرعة التي تمر من المطار إلى وسط المدينة في حين تتجاوز المدينة الداخلية.

انظر إلى تطور شبكة السكك الحديدية في لوس انجلوس. لقد بنيت بنفقات ضخمة لتسهيل العبور السريع من الضاحية إلى وسط المدينة متجاهلة تماما المناطق ذات الأغلبية السوداء وذوي الأصول الإسبانية بالمدينة. ومع أن راكبي القطار من ذوي البشرة البيضاء، فإن راكبي الأتوبيس بأغلبية ساحقة من السود، وذوي الأصول الإسبانية، والإناث. ولقد قامت واحدة من الحركات الاجتماعية الراديكالية، وهي حركة اتحاد راكبي الأتوبيسات، برفع قضية على جمعية النقل من أجل وقف استعمال المال العام في تمويل نظام القطارات على حساب نظام الأتوبيسات. وفي المحكمة دفع محامي الجمعية بأن خطوط القطار تمر عبر كثير من مناطق الأقليات بالمدينة، مثل منطقة واطس. رداً على ذلك، جادل محامي الحركة بأن سكان المناطق التي تمر بها خطوط القطار ليست ذات أهمية. فنقطة وصول خط القطار تعني الاستغناء عن خدمات الأتوبيس. ومع أن خدمات الأتوبيسات تتوقف مراراً على طول الممر (وتخدم 95% من مجتمع الأقلية) قلما توقف القطار، ومن ثم فهو يخدم الركاب البيض الذين يسافرون لمسافات طويلة نسبياً. إضافةً إلى ذلك، أشار محامي الحركة إلى أن خط السكة الحديد أنشئ في نفس مستوى خط الأتوبيس (بدلاً من أن يكون تحت الأرض أو مرتفعاً)، وأسفر عن ارتفاع عدد الحوادث والوفيات في مجتمعات الأقليات داخل المدينة. فلم يسفر نظام السكك الحديدية عن "أثار نفق" بالمرور عبر مناطق الأقليات لكنه كان أيضاً مرتبطاً منطقياً واقتصادياً بنقص خطوط الأتوبيسات المريحة وزيادة معدلات الوفاة والإصابات بين سكان المدينة.

خامساً: كيف يشعر؟ فالحرّك الإنساني، مثل المكان، مفعم بالتأكيد بالخبرات. والتحرك عمل مستهلك للطاقة. يمكن أن يكون عملاً صعباً. كما يمكن أن يكون لحظة ترف وتدليل. وترتيب المقاعد على متن رحلة جوية عبر المحيط الأطلسي هو استعارة نموذجية تماماً لسياسة الحرّك المجربة. فالطبقة العليا، الأولى، أو الطبقة الخبيرة توفر لك مكاناً واسعاً، وغذاء خفيفاً، والهواء النقي وأكثر من مرحاض للشخص الواحد، من بين المزايا الأخرى. أما أبناء الطبقة الدنيا الذين يقعون في الخلف فهم يعانون من الزحمة وعدم الراحة، والهواء

..... نحو سياسة للحراك

الملوث، ويقفون في صفوف لدخول المرحاض. ومن ثم يكون جسم الفقير متجمداً ومختنقاً معلقاً في عجلات الطائرة في انتظار أن يلقي به صاحبه في إحدى ضواحي المدينة العالمية.

وانظر في المشي مرة أخرى. لقد وصف تيم إنجولد كيف أن المشي (والى حد بعيد كل أنواع السفر) عمل مرهق، عمل يحسن المرء فيه أداءه: "إن الأثرياء لم يسافروا من أجل السفر لذاته، مع ذلك، أو لأجل ما به من تجارب. فالسفر، وخاصة السفر على الأقدام، هو عمل مرهق - هو العناء ذاته - ولا بُدَّ من تحمله للوصول إلى الوجهة المرادة". وقبل قيام الشعراء الرومانسيين بتحويل المشي لعمل من أعمال الفضيلة، كان "المشي فعلاً يقوم به الفقراء والمجرمون، والشباب، والجهلاء. فقط في القرن التاسع عشر، على غرار ما يرد في شعر وردزورث وكوليردج، اعتاد المرفهون المشي كغاية في حد ذاته، بعيداً عن الحداثق الخضراء أو المعارض الفنية". وحتى ذلك الحين كان المشي مرتبطاً بتطور أشكال النقل الميكانيكية، مما سمح للسعي بجدية للبيئات ذات المناظر الخلابة للمشبي بها. أما الفقراء، الذين لم يتأثروا بشعر التجوال عند وردزورث وكوليردج، فلم يَحْبُرُوا المشي بطريقة جديدة، أكثر إيجابية. كان ولا يزال شيئاً مرهقاً.

سادساً: متى وكيف يتوقف؟ أو أي نوع من العوائق يواجهه المتنقل؟ ليس هناك آلة دائبة الحركة، ومع ذلك لا تتوقف الأشياء على الرغم من النبوءات الوحشية التي أتى بها فيرليو وغيره. لقد أتى علماء المكان بفكرة "عائق المسافة" كجزء من تطويرهم لنماذج الجاذبية. هنا المسافة بين نقطتين أو أكثر من النقاط التي تقف كعائق. ولكن في عالم فوري غير ممهد، عالم أصبح فيه الاتصال "متغيراً هاماً في تقييم إمكان الوصول"، تتسم العوائق بالخصوصية والتنوع. كما هو الحال مع مسألة أسباب الحراك (القوة المحركة) نحن بحاجة إلى إيلاء اهتمام بعملية التوقف. هل هو خيار أم قسري؟

إن جراهام ومارفن عندما اهتمتا بمدينة التدفقات، يستندان إلى أعمال مانويل كاستلز وكارلو إزاشيلي، فيذهبان إلى أن النقاط الجديدة للعوائق ليست أسوار المدينة ولكن الحدود المحلية

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

المعززة حديثاً. "فالتواصل العالمي بين المناطق الهامة جداً، عبر شبكات البنية الأساسية القوية، يصاحبه تعزيز الاستثمار في مجال الأمن، ومراقبة الدخول، والبوابات، والجدران، والدوائر التلفزيونية المغلقة والتعزيز المتناقض للحدود المحلية على الحركة والتفاعل داخل المدينة". وواحدة من آثار النفق هو إنتاج جيوب جديدة من الجمود داخل المدينة. فالحركة الاجتماعية والثقافية تعني إعادة النظر في الحدود، التي ميزت حافة الأراضي الواضحة المعالم، ولكنها ظهرت الآن في كل مكان. فالمطارات حدود واضحة في الفضاء الرأسي.

وفي كثير من الأحيان، بعض الناس، وربما أصحاب الإيقاعات المشبوهة، يتوقفون عند الحدود الوطنية - أحياناً لساعات، وأحياناً فقط لإرجاعهم من حيث أتوا. ولا يزال السود في المدن الرئيسية في جميع أنحاء الغرب أكثر عرضة للتوقيف من قبل الشرطة حتى الآن بسبب التتميط العنصري وبسبب الجريمة الأسطورية: "أن تقود وأنت زنجي". وفيما بعد الحادي عشر من سبتمبر، والناس الذين يبدوون ظاهرياً من منطقة الشرق الأوسط يوقفون كثيراً في لندن من قبل الشرطة للاشتباه في الأنشطة المرتبطة بالإرهاب. وفي حالة أكثر تطرفاً، في يوليو 2005، قُتل جان تشارلز دي مينيزيس على يد الشرطة، وهو رجل برازيلي اعتبر خطأً إرهابياً من منطقة الشرق الأوسط، قتل بسبع رصاصات في رأسه لمنعه من الوجود على متن قطار الأنفاق في لندن. كذلك يظهر التتميط العنصري أيضاً في مطارات الدول الغربية حيث يوقف غير البيض كثيراً، ويفتشون في الجمارك، أو قبل الصعود إلى الطائرة. فالعوائق منتشرة عبر المكان، وهي عنصر هام في دراسات الحراك.

وبذلك لدينا ستة جوانب للتنقل، لكل منها سياسة: نقطة الانطلاق، والسرعة، والإيقاع، والتوجيه، والخبرة والعائق. كل منها هام في خلق عالم الحراك الحديث. كل منها مرتبط بذوات بعينها من المتنقلين (السياح، راكبي طائرة، واللاجئين، والمهاجرين غير الشرعيين، والعمال المهاجرين، والأكاديميين) وممارسات الحراك من المشي حتى الطيران.

مجموعات الحراك

إن طرق ترابط الحركة البدنية، والتمثيل والممارسات تختلف باختلاف اللحظة التاريخية. ولا تدعنا المساحة المتاحة لتقديم عرض لصور الحراك المتغيرة عبر التاريخ. والنقطة الأساسية هنا هي إخماد الحماسة "للجديد" الذي يميز بعض أعمال نموذج الحراك الجديد، وتوضيح استمرار الماضي في الحاضر. على سبيل المثال، حركة الجسم في وعي حقبة الإقطاع الأوروبي هي الحركة المنضبطة، أو أنها ظل احتكار تعريف الحركة المشروعة بيد من يقعون في القمة وبأيديهم الأوامر. كان الغالبية العظمى من الناس حركتهم تحت سيطرة الأمراء والطبقة الأرستقراطية. كان الحراك منظماً على المستوى المحلي. وحتى الآن لا تزال توجد أماكن دوامة الحركة خارج نطاق سلسلة أوامر المهيمنين في الحفلات الغنائية، يوجد بها المتشردون والحجاج.

ومع سقوط الإقطاع، نشأت طبقة عريضة من المتنقلين تهدد السيطرة المحلية على الحراك. فتظهر ذوات جديدة، ومعارف، وباحثون جدد، وتصورات وخطابات، وممارسات جديدة للتنقل. وأصبح مأوى الفقراء، والسجن والمعسكر أماكن لضبط الحراك. وبحلول القرن التاسع عشر في أوروبا، انتقل حق تعريف ومراقبة الحركة المشروعة إلى الدولة القومية، وكان جواز السفر في الأفق، وتحددت الحدود الوطنية وضبطت. وسمحت الأشكال الجديدة من وسائل النقل بالحركة بدرجات غير مسبوقة في مُددٍ زمنية قصيرة. وصاحبت التصورات القائلة بأن الحراك حرية وأن الحراك تقدم ورافقت أفكار حركة الدورة الدموية كأمر صحي وأخلاقي. وبحلول القرن العشرين، كان الحراك جوهر كل ما هو عصري. فالرجال العصريون، والمرأة العصرية، كثيرو الحراك. وأصبحت المساحات الجديدة للتنقل من شارع مشجر إلى محطة السكك الحديدية (أماكن مشروع الممرات عند والتر بنيامين) علامة مميزة للحدث. وظهر للعيان أناس جدد؛ السياح، والمواطنون، والرحالة، والمتشردون.

وبحلول الحرب العالمية الثانية، أصبحت جوازات السفر أمراً شائعاً، وأخذت الدول في

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

التعاون في تنظيم وضبط تنقل الأجساد. لقد كان الجسد العنصر الأساسي حتى في نطاق الحراك الواسع والسريع. وإن وجدنا أن متشردى المرحلة الإقطاعية كانت توضع علامات على أجسادهم مثلهم مثل الماشية. نجد المسافرين مرغمين عليهم أن يقدموا صورة وتفاصيل شخصية بما في ذلك "العلامات المميزة" من أجل عمل جوازات السفر. وحالياً نحن في مرحلة جديدة من مراحل تنظيم الحراك وضبطه، وسائل الحركة المشروعة فيها في أيدي الشركات والمؤسسات الدولية. مثلاً الأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي، حددتا ما هو ملائم وغير ملائم من الحركات والحراك. فتسعى مبادرة السفر عبر نصف الكرة الغربي لتنظيم الحركة بين الولايات المتحدة وكندا والمكسيك ومنطقة البحر الكاريبي بطرق متطورة. والمصالح الوطنية يزداد ارتباطها بما يسمى التجارة السائدة كأشكال مبتكرة لتحديد الهوية بفضل القياسات الحيوية والتكنولوجيا المتطورة.

ولعل واحدة من أحدث التطورات في تقنية تعرف الهوية عن بعد هي رقاقة تعرف الهوية بترددات الراديو. وقد أضيفت هذه الرقائق إلى السلع التجارية منذ الثمانينات. وهذه الرقائق هي باقة تتبع منها إشارة منخفضة القوة جداً يمكن قراءتها من قبل الأجهزة التي تبحث عنها. يمكن أن تحمل الرقاقة كمية كبيرة من البيانات عن الشيء المضافة إليه. وهي قابلة للقراءة عند السير بها، ويمكن قراءتها من وراء طلاء ومن وراء أي شيء يحجبها، ومن مسافة قصيرة. فهي، بعبارة أخرى، مصممة لتتبع الخطأ وتستعمل لتتبع الناس. وفي مطار مانشتتر أجريت تجربة حدث فيها تتبع خمسين ألف مسافر عبر ممر باستعمال الرقائق المرفقة ببطاقات المرور. وقد طلبت سلطات المطار أن ينفذ ذلك بشكل دائم. كذلك أجرت ولاية واشنطن، جنباً إلى جنب مع وزارة الداخلية، أخيراً تجربة تتضمن إدخال رقائق التعرف على الهوية في تراخيص القيادة، مما يتيح للمستخدمين الحراك بين الدول المشاركة في مبادرة السفر عبر نصف الكرة الغربي. ويمكن أن تشمل هذه الرقائق معلومات أكبر مما هو موجود عادة على رخصة القيادة، ويمكن بطبيعة الحال أن يجري تتبعها عن بعد. مثل هذه التجارب أدت بالبعض إلى التكهّن بتطوير شبكة عالمية من أجهزة استقبال رقائق تعرف الهوية التي توضع في أماكن

..... نحو سياسة للحراك

الحَرَكَ الرئيسية، مثل المطارات، والموانئ، والطرق السريعة، ومراكز التوزيع والمستودعات، التي تقوم باستمرار بتقييم سلوكيات الناس والمشتريات وتفسيرها.

إن عملية جمع المعلومات وتنظيمها تختلف بقوة عن صور الحَرَكَ القديمة. ولعل ضبط الحَرَكَ هي مسألة سرعة، بلغة فيريليو. ويرى فيريليو وآخرون أن التصورات المعمارية السابقة عن تنظيم الزمان والمكان هي تصورات زائدة عن الحاجة أمام المشهد المعلوماتي والحاسوبي الجديد، الذي يتكامل فيه تنقل الناس والأشياء بإحكام مع البنية الأساسية للبرمجيات التي هي قادرة على توفير القوة الدافعة أو زيادة العوائق بلزمة زر واحدة. واللوجستية هي النموذج لهذا النمط الجديد لضبط الحَرَكَ. فالأماكن التي ينتج عنها الحَرَكَ والحركة هي دوماً أماكن مرتبة لقواعد البيانات وجداول البيانات.

خاتمة

إن الغرض من هذه الورقة هو وضع مجموعة من الأسئلة حول نموذج الحَرَكَ الجديد وتقتراح سبلا لتطوير مقاربة الحَرَكَ. ولقد حذرت من اثنين من المحاذير أرى من الضروري أن تكون موضع الاهتمام في بحوث الحَرَكَ المعاصرة. أولها الوعي بتقلات الماضي. فالكثير من بحوث الحَرَكَ كان لديها حب الجديد حول هذا الموضوع. وفي هذه الصياغة، الحاضر هو المتنقل، في حين أن الماضي كان أكثر ثباتاً.

وبالعودة إلى التاريخ، انظر في دور المتشرد في العصور الوسطى في تشكيل الحَرَكَ المعاصر. كان وجود هؤلاء الرجال هو الذي دفع لاختراع أشكال جديدة من المراقبة وتوثيق الهوية التي تشكل أساساً لما يجري اليوم في المطارات وعلى الحدود الوطنية. وشخصية المتشرد، وهي شخصية القرن الخامس عشر المتنقلة بأوروبا، لا تزال تتحرك بأنماط وتصورات وممارسات في وقتنا الحاضر. والواقع أننا لا يمكننا أن نفهم الحَرَكَ الجديد، من دون فهم الحَرَكَ القديم. والتفكير في الحَرَكَ كمجموعات من الحركات، والتصورات، والممارسات يساعدنا على تجنب فقدان الذاكرة التاريخية عند التفكير في الحَرَكَ. وعند تأمل

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

أفكار رايموند ويليامز عن التقاليد الناشئة والسائدة والمتبقية التي تعمل على تشكيل التكوينات الثقافية، يمكننا أن نفكر في مجموعات الحراك بالمثل. فعناصر الماضي موجودة في الحاضر، مثلما عناصر المستقبل تحيط بنا.

والتحذير الثاني هو أنه إضافةً إلى الوعي باستمرارية الماضي التي تجعل الحراك المعاصر واضحاً، نحن بحاجة للحفاظ على مفاهيم الثبات، والركود، والجمود في الاعتبار. ومع أن هناك إغراءً للتفكير في عالم متنقل يحل محل عالم الثوابت، نحن بحاجة إلى النظر باستمرار في سياسة التعنت، والثبات والعوائق. فالسرعة توجد إلى جوار الطوبولوجيا والطبوغرافيا.

وأخيراً، إضافةً إلى الاعتراف بأهمية المجموعات التاريخية للتنقل في فهم الحاضر، يمكن ضبط الحراك في حد ذاته من خلال النظر في جوانبه الأكثر تحديداً، ولكل جانب منها سياسته الخاصة، وكل منها منخرط في تشكيل التسلسل الهرمي للحركات في أوقات وأماكن معينة.

أوليفييه مارتان: البناء الاجتماعي للعلوم*

ترجمة: أ. د. محمد أحمد طجو

لقد بقي العلم رديحاً طويلاً من الزمن خارج نطاق العمل الاجتماعي. وكان علماء الاجتماع، مثل العديد العلماء، ضحايا الأساطير المحيطة بالعلم: الباحث ناسك لا بل زاهد ويعيش منعزلاً في مختبره؛ والمعرفة العلمية ليست معرفة مثل غيرها وإنما حقيقة منزلة؛ ولا يقوم الباحثون بسوى إظهار ("كشف") هذه الحقيقة.

نتجت الانطلاقة الحقيقية لعلم الاجتماع من الأعمال المؤثرة لعالم الاجتماع الأمريكي روبرت ميرتون¹ قرابة عام 1970. وإن حيوية هذا التخصص في علم الاجتماع لا جدال فيها

* هذه ترجمة للنص المنشور تحت عنوان *La construction sociale des sciences* في كتاب *Histoire et philosophie des sciences* الصادر في عام 2013 عن دار النشر *Editions des Sciences Humaines*، بإشراف Thomas Lepeltier.

¹ روبرت كينغ ميرتون، ولد 1910 عالم اجتماع أمريكي اهتم بالتعرف بـ Paul F. Lazarsfeld الذي يمثل علم الاجتماع التجريبي، و Talcott Parsons المؤيد لعلم الاجتماع النظري وبتجاوزهما. حرص بأسلوب ساخر على مقابلة هذين التيارين: التجريبيون الذين اهتموا بصلاحيات المعطيات وبدقة الواقع، والمنظرون الذين انكبوا على صياغة التعميمات الكبرى وصياغة النظريات. يقول الأولون "نحن نعلم أن هذا صح ولكننا لا نعلم أن له معنى، ويقول الآخرون: نحن نعلم أن بهذا معنى مع أننا نجهل ما إذا كان صحيحا. وبعدما درس بهذا الشكل المواقف المتقابلة، حرص ميرتون على إظهار الأثر المتبادل بين النظرية والبحث التجريبي. وأما في ما يخص علم اجتماع العلوم فقد قدم ميرتون إسهاماً كبيراً، إذ درس في أطروحته للدكتوراه المعنونة *Science, Technology and society in Seventeenth century* (1936) تاريخ مجموعة من العلماء أعضاء الجمعية الملكية في لندن، ولاحظ أنهم نهم كانوا جميعاً من البروتستانت الطهرين، وأظهر من المنظور نفسه الذي عالجه ماكس فيبر الروابط بين البروتستانتية والرأسمالية الناشئة، وإن انطلاقة العلوم الإنجليزية في القرن

اليوم، لاسيما بسبب قوة التساؤلات الاجتماعية عن مكانة العلم. وبطريقة أكثر عمومية، يبذل علم اجتماع العلوم قصارى جهده للإجابة عن نمطين من الأسئلة: أولاً، أسئلة عن طرق عمل الفضاء العلمي وتنظيمه (كيف يعمل المجتمع العلمي؟ كيف تنظم المؤسسات العلمية؟)؛ ثانياً، أسئلة تتعلق بتأثير بيئة الإنتاج في المعارف العلمية (هل ترتبط المعارف التي يكوّنها العلماء بظروف تكوينها؟ ما هي الآثار المترتبة على الظروف الاجتماعية، والثقافية، والأيدولوجية، والسياسية أو أيضاً الاقتصادية على المعارف المنتجة؟). إن المجموعة الأخيرة هذه من الأسئلة ترتبط أيضاً بمسألة خصوصية المعرفة العلمية بالنسبة إلى أنماط أخرى من المعارف.

إن الإجابات التي يقدمها علماء الاجتماع متنوعة جداً: ليس فقط لأن المسائل التي يجري تناولها مختلفة جداً بعضها عن بعض، ولكن أيضاً لأن المفاهيم التي تم تكوينها تتعلق بمواقف إستمولوجية مختلفة جداً. وإن علم اجتماع العلوم أبعد ما يكون عن امتلاك نموذج وحيد: هذا هو أيضاً أحد أسباب حيويته. لذلك، سوف نكتفي هنا بذكر بعض أهم الأعمال والنظريات في علم اجتماع العلوم.

ميرتون ومعايير الحياة العلمية

يمكن اعتبار روبرت ميرتون (أحد طلاب تالكوت بارسونز¹ وممثل التقليد الوظيفي) عالم

السابع عشر يمكن ان تعزى جزئياً إلى القيم التي اعتنقها الطهريون البروتستانت. وقام ميرتون في عام 1942 بتحديد القيم المحفزة للروح العلمية التي آمنت بها الطهريّة البروتستانتية. وبدا له وجوب التركيز على أربعة مبادئ: العالمية، والجماعية، والتجرد، والشك. ويعتقد ميرتون أن احترام هذه القيم يضمن تفتح المعرفة العقلانية والصارمة. انظر: جان فرانسوا دورتييه، معجم العلوم الإنسانية، ترجمة د. جورج كتورة، ص 1037-1038. المترجم

¹ تالكوت بارسونز هو عالم اجتماع أمريكي (1902-1979)، وأستاذ في جامعة هارفارد. كان بين الخمسينيات والستينيات أبا علم الاجتماع الأمريكي. تأثر بالأوربيين من خلال دراسته في هيدلبرغ في ألمانيا وحاول أن يعيد الحرارة إلى نظرية عامة في المجتمع. وشكل هذا المشروع في تلك الحقبة نقض النزعة التجريبية

..... أوليفييه مارتان: البناء الاجتماعي للعلوم

اجتماع العلوم الأول: لقد أسهم منذ الأربعينيات في جعل العلم موضوعاً مشروعاً لعلماء الاجتماع. ففي مقال بعنوان "البنية المعيارية للعلم" يعود لعام 1942، يتصور ميرتون العلم، أي المؤسسات العلمية وأعضائها، فضاءً يحكمه نظام من أربعة معايير .

- **المعيار الأول: العالمية**، وينصّ على أن المعرفة الناتجة عن البحث العلمي عالمية وموضوعية: ينبغي إذن أن تكون معايير تقييم النتائج غير شخصية وغير مرتبطة بالظروف. وهذا هو سبب تقييم المجالات العلمية المقالات المقترحة التي تصلها بطريقة مُعَفَّلة.

- **المعيار الثاني: الجماعية***، ويشير إلى أن المعارف جماعية وليست مُلكاً لأحد: لا يملك العلماء اكتشافاتهم، وينشرونها في مجالات متاحة للجميع.

- **المعيار الثالث: التجرد**، وينص على أن العلماء لا تحركهم مصالحهم الخاصة، وإنما رغبتهم في البحث عن الحقيقة وعن قوانين الطبيعة فقط.

- **المعيار الرابع: الشكّية المنظمة**، ويقول إنه ينبغي أن تخضع النتائج التجريبية لنقد جماعي لتكون مقبولة: هذا هو السبب في أن النتائج لا تنشر من دون تحقق وقراءة نقدية.

سوف تتم مراجعة هذه المعايير وتعديلها عدة مرات، ولكن فكرة أن العلم يحكمه نظام من المعايير سوف تهيمن على علم الاجتماع، وتشكل أساس علم اجتماع العلوم لدى ميرتون.

إن الفضاء العلمي الذي يصفه ميرتون هو، في الحقيقة، فضاء ليبرالي، ومساواتي، وديمقراطي. وتشكل هذه المعايير ما يطلق عليه ميرتون اسم الروح العلمية، أي المبادئ الأدبية والأخلاقية التي توجه أعمال جميع العلماء. وإن تقيد المجتمع العلمي بهذه المبادئ أيضاً يضمن استقلاله إزاء المصالح السياسية أو الاقتصادية. وعندما لا يتقيد أو لا يستطيع مجتمع الباحثين

السائدة في علم الاجتماع الأمريكي. انظر: جان فرانسوا دورتييه، معجم العلوم الإنسانية، ترجمة د. جورج

كتورة، ص 130. المترجم

* نسبةً إلى الجماعات، مثل "الوحدوية" نسبةً إلى الوحدات [المجلة].

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

التقيد بهذه المعايير، على وجه الخصوص عندما تمارس دكتاتوريةً سياسية سلطتها المفرطة على هذا المجتمع، يفقد العلم قيمته: هذه هي على سبيل المثال حالة النظام النازي الذي سعى لتطوير "فيزياء ألمانية" في الثلاثينيات، بقطع النظر عن الفيزياء الكوانتية والفيزياء النسبية اللتين اعتبرتا تجريديتين جداً، واللتين كان انتشارهما ونجاحهما مع ذلك لا جدال فيهما.

لا يقوم علم الاجتماع هذا على المعارف العلمية، وإنما على الوقائع المعرفية: لا يدعي أنصار ميرتون شرح مضمون العلم اجتماعياً، وإنما شروط إنتاجه فقط. ولا يطمحون أيضاً إلى وصف الدوافع الفردية للباحثين: تشكل معايير المبادئ التي يقوم عليها بناء هذا المجتمع من دون زعم شرح السلوك الحقيقي لأفراد هذا المجتمع.

تابع الأمريكيان نورمان ستورار (النظام الاجتماعي للعلم، 1966) ووارن هاغستروم (المجتمع العلمي، 1965)، وكذا الفرنسيان جيرار لومين وبنجامان ماتالون (المجلة الفرنسية لعلم الاجتماع، 1969، العدد 2) أعمال ميرتون، ولكن تحليلهم كان أكثر تركيزاً على الفاعلين وليس على البنى. وكانوا يعتبرون أن العلم "نظام تبادل". العلم سوق يشبه السوق الاقتصادية: يسعى الفاعلون في الحاليتين، إلى الحصول على سلع لا يمكن الحصول عليها إلا عن طريق التبادل، وبالتقيد في سبيل ذلك بقواعد معينة. هناك اختلاف فقط في طبيعة السلع المتداولة: السلع المتبادلة في الفضاء العلمي هي المعارف والاعتراف، والسلع المتبادلة في الفضاء الاقتصادي، هي سلع وخدمات.

والواقع أن الباحث الذي يكتشف قانوناً طبيعياً جديداً أو يجري تجارب ناجحة يتبادل نتائجه في مقابل الاعتراف به، الذي يأخذ شكل الاستشهاد به، والمكافآت (الجوائز، والمنح الدراسية، والدعم المادي)، والألقاب (الشهادات، والميداليات) أو الترقيات. فالقول المأثور الشهير "النشر أو الموت" يمكن تفسيره في ضوء مفهوم عمل الفضاء العلمي هذا: إن عالماً لا ينشر لا يمكن أن يحصل على وظائف أو دعم أو مساعدات لمواصلة بحثه؛ وسوف تتوقف مسيرته العلمية بسرعة. يجب إذن على العلماء أن يحاربوا ليعيشوا في المجتمع العلمي: باعتبار أن المكافآت

..... أوليفييه مارتان: البناء الاجتماعي للعلوم

نادرة نسبياً، وأن المنافسة على أشدها بين الفاعلين. إن روح المنافسة هذه تحفز الباحثين وتشكل محرك العلم واكتشافاته.

يعتبر بيير بورديو،¹ الذي يسترجع جوهر هذه النظرية،¹ أن الفضاء العلمي فضاء تهيمن

¹ بيير بورديو (1930-2002) هو أحد أكبر الشخصيات في علم الاجتماع المعاصر. له ما يزيد على 30 كتاباً وعشرات المقالات التي كانت كلها بمنزلة حد في علم الاجتماع. انتقد بورديو تغاضي الماركسية عن العوامل غير الاقتصادية إذ إن الفاعلين الغالبين، في نظره، بإمكانهم فرض منتجاتهم الثقافية (مثلاً ذوقهم الفني) أو الرمزية (مثلاً طريقة جلوسهم أو ضحكهم وما إلى ذلك). فللعنف الرمزي (أي قدرة الغالبين على الحجب عن تعسف هذه المنتجات الرمزية ومن ثم على إظهارها على أنها شرعية) دور أساسي في فكر بيير بورديو. معنى ذلك أن كل سكان سورية مثلاً وفيهم الفلاحون سيعتبرون لهجة دمشق مهذبة أنيقة واللهجات الريفية غليظة جداً مع أن اللهجة الدمشقية ليست لها قيمة أعلى بحد ذاتها، وإنما هي لغة الغالبية من المثقفين والساسة عبر العصور، وأصبح كل الناس يسلّمون بأنها أفضل وبأن لغة البادية رديئة. فهذه العملية التي تؤدي بالمغلوب إلى أن يحقر لغته ونفسه وأن يتوق إلى امتلاك لغة الغالبين (أو غيرها من منتجاتهم الثقافية والرمزية) هي مظهر من مظاهر العنف الرمزي. إضافة إلى ذلك العالم الاجتماعي الحديث مقسّم في نظر بورديو إلى "حقول" أي فضاءات اجتماعية أساسها نشاط معين (مثلاً: الصحافة، الأدب، كرة القدم إلخ) يتنافس فيها الفاعلون لاحتلال مواقف الغلبة (مثلاً: يريد الصحفي أن يشتغل في أنفذ جريدة وأن يحصل فيها على أجل منصب). فعلى غرار الماركسية إذن يرى صاحبنا العالم الاجتماعي نزاعياً بيد أنه يؤكد أن هذه الكفاحات مفرقة بين الحقول المختلفة وليست صراع طبقات على صعيد المجتمع بجملته فقط. ومن المفاهيم التي صاغها بورديو أيضاً مفهوم الهايبيتوس *habitus* أو التصرف الذي يؤدي الآن دوراً أساسياً في كافة فروع العلوم الاجتماعية. فالفاعلون يطورون استراتيجيات تركز إلى عدد قليل من الاستعدادات التي يكتسبها المرء بشكل لا شعوري في محيطه الاجتماعي والتي تمكّنه من أن يكيف عمله مع ضرورات محيطه المعتاد (مثلاً بطور الفلاح عقلية وعادات معينة يطبقها على كل المشاكل التي يواجهها في حياته أمتت بصلة إلى محيطه المعتاد أم لا) ولكل إنسان تطبعه الخاص الذي يختلف باختلاف الحقول التي هو طرف فيها وباختلاف الموضع الذي يحتله ضمن تلك الحقول. كما أن بورديو ألحّ في آخر عقد من حياته على ضرورة تحليل عالم الاجتماع عمله وخطابه ونشاطه تحليلاً انعكاسياً (ذاتياً). بعبارة أخرى عليه أن يستعمل اكتشافات علمه ليغزل دوره وليكشف العوامل الناتجة عن تاريخه الشخصي وتطبعه، والتي قد تؤثر في ممارسته العلمية وتشوش رؤيته للمجتمع

عليه أيضاً قواعدُ السوق والمنافسة. العلم بالنسبة إليه مجال، أي فضاء وسيط بين المجتمع والفاعلين يجري فيه إنتاج سلعة نوعية: (المعرفة العلمية). فالمجال العلمي ساحة للقتال؛ ويواجه هذا القتال تحدياً يتمثل في تراكم "رأس مال رمزي" (الألقاب، والجوائز، والوظائف والدعم). ومع ذلك، يوضح بيبورديو أن السلع التي يجري تبادلها في هذا المجال لا قيمة موضوعية لها: ترتبط القيمة التي تُمنح لنتيجة تجريبية أو لنظرية جديدة باهتمام الأعضاء الآخرين في المجتمع العلمي بها. إن البحوث حول الجينوم البشري اليوم، على سبيل المثال، أعلى قيمة من بحوث تاريخ جيولوجيا المرتفعات الوسطى، مع أن البحوث تُنتج في الحالتين معارف صحيحة.

يوضح بوردديو أيضاً أن هذه المعركة غير متكافئة: ليس الباحثون متساوين جميعاً. ويتميز بعضهم برأس مالهم الرمزي: إنهم يستطيعون التأثير فوراً بطريقة أكثر سهولة، لقول ما هو جدير بالدراسة وما هو أقل جدارة، ولتعديل سياسات علمية. إن قدرة الأستاذ في "الكوليج دو فرانس" على التأثير تختلف بطبيعة الحال عن قدرة الأستاذ في إحدى الجامعات في بلدة ريفية صغيرة. وهذه المعركة غير متكافئة لاسيما أن رأس مال الفاعلين الرمزي يجمع نمطين من السلطة، موزعين بطريقة غير متكافئة: سلطة سياسية ومؤسسية، مرتبطة بالمناصب والمسؤوليات التسلسلية؛ وسلطة نوعية مرتبطة بالكفاءات العلمية والقدرات الفكرية للباحثين. وهاتان السلطانان لا ترتبطان ارتباطاً كلياً: يمكن الاعتراف بباحث لكفاءته وجودة بحوثه من دون امتلاكه سلطة مؤسسية عليا؛ وبالعكس، إن مديري المختبرات، وأعضاء لجان التقييم، وأصحاب المناصب الرفيعة في المؤسسات العلمية ليسوا بشكل منهجي الباحثين الذين برهنوا على أعظم الكفاءات العلمية.

إن هذه التوصيفات للمجتمع العلمي يمكن أن تجعلنا نعتقد أن عمله تحكمه قواعد خاصة به،

دون أن يعي. ولذلك أصبح التحليل الانعكاسي في نظر بوردديو شرطاً لكل عمل نزيه وموضوعي في مجال العلوم الاجتماعية. المترجم

¹ P. Bourdieu, « Le champ scientifique », *Actes de la recherche en sciences sociales*, n° 2/3, 1976

..... أوليفييه مارتان: البناء الاجتماعي للعلوم

وأنه يشكل فضاء مستقلاً ومختلفاً جذرياً عن بقية الفضاء الاجتماعي في آن واحد. ومع ذلك، يشترك العلم مع بقية المجتمع في عدد كبير من السمات الأساسية: إنه لا مساواتي، ومتفرع إلى طبقات، وينطوي على حالات من التمييز الجنسي والعنصري، فهو لا يشكل من ثم مدينة مثالية، تسودها المساواة والديمقراطية، ويرتبط فيها المنصب المؤسستي مباشرة بالجدارية العلمية.

يُقوِّض الواقع التنظيمي للمجتمع العلمي المثل الأعلى هذا. يتكون المجتمع العلمي من نخبة تميل إلى الجمع بين كل السلطات: منح القروض أو التوظيف، واختيار البحوث الواعدة، ونشر أكبر النتائج أهمية وتوزيعها، والتحكم بالمجلات المرموقة. كما أنه يجمع كل الألقاب، والجوائز، والمناصب الرفيعة.

يمكن أن يكون هذا الجمع بين السلطات مقيداً للإنتاج بالقدر الذي يميل فيه باحثون من النخبة العلمية، الفائزون بجائزة نوبل على سبيل المثال، إلى العمل معاً وإلى إهمال التبادل مع الباحثين الآخرين. وقد ثبت أيضاً أن النخبة العلمية لا تهتم دائماً بعمل الباحثين المجهولين أو العلماء الشباب: هذه هي حالة عالم الرياضيات الشاب النرويجي هابيل الذي لم يتمكن في بداية القرن التاسع عشر من تعريف علماء رياضيات مشهورين بأعماله.

اقترح العديد من علماء الاجتماع (ستيفن وجوناثان كول، وديانا كرين) نظرية تساعد على تفسير وجود هذا التسلسل الهرمي للسلطات والحالات: تؤكد نظرية الميزة التراكمية أن الاعتراف يجذب الاعتراف وأن التجاهل، على العكس من ذلك، يتوطد من تلقاء نفسه. وهكذا، فالعالم الشاب الذي درس في جامعة مرموقة، وبإشراف باحث معروف، لديه أكثر من فرصة للحصول على وظيفة في مختبر مهم؛ ولديه من ثم أكثر من فرصة ليكون في بيئة محفزة يعاشر فيها باحثين مشهورين؛ ويستطيع إجراء بحوث واعدة والحصول على دعم مالي؛ ويصبح معروفاً بسرعة ويحصل على وظائف مرموقة بفضل بحوثه.

وعلى النقيض من ذلك، إن باحثاً شاباً يشرف عليه أستاذ غير معروف، ويعمل في مختبر

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

غير مهم سوف يواجهه، بقطع النظر عن قدراته الفردية، صعوبات جمة للاعتراف به، وليكون عضواً في مجتمع النخبة العلمية. هذا التسلسل الهرمي للسلطات وللحالات ليس الشكل الوحيد للتفرع الطبقي، واللا مساواة في المجتمع العلمي: تعترض المجتمع العلمي، مثل بقية المجتمعات، عقبات مرتبطة باللامساواة بين الجنسين، وبالأصول الاجتماعية أو العرقية أو الدينية. وقد بينت العديد من الدراسات التي أظهرتها الحركات النسوية أن النساء هنّ على وجه الخصوص ضحايا لتمييز متعدد: غالباً ما تشغل النساء مناصب ثانوية، ونادراً ما يكنّ عضوات في مجتمع النخبة العلمية؛ ويحصلن بصعوبة على وظيفة باحثة، حتى لو كانت ملفتاهن الأكاديمية والعلمية عالية الجودة.

إن حالة ماري كوري،¹ في فرنسا، مثالية: فبرغم حصولها على جائزة نوبل مرتين، لم تنتخب أبداً لعضوية أكاديمية العلوم التي كان زوجها مع ذلك عضواً فيها، بموجب جائزة نوبل التي منحت لهما معاً. وإن الأصل الاجتماعي هو أيضاً عامل من عوامل اللامساواة. ففي الولايات المتحدة، على سبيل المثال، كان أقل من 3% من الحاصلين على جائزة نوبل في السبعينيات لوالد مزارع، في حين أن نسبة الحاصلين منهم على شهادة الدكتوراه هي 20%، وأن نسبة الموظفين 35%. ويمكن تقديم العديد من الأمثلة. وتبقى الحالة نفسها: يشبه المجتمع العلمي المجتمع الذي يحيط به.

¹ فيزيائية بولندية المولد اكتشفت مع زوجها بيبير كوري في باريس عام 1898م عنصري البولونيوم والراديوم. ولدت عام 1867م واسمها الأصلي مانيا بولونوفسكي وبعد زواجها من الفرنسي بيبير كوري غيرت اسمها إلى ماري وحملت لقب أسرة زوجها لتصبح ماري كوري وعرفت إعلامياً باسم مدام كوري. نالت هي وزوجها عام 1903م جائزة نوبل في الفيزياء. وفي عام 1911م نالت مدام كوري جائزة نوبل للمرة الثانية، وذلك بعد خمسة أعوام من وفاة زوجها في حادث طريق. لها ابنتان آيرين وإيف. وقد اقتفت ابنتها آيرين جوليو كوري خطى والدتها ونالت هي وزوجها فريدريك جوليو في عام 1935م جائزة نوبل في الكيمياء بعد قيامهما بتحضير أول نظير مشع من صنع الإنسان. كُرم الزوجان كوري بإطلاق اسم الوحدة (كوري) لقياس النشاط الإشعاعي، وكذلك إطلاق اسم (كوريوم) على أحد العناصر الكيميائية. المترجم.

العلوم الاجتماعية الأولى للمعرفة

لقد تجاوز العديد من الباحثين (البريطانيين في المقام الأول) مجرد دراسة تنظيم العلوم وتفرعها إلى طبقات، وارتبطوا من جديد في بداية السبعينيات بالدراسة الاجتماعية للمعرفة العلمية. فعلم اجتماع المعرفة هو تقليد قديم في علم الاجتماع.

وفقاً لقانون الحالات الثلاث لدى أوغست كونت، يظهر العلم فقط في المجتمعات الصناعية، ولا تستطيع المجتمعات الدينية تطوير هذا النوع من المعرفة. وأما إميل دوركهيم فيعتقد، على العكس من ذلك، أن الحد الفاصل بين الدين والعلم ليس مغلقاً: لقد بين في كتاب الأشكال الأولية للحياة الدينية (1912)، أن أصل أطر الفكر العلمي (المنطق، والمبادئ التصنيفية، ومفهومي الزمان والمسافة) يعود إلى الأفكار الدينية والأسطورية.

يضاف إلى هذا النقاش تساؤلات عن الظروف الاجتماعية لإنتاج المعارف. فكارل ماركس الذي عارض فكرة أن العلم سلعة عالمية متاحة للجميع يعتقد أن "التكليف العقلي" للطبقات المهيمن عليها يمنعها من إعداد معارف علمية. وقد وضع مفكرون آخرون، مثل ماكس شيلر¹ وكارل مانهايم² فرضيات مماثلة: إن وجهة نظر فردٍ حول العالم، والطبيعة

¹ ولد ماكس شيلر عام 1874 وتوفي عام 1928. كان والده لوثريا والدته أورثوذكسية يهودية، وكمرهق، انعطف إلى الكاثوليكية ربما بسبب مفهومها عن الحب. قرابة سنة 1921 أصبح على نحو متزايد حيادياً. درس شيلر الطب في ميونيخ وبرلين، والفلسفة وعلم الاجتماع بإشراف W. Dilthey، وG. Simmel في 1895. حصل على الدكتوراه في عام 1897، وأبدى طوال حياته اهتماماً قوياً بالفلسفة البراغمية الأميركية. درس في جامعة بينا من 1900 إلى 1906. وفي 1902 التقى الفينومينولوجي الشهير إدموند هوسرل أول مرة، واستمرت علاقتهما متوترة. كان شيلر حاسماً في رسالة الماجستير تحت عنوان "التحقيقات المنطقية" (1900-1901)، و"الأفكار" (1913)، وقال إنه أيد تحفظات هيدجر في "الكينونة والزمن" الذي التقاه أيضاً في أوقات مختلفة. ومع ذلك، بعد وفاة شيلر في 1928، لاحظ هيدجر، وكما قال Ortega y Gasset، أن جميع فلاسفة القرن الآخرين مدينون لشيلر. ورأى الكثيرون في موت شيلر المفاجئ خسارة لا تعوض للفكر الأوروبي. المترجم

² كارل مانهايم (1893-1947) عالم اجتماع يهودي، مجري الأصل من مؤسسي علم الاجتماع الكلاسيكي، ويعد مؤسس علم اجتماع المعرفة. الهدف الخاص لعلم اجتماع المعرفة هو تحليل العلاقات بين التمثيلات العامة

والمجتمع، تتحكم بها حالته الاجتماعية. ألا يتمتع مع ذلك بأية مشروعية؟ إن رأي الفلسفة الأوروبية في مطلع القرن العشرين في هذه المسألة ليس حاسماً.

إن علم اجتماع المعرفة، الذي أصبح منسياً إلى حدٍّ ما بين عامي 1940 و 1970، شهد تجدد الاهتمام به بدءاً من السبعينيات. وهذه مفارقة إلى حد ما، مصدرها فلسفة العلوم. والواقع أن أعمال لودفيج فيتغنشتاين، وويلارد كواين، وألكسندر كواريه، وخصوصاً توماس كون، وضعت حدّاً لمفهوم وضعيٍّ بحثٍ للعلم: لا تشكل التجارب العلمية براهين مطلقة لنظريات الإثبات المطلق؛ وتتضمن النظريات دائماً عناصر غير تجريبية (تتغلغل في النظريات أفكار دينية، وميتافيزيقية أو فلسفية)؛ وتكتسب هذه النظريات معنى ضمن نموذج ما، ومن النموذج فقط . وقد حفز مفهوم النموذج *paradigme* هذا التجديد، وهو مفهوم صاغه للإشارة إلى مجمل العقائد والمعتقدات، والنظريات والمسلمات.

التيارات النسبوية

أنعش إذن العديد من علماء الاجتماع البريطانيون مختلف قضايا علم اجتماع المعرفة: هل ترتبط المعارف بشروط إنتاجها؟ إذا كانت الإجابة بنعم، فالى أي مدى وكيف؟ لقد جرى تقديم نمطين من الإجابات، التي تنتمي إلى مدرستين مختلفتين: تدافع المدرستان عن مواقف نسبوية، ولكن وفق طرائق مختلفة. أولاً، يرى باري بارنز وديفيد بلور من جامعة إدنبره، الذين يدافعا عن منهج يسمى "البرنامج القوي"، أنه لا يمكن إنكار أن السياق الاجتماعي والثقافي العام يحدد العلم، أي مضمون النظريات العلمية. ويوضحان من خلال دراسة مختلف الجدالات العلمية، أنه عندما تناضل نظريتان من أجل شرح ظاهرة طبيعية، فإن التي يقبلها المجتمع في نهاية المطاف هي تلك التي يدافع عنها الفاعلون الذين يشغلون المواقع الاجتماعية والسياسية الأكثر

للواقع وخلفيتها المكونة من الظروف التاريخية والاجتماعية. يأتي التعارض بعد ذلك بين الأيديولوجيا واليوتوبيا من حقيقة أن الأولى تميل إلى إضفاء الشرعية على الوضع الراهن، في حين أن الأخرى هي أكثر ابتكاراً ونقداً، وأنها تهدف إلى التغيير والتغلب على ما هو قائم. المترجم

..... أوليفييه مارتان: البناء الاجتماعي للعلوم

قوة. إنهم إذن الفاعلون الاجتماعيون - الجمعيون macro-sociaux الذين يساعدون على إغلاق جدل، وعلى خروج نظرية منتصرة. يهدف موضوع "البرنامج القوي" أساساً إلى تزويد علماء الاجتماع بأدوات نظرية تساعد على دراسة الجدالات والمناقشات العلمية: إنه يشجعهم على عدم اعتبار نتيجة إغلاق جدل سبب انتصار نظرية على أخرى. وفي الواقع، إنهم يعيدون النظر في الفكرة القائلة إن نظرية ما تفرض نفسها لأنها "صحيحة": في الحقيقة، يمكن أن تفرض نفسها لأن "الأكثر قوة" يدافع عنها.

إن المنظور الذي يعتمده ممثلو المدرسة النسبوية الثانية، لاسيما هاري كولنز من جامعة باث (بريطانيا العظمى)، قريب من البرنامج "القوي". ويتميز أنصاره مع ذلك في نقطة جوهرية: إنهم يعتبرون أن أسباب انتصار نظرية ما على أخرى تقع في السياق المحلي (الاجتماعي - الفردي) وليس الكلي (الاجتماعي - الجمعي). إنها السمات الشخصية، وخصائص الجماعات والهويات الفردية التي تتحكم بالمعارف العلمية. يرى المدافعون عن هذا الموقف أن تفسير التجارب والملاحظات ليس متواطئاً: كل تجربة وكل تفسير يستدعي معارف عملية صريحة ومعارف نظرية ضمنية، وهناك دائماً تنوع كبير لتفسير "الواقعة" fait العلمية نفسها. على سبيل المثال، خلال السبعينيات، ناقش مجتمع علماء الفيزياء مدةً طويلةً موثوقةً تجربة تهدف إلى إثبات وجود موجات الجاذبية. وقد بين هاري كولنز أن هذا المجتمع لم يتوصل إلى اتفاق لأن الفيزيائيين لم يكونوا جميعاً متفقين على التفسير الذي ينبغي إعطاؤه لهذه التجربة، ولا حتى على نسخها المكررة أو على نتائج التجارب المماثلة. وإذا تم التوصل إلى اتفاق في نهاية المطاف، فذلك ليس لأن علماء الفيزياء صمموا جهازاً أو وضعوا نظرية ترضيهم جميعاً، وإنما ببساطة لأنهم فضلوا عدم فقدان الإطار النظري (الذي لم يكن يتوقع إمكان الكشف عن موجات): لقد فضلوا عدم فقدان "هويتهم العلمية".

العلم باعتباره ممارسة: أنتروبولوجيا لاتور

اقترح عدة علماء اجتماع، تخلّوا عن التحليل الاجتماعي - الجمعي للفضاء العلمي وعن

المحددات الاجتماعية للمعارف العلمية في آن واحد، تركيز الدراسة على الممارسات، وعلى أعمال العلماء الملموسة في مؤسساتهم: يشكل هذا المنهج أنثروبولوجيا العلوم. فكما هي الحال بالنسبة إلى المقاربات النسبوية، يتدخل السياق الاجتماعي في إنشاء العلوم، ولكن خلافاً للنسبويين، ليست العوامل الثقافية والاجتماعية العامة هي التي تشكل المعرفة، وإنما الممارسات، والسلوكيات، وأعمال الباحثين. إن فهم كيف يسير "العلم" هو دراسته "كما يحدث" وليس ببساطة تحليل منتجاته: يستحيل أن نفهم أصول المعارف والنتائج العلمية بدراسة كتابات العلماء ومنشوراتهم العلمية، لأن هذه الكتابات والمنشورات تشكل بالفعل منتجات منجزة، ومؤكدة، ومؤسسة. وإن دراسة العلم بالنسبة إلى أنثروبولوجيا العلوم هي دراسة العلم الذي لا يزال غير مؤكد؛ وهي دراسة العمليات العملية التي تساعد الباحثين على إيجاد اتفاق، وعلى تقرير أن تجربة ما مقبولة، أو أن نتيجة أخرى ينبغي رفضها.

لقد استلهم عدة علماء اجتماع وعلماء أنثروبولوجيا من المنهجية الإثنوغرافية¹ ethnométhodologie (برونو لاتور،² وستيف ولغار،¹ وكارين كنور - سبتينا - ومايكل لينش)

¹ في عام 1954، أثناء مراقبة عمل مداولة المحلفين ذهل عالم الاجتماع الأمريكي هارولد غارفينكل بقدرة المحلفين غير المتخصصين بالحقوق على تحريك طريقة تقويم تسهم بالحكم على مستندات وشروح وحجج تقدم في إطار الدعوى. وللوصول في مهمتهم إلى نتيجة جيدة، يعودون إلى كم من المعارف والأحكام التي تربط بالحس المشترك. منذ ذلك الوقت وجه غارولد غارفينكل اهتمامه نحو دراسة طريقة التفكير العملية التي يستعملها الأفراد للعيش في العالم الاجتماعي. وهكذا ظهرت المنهجية الإثنوغرافية التي لا تُعتبر منهج استقصاء اجتماعي جديداً، وتُعرّف بأنها علم "المناهج الإثنوغرافية"، أي الحجج والمعارف التي يضعها الفاعلون الاجتماعيون في حياتهم اليومية. أخذت المنهجية الإثنوغرافية أولى رسائل تقديرها مع أعمال غارفينكل وأعمال آرون سيكوريل، وبرزت بشكل مؤسستاتي في الستينيات. وهكذا تضاعفت الأعمال الحقلية عن العدالة والمدرسة والمستشفى والتنظيمات والعلم والمجموعات التي تلقي مصادفة، أو عن المنحرفين. انظر: جان فرانسوا دورتييه، معجم العلوم الإنسانية، ترجمة د. جورج كتورة، ص 1018. المترجم بتصرف.

² فيلسوف وإثنولوجي وأستاذ جامعي فرنسي (ولد في عام 1947)، ظهر بشكل مميز في علم اجتماع العلوم إذ نشر مع ستيف ولغار كتاباً مشتركاً بعنوان *La Vi de Laboratoire: production des faits scientifiques*

..... أوليفييه مارتان: البناء الاجتماعي للعلوم

فدرسوا دراسة إثنوغرافية "الحياة اليومية" في المختبرات: تصرفات الباحثين، ومناقشتهم، وملاحظاتهم، واختباراتهم التجريبية. ويستبعد منهجهم جميع المصادر التي لا تتعلق بالإثنوغرافيا : ينبغي دراسة ما يفعله الباحثون وليس ما يقولونه. على سبيل المثال، لا يمكن الوثوق بالعلماء عندما يتم مقابلتهم، لأن أقوالهم تكون متأثرة بالإبستمولوجيا، والأيدولوجيا العلمية، ولا تتوافق مع واقع ممارساتهم. ينبغي إذن على عالم الأنثروبولوجيا الاجتماعية استعمال جهله والحفاظ عليه في النسق العلمي الذي يدرسه (البيولوجيا في حالة برونو): لا ينبغي له أن يسعى إلى فهم النظريات التي وضعها العلماء، وإنما إلى فهم الإجراءات التي ساعدت على التوصل إلى هذه النظريات فقط.

تمثل على وجه الخصوص عدة مؤلفات لدى لاتور (حياة المختبر، 1979؛ العلم في العمل، 1987) هذا التيار في علم اجتماع العلوم. وقد درس هذا المؤلف بخاصة إنتاج البيانات العلمية: كيف يمكن لبيان حُصل عليه في سياق تجريبي ونظري دقيق، أن يتحول لوضع بيان عام يقبله الجميع، وبمعزل عن السياق المكاني والزمني للبناء؟ يسلط لاتور الضوء على العديد من عمليات "تثبيت" البيانات: إن العالم يزد تدرجياً من صدقية بياناته التجريبية من خلال بحثه

(1979) يصفان فيه نشاط الباحثين كما لو كان سلسلة من إظهار القوة والضعف، والتفاهات والتفقيقات بين الأشياء والإنسان. وتبتعد هذه اللوحة عن متطلبات العقلانية والموضوعية التي تنسبها الإبستمولوجيا إلى المنهج العلمي. حدث الأثر نفسه بعد فترة من ذلك حين وصف لاتور منهج العالم البيولوجي لويس باستور باعتباره فناً مستهلكاً من الاستدلال الجدلي. وتتجاوز أعماله الغزيرة الأطر التخصصية، إذ تتجاوز حقل علم اجتماع العلوم لتعالجن بشكل واسع، مكانة الإنسان في الطبيعة، والعلاقات بين المعرفة والديمقراطية، أو إنتاج قواعد القانون. المترجم.

¹ عالم اجتماع علوم وأستاذ جامعي بريطاني، ولد في 1950، عرف بأبحاثه الميدانية ونشر مع برونو لاتور *La Vi de Laboratoire: production des faits scientifiques* (1979). كان أستاذاً في علم الاجتماع، ومدير قسم العلوم الإنسانية ومدير مركز للبحوث في الابتكار والثقافة والتكنولوجيا CRICT في جامعة برونيل. وهو حالياً أستاذ التسويق في كلية سعيد لإدارة الأعمال في جامعة أكسفورد، وواحد من الممثلين الرئيسيين للتيار البريطاني لعلم اجتماع المعرفة العلمية (SSK). تركز أعماله الأخيرة على التسويق. المترجم.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

عن التشابه مع بيانات أخرى، ودمجه عدة بيانات، وربطه البيانات ببحوث أخرى.

يرفض علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية للعلوم المبدئين التفسيريين للعلوم اللذين استُعْمِلَا من قبل: مبدأ النسبويين الذين يرون أن الاجتماعي يحدد العلم؛ ومبدأ الواقعيين الذين يرون أن الطبيعة تحدد العلم. ويسعى علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية إلى عدم تفضيل أي نظام سببي: يعتبرون أن الاجتماعي والطبيعي يتدخلان في بناء العلم، فالفاعلون في العلوم هم الباحثون ولكن أيضا "الوقائع" التي يدرسونها: الفران، والجزيئات، أو التفاعلات الكيميائية. ولأن هذه الوقائع تنقل "بوساطة" أدوات تجريبية (مكشاف الذبذبة، مسرعات الجزيئات، المجاهر، المواد الأولية)، فإنها هي أيضا فاعلة في العلوم.

يُلْزِم هذا المفهوم للنشاط العلمي علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية على أخذ ما هو خارج المختبر بعين الاعتبار: يبني العلم ليس فقط في نطاق قاعات المختبر ولكن أيضاً في المؤتمرات، وحلقات البحث، والمناقشات، والمفاوضات، مع الذين يمولون (الوزارات أو الشركاء من القطاع الخاص). إن العناصر التي تشارك في تطوير العلم ليست عديدة فحسب، بل مرتبطة ببعضها بالممارسة: يستخدم باحث منتجاً معيناً لإجراء تجربة معينة باستخدام أدوات بعينها، من أجل البحث عن إجابة لسؤال يهم راعياً أو سلطة حكومية. هذا الجمع هو ما يطلق عليه برونو لاتور وميشال كالون "الفاعل" "actant" أو الفاعل - الشبكة acteur-réseau. إن هؤلاء الفاعلين هم العناصر الحقيقية المكونة للعلم.

يساعد إطار "الفاعل - الشبكة" النظري على التأمل في الترابط بين البحث العلمي والتطبيقات التقنية والاحتياجات العامة. وهذه هي بلاشك إحدى فضائل هذا الإطار: سابقاً، كان تحليل العلم منفصلاً عن تحليل تطبيقاته العملية وتحدياته الصناعية في حين أن مكانة علوم التقنية¹ technosciences في مجتمعاتنا تجعل هذا الفصل وهمياً.

¹ لا يبدو أن عبارة "علم التقنية" مبتكراً معيناً، إلا أنها ظهرت في الثمانينيات على أساس وضع تاريخي. ففي الوقت الذي عرفت فيه المعارف حول طبيعة التقنيات وتطورها أقداراً مستقلة نسبياً، نرى في الوقت الحاضر

علم اجتماع العلوم وحدوده

تاريخياً، تطور علم اجتماع العلوم كرد فعل على الفلسفة وتاريخ العلوم: تعتبر فلسفة العلوم غير القادرة على تحليل حقيقة النشاط العلمي وممارسات الباحثين نظرية جداً؛ ويعتبر تاريخ العلوم غير القادر على تجاوز سرد الوقائع التاريخي والجمع العلمي للوقائع غير قادر على تعيين هوية منطق للتطور العلمي ولواقع حياة الباحث.

ومع ذلك، إن علم اجتماع العلوم استوحى أحياناً من قضايا الفلسفة ومفاهيمها، واستمد من الأعمال التاريخية أمثلة لتوضيح فرضياته. وعلى العكس من ذلك، استوحت الفلسفة، وخصوصاً تاريخ العلم، من تأملات علماء الاجتماع لتغذية أعمالهما: إن التاريخ الاجتماعي والثقافي للعلوم، كما يمارس الآن في العديد من المراكز البحثية، في فرنسا وفي الدول الأنجلو سكسونية، تأثر بلا شك بأدوات علم اجتماع العلم وتصوراته. وتبقى دراسة العلم تحدياً فكرياً رئيساً، وتشارك الأنساق العلمية التي تسعى إلى ذلك في المسائل والصعوبات نفسها.

أن العلم والتقنية يتطوران معاً. فالمفاعل الذري، والترانستور والحاسوب والعلاج الجيني أيضاً وُلدوا عبر الترابط الوثيق بين الفيزياء النووية والنظرية الإلكترونية والبيولوجيا النووية. ويفصح الاستخدام النقدي لهذا التعبير عن تلاحم العلم والمستلزمات التقنية والصناعة مع كل أنواع النتائج السلبية حول العلاقات بين الناس، وبين هؤلاء والمحيط. ومن هنا تحيل عبارة "علم التقنية" إلى طيف العلماء والتقنيين الذين صاروا متدربين مشعوذين يحصلون على السلطة والخبرة باسم العلم الكليّ القدرة. ومع ذلك يميل أهل الاختصاص حالياً إلى تناسي هذه العبارة قليلاً، حي يبدو مضمونها المفهومي قابلاً للشك. انظر: جان فرانسوا دورتييه، معجم العلوم الإنسانية، ترجمة د. جورج كتورة، ص 737-738. المترجم

أثر الترجمة في تطوير اللغة الأم¹

د. لُبَّانة مُشَوَّح

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق

مقدّمة

أثر الترجمة في اللغة الأمّ، ومن ثمّ أثرها في تطوير الفكر وفي دفع عجلة التنمية موضوع شائك متشعب، لا يسعنا في حدود هذا البحث إلاّ تناول بعض جوانبه. وسأقصرُ حديثي على أثر الترجمة في تطوير اللغة العربية، باعتبارها اللغة الأمّ ولغة الأمة، تطويراً معجمياً ودلالياً وتركيبياً.

لغتنا العربية هي إرثنا التليد، وسفر تاريخنا بخلوه ومُرّه، وحكاية ما بناه أجدادنا من حضارة عمّت في زمانهم أرجاء المعمورة، فوسّعت ألفاظها علومَ الدنيا. لغتنا هذه ازدهرت غنى وانتشاراً حين كنا نبدع العلوم ونُعَلِّي بنيان الحضارة، وضَعُفَتْ وغابت حين ضَعُفْنَا وكَسَفَتْ شمسنا.

بفضل الترجمة، سار العرب في طريق العلم، فنقلوا عن الأمم الأخرى علومها، واستوعبوها بلغتهم، وصاروا بناة حضارة عمّ خيرها ونفعياً العالم ظلّها.

واللغة العربية كنز متجدّد لا ينضب، لغنى مادّتها وتنوّع قوالبها، وسعة دلالاتها، ولما تتمتّع به من خصائص ذاتية وقدرة على التوليد والاشتقاق، تتيح نموّها وتطوّرّها بما يستوعب مجالات المعرفة كافة، وهذا ما فتح الباب واسعاً أمام المجتهدين من واضعي المصطلح في مختلف أنواع العلوم، فاشتقوا منها أو ولّدوا أو نحتوا ما يحتاجونه من ألفاظ لاحتواء المفاهيم

¹ بحث أُلقي في ندوة "دور الترجمة في التنمية الوطنية"، مكتبة الأسد، سورية، دمشق، 17-18/10/2016.

المعرفية، وهو من العوامل التي أبقتها حيّة متجدّدة نحو ستة عشر قرناً. وقد كان للمترجمين أولاً واللغويين ثانياً في مرحلة لاحقة، أكبر الفضل في ذلك. وما تزال الترجمة مضطّعة بهذا الدور اللغوي الحضاري الهام. وسنسعى في هذا البحث إلى تبيان أثر الترجمة المتعاضم في إثراء العربية معجمياً ودلاليّاً، فنشرح أدواتها الناجعة في استحداث المصطلحات والعبارات الاصطلاحية، من إحياء كلمات اندثرت من التداول، أو استحداث مفردات ومصطلحات جديدة بالاشتقاق أو النحت أو التعريب، أو الاستعانة بألفاظ قديمة وتحميلها دلالات مجازية.

ثم نستعرض أثر الترجمة في النظام التركيبي للغة العربية، لنؤكد المسؤولية اللغوية التي تقع على عاتق المترجم، وازدواجية دوره البحثي اللغوي من جهة، والترجمي من جهة أخرى.

الترجمة بين الماضي والحاضر

كان للترجمة الفضل الأول في تعريب الدواوين والعلوم، وإثراء العربية لغة وفكراً، بتعزيز قدرتها على ولوج علوم العصر واستيعابها وامتلاك ناصيتها، تمهيداً لإبداعها وتجنباً للتبعية الحضارية.

ولعلّ أول حركة واسعة منظّمة للترجمة الثقافية الحضارية¹ بين الأمم هي تلك التي بدأها العرب صدر الحكم الأموي، فترجموا بعض الكتب في الطب والكيمياء، وأنشؤوا بدمشق أول مكتبة عربية تضمّ أعمالاً يونانية في الطب وعلوم أخرى، وعربوا الدواوين؛ فكانت لغة الدواوين فارسية في العراق فعربها الحجاج سنة ثمان وسبعين للهجرة، وكانت روميّة في الشام فعربها عبد الملك بن مروان، وفي مصر عربها عبد العزيز بن مروان حين كان والياً على مصر. ثم ما لبثت الترجمة أن نشطت واتّسعت أبعادها وتعدّدت مصادرها في العصر العباسي، فاستقدم الخليفة أبو جعفر المنصور، ثاني الخلفاء العباسيين، وفداً من علماء الهند

¹ ونعني بالترجمة الثقافية الحضارية نقل الآداب والعلوم المختلفة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، بما في ذلك الترجمات السياسية والمالية والاقتصادية والإدارية والقانونية، الخ...

..... دور التربية في تطوير اللغة الأم

الذين برعوا في دراسة حركات النجوم واختراع طرائق لتوقع مواعيد الكسوف والخسوف، وكذلك في حلّ المعادلات الجيبية (التي تعتمد على حساب الجيب أو جيب التمام)، وأمرهم أن يترجموا إلى العربية المتون العلمية التي حملوها معهم، فكانت تلك بداية قفزة نوعية لعلمي الفلك والرياضيات عند العرب¹. ونظراً لضخامة الأعمال المطلوب ترجمتها من الفارسية والسكندرانية واليونانية، أنشأ المنصور مكتبة ملكية، وأوجد هيكلية إدارية ومالية لسدّ احتياجات "جيش العلماء"² المكلفين بالترجمة، ثم بالبناء عليها نتاجاً إبداعياً أصيلاً. ديوان الترجمة هذا الذي أحدثه المنصور ووسّعه الرشيد ونمّاه، لتصل حركة الترجمة أوجها زمن الخليفة المأمون، هو ما بات يُعرف بـ "بيت الحكمة". أصبحت الترجمة عمليةً مُؤسَّسةً شديدة التنظيم، تتمّ بإشراف الدولة وتمويلها. قام المأمون بتعيين الأكفيا من العلماء والمترجمين، وأجرى عليهم الرزق الوافر، استقطاباً لقدراتهم وتحفيزاً لهمهم، بل كان أبرع المترجمين يرتقي إلى مناصب رفيعة نظير قدراته وعظمة منجزاته الفكرية. بل إن الدبلوماسية في ذاك الوقت وُضعت في خدمة هذا المشروع العلمي الحضاري الضخم، فكانت تُرسل وفود إلى البلاط البيزنطي تتقل إليه طلبات الحصول على نسخ من المتون اليونانية النفيسة. ولمّا انتصر المأمون على الروم عام 830م طلب من ملكهم أن يعطيه بدل الجزية كتباً، فقبل الملك نيوفيلوس بذلك³، فعَدّ المأمون ذلك نعمة عظيمة ومغنماً لا يقدر بثمن. هكذا حصل المترجمون على أعمال أفلاطون وأرسطو وأبقراط وجالينوس وإقليدس، ثم على تحفة بطليموس في علم الفلك (المجسطي). لا بل كان الحصول على تلك الدرر العلمية والفكرية أحد الشروط لإتمام الصلح بين القوتين العظميين في ذاك العصر. ولعلّ من المفيد أن نستذكر ما كتب العالم

¹ أنظر جوناثان ليونز، بيت الحكمة، ت. مازن جندلي، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط 2، العراق، بغداد، 2011، ص 91.

² المرجع نفسه، ص 92.

³ عبد الفتاح مصطفى غنيم، "واقع الترجمة العلمية بين ماضي الحضارة العربية وآفاق الترجمة في العصر الحديث"، 2006، ص 177-190.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

والمترجم حنين بن إسحاق من القرن التاسع لندرك عظمة الجهد الذي كان يُبذل في الحصول على المادة العلمية وترجمتها. يقول حنين بن إسحاق إنه سعى جاهداً طلباً لمخطوطة طبية مفقودة، فجال بلاد الرافدين وعموم سورية وفلسطين ومصر، فلم يجد إلا نصفها بدمشق¹.

ترجم العرب على مدى مئة وخمسين عاماً جُلَّ كتب العلم والفلسفة اليونانية. وكان لابدّ لهم من إيجاد مقابلات عربية لآلاف المصطلحات في شتى فروع العلم، فتوسّعت العربية وتطورت لتتسع لهذا الكم المعرفي الهائل، وسرعان ما حلّت محلّ اليونانية لغةً عالمية للبحث العلمي. بالترجمة أصبح العلم وسيلة العرب الأساسية للتقدّم اللغوي، ومن ثمّ للتقدّم الفكري والاجتماعي، وهذا ما ضمن استمرار العمل العلمي والأدبي الرفيع قروناً من الزمن.

ثم انقلبت الآية، فأقل نجم العرب وتراجع دورهم الحضاري الفاعل، فأخذ الغرب يغرف من نتاج الثقافة والحضارة العربية منذ القرن الثاني عشر وحتى بداية القرن السابع عشر. وفي عصر النهضة، عادت الترجمة للقيان بدور بارز في نقل المعارف والعلوم والفنون التي كان الغرب قد أحرز فيها تقدّماً كبيراً.

وفي العصر الحديث كانت سورية رائدة في مجال الترجمة. وبحسب دراسة إحصائية قامت بها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عام 1986، عمّا ترجم من كتب من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية خلال إحدى عشرة سنة، من مطلع 1970 إلى نهاية 1980، فإن العدد الإجمالي للكتب المترجمة في شتى الموضوعات بلغ (2840)، أتت مصر في طليعة الدول العربية المنتجة للترجمة بـ (1758) كتاباً، تلتها سورية بـ 422 كتاباً².

كذلك كانت سورية رائدة في مجال تعريب التعليم بمختلف مستوياته وأنواعه، ويشمل ذلك التعليم العالي والتقني، وهو نهج بدأت به واستمرت فيه منذ نحو تسعة عقود. وهذا الأمر حثّم تعريب العلوم، فكان لابدّ من التأليف والترجمة في فروع العلوم كافة، واستنباط مصطلحات

¹ المرجع نفسه ص 92.

² شحادة الخوري، دراسات في الترجمة والمصطلح والتعريب، ج 2، ص 16.

..... دور التربية في تطوير اللغة الأم

مطابقة للمسميات المستحدثة. وهذا ما أتاحه غنى اللغة العربية وقدرتها على الاتساع والامتداد للتعبير عن المستحدث الجديد. لتبقى حيّة متجدّدة، دقيقة الدلالة، قادرة على الوفاء بالمتطلبات الحضارية والفكرية و المعرفية.

الترجمة وأدوات التطوير اللغوي

من نافل القول عدم وجود تطابق تام بين اللغات، فلكل لغة ألفاظها ودلالاتها ونظامها وأساليبها البنيانية وسياقاتها الثقافية والحضارية، وهنا تكمن تحديداً صعوبة عملية الترجمة. لكن المترجم مغامر مقدام بطبعه، لا يثنيه شيء عن التصدي لتلك المصاعب وتجاوز تلك العقبات، فينجح حيناً ويخفق أحياناً.

كان المترجمون أول المحتكّين باللغات الأجنبية والمطلّعين على الفكر الآخر بما أنتجه من فكر وعلم وحضارة، من ثمّ أول من تصدى لمهمة إثراء اللغة العربية بما تحتاجه من ألفاظ لاحتواء كل جديد واستيعابه، فلجؤوا إلى نبش التراث اللغوي وإحياء كلمات اندثرت من التداول، أو استحداث مفردات ومصطلحات جديدة، أو الاستعانة بألفاظ قديمة وتحميلها دلالات مجازية.

استعان المترجمون العرب بطرق عدة في استحداث الألفاظ الجديدة، فكان أن لجؤوا إلى أيسر سبل العربية للتوالد الحيّ وهو (الاشتقاق)، وهذا ما أتاح استحداث ألفِ الألفاظ في شتى المجالات، ككلمة شَفَرَة المشتقة من الشُّفْر والشُّفْر وهو حدّ الشيء (شَفْر العين: طرفُها)، وكلمة مُتَحَف، ومَقُود، وخرّازة، ومِرْقَب، ومرأب، وناسوخ، وحاسوب، وطابعة، وشابكة، ولسانيات، وأحيائيات، وعولمة، وجُنُوسة، وريادة، وحاكمية أو حوكمة، والرفاقة، والبرمجة، والشابكة، والمصاوغات (مصطلح يدلّ على مركبات كيميائية ذات صيغة جزئية واحدة)، وغيرها مما لا يُعدّ ولا يُحصى من المشتقات اللغوية والمصطلحات العلمية التي دخلت العربية بفضل المترجمين واللغويين فأحييتها وأغنيتها.

كما لجأ المترجمون إلى المجاز الذي يوسّع في دلالة الألفاظ، فأوجدوا (الطيارة)* التي تدلّ في الأصل على الفرس الشديد، و(السيارة) التي تعني في الأصل القافلة، و(المنهاج) وهي في الأصل الطريق الواضح. و(الدولة) بمعناها الحديث، على حين وردت الكلمة في لسان العرب بمعانٍ لا صلة لها بدلالاتها المعاصرة، فهي ما يُتداول، أو الانتقال من حال إلى حال - على عكس مقابلها الإنجليزي State الذي يعني الثبات على الحال، أو هي العقبة والصعوبة في المال والحرب، أو الداهية. وأتت الترجمة بكلمة (المرنان) وهو في الأصل (السحابة)، فتحوّل كغيره إلى اسم آلة.

كذلك استعان المترجمون بالنحت، أو ما يسمى أيضاً بالتركيب المزجي الذي يقوم على دمج جزء من كلمة في كلمة أخرى، فيعطي كلمة ثالثة بمعنى جديد يجمع بين مدلولي الكلمتين المدموجتين¹. هكذا نُحِتَت ألفاظٌ جديدة مثل رأسمالي، وبرمائي، ولاسلي، ولامادي، ولامعقول، ولاحتي، ولا تناظري، ولامرئي، وجيوسياسي، وأفرو-آسيوي، وكهرمغناطيسي، وكهرمائي، وكربوهيدرات، وسمعصري، وغيرها ليس بقليل. وهنا لابدّ من الإشارة إلى أن النحت وإن كان موجوداً في العربية فهو أسلوب غير مُحَبَّذٍ، ينصح اللغويون بعدم التوسّع في استعماله. وإن اقتضى الأمر ذلك، فلا بدّ أن يجري ذلك وفق ضوابط النطق العربي وبما لا يخالف قواعده وإيقاعاته الصرفية².

وأخيراً لجأ المُحدِّثون كما القدياء إلى التعريب، وهو أن نتكلّم بالكلمة الأعجمية على منهج العربية في النطق، فولّد المترجمون ألفاظاً دخيلة من نحو سفسطة التي اشتقت منها السفسطائية، وكلاسيكي، ورومنسي، وسينما، وفلم، وكمرة، واستوديو... وهي ألفاظ اعتمدتها لغتنا حين تعذّر إيجاد مقابلات عربية لها بالاشتقاق أو المجاز أو النحت.

* الطيارة الآن هي مؤنث الطيار (أي من يقوم الطائرة) [المجلة].

¹ ممدوح خسارة، "ترجمة السوابق واللاحق"، مؤتمر الترجمة في الدول العربية أهميتها ودورها في التواصل الحضاري بين الأمم، 2006، ص 325-346.

² ممدوح خسارة، "وضع المصطلح العربي وتصحيح المفاهيم الخاطئة"، التعريب، 48، 2015، ص 57-58.

..... دور التربية في تطوير اللغة الأم

إن وجود المعرّبات بالحد الأدنى لا يضير العربية في شيء، فالافتراض المعجمي أمر شائع بين اللغات، ولئن أخذت العربية من غيرها قديماً وحديثاً، فقد أعطت اللغات الأخرى، وما تزال، الكثير من الألفاظ. وفيما يلي بعض الأمثلة على ذلك:

في الفرنسية كلمتا chiffre و zéro تتحدران من كلمة عربية واحدة هي الصفر، ومن (القطران) "أتت goudron، و sirop ليست سوى (شراب)، و (القطن) تحول بالفرنسية إلى coton وبالإسبانية إلى algodón، و (الزرافة) إلى girafe، و (الغزالة) إلى gazelle أي الجميلة الفاتنة. كذلك كلمة houri في عبارة التحبّب والغزل الفرنسية (ma houri) أتت من العربية (حورية). و arsenal أصلها (دار الصناعة) ثم آبت من الفرنسية إلى العربية في هجرة معاكسة فتحوّلت إلى (ترسانة). و magazin أتت من (مخازن)، و ouane (أي مصلحة الضرائب أو الجمارك) أصلها (ديوان)، و tarif من (تعريفة)، و jarre من (جرة)، و cramoisi من (قرمزي)¹. فضلاً على كلمات من مثل: ²bournos, Razzia, zein, hammam, kefta, kebab, khan, darvich, fakir, djinn, goule, sofa, café, méchoui, mesquin, maboul, baraka, bakchich, clébard³ barda'a, chouia,

وفعل masser مقترض من العربية (مسّ)، و kiffer من (الكيف). علماً أن تحديد مسار رحلة الكلمات بين الشعوب أمرٌ ليس بالسهل ولا المأمون العواقب. فالبعض مثلاً يرى أن الفعل الفرنسي capter بمعنى (التقط) مقترض من (قَبَطَ) أي (جمع بقبضته)، لكن البعض الآخر يرى أن capter أصلها لاتيني (captare) ومعناها أيضاً (حاول أن يجمع). فمن تراه أخذ ممن، خاصة لأن اللاتينية كانت اللغة المستعملة في كل أرجاء الإمبراطورية الرومانية؟ هو سؤال يرسم الباحثين في حقل التأثيل والتأصيل اللغوي.

وسواء حافظت تلك الكلمات على معانيها الأصلية أم انحرفت عنها وألبست دلالات أخرى،

¹ انظر ماري سترييس، الكلمات المسافرة، دمشق، 2008، ص 71-75.

² أصلها (غزوة)، ومعناها بالفرنسية السلب والنهب، ثم تحول إلى "الانقضاء على الشيء".

³ وأصلها (كلب).

فقد استقرت في حاضنتها اللغوية الجديدة وباتت جزءاً لا يتجزأ منها، لا بل ازدهرت فدخلت معاجمها وأصبحت مصدراً لاشتقاق عدد كبير من الأفعال والعبارات.

المهم أن الاقتراض اللفظي ظاهرة لغوية عامة، بل يكاد يكون قدراً لا تسلم منه لغة، وهو لا يعيبها في شيء ما بقي محصوراً، ولم يؤد إلى تمييع اللغة وفقدانها لأصولها وهويتها. بل إن في الاقتراض إغناءً للغة والفكر وأنماط الحياة على حد سواء، إذ إن الكلمات الوافدة تحمل معها مفاهيم جديدة، وأدوات وتقنيات، وعادات ونشاطات إنسانية متنوعة¹، إلا أن اللجوء إلى الدخيل لا يصح إلا إذا عجزنا عن إيجاد المقابل العربي المناسب بالطرائق المعروفة والمنهجيات المعتمدة، المؤتلفة مع طبيعة العربية ومبادئها؛ فالمبالغة باللجوء إلى المقترض والتعريب، وإقحام النص بالدخيل، استسهالاً أو عجزاً أو استعراضاً لعضلات ثقافية أو معرفية، من شأنه أن يُغلق النصّ إلا على أهل الاختصاص، ويُسدل حُجباً معرفية بينه وبين القارئ غير المختص.

ألفاظ الحضارة: جهود مجمعية

إن ازدياد التواصل بين الحضارات وتفجر المعارف العلمية والتقنية جعل ألوفاً من الألفاظ والمصطلحات تتدفق علينا، لا بل وتغزو لغتنا، حتى شاع استعمالها وتوسع تداولها في حياة الخاصة والعامة. هذه الألفاظ والمصطلحات هي ما نسميه "ألفاظ حضارة" لأنها تجسد النشاط الإنساني، وتشتمل على المنتج المادي للفكر عموماً.

من هنا ندب مجمع اللغة العربية بدمشق نفسه للعمل ضمن لجانه المختصة على رصد الدخيل والمقترض من الألفاظ التي يستعملها الكتاب والمترجمون، ثم لا تلبث وسائل الإعلام والتواصل الحديثة أن تتداولها، فتنتشر كالنار في الهشيم. وتسعى لجان المجمع المختصة إلى وضع مقابلات عربية لما شاع على الألسن والأقلام من الألفاظ والمصطلحات الأجنبية التي

¹ لبانة مشوح، "أثر الترجمة في التنمية الفكرية- القطاع الإداري نموذجاً"، 2011.

..... دور التربية في تطوير اللغة الأم

دخلت ساحة التداول، كالإنترنت، والفدرالية، والتكنوقراطي، والتيوقراطي، والديمقراطي، والبيولوجية، والإبستمولوجية، الإيكولوجية، والسيكولوجية، والإستراتيجية، والتكنولوجيا، واللوجستي أو اللوجستيكي، والديناميكي، والبرغماتية والديالكتيكية، والدبلجة، والسيناريو، السنوغرافية، والسبرنيتية، والكمبيوتر، والماوس، والراوتر والإنترنت، والفكس، والاستديو، والدُّبلاج، والمكساج، والشيفرة والتشفير، والجندر... وغيرها كثير مما نظرت وتتنظر فيه لجنة ألفاظ الحضارة في مجمع دمشق فتضع لها المقابلات العربية المناسبة التي تغني عن المعرب الدخيل.

كذلك دأبت لجان المجمع العلمية المتخصصة على وضع معاجم لمصطلحات العلوم كافة في الطب والرياضيات، والفيزياء وعلوم الأرض، والعلوم الزراعية، وطب الأسنان، والعلوم البيئية، والتقانة والاتصالات والمعلوماتية. كلُّها ثمرة تضافر جهود حثيثة لنخبة متكاملة من المترجمين واللغويين والمختصين العلميين، في التصدي لإيجاد مقابلات عربية مناسبة لعدد كبير من الألفاظ الدخيلة والمصطلحات العلمية الدقيقة، وبما يعبر بلسان عربي عن دلالات واضحة لا لبس فيها، تخاطب العقل وتتيح له ولوج أبواب العلم الواسعة، وتطلق له عنان الإبداع، بدل تقييده بالدخيل الغريب المبهم.

إن اللغة عماد الفكر وركيزة بنائه، ومزاوجة المترجمين واللغويين بين اللغة العربية وعلوم العصر تهية للفكر العربي أحد سبل التقدم والإبداع، وتوفر شرطاً لازماً من شروط توطين المعرفة¹.

وللترجمة الحرفية مآثرها!!

إن رسداً سريعاً للغة الإعلام المعاصرة كفيل بإظهار الدور المتعاضد الذي تؤديه الترجمة في توليد مئات العبارات الاصطلاحية التي استحدثت واستوطنت لغتنا باستعمال أسلوب

¹ لبانة مشوح، المرجع نفسه.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

الترجمة بالنسخ calque، وهو عادة أسلوبٌ غيرٌ مستحب لأنه ينزغُ إلى الحرفية في الترجمة، لكنه أغنى لغتنا بمئات العبارات الاصطلاحية المعاصرة المترجمة حرفياً من الفرنسية أو الإنجليزية. ونورد بعضاً من هذه العبارات باللغة العربية المعاصرة مع مقابلاتها بالفرنسية والإنجليزية، تدليلاً على حرفية الترجمة التي أنتجتها¹:

العبرة الاصطلاحية العربية	العبرة الاصطلاحية الفرنسية	العبرة الاصطلاحية الإنجليزية
خطبة إعلامية	coup médiatique	media stunt
صخب إعلامي	battage médiatique	media hype
صفيح ساخن	plaque chauffante	hot tin, hot plate
صمام أمان	Soupape de sécurité	safety valve
صمت انتخابي	silence électorale	electoral silence
صناعة الموت	Industrie de la mort	death care industry
جولة أفق	tour d'horizon	Overview
الضوء الأخضر	feu vert	green light
الضوء الأحمر	feu rouge	red light
الإنذار البرتقالي	alerte orange	orange alert
الخط الساخن	téléphone rouge	Hotline
التوقيع على بياض	Signer en blanc	to sign a blank paper/cheque
الضرب تحت الحزام	frapper au-dessous de la ceinture, attaquer en-dessous de la ceinture	
ضربات جراحية	frappes chirurgicales	
تدوير الزوايا	Arrondir les angles	to round out angles
تعديلات تجميلية	Remaniements cosmétiques, retouches cosmétiques	cosmetic changes
ممر إنساني	couloir humanitaire, corridor humanitaire	humanitarian corridor
نيران صديقة	tirs amis	friendly fire
رايات كاذبة	fausses bannières	false flags

¹ اقتصرنا في الجدول على إيراد بعض العبارات الاصطلاحية عربية نرى أنها ترجمة حرفية لمقابلاتها الأجنبية.

..... دور التربية في تطوير اللغة الأم

to go over to the other side, to change sides	retourner sa veste	تدوير البنادق
wise sanctions, intelligent sanctions	sanctions intelligentes	العقوبات الذكية
on the other side	sur la rive opposée, de l'autre côté	على الضفة الأخرى
on the same wavelength	sur la même longueur d'onde	على موجة واحدة
over low heat, over a gentle heat	à feu doux	على نار هادئة
area of interest	Cercle d'intérêt	دائرة اهتمام
area of interest	Domaine d'intérêt	مجال اهتمام
center of interest	Centre d'intérêt	مركز اهتمام
center of excellence	Centre d'excellence	مركز تميز
to see from a new perspective, in a new light	voir sous un autre angle, sous un nouvel angle	النظر من زاوية أخرى، من زاوية جديدة
state of emergency	état d'urgence	حالة الطوارئ
security vacuum, insecurity	vide sécuritaire, insécurité	الفراغ الأمني
cosmetic touch-up, cosmetic adjustment	Retouche cosmétique	تعديل تجميلي
lion's share	part de lion	نصيب الأسد
to fill a gap, to bridge the gap	combler le fossé/la lacune	تضييق الهوة/الفجوة
to be disoriented, to go round the bend	Perdre la boussole, être déboussolé	ضُيِّعَ البوصلة
deadlock, impasse	Impasse	طريق مسدود
light at the end of the tunnel	apercevoir le bout du tunnel	الضوء في آخر النفق
		سياسة العصا والجزرة
to play a role	jouer un rôle	لعب دوراً
digital gap	fossé numérique	الفجوة الرقمية
nuclear dissuasion	dissuasion nucléaire	الردع النووي
to play all his cards	Jouer ses cartes	لعب كل أوراقه
to put his cards on the table, to play his cards	Jouer cartes sur table, abattre son jeu	كشف أوراقه
face to face	face à face	وجهاً لوجه
above the law	au-dessus de la loi	فوق القانون

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

under the law	au-dessous de la loi	تحت القانون
on the table	sur la table	فوق الطاولة
under the table	sous la table	تحت الطاولة
backstage of politics	coulisses de la politique	دهاليز السياسة
maze of politics	labyrinthes de la politique, dédale de la politique	المتاهات السياسية
search engine	moteur de recherche	محرك بحث
web portal, Internet portal	portail Internet, portail Web	بوابة إلكترونية
Field frequency	Champ de fréquences	حقل ترددات
to move on, to turn the page	tourner la page	طوى الصفحة
to look over, to look at all aspects of the problem	retourner le problème	قلب المسألة

ما ورد في الجدول ليس سوى غيض من فيض عبارات اصطلاحية لا تُعدّ ولا تُحصى، ولدتها الترجمة بالنسخ ولا يسعنا أن نتخيّل خلوّ اللغة العربية المعاصرة منها، عبارات أغنت المعجم العربي، ووسّعت بالمجاز دلالات المداخل المعجمية نفسها.

النسخ التركيبي

إلا أن أثر الترجمة في لغتنا لم يقتصر على الاقتراض المعجمي، بل تعدّاه، وإن بقدر أقل، إلى الاقتراض النظمي؛ فقد شاعت على الألسن والأقلام تراكييب لغوية هجينة غريبة عن أصول النحو العربي، دخلت عن طريق الترجمة بالنسخ التركيبي من لغات كالفرنسية والانجليزية، فكاد المفعول المطلق المؤكّد للفعل أن يختفي من لغتنا المعاصرة، فيقال مثلاً (بكى بشدة) بدلاً من (بكى بكاء شديداً)، و(نام بعمق) بدل (نوماً عميقاً)، و(قرأ بسرعة) بدل (قرأ قراءة سريعة) ... الخ.

كذلك شاع استعمال فعل مساعد هو "تمّ" حلّ محلّ صيغة المبني للمجهول. وإنّ رصداً سريعاً لما شاع على الألسن والأقلام يبيّن كثرة اللجوء إلى استعمال هذا الفعل المساعد تجنباً

..... دور التربية في تطوير اللغة الأم

لصيغة المبني للمجهول، لصعوبتها أحياناً على النطق، ولجهل عامة مستخدميها بقواعدها ومبادئها الصرفية التي لا تخلو من صعوبة وتعقيد.

كما دخلت صيغ هجينة منسوخة كصيغة المبني للمجهول معلوم الفاعل، كُثرت في التداول إلى حدّ بات لزاماً معه على النحويين إعادة النظر في بعض قواعد النحو بما يتلاءم وتلك التطورات¹.

الخاتمة

وبعد، فقد أدّت الترجمة، وما زالت، دوراً عظيماً في إغناء اللغة العربية بالألفاظ والمصطلحات والدلالات والأساليب، حتى ليكاد دور الترجمة يوازي دور الشاعر قديماً في إثراء العربية لفظاً وأسلوباً. إلاّ أن مسؤوليات جساماً تقع أيضاً على عاتق المترجم في الحفاظ على اللغة سليمة من كل شائبة. بل يكاد عمل المترجم إلى العربية يلامس في جانب منه عمل اللغوي؛ فهو في سعيه إلى نقل معاني اللغة المصدر ومدلولاتها إلى اللغة الهدف، ودأبه على صياغة المقابلات العربية للمصطلحات الأجنبية وفقّ أبنية اللغة العربية الصرفية وتراكيبها النحوية، إنما يستنبط قواعدها الناطمة لعمل العربية، ويطوّر مخزونها، ويوسّع آفاقها، كي تتلاءم مع حاجات العصر، دون أن يقحم فيها ما ينبو عن القياس ويلحق بها التشويه.

وبالمقابل تقع على اللغويين مسؤولية رصد الآثار اللغوية للترجمة، والتدقيق فيها، وتفتيتها من شوائبها، إلى جانب إثبات مآثرها، بما يحصّن لغتنا ويحميها من الضياع والذوبان في عولمة ثقافية وفكرية تدجّن العقل وتطيح بالتميّز، فتمحو الهوية الوطنية، وتضعف ثم تلغي حسّ الانتماء الوطني والتجذر الثقافي.

¹ «Du calque à l'emprunt syntaxique: le passif agentif en arabe standard» Mouchaweh, L, (2006) وليانة مشوح، "أثر الترجمة في التنمية الفكرية- القطاع الإداري نموذجاً" 2001.

المراجع

1. جوناثان ليونز، بيت الحكمة، ت. مازن جندلي، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط 2، العراق، بغداد، 2011.
2. شحادة الخوري، دراسات في الترجمة والمصطلح والتعريب، ج 2، دار الطليعة الجديدة، سورية، دمشق، 2000.
3. عبد الفتاح مصطفى غنيم، "واقع الترجمة العلمية بين ماضي الحضارة العربية وآفاق الترجمة في العصر الحديث"، مؤتمر الترجمة في الدول العربية أهميتها ودورها في التواصل الحضاري بين الأمم، ج 1، سورية، اللاذقية، 26-28 حزيران 2006.
4. لبانة مشوح، "أثر الترجمة في التنمية الفكرية- القطاع الإداري نموذجاً"، مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية، مجلد 27، العدد 3-4، 2011.
5. لبانة مشوح، "من النسخ إلى الاقتراض النظمي- صيغة المبني للمجهول معلوم الفاعل في اللغة العربية الفصحى"، الترجمة في الدول العربية أهميتها ودورها في التواصل الحضاري بين الأمم، ج 1، اللاذقية، 28-26 حزيران 2006.
6. ماري سترييس، الكلمات المسافرة، ت. منصور حديفي، مراجعة لبانة مشوح، المركز العربي للتعريب والترجمة والنشر والتأليف، دمشق، 2008.
7. ممدوح خسارة، "ترجمة السوابق والواحق"، مؤتمر الترجمة في الدول العربية أهميتها ودورها في التواصل الحضاري بين الأمم، ج 1، اللاذقية، حزيران 2006.
8. ممدوح خسارة، "وضع المصطلح العربي وتصحيح المفاهيم الخاطئة"، التعريب، 48، حزيران 2015.
9. Mouchaweh, L, «Du calque à l'emprunt syntaxique: le passif agentif en arabe standard», Damascus Univ. Journal, vol. 22, N0.1,2., (2006).

بحوث في المصطلحات

ترجمة مصطلحات الصوتنة (Phonologie) في المعجم اللساني

دراسة تطبيقية

د. عبد الغني بن صوله
جامعة محمد الشريف مساعديّة
سوق أهراس / الجزائر

أولاً: ترجمة مصطلح العلم Phonology/Phonologie

تتفق المؤلفات العربية على أنّ الصّوَّاتة (Phonologie) هو ذلك العلم الذي يتكفل بدراسة العلاقات التّأثيرية بين الأصوات؛¹ أي دراسة الصوت وما يطرأ عليه من تغيّرات أثناء التركيب، بفعل التّأثير والمجاورة، حيثُ يؤثر القوي في الضعيف، ويتأثر البعض بصفات غيره، كأن يؤثر المجهور في المهموس، فيصبح مجهوراً مثله.

أمّا على مستوى الاصطلاح فنتبين وتختلف المقابلات العربية لمصطلح العلم، سواء على مستوى المؤلّفات، أو على مستوى المعاجم، كما هو مبين في الجدول الآتي:

الجدول 1 ترجمة مصطلح Phonologie في مدوّنة الدراسة.

المصطلح	معجم علم اللغة	قاموس اللسانيات	معجم علم الأصوات	معجم الألسنية	معجم المصطلحات اللسانية	المعجم الموحد
Phonologie Phonology	الفونولوجيا ص 68	صوتمية/ص 194	علم الأصوات النظامي/ص 115	علم الأصوات الوظيفي/ص 224	صوَّاتة/ص 154	صوَّاتة/ص 112

¹ ينظر: إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، مكتبة نهضة مصر، مصر، (د.ت)، ص 3. أحمد عمر مختار: دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب، القاهرة، مصر، 1998، ص 79.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

نلاحظ اختلافاً وتبايناً في نقل المصطلح phonologie في معاجم الدراسة، وتعدّد آليات وضعها بين تعريب وترجمة، إذ نُلَفّي المقابل المفرد (صوارة عند الفاسي الفهري، والمعجم الموحد)، والمقابل المعرّب تعريباً صوتياً (الفونولوجيا في معجم علم اللغة الحديث)، والمركبات العربية المعقدة (علم الأصوات النظامي في معجم الخولي، وعلم الأصوات الوظيفي في معجم الألسنية لمبارك مبارك).

تحليل: يتكون المصطلح الأجنبي المركب من الصيغة:

جذر + سابقة / radical + suffixe

Phonologie = phone + logie.

Phonology = phone + logy

الجذر Phon: من الأصل اللاتيني Phon بمعنى voice أو son أي الصوت.¹

اللاحقة /logy/logie: من اللاتينية أو اليونانية logia أو من الأصل اليوناني logos الذي يعني speech أو discourse؛ أي كلام / حديث/ خطاب.² وهي لاحقة تنل على العلمية مثل: علم التنجيم (astrology)، والجيولوجيا (geology).³

وانطلاقاً من الدلالة الأصلية لمكونات المصطلح الأجنبي، نكون بصدد الترجمة الحرفية: "علم الصوت" للمصطلح الأجنبي phonologie، لكن بهذه الترجمة نتصادم والمصطلح phonétique الذي بدوره يُترجم حرفياً إلى علم الصوت، لنكون أمام مقابل عربيّ واحد لمصطلحين أجنبيين مختلفين من حيث المفهوم الذي يحيل عليه كل مصطلح. وهذا الأمر اقتضى من المؤلفين - في بعض الأحيان إضافة بعض المكونات الشكلية غير الواردة في بنية المصطلح الأجنبي والمستمدة من المفهوم في محاولة لتمثله بأكبر دقة للمتلقّي العربيّ.

الفونولوجيا: مصطلح وضعه نخبة من اللغويين في معجم علم اللغة الحديث وفق آلية النقل

¹ L. Clédart : dictionnaire étymologie de la langue française, 3^{ème} édition, librairie hachette, Paris, 1914., P 449. (phon)

² Eric Partridge: Origins A Short Etymological Dictionary Of Modern English, Taylor et Francis Group, London, 2006., P 4073/4074.(logia .logy .logos).

³ Ibid. P 4074

..... ترجمة مصطلحات الصوتيات في المعجم اللساني

الصوتي (التعريب الصوتي)، مع إضافة (ال) التعريف، وهي منهجية معتمدة بكثرة في هذا المعجم، وقد يكون سبب التعريب كثرة المقابلات العربية أمام هذا المصطلح، وعدم نضجها.

علم الأصوات النظامي: ترجمة الخولي في معجمه علم الأصوات: مركّب اصطلاحي جاء بصيغة مركب إضافي معقّد على النحو الآتي: مضاف + مضاف إليه + وصف أي إنّ طبيعة هذا المركب من الصيغة: $A + b + c$

النواة	المحدّد الأول	المحدّد الثاني
علم	الأصوات	النظامي

حيث تُرجمت اللاحقة *logie* بعلم والجذر *phone* بأصوات، في حين لا تظهر دلالة المحدّد الثاني في بنية المصطلح الأجنبي. لقد لجأ الخولي إلى عملية التضخيم، باستعمال كلمات في اللغة الهدف أكثر من اللغة المصدر، وهذا لأجل الإحاطة بالدلالة الاصطلاحية للمصطلح، فلفظة (نظامي) تتعلق بالنظام اللغوي، ومصطلح *phonologie* يشير إلى دراسة الأصوات داخل هذا النظام اللغوي. كما نلمح هذه العملية (التضخيم أو التحشية) في ترجمة مبارك مبارك: علم الأصوات الوظيفي، بإدراجه للفظ (وظيفي) للإحالة على أنّ هذا العلم يتكفل بدراسة وظائف الأصوات. لكن مثل هذا المركبات العربية قد لا تساعد على التوسع، وإلا كيف سنترجم المركبات الاصطلاحية الأجنبية التي يكون المصطلح الأجنبي *phonologie* أحد أطرافها؟ من ذلك مصطلح *phonologie fonctionnelle* أو المصطلح *phonologie générative*¹ هل نترجمهما إلى علم الأصوات الوظيفي الوظيفي، وعلم الأصوات الوظيفي التوليدي؟ قد نقبل الترجمة

¹ الفونولوجيا التوليدية *phonologie générative* نظرية تهدف إلى ربط التحليل الفونيمي؛ أي الأشكال الصوتية للتركيب بأبنيتها النحوية، كما يشير هذا المصطلح إلى وصف قدرة المتكلم *compétence* على إنتاج النظام الصوتي وفهمه للغة، وهذا يقتضي الاستبطان الكامن عند الفرد لقواعد لغة ما. إن الوحدة القاعدية للفونولوجيا التوليدية ليست الفونيمات، إنما سماتها المميزة، حيث تحدث هذه الفونيمات كمجموعة من السمات الصوتية فمثلاً: الكسرة *phonème* من سماته المميزة أنه عالٍ وخفي. ينظر: كورديا أحمد حسن صالح: النظام الصوتي التوليدي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2012، صص 52-53.

الأخيرة بالرغم من طولها، لكن الترجمة الأولى لا تستقيم، والحال نفسها مع المقابل علم وظائف الأصوات الوظيفي. وهنا تظهر لنا أهمية المقابل المفرد أمام المصطلح المفرد.

صوتية: ترجمة المُسدّي في قاموس اللسانيات:

يتفرد المسدي بوضع هذا المصطلح أمام المصطلح *phonologie*، وهو مقابل قد يبدو غريباً على اللسان العربي، وما أضفى عليه هذه الغرابة هو تلك الميم المتوسطة بين الجذر (الصوت) واللاصقة (ية) التي يكثر استعمالها في العربية للدلالة، إما على الصفة أو العلمية، مثل معجمية، مصطلحية. ومصطلح صوتية مُستمَد من المصطلح صوتم *phonème* الذي وضعه الأستاذ التونسي صالح القرماذي،¹ لقد حاول المسدي مقابلة المصطلح الأجنبي بمقابل عربي مفرد (أقصد لفظة واحد) لكن يظل هذا المقابل يكتنفه الغموض خصوصاً إذا ورد وحيداً دون مصاحبته بالمصطلح الأجنبي.

الصَوَاتِيَّة: ترجمة الفاسي الفهري والمعجم الموحد.

جاء المقابل العربي بصيغة المفرد على وزن فعالةً الذال على الحرفّة،² وهو اختيار سديدٌ للدلالة على المصطلح الأجنبي الذي يتعلق بوظائف الأصوات، حيث تقترب الوظيفة من الدلالة اللغوية للفظّة حرفّة، كما أن المقابل العربي المفرد (صوآة) يتيح لنا فرص التوسع والاستطراد في نقل المركبات الاصطلاحية الأجنبية من قبيل: *phonologie générative* صوآة توليدية، *phonologie fonctionnelle* صوآة وظيفية، وهناك مقابل عربي آخر (النطقيات) الذي أقرّه المجمع اللغوي، يرى فيه بعض الدارسين³ المقابل الأنسب والأدق للمصطلح الأجنبي

¹ عبد الفتاح براهيم: مدخل في الصوتيات، دار الجنوب للنشر، تونس، (د.ت)، ص 17.

² يصاغ للدلالة على الحرفّة أو شبهها من أيّ باب من أبواب الثلاثي مصدر على وزن فعالة بالكسر. إميل يعقوب: معجم الأوزان الصرفية، عالم الكتب، ط 1، 1993. ص 391.

³ عبد العزيز الصبيح: المصطلح الصوتي في الدراسات العربية، الطبعة الثانية، دار الفكر، دمشق، سورة، 2008، ص 214.

..... ترجمة مصطلحات الصوتيات في المعجم اللساني

phonologie، إلا أنه يبقى قليل التداول والاستعمال.

من خلال ما سبق عرضه، يظهر أنَّ تعدُّد آليات وضع المصطلح، ينجم عنه آليا تعدُّد المقابلات العربية، فالمصطلح الأجنبي الواحد قد ينقل بأربعة مقابلات مختلفة، إمَّا بتعريبه أو ترجمته باستثمار الاشتقاق أو النحت والمجاز.

وفي ما يتعلق بالتعريفات المصاحبة للمقابلات العربية السابقة، مثلما يبيِّن (الجدول 2)، نلاحظ غياب التعريف عن المصطلح الأجنبي في أغلب معاجم الدراسة، حتى التي ادَّعت الحرص على وضعه (معجم الألسنية لمبارك مبارك)، ولا تُلَفِّ التعريف في سوى معجم علم الأصوات للخولي، والمعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات، لكن إلى أي مدى حققت هذه التعريفات المصاحبة الهدفَ المنوطَ من وضعها، وما حجم المعلومات التي وفرتها للمتلقي؟

لقد تضمن تعريف المعجم الموحد مصطلحاتٍ أكثر غموضاً من المصطلح المعروف، وهذا الشيء يربكُ القارئ ويحمّله على البحث عن دلالات تلك المقابلات العربية، ويزداد الأمر صعوبة إذا علمنا أنها وردت وحيدةً دون أن تُصنَّبَ بمصطلحاتها الأجنبية المترجمة عنها، وسيستأهل المتلقي بطبيعة الحال عن الصوتيات،¹ وعن التطريزيات.² وهذا من شأنه أن يطوّل عملية البحث، من البحث عن مفهوم مصطلح واحد إلى البحث عن ثلاثة مصطلحات، وهذه عملية مملة تصرفُ القارئ إلى البحث عن المفهوم الاصطلاحي في الكتب المتخصصة، أو المعاجم الغربية المتخصصة، مما يؤدي إلى هجر المعاجم اللسانية العربية، ولا يُلجأ إليها إلا إذا كانت مدونة أو مواضيع دراسة.

¹ الصوتيات ترجمة للمصطلح *phonématique* وهو وصف لكل ما يتكون من الصوتيات أو يتصل بها. والصوتيات جزء من الصوتيات يهتم بدراسة الوحدات الدنيا المميزة وهدفها إيجاد جرد مدروس ومصنف لصوتيات اللغة أو اللغات. المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات (انجليزي - فرنسي - عربي)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الطبعة الثانية، 2002، ص 111.

² التطريز: هو دراسة السمات التي تَمَسُّ في اللغات المختلفة والسلاسل دون اعتماد التحليل المقطعي، مثل التنغيم، النغمة... ينظر: المعجم الموحد، ص 121.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

الجدول 2: تعريفات مصطلح *Phonologie/Phonology* في مدونة الدراسة

التعريف						
المصطلح	معجم علم اللغة	قاموس اللسانيات	معجم علم الأصوات	معجم الألسنية	معجم المصطلحات اللسانية	المعجم الموحد
<i>Phonologie. Phonology</i>	دراسة النظام الصوتي/ ص 68	غير وارد	علم يدرس الأصوات من حيث وظيفتها؛ أي إنه يدرس الفونيمات وتوزيعاتها، وألوفوناتها، ويدعى أيضاً علم الأصوات الوظيفي، أو علم الفونيمات/ ص 115	غير وارد	غير وارد	علم يدرس أصوات اللغة من خلال وظيفتها في النسق، ويفرق عادة بين مجالين كبيرين في الصوتيات: الصوتيات التي تهتم بالوحدات الدنيا المميزة باعتماد التقطيع والاستبدال. التطريزيات وهو الجانب الذي يدرس السمات فوق القطعية التي ترافق تحقق صوتيتين أو عدة صوتيات، والتي لها أيضاً سمات مميزة أيضاً مثل النبر، النغمة والتنغيم/ ص 112

أما تعريف الخولي - وبالرغم من كون المعجم مختصاً في الأصوات - فقد جاء شديد الإيجاز مكتفياً صاحبه بذكر المفهوم الذي شاع عليه المصطلح الأجنبي *phonologie*؛ وهو العلم الذي يدرس وظائف الأصوات وتوزيعاتها داخل النظام اللغوي. يشير مصطلح *phonologie* في المعاجم الغربية اللسانية والصوتية إلى:

..... ترجمة مصطلحات الصوتيات في المعجم اللساني

الجدول 3: تعريف مصطلح *Phonologie* في المعاجم الغربية

المصطلح	<i>J. Dubois :dictionnaire de linguistique</i>	<i>David Crystal a dictionary of linguistics and Phonetics</i>
<i>Phonologie Phonology</i>	الصوتيات: ذلك العلم الذي يدرس أصوات اللغة من منظور وظيفتها داخل نظام الاتصال اللغوي، يقوم على تحليل الوحدات المنفصلة (فونيمات، وحدات تطريزية) المقابلة للطبيعة المستمرة للصوت. ومن ثمّ فهو يختلف عن الصوتيات بالرغم من صعوبة الفصل بين المجالين. <i>la phonologie: est la science qui étudie les sons du langage du point de vue de leur fonction dans le système de communication linguistique. Elle se fonde sur l'analyse des unités discrètes (phonèmes, prosodèmes) opposées à la nature continue des sons. elle se distingue donc de la phonétique bien qu'il soit difficile de séparer ces deux domaines de recherche.</i> P 362	الصوتيات فرع من فروع اللسانيات يدرس النظام الصوتي للغات خارج مجموعة واسعة جداً من أصوات الجهاز الصوتي البشري التي يمكن أن تنتج، والتي تدرسها الصوتيات، حيث تنظم الأصوات في نظام التناقضات، التي تُحلّل من حيث الفونيمات، والسمات المميزة أو غيرها من الوحدات الصوتية، وفقاً لنظرية الاستعمال. الغاية من الصوتيات هو التّدليل على أنماط الصوت الموجودة في اللغة، والإدلاء بأكبر قدر ممكن من المعلومات عن طبيعة الأنظمة الصوتية في لغات العالم. <i>phonology a branch of linguistics which studies the sound system of languages. Out of the very wide range of sounds the human vocal apparatus can produce, and which are studied by phonetics, only a relatively small number are used distinctively in any one language. the sounds are organized into a system of contrasts, which are analyzed in terms of phonemes, distinctive features or other Such phonological units., According to the theory used.</i> <i>the aim of phonology is to demonstrate the patterns of distinctive sound found in a language, and to make as general statements as possible about the nature of sound systems in the languages of the world. P 365.</i>

اكتمل هذا البحث بإيراد جزء من تعريف المصطلح في كلا القاموسين نظراً لطوله إذ شغل أكثر من صفحتين، وهذا ما يوضح الفرق الشاسع في حجم المعلومات الواردة بين المعجم العربي ونظيره الغربي، فعلى سبيل المثال، يشير القاموس الفرنسي إلى ميدان **الصوتيات** مقابل

ميدان الصوتيات، مع الاعتراف بصعوبة الفصل بين المجالين، نظراً لحاجة الأول إلى الثاني، أما القاموس الإنجليزي، فبسهولة ندرك التدرج في عرض التعريف بكيفية رائعة من خلال الإشارة إلى انتماء الصوتيات إلى اللسانيات *linguistique*، ثم موضوع هذا العلم، ليختم مشيراً إلى الهدف والغاية منه، وهو توفير أكبر قدر ممكن من المعلومات عن طبيعة الأنماط الصوتية للغات. ولا تخرج المؤلفات الغربية عن هذا التعريف؛ فقد عرفت الصوتيات بأنها دراسة وتصنيف صوتي للوحدات ووضعها في تسلسل هرمي وظيفي، استناداً إلى قيمة أو وظيفة كل عنصر داخل اللغة المدروسة.¹

كان هذا عرضاً لمصطلح العلم بالوقوف أمام مقابلاته العربية وتعريفاته المصاحبة، وإن كان كل هذا الاضطراب الذي صاحب هذا المصطلح - خصوصاً على مستوى الاصطلاح - والتعريف، بهذا الحجم والقدرة، فلا ننتظر التوافق في مصطلحات هذا العلم.

ثانياً: مصطلحات فروع الصوتيات Phonologie

تنقسم الصوتيات انطلاقاً من المادة المدروسة، إلى قسمين رئيسيين:

1. Phonologie segmentale/ Segmental phonology/

يتكون المركب الاصطلاحي الأجنبي من الصيغة: اسم + صفة بالنسبة للمصطلح الفرنسي، وصفة + اسم بالنسبة للمصطلح الإنجليزي.

مصطلح *segmental* مكوّن من الجذر *segment* واللاحقة *al*.

¹ ورد النص في اللغة الأصلية كما يلي: « La phonologie quant à elle procède à l'étude et au classement des faits phoniques relatifs à une langue, en établissant partout une hiérarchie fonctionnelle, fondée sur le rôle ou la valeur de chaque élément dans la langue à l'étude »
Pierre Martin : Manuel de phonologie fonctionnelle, centre international de recherche en aménagement linguistique, Université LAVAL, Québec, 1997, P 07

..... ترجمة مصطلحات الصوتيات في المعجم اللساني

يشير الجذر *segment* في دلالته الأصلية إلى الأرجوحة (*seesaw*)، وهي قطعة من الخشب توضع على محور توازن بحيث يجلس عليها شخصان، كل شخص في طرفٍ للحفاظ على التوازن والحركة.¹

اللاحقة: *al*: تنحدر من الجذر اللاتيني *alis*، تُضاف لتضمين الصفة أو النسبة للاسم، مثل: *ovale* صفة فرنسية من الاسم: *ove*.²

ومن الناحية الاصطلاحية، مصطلح *segment* من المصطلحات المستخدمة في الصوتيات، واللسانيات في المقام الأول، للإشارة إلى أي وحدة منفصلة يمكن تحديدها فيزيائياً أو سمعياً في مجرى الكلام، وقد تطور مفهوم هذا المصطلح مع الصوتيات التوليدية *phonologie générative* ليشير إلى الوحدة العقلية للتنظيم الصوتي من سلسلة الوحدات الدنيا.³

ويمكن تلخيص مفهوم هذا المصطلح في كونه نتاج عملية تقطيع أو تجزئة السلسلة الكلامية إلى وحدات منفصلة،⁴ بحيث تكون هذه الوحدات مختلفة بعضها أكبر من بعض، وبعضها أقل من بعض. وعلى سبيل التمثيل، السلسلة الخطية: الطاولة كبيرة، تتكون من قطعتين كبيرتين:

الطاولة = ال + طاولة = أَلْ + cvc + طَ + cv + و + cv + لَ + cv + ة + cv.
كبيرة = كَ + cv + بَ + cv + ي + v + رَ + cv + ة + cvc

فآخر القطع التي يمكن الوصول إليها من تحليل السلسلة الكلامية، هي الوحدات الصوتية القطعية الدنيا (الفونيم القطعي) *phonème segmental* وهذه الأخيرة غير قابلة للتجزئة.

وقد جاءت ترجمة هذا المصطلح في المعاجم اللسانية على النحو التالي:

¹ Eric Partridge: *Origins A Short Etymological Dictionary Of Modern English*, P2892.2952 (segment).

² Ibid. P3900.(al)

³ David Crystal: *A dictionary of linguistics and Phonetics*, sixth edition, 2008., P426. (Segment)

⁴ J. Dubois : *dictionnaire de linguistique* P 417. (Segment).

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

المصطلح	معجم علم اللغة	قاموس اللسانيات	معجم علم الأصوات	معجم الألسنية	معجم المصطلحات اللسانية	المعجم الموحد
Segment	المُقْتَطَع/ص 81	قطعة/ص 185	قُطْع/ص 134	مقطع/ص 257	قطعة/ص 296	قطعة / ص 133

نلاحظ في الجدول نلاحظ توافقاً في الدلالة العامة للمصطلح الأجنبي *segment* مع الاختلاف في صيغ الترجمات أو المقابلات العربية، وهذا الاختلاف من شأنه أن يحيل على مفاهيم مختلفة بغياب التعريف في بعض المعاجم اللسانية، فقد تُرجم في معجم علم اللغة الحديث بالمُقْتَطَع من الكلام، وهو اصطلاح عام يخرج عن الدلالة الاصطلاحية للمصطلح، فقد نفهم منه المحذوف من الكلام. أمّا الخولي فقد قابل بـ: (قُطْع) بكسر القاف، وعرفه في مجاله الصوتي وهذا ما يجعله يعادل مفهوم الفونيم القطعي (الصوامت والصوائت)، أو الفونيم الخطي أو التركيبي.¹

وقُوبِلَ في معجم الألسنة بمقطع، مع شرح مقتضب يبدو غريباً أفضى إلى الكثير من الغموض والتساؤل إذ جاء على النحو التالي: **المقطع: أصغر وحدة من الصوت والقواعد.**²

أمّا المعاجم والقواميس المتبقية (قاموس اللسانيات، معجم المصطلحات اللسانية، المعجم الموحد)، فقد وُقِّتَ إلى حدٍّ بعيدٍ في ترجمة المصطلح الأجنبي بقطعة، التي يجتمع فيها المعنى الأصلي والاصطلاح للمصطلح *segmental*.

وفيما يتعلق بالتعريف الوارد في المعجم الموحد للمصطلح فقد جاء ترجمةً مقتضبة لما ورد في القاموس الفرنسي (جون ديبوا)،³ مع إضافة بعض المعلومات من قِبَل أن القطعات

¹ ينظر: محمد علي الخولي، معجم علم الأصوات (أحادي اللغة)، الطبعة الأولى، الرياض، 1986، ص 128. (مصطلح: فونيم قطعي).

² مبارك مبارك: معجم مصطلحات الألسنية، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان، 1995، ص 257، مدخل (segmental).

³ J. Dubois : dictionnaire de linguistique, P 417.

..... ترجمة مصطلحات الصوتيات في المعجم اللساني

الناجمة من تقطيع السلسلة الكلامية تخضع لـ ترتيب زمني خطي.¹

في ضوء هذا المفهوم للمصطلح *segment*، تكون الترجمة العربية: صوارة قطعية أمام المصطلح *phonologie segmentale*، وهي كذلك في المعجم الموحد (ص 133)، ومعجم الفاسي الفهري (ص 296)، وعلم الأصوات القطعية في معجم علم الأصوات (ص 114)، وعلم الفونيمات القطعية في معجم علم اللغة الحديث (ص 82)، في حين يغيب هذا المصطلح عن معجم الألسنة لمبارك مبارك.

يشير مصطلح *phonologie segmentale* في الدراسات الغربية إلى تحليل الحدث الكلامي إلى وحدات متميزة أو فونيمات (الفونيمات القطعية *segmental phonèmes*)، لها صلة مباشرة مع القطع الصوتية.² وهو التعريف الذي نقف عليه، تقريباً في معاجم الدراسة التي أوردت جانب التعريف. من ذلك تعريف المعجم الموحد الذي يشير إلى اقتصار أبحاث هذا المجال (الصوارة القطعية) على القطعة،³ لكن إذا أخذنا التعريف المصاحب للمصطلح، فإنه يعج بمصطلحات أكثر غموضاً وتعقيداً من المصطلح المعروف، وهذا ما يستدعي تحصيل كل مصطلح على حدة لفهم مصطلح واحد. وللاستدلال على هذا النقد يقتضي الأمر عرض التعريف كما هو: الصوارة القطعية: هي الصوارة التي تقتصر أبحاثها على القطعة، وقد ابتدأت مع تشومسكي 1957، وتقوم هذه الصوارة على أساسين: نظرية السمة المنوية، والعمليات الصرفية. الصواتية وما هو أساسي في هذه الصوارة هو مبدأ الربط بين البنية العميقة، والمستوى السطحي المنطوق، ويقوم العمل على التعميم وسيطرة القواعد، وأحسن القواعد أعماها.⁴

¹ المعجم الموحد: ص 133، مدخل (segment).

² David Crystal. P 426, (phonologie segmental).

³ المعجم الموحد: ص 133.

⁴ نقل هذا البحث حرفياً التعريف الوارد في المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات، ينظر الصفحة 133 من المعجم.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

وإضافة إلى كثرة المصطلحات الواردة فيه، يظهر على التعريف عدم التماسك، كأنه أفكار منفصلة من شأنها أن تزيد من انغلاقه وضبابيته، وكان أخرى بأصحاب المعجم - حسب رأي هذا البحث - الاكتفاء بالإشارة إلى موضوع العلم مثلما هو كائن في القاموس الإنجليزي *David Crystal*، لتأتي بقية المعلومات ضمن التعريفات المصاحبة للمصطلحات الأخرى التي تتدرج ضمن الحقل الدلالي نفسه من قبيل: *Segment, Segmentation, segmental* ... إلخ.

2. /Suprasegmental Phonology /Phonologie Suprasegmentale/

يتكون المركب الاصطلاحي من مصطلحين مركبين على النحو التالي:

.Supra + segment + al / phon + logie

مصطلح: *phonologie* (تقدّم): الصواعة.

اللاحقة *al*: تدل على الصفة.

الجزر *segment*: تقدّم بمعنى قطعة.

السابقة *supra*: سبق التعرض لهذه السابقة، التي تتحدّر من الأصل اللاتيني *suprà*، وتعني

فوق.¹

استناداً إلى هذا التحليل تكون الترجمة المباشرة للمصطلح الأجنبي *phonologie*

suprasegmental هي: صواعة فوققطعية.

يشير المصطلح الأجنبي *suprasegmental/ non-segmental* إلى سمة أو خاصية صوتية، أكثر طولاً من القطعة² (الفونيم) مثل النبر (*accent*)، النغمة (*intonation*)؛ أي مجموع الظواهر التي تظهر بالتوازي مع القطع الخطية، وهي التي تنبئ بخواص الكلام، ونوعياته، وكيفية أدائه.

¹ Eric Partridge: *Origins A Short Etymological Dictionary Of Modern English*, P 3892.(*suprà*).

² J. Dubois, *Dictionnaire de linguistique*, P 458.

..... ترجمة مصطلحات الصوتيات في المعجم اللساني

في محاولة للبحث عن المقابل العربي المناسب أمام المصطلح *phonologie* *suprasegmentale* لجأ بعض مؤلفي المعاجم إلى اعتماد المقابل المفرد تطريزيات.¹ وفي هذا مجانبية للصواب لما فيه من علاقة بين المعنى اللغوي وما يحيل عليه المفهوم الاصطلاحي؛ حيث يشير المصطلح في دلالاته اللغوية إلى الموضع الذي تتسج فيه الثياب الجيدة،² ومعروف في حياتنا أن الطرز لا يكون إلا فوق الثياب، مثله مثل السمات الصوتية التي لا تظهر على مستوى السلسلة الخطية للفونيمات، وإنما تصاحبها، ولا تكون إلا بعد تأدية مستمرة للسمات القطعية.

مصطلح Phonème:

يمثل هذا المصطلح نواة الدرس الصوتي، وعليه دارت جميع الدراسات الصوتية، يشيع إطلاقه على الوحدة الصوتية الدنيا التي تمتلك وظيفة داخل البناء اللغوي. إلا أنه شهد الكثير من الاختلاف على مستوى التعريف والاستعمال معاً، وهذا ما جعله يتصدّر أكثر القضايا اللغوية حديثاً.³

ويرجع هذا الاختلاف بالدرجة الأولى إلى تعدد المدارس الصوتية التي تناولت هذا المصطلح، والجدول الآتي يوضح لنا هذا الاختلاف إيضاحاً أفضل:

¹ ينظر المعجم الموحد، ص 121.

² ورد في تاج العروس (الطرز) بالكسر: البزُّ والهيئة. قال ابن الأعرابي: الطَّرْز: الشكل، يقال هذا طرز هذا؛ أي شكله، والطرز بالكسر: علم الثوب: فارسي معرّب، قيل أصله تراز؛ وهو التقدير المستوي بالفارسية، جُعِلت التاء طاءً، وقد طرّزه تطريزاً: أعلمه، فطرّز، وهو مطرّز، وقال الليث: الطراز الموضع الرفيع الذي تتسج فيه الثياب الجيدة، وهو معرّب، وهكذا ذكره الأزهرى. محمد مرتضى الحسيني الزبيدي: تاج العروس، تح: الترتزي وحجازي وآخرون، ج 10، مطبعة حكومة الكويت، 1975، صص 195-196.

³ ينظر: عبد العزيز الصيغ: المصطلح الصوتي، ص 224. أحمد عمر مختار: دراسة الصوت اللغوي، ص

165. و *J. Dubois: dictionnaire de linguistique, P 359. (Phonème)*

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

الجدول 6: مفهوم الفونيم في المدارس المختلفة.

النظرة الوظيفية	النظرة المادية الفيزيائية	النظرة العقلية
أهم التعريفات المقدمة في هذه النظرة هو تعريف تروبتسكوي الذي اعتبر الفونيم مفهوماً وظيفياً لغوياً؛ أي تلك النماذج الصوتية التي لها القدرة على تمييز الكلمات وأشكالها، أو تلك الأنماط المستقلة التي تميز الحدث الكلامي المعين عن غيره من الأحداث الأخرى ⁵	أهم ممثليها دانيال جونز حيث عرف الفونيم بأنه أسرة من الأصوات في لغة معينة متشابهة الخصائص ومستعملة بطريقة لا تسمح لأحد أعضائها أن يقع في كلمة في نفس السياق الصوتي الذي يقع فيه الآخر ⁴	يُعتبر الفونيم «صوتاً نموذجياً يهدف المتكلم إلى نطقه، ولكنه ينحرف عن هذا النموذج، إما لأنه من الصعب أن ينتج صوتين مكررين متطابقين، أو لنفوذ الأصوات المجاورة، ¹ من أنصار هذه النظرة: تروبتسكوي في مرحلة متقدمة من عمره، إذ عرف الفونيم على أنه الصورة العقلية للصوت. ² سابير: الفونيم صوت مثالي نحاول تقليده في النطق، van wijk أصغر الوحدات التي نشعر بها على أنها غير قابلة للتقسيم أكثر عن طريق الشعور اللغوي. ³

وإضافة إلى هذه النظرات في تعريف الفونيم، نجد نظرة أخرى، وهي النظرة التجريدية التي ترى الفونيمات مستقلة استقلالاً تاماً كاملاً عن الخصائص المرتبط بها⁶ ويكون التجريد على مستويين:

المستوى الأول: بعض الأصوات لها ملامح مشتركة كثيرة، يمكن أن تلخص في مثال أو صورة أو انطباع ذهني تعتبر صوتاً تجريداً على المستوى الأول، أما المستوى الثاني من التجريد، فهو حين يستخلص المرء طائفة كاملة من هذه الأصوات التجريدية في شكل صورة

¹ أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي، ص 166.

² المرجع نفسه، ص 166.

³ المرجع نفسه، ص 167.

⁴ المرجع نفسه، ص 180.

⁵ المرجع نفسه، ص 180.

⁶ أحمد عمر مختار: دراسة الصوت اللغوي، ص 181.

..... ترجمة مصطلحات الصوتية في المعجم اللساني

- عامة. هذه الأصوات التجريدية على المستوى الثاني هي الفونيمات.¹
- كان هذا عرضاً موجزاً لأهم التعريفات التي وضعت أمام المصطلح «phonème»، وفي مجملها تعريفات مستمدة من أفكار قبليّة، كالنظرة إلى اللّغة على أنّها مجردة، أو التأثير بالعلاقة بين الدال والمدلول حين عرّف تروبتسكوي الفونيم بأنّه الصورة العقلية للصوت.
- وبالعودة إلى التعريف الأكثر رواجاً في الدّراسات العربية، الذي سبق الإشارة إليه. فهو لم يأت من عدم، فحين قال تروبتسكوي أنّ الفونيم أصغر وحدة صوتية (فونولوجية) في اللسان المدروس² كان هذا الكلام خلاصة تحليلات طويلة للنظام الصوتي اللّغوي،³ يرى تروبتسكوي أنّ كل صوت مكون من مجموعة عناصر، غير قابلة للتجزئة أو التحليل، هذه العناصر هي «الفونيمات».
- إنّ هذه الفونيمات في الأصل لا يمكن تمثيلها في أرض الواقع، وإنّما هي صور عقلية للصوت، فإذا أخذنا على سبيل المثال: التتابع الصوتي (خَرَج) وأردنا تحليلها إلى وحدات أدنى (فونيم) نحصل على ستة وحدات على النحو التالي:

خَرَج = خ + ر + ج + . في الأصل هذه الوحدات (خ)(ر)(ج)(.) :

- غير موجودة في الواقع، بل هي متحققة على النحو التالي: (خ).(ر).(ج)، أي (1+1) (2+2) (3+3)، وحجة البحث في الكلام، هو إنّ كان لهذا الفونيم وجود فعلي، فكيف ننطقه على أرض الواقع، أخ، أر، أج، نحن لا ننطق فونيمات، بل أصواتاً تتكون من مجموع فونيمات.

¹ من أهم الاعتراضات المسجلة على النظرة التجريدية، اعتراض تروبتسكوي؛ حيث يقول: «إن التجريد على المستوى الأول يتم على أساس تماثل (أكوستيكي) نطقي، في حين على المستوى الثاني على أساس صلة الأصوات ببيئتها، هذان الأساسان مختلفان لدرجة أنه لا يمكن اعتبارهما مستويين لحركة تجريد واحد، والنقطة الثانية أن الأصوات الحقيقية إنّما تحيا ما دامت تحققات للفونيمات. وعلى هذا المستوى الأول من التجريد هو الثاني». ينظر المرجع نفسه، ص 182.

² J. Dubois, Dictionnaire de linguistique, P 359

³ N.S.Trubetzkoy: Principles of phonology, P 44

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

عموماً، وعلى حد قول دانيال جونز - كما أشار أحمد مختار - «لا واحد من التعريفات التي سمعت بها لا يمكن مهاجمته، ولا أظن أنه من الممكن تقديم تفسير لا يترك منفذاً للشذوذ والاستثناء».¹

وعلى هذا يظل هذا المصطلح وما يحيل عليه من مفهوم بؤرة خلاف، وجدل حتى وقتنا الراهن.

ترجم مصطلح (phonème) في معاجم الدراسة، بمقابلات متعددة كما هو موضح في الجدول الآتي:

الجدول 7: ترجمة مصطلح Phonème في المعاجم اللسانية

المصطلح	معجم علم اللغة الحديث	قاموس اللسانيات	علم الأصوات	معجم الألسنة	معجم المصطلحات اللسانية	المعجم الموحد
Phonème	الفونيم ص 67	صوتيم ص 195	فونيم ص 126	وحدة صوتية حرف، ص 247	صوتية، فونيم، ص 220	صوتية ص 110

يتضح من الجدول تعدد آليات وضع المصطلح بين التعريب والترجمة المباشرة، وهذا ما انجر عنه تعدد صيغ المقابلات العربية.

يأتي المصطلح الأجنبي على الصيغة: جذر + لاحقة، phon+eme= phonème، رأينا سابقاً أن الجذر phon يعود إلى الأصل اللاتيني phon الذي يعني الصوت Eme: تنحدر اللاحقة eme من الأصل اليوناني éma، تدل على الوصف (الصفة) مثل Phonème, morphème, graphème²

استناداً إلى الدلالة الأصلية نحصل على الترجمة الحرفية: صوتية، والتأنيث هنا لتمثل اللاحقة التصريفية (e) الدال على المؤنث في اللغة الفرنسية.³

¹ أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي، ص 174.

² Eric Partridge: Origins A Short Etymological Dictionary Of Modern English, P 3915.(eme).

³ Ibid., P 3912.(e)

..... ترجمة مصطلحات الصوتيات في المعجم اللساني

عُرِّبَ مصطلح *phonème* تعريباً صوتياً في معجم علم اللغة الحديث، وكذلك في معجم الفاسي الفهري، ومعجم علم الأصوات، أما قاموس اللسانيات فقد جاء المصطلح عن طريق الترجمة الجزئية للمصطلح الأجنبي بترجمة الجذر (*phon*) بصوت، والتعريب الصوتي للاحقة *eme* ، ليكون المقابل العربي: صوتم،¹ وقد يبدو المصطلح غريباً، لكن شيوعه لطّف من غرابته، وكونه جاء لفظة واحدة يجعله فعّالاً من الناحية التصريفية.

أما بقية المعاجم، فقد ترجمت المصطلح ترجمة مباشرة باعتماد المقابل العربي (صوتية) في كل من المعجم الموحد، وكذلك الفاسي الفهري، في حين نلاحظ في معجم الألسنية تضخيماً في عملية الترجمة بإيراد مركب عربي أمام مصطلح أجنبي مفرد: *phonème* وحدة صوتية، مركب وصفي مكون من (اسم + صفة) حيث لا يظهر المقابل (وحدة) في بنية المصطلح الأجنبي، وإنما (وحدة) مستمدة من مفهوم هذا المصطلح، أضافها صاحب المعجم لإضفاء بعض الدقة على المقابل العربي، وإلى جانب هذا المركب العربي، يضع مبارك مبارك مقابلاً آخر هو الحرف، بالرغم من الاختلاف الواضح بين المصطلحين الغربي والعربي من حيث المفهوم، حيث يشير مصطلح (حرف) في عمومته إلى الصورة الكتابية، أو الرمز الكتابي للصوت اللغوي.²

ومع هذا التعدد الاصطلاحي يبقى تعريب المصطلح هو الأنسب، وهذا لشيوع استعماله وعالميته، والقدرة على تصريفه من ناحية، ومن ناحية أخرى ضبابية هذا المفهوم، وإذا ما ترجمناه بمقابلات أخرى لها مفاهيم سابقة في ذهن المتلقي، من قبيل الحرف، الصوت اللغوي،³ الصوتة،⁴ فإننا نزيد الأمور غموضاً.

¹ مصطلح صوتم من المصطلحات الشائعة في الجامعات التونسية، وضعه صالح القرامدي. ينظر عبد الفتاح أبراهم، مدخل في الصوتيات، ص 17.

² عبد العزيز الصيغ، المصطلح الصوتي، ص 218.

³ ترجمة مجمع اللغة العربية بالقاهرة. ينظر المرجع نفسه، ص 227.

⁴ المرجع نفسه، ص 227.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

ومن حيث التعريف الذي صاحب المصطلح فقد ورد كآلاتي:

الجدول 8: تعريف مصطلح *Phonème* في المعاجم اللسانية.

المعجم	معجم علم اللغة الحديث	قاموس اللسانيات	معجم علم الأصوات	معجم الفاسي الفهري	معجم الألسنية	المعجم الموحد
تعريف Phonème	وحدة صوتية مميزة/ ص 67	غير وارد	أسرة من الأصوات المتشابهة تكون في توزيع تكاملي أو تغير حر، والتشابه قد يكون فيزيائياً، أو في مكان النطق أو الناطق، أما التوزيع التكاملي فهو ألا يحل صوت مكان الآخر من الأصوات من الأسرة ذاتها في نفس السياق، أما التغير الحر هو أن يجوز أن يحل صوت محل آخر في نفس السياق الصوتي دون تغيير في المعنى، ويدعى كل صوت من هذه الأصوات ألفونا، وهذا فإن الفونيم في رأي البعض هو صوت نموذجي أو صورة عقلية أو صوت مثالي تحاول تقليده، أو صوت مجرد، وقد عرفه البعض على بأصغر وحدة صوتية يؤدي استبدالها إلى تغيير المعنى، والفونيم وحدة صوتية تتحقق عن طريق الألوفونات المختلفة/ ص 127.	غير وارد		أصغر وحدة غير ذات معنى، يمكن الحصول عليها بتقطيع السلسلة الكلامية، ونقدم كل لغة عدداً محدوداً ومقيداً من الصوتيات (من 20 إلى 50 حسب اللغات، وتتألف فيما بينها لتشكيل العناصر الدالة في الخطاب اللغوي/ ص 111.

فيما يتعلق بمعجم علم اللغة الحديث، لا يعدّ هذا التعريف تعريفاً، وإنما يدخل فيما يسمى بالافتراض المشروح باعتبار أن المعجم قد نقل المصطلح نقلاً صوتياً، وهذا ما استدعى وضع بعض الملاحظات التي تحيل على مفهومه، أما المعجم الموحد فقد اكتفى بوضع التعريف

..... ترجمة مصطلحات الصوتيات في المعجم اللساني

الأكثر شيوعاً لمصطلح (فونيم)، وهي معلومات قليلة جداً مقارنة بحجم المصطلح وأهميته الكبيرة بالنسبة للعلوم الصوتية بمختلف أنواعها؛ بل هو علم قائم بذاته، وفي كل مرة نطرق فيها تعريفاً في هذا المعجم ندرك بسهولة أنه مجرد ترجمة مقتضبة، لما يرد في المعجم الفرنسي لجون دييوا، ولكم المقارنة بين التعريفين:

«Le phonème est l'élément minimal, non segmental, de la réparé sensation phonologique d'un énoncé dans la nature est déterminée par un ensemble de traits distinctifs. Chaque langue présente, dans son code, un nombre l'unité et restreint de phonèmes (une vingtaine à une cinquantaine selon les langues).»¹

أما معجم علم الأصوات للخولي وبحكم تخصصه في المجال ، فقد أعطى للمصطلح حقه بعض الشيء، فقد تضمن أهم التعريفات الغربية التي وُضِعَتْ أمام هذا المصطلح، والتي سبق الإشارة إليها في هذا المبحث، وهذا ما يمكن القارئ من إدراك وجهات النظر المختلفة حول مفهوم هذا المصطلح، ولو بدرجة قليلة، ذلك أن الخولي لم يصرح بالمدارس التي قدمت هذه التعريفات، بل اكتفى بالقول البعض يعرفه، أو يرى... وإضافةً إلى هذا جاء التعريف وفيه التفريق بين نوعين من الفونيمات مع ذكر الأمثلة لأهميتها في جودة التعريف ووضوحه: الفونيم القطعي (*phonème segmental*) وهي الفونيمات التركيبية التي تشتمل على الصوامت والصوائت. والفونيمات الفوقطعية (*phonème suprasegmental*) وتشمل الفواصل والنبر والنغمات،² وكلما زاد حجم المعلومات، زادت معه جودة التعريف، وهذا يختصر على الباحث الوقت ويغنيه عن الكثير من المراجع.

وحتى نوفي حق هذا التعريف، نقول إنه لا يقل أهمية عما ورد في المعاجم الغربية، الفرنسية منها والإنجليزية، مثلما هو كائن في الجدول التالي:

¹ J. Dubois, Dictionnaire de linguistique, P 359 (phonème).

² ينظر: محمد علي الخولي: معجم علم الأصوات، ص 127.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

الجدول 9: مصطلح Phonème في المعاجم الغربية

المصطلح	J. Dubois. Dictionnaire de linguistique	David Crystal Dictionary of linguistics and phonetics
Phonème	أصغر وحدة غير قابلة للتقطيع تنشأ من تقطيع السلسلة الكلامية، وكل لغة تقدم عدداً محدوداً من الفونيمات حسب اللغات، حيث تجمع تبعاً في نقاط مختلفة من السلسلة الكلامية، لتمييز الرسائل اللغوية عن بعضها البعض، وهذه الوظيفة هي الوظيفة الأساسية، وعلى هذا عرف الفونيم على أنه أصغر وحدة صوتية متميزة، وقد اقترح L. Hjelmslev مصطلح cémène وعرفه بأنه وحدة فارغة تقتفر إلى المعنى، ومع ذلك فهو مهم لأنه يجري التحدث به في كل اللغات المعروفة والفونيم يعرف بالرجوع إلى المادة الصوتية من خلال بعض الخصائص التي توجد على مستويات نقل الرسالة. P 359-360	الوحدة الدنيا في النظام الصوتي، وفقاً للنظريات الصوتية التقليدية، وكان الدافع الأصلي

أورد هذا البحث جانباً من التعريفات الواردة في المعاجم الغربية، نظر لطولها، ونظراً لأهمية المصطلح فقد عرّف تعريفاً موسوعياً، وهذا ما نتطلع إليه في المعجم العربي، فقد يُغضُّ الطرف أمام مصطلح من المصطلحات، لكن ليس أمام المصطلح من قيمة مصطلح *phonème* أو مصطلحات العلوم. وفي ختام الحديث عن هذا المصطلح، يمكن أن نضع له التعريف التالي بالقول إنه صوت مثالي له تمثيلات مختلفة أثناء التركيب أو في بيئات مختلفة، وهذه التمثيلات تعرف بالآلوفون أو المتغيرات الصوتية أو البدائل الصوتية لا تؤثر في المعنى (صور نطقية للفونيم). يضطلع بوظيفة تمييزية، إذ يدخل في التفريق بين معنى وآخر مثل الفونيمات (ق.س.ن) في نام وقام وسال. ومن ناحية التقسيم، فهو أدنى الوحدات الصوتية التي نصل إليها ويكون غير قابل للتقسيم أو التجزئة.

..... ترجمة مصطلحات الصوتيات في المعجم اللساني

مصطلحا: Prosody / Prosdème

مصطلح: Prosodie-Prosody

ينحدر المصطلح من الأصل اليوناني *prosodia* ويعني أغنية يؤديها كبار السن في مجموعات (*song from odé*)، وهي الدلالة ذاتها لجذر اللاتيني *prosodia*، أما اللفظة *prosodé* فتعود إلى الفرنسية الحديثة المبكرة (1500-1700) وتعني علم العروض، والحال نفسها للفظ الانجليزية *prosody* من الأصل اليوناني *prosodiakos* واللاتيني *prosodiacus*¹. ووفق هذا تتمحور الدلالة اللغوية للمصطلح حول النغم والإيقاع والموسيقى.

من الناحية الاصطلاحية لم يَحِدْ المصطلح عن دلالاته اللغوية، إذ يُستخدم في الصوتيات الفوقطعية (*phonologie suprasegmentale*) للإشارة بوجه عام إلى مجموع التغيرات على مستوى الإيقاع (نبر - نغم - مقطع)، وفي بعض الأحيان يعتمد مرادفاً للمصطلح *suprasegmentale*، ولكن دلالاته الضيقة تشير إلى ما سبق ذكره (مجموع التغيرات)². هذه الدلالة والمفاهيم المتعددة للمصطلح الأجنبي، أثرت في نقله إلى العربية، ونلّفِي ترجمته في معاجم الدراسة على النحو التالي:

الجدول 10: ترجمة - Prosody في معاجم الدراسة

المصطلح	معجم علم اللغة الحديث	علم السانويات	معجم الأصوات	معجم الألسنة	معجم المصطلحات اللسانية	المعجم الموحد
Prosodie	التطريزية ص 73	نغمية ص 191		علم العروض ص 240	علم العروض ص 270	تطريز ص 121

يظهر من الجدول أنّ المقابلات العربية الواردة أمام المصطلح الأجنبي تُظهر المفاهيم الثلاثة التي يحيل عليها في الدراسات الغربية، حيث نجد ترجمته بعلم العروض، في كل من معجم علم اللغة الحديث ومعجم الفاسي الفهري، لكن في ظل غياب ركن التعريف عن هذين

¹ P(2189).(odre)

² David gyval.p393.(prosody).

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

المعجمين، نتساءل هل المقصود به ذلك المفهوم الذي استعمل قديماً للدلالة على مجموع خصائص وتحاليل البنية؟ أم أنه يشير إلى المصطلح التراثي «العروض» باعتباره يشير إلى مفهوم الإيقاع وما يدخل تحت لوائه؟

أما الظاهر في المعجم الموحد ومعجم المصطلحات اللسانية، فترجمة المصطلح *prosodie* بتطريزية تؤكد أنّ المفهوم المشار إليه هو ذلك المفهوم الذي يرادف مفهوم المصطلح *suprasegmental* (فوققطعية). ويزيد من هذا التأكيد التعريف المصاحب للمصطلح في المعجم الموحد، حيث عرّف على النحو التالي: التطريز هو دراسة السمات التي تمس في اللغات المختلفة والسلاسل دون اعتماد التحليل القطعي، فقد تكون السمة أصغر من القطعة، وقد تكون أكبر منها كالمقطع أو أي جزء آخر من الكلمة أو الجملة.¹ كما عرّف مصطلح فوققطعي بأنه سمة تطريزية، وهي خاصية صوتية أكبر من القطعة لأنها تشمل قطعات أو مقطعاً أو عدة مقاطع، مثل: النبر والتنغيم والتأنيف والانسجام الصائتي.²

في حين يفضل المُسدّي المقابل العربي نُغَيْمة لما فيه إحالة على المعنى اللغوي والاصطلاحي للمصطلح *prosodie* معاً.

ومما يعاب على التعريفات الواردة في المعجم العربي، عدم الإشارة إلى تعدد استعمالات المصطلح في بيئته الأصلية، والاكتفاء بمفهوم واحد من هذه المفاهيم عكس المعاجم الغربية.³ حيث يشير مصطلح *prosodie* إلى مجال بحثي واسع نظراً لتعدد الظواهر المدروسة مثل: النبر - النغمة - كمية الصوت - المقطع - اللحن - التدفق - الإيقاع... الخ، وكل تدخل تحت ما يعرف بالعناصر التطريزية، وهذه العناصر من الاستحالة أن تظهر مفردة بل دائماً بحاجة إلى علامات لسانية أخرى.⁴

¹ المعجم الموحد: ص 121 (مدخل *prosodie*)

² المصدر نفسه: ص 144 (مدخل *suprasegmental*)

³ أشرنا سابقاً إلى التعريف الوارد في المعجم الانجليزي دافيد كرسايل. ينظر *prosodie* من المعجم ص 393.

⁴ *J.dubois.p385.(prosodie)*.

..... ترجمة مصطلحات الصوتية في المعجم اللساني

مصطلح: Prosodème

غالباً ما يشار إلى السمات التطريزية (*prosodic feature*) في علم الفونيمات (*phonémique phonologie*) بالاسم "الوحدة التطريزية *prosodème*": التي تعتبر واحدة من الأبعاد الرئيسية في تصنيف الكلام صوتياً، والمقصود بالوحدة التطريزية تلك التمثيلات الصوتية غير الخطية التي تأتي مصاحبة للتمثيلات الصوتية الخطية الفونيمات.¹ وكما أنّ الفونيم محور وأساس الصوتية القطعية (*phonologie segmentale*) فإنّ الوحدة التطريزية محور وأساس الصوتية الفوققطعية (*phonologie suprasegmentale*).

جاء ترجمة هذا المصطلح في معاجم الدّراسة (الجدول 11).

الجدول 11: ترجمة المصطلح *prosodème* في معاجم الدّراسة

المصطلح	معجم علم اللغة الحديث	قاموس اللّسانيات	معجم علم الأصوات	معجم الألسنة	معجم المصطلحات اللّسانية	المعجم الموحد
Prosodème	الحدة الصوتية التطريزية ص 72	إنغامية		وحدة صوتية فوققطعية ص 240	فونيم فوققطعي انغامية ص 269	وحدة تطريزية ص 121

غالباً ما تشير المصطلحات المنتهية باللاحقة (*ème*) الدالة على الوصف، في مجال الصوتيات واللّسانيات إلى معنى الوحدة من ذلك *phonème*، (وحدة صوتية) (*morphème*: وحدة صرفية) (*graphème*: وحدة خطية، *lexème*): وحدة معجمية... الخ، ونلاحظ من الجدول السابق أنّ كل المقابلات العربية جاءت على شكل مركبات اصطلاحية معقدة وبسيطة، عدا قاموس المسدي الذي جاء لفظة واحدة، أمام المصطلح الأجنبي المركب من الصيغة جذر+ لاحقة *prosod+ème*، وعلى هذا نسجل عدم التوافق بين بنية المقابل العربي ونظيره الأجنبي.

إنّ اللجوء إلى التضخيم عند ترجمة المصطلح هو بيانٌ عدم القدرة على وضع المقابل العربي من جهة، ومن جهة أخرى هي محاولة تمثل المفهوم بدقة، بإضافة بعض الوحدات المكونة للمقابل، غير الواردة في المصطلح الأجنبي، والمستوحاة أو المأخوذة من مفهوم

¹ David crystal. p394 (*prosody*).

المصطلح، فاقد تُرجم المصطلح في معجم علم اللّغة الحديثة بالوحدة الصوتية التطريزية، ويقترب من هذه الترجمة، ترجمة معجم الألسنة (وحدة صوتية فوقطعية) وكذلك الفاسي الفهري (فونيم فوقطعي).

أما المسدي فقد فضل المصطلح المفرد (إنغامية) امتداداً لترجمة المصطلح *prosodie* لكن هذا المصطلح قد لا يعبر بدقة عن المفهوم، باعتبار هذا الأخير يشير إلى الكثير من السمات التطريزية، التي يمكن أن نطلق عليها مصطلح *prosodème*، مثل : النغمة، النبر، الإيقاع إلى غير ذلك من السمات الأخرى، أما المعجم الموحد، فاعتمد المقابل العربي، وحدة تطريزية وهي الترجمة الأنسب - في نظر هذا البحث - لتضمنه مفهوم الوحدة وابتعاده عن اعتماد فونيم فوقطعي يُفترض أن يظل ترجمة للمصطلح *phonème suprasegmental*.

نتائج الدراسة:

- عدم التحكم في آليات التوليد الاصطلاحي للغة العربية (اشتقاق، مجاز، نحت، تعريب) وراء التعدد الاصطلاحي الذي بات علامة مسجلة في الدرس اللساني العربي.
- طرح بعض التعريفات العامة، التي من شأنها الإخلال بالمفهوم الاصطلاحي.
- غياب التدرج في عرض المعلومات الخاصة بالمصطلح كما هو الحال في المعاجم اللسانية الغربية.
- الاكتفاء بعرض المفاهيم الشائعة، وإغفال المفاهيم المتعددة للمصطلح نفسه.
- بعض المعاجم تحيد عن المنهجية المعتمدة والمطروحة في المعجم، كالتهاون في طرح التعريف بالرغم من تشدقها بإيراد هذا الركن.
- للترجمة أهميتها في تقريب المعرفة بشرط أن تكون دلالية توصيلية مبنية على استراتيجيات وتقنيات عملية تحكمها توجيه عملي عن النقل عن الآخر من أجل خدمة الذات. وينسب الباحث غموض المصطلح الصوتي العربي المترجم ليس إلى اللغة العربية وإنما إلى كفاءة المترجم وضعف المشروع الاصطلاحي المؤسساتي العربي. بلغة أبسط على الباحثين

..... ترجمة مصطلحات الصوتية في المعجم اللساني

والمختصين أن يبدؤوا استعمالهم للمصطلحات الصوتية التراثية العربية، إن كانت تفي بالغرض الاصطلاحي والمفاهيمي وترك آليات الترجمة الحرفية والتكافؤ والتكيف والترجمة الشارحة والتطفيف والتصريح حين توجد خانات اصطلاحية فارغة في الدرس المصطلحي الصوتي التراثي، وإلا يَكُنْ عملهم من باب الوقوع في سجن الدرس الصوتي الغربي، وعليهم تناسي تلك المعارف الصوتية التراثية والشبكة الاصطلاحية التي خلفتها. فلا أحد يجهض مشروعه الاصطلاحي من أجل بناء مشاريع الآخرين.

لائحة المصادر والمراجع:

1. إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، مكتبة نهضة مصر، مصر، (د.ت.).
2. أحمد عمر مختار: دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب، القاهرة، مصر، 1998.
3. إميل يعقوب: معجم الأوزان الصرفية، عالم الكتب، ط1، 1993.
4. عيد الفتاح براهيم: مدخل في الصوتيات، دار الجنوب للنشر، تونس، (د.ت.).
5. عبد العزيز الصيع: المصطلح الصوتي في الدراسات العربية، الطبعة الثانية، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2008.
6. محمد مرتضى الحسيني الزبيدي: تاج العروس، تح: التزوي وحجازي وآخرون، ج 10، مطبعة حكومة الكويت، 1975.
7. المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات (انجليزي - فرنسي - عربي)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الطبعة الثانية، 2002.
8. David Crystal: A dictionary of linguistics and Phonetics, sixth edition, 2008.
9. Eric Partridge: Origins A Short Etymological Dictionary Of Modern English, Taylor et Francis Group, London, 2006.
10. Pierre Martin : Manuel de phonologie fonctionnelle, centre international de recherche en aménagement linguistique, Université LAVAL, Québec, 1997.
11. JEAN DUBOIS et autres : dictionnaire de linguistique et des sciences du langage, Larousse, 1^{er} édition. 1999.
12. N.S.Trubetzkoy: Principles of phonology, translated by Christian, second printing, California, 1971.

الترجمة في مجال الاقتصاد الإيكولوجي

الصعوبات المصطلحية*

ترجمة: أ. محمد الإدريسي

الجديدة - المغرب

تعتبر الترجمة في حقل العلوم الاجتماعية "عملية معقدة" تتطلب معرفة مستعرضة في مختلف المجالات. يمكن للمرء أن يجادل بكون هذه الميزة مشتركة بين جميع أنواع الترجمات العلمية؛ مع ذلك فإن الأمر يصح بوجه خاص في مجال العلوم الاجتماعية. زيادة على ذلك، إن ترجمة هذا النوع من النصوص تتسم بالخصوصية التالية: مع أن العلوم الاجتماعية تبدو للوهلة الأولى أكثر يسراً من العلوم "الحقة"، لأنها أكثر ارتباطاً بالكائن الإنساني والحياة اليومية، فإن هذا المجال يخفي الكثير من الصعوبات¹.

تعارض العلوم الاجتماعية في جوهرها العلم "الحق" بطبيعتها الاستيمولوجية². إن اختلاف الآراء أكبر أهمية مما كانت عليه العلوم الحقة، وهذا الأمر أثر بالضرورة في الترجمة والمصطلحات، فعندما ظهرت العلوم الاجتماعية عمقت من حدة الصعوبات التي تواجه المترجمين على مستوى المصطلحات والتعاريف التي نادراً ما أجمع حولها المتخصصون، خاصة عندما تكون مركبة بين عدة علوم أخرى. إضافة إلى ذلك، يمكن لمشكل الكلمات

* في الأصل نشر هذا المقال باللغة الفرنسية في: Sabri-Fabrice Sayhi, « Traduire dans le domaine de l'économie écologique : les difficultés terminologiques », Traduire, 227 | 2012, 35-46.

¹ يتحدث الباحث هنا عن العلوم الاجتماعية "Les sciences sociales" بصيغة الجمع، في إشارة إلى السوسيولوجيا، الأنثروبولوجيا، الإثنولوجيا، الإثنوغرافيا بوجه خاص، وأيضاً التاريخ، الجغرافيا، الفلسفة، علم النفس... والاقتصاد الإيكولوجي عامة [المترجم].

² من حيث الموضوع والمنهج، وأيضاً من الناحية المصطلحية، الاشتقاقية والمفهومية [المترجم].

الجديدة أن يطرح نفسه باستمرار، حيث يحدث أن تُستعمل بعض المصطلحات في علم اجتماعي بمعنى مغاير عن الذي تُستعمل به في تخصص اجتماعي آخر.

يعد الاقتصاد الإيكولوجي¹ خير مثال على ما ورد آنفاً. في الواقع، يقوم هذا العلم على مجال ماكرو- معرفي يشمل العديد من العلوم الأخرى التي من الممكن أن تعين بشكل جلي على ترجمة نص في الاقتصاد الإيكولوجي. إن التعقيد الشائع الذي يميز هذا العلم ينبثق من خلال البحث الوثائقي الأولي. يمكننا القول بأن الاقتصاد الإيكولوجي هو محاولة للتوفيق بين التنمية الاقتصادية والبيئة بُغية الحفاظ على الموارد الطبيعية والتحكم المنصف في حاجات المجتمع.

1. حالة البحث

بداية، من المهم الانفتاح على المشهد الوثائقي للاقتصاد الإيكولوجي، مع الأخذ بعين الاعتبار للطابع المتعدد التخصصات لهذا العلم الاجتماعي، حيث يقدم المتخصصون ملامح متعددة للدراسة: جغرافية، علماء أحياء، متخصصين في الدراسات البيئية، مهندسين زراعيين، فلاسفة وعلماء اجتماع. يتعلق الأمر أيضاً بعلماء يعملون بالميدان كما الجامعة؛ نشطاء ومنظمات غير حكومية يشتغلون بشكل وثيق مع الباحثين. يمنح هذا النمط من انتشار وتعدد الخبراء، وفق خلفيات مختلفة، تعددية خاصة لهذا المجال من المفترض أن تكون حاجزاً أمام هيمنة المقاربة الأحادية للاقتصاد النيوكلاسيكي [الاقتصاد الكلاسيكي الجديد] الذي يجد معارضة كبيرة من طرف علماء الاقتصاد الإيكولوجي.

معظم المقالات التي نتناول موضوع الاقتصاد الإيكولوجي محررة باللغة الإنجليزية، حتى

¹ في الأصل هذا المقال مستل من بحث الماجيستر الثاني الخاص بي: "صناعة اللغة والترجمة المتخصصة (جامعة باريس 7- ديدرو) في الترجمة والمصطلحات في مجال الاقتصاد الإيكولوجي (سبتمبر 2012). من هذا المنبر، أوجه شكري إلى أساتذتي المشرفين "Débora Farji-Haguet"، "Geneviève Bordet" على تأطيري و"John Humbley" رئيس لجنة المناقشة [المحرر].

..... الترجمة في مجال الاقتصاد الإيكولوجي

من قبل الباحثين الناطقين بالفرنسية. لكن مع ذلك من الممكن أن نجد بعض الوثائق باللغة الفرنسية: يتعلق الأمر بمقالات علمية محررة من طرف الباحثين، إما حول "نظرية الاقتصاد الإيكولوجي la théorie de l'économie écologique"، مع عدد لا بأس به من مقالات دراسات الحالات، وإما بمقالات البحث في "الاقتصاد الإيكولوجي التطبيقي l'économie écologique appliquée" حول بعض الأنشطة الاقتصادية أو نظم إيكولوجية معينة في العالم.

لم يكتسب البحث في الاقتصاد الإيكولوجي مكانة تذكر بفرنسا إلا خلال العشرين سنة الأخيرة، مع كل من "René Passet"، "Jean-Paul Deléage"، "Fabrice Flipo" وآخرين¹.

يمكن بُغية التعميم أن نفتح على المقالات المنشورة بالصحف مثل "لوموند ديبلوماتيك" و"لوفيغارو". معظم المقالات العلمية متوفرة على شبكة الانترنت فضلاً على النسخ الورقية. بالفرنسية، يمكن أن نجد مجموعة من الدوريات، من بينها "التنمية المستدامة والتراب Développement durable et territoire"، "إيكولوجيا وسياسة Écologie et politique" وأيضاً "دورية إيتوبيا" (تصدر عن مركز البحث في الإيكولوجيا السياسية ببلجيكا). مع ذلك، نلاحظ أنه لا وجود لدورية متخصصة في الاقتصاد الإيكولوجي بالدول الناطقة بالفرنسية.

نجد هناك أيضاً بعض الكتب المتخصصة في الاقتصاد الإيكولوجي، التي تشمل واحداً من الأعمال الرئيسية لرائد هذا المجال "Nicholas Georgescu-Roegen" الاضمحلال، الكون، الاقتصاد والإيكولوجيا² La décroissance, entropie, économie, écologie، "التنمية الدائمة Le Développement soutenable" لـ "Franck-Dominique Vivien" إضافة إلى العمل التعميمي لـ

¹ يمكن أن نعزو ذلك إلى تزايد الاهتمام بالعلوم الاجتماعية البيئية والإيكولوجية خاصة مع تطور السوسولوجيا البيئية والإيكولوجية والأنثروبولوجيا البيئية والإيكولوجية [المترجم].

² تَرجمه إلى الفرنسية "Jacques Grinevald" و "Ivo Rens" [المحرر] (للأسف لم يترجم بعد إلى اللغة العربية) [المترجم].

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

René Passet¹ "الاقتصاد والمعيش L'économie et le vivant".

تجدد الإشارة إلى توفر مجموعة من تقارير الأنشطة الموجهة نحو المتخصصين، مثل دليل CEECEC² الذي يضم معجم المفردات الوحيد المتوفر اليوم في الاقتصاد الإيكولوجي. في نفس السياق نجد مشروع TEEB³ الخاص بتقارير الأنشطة متوفر أيضاً باللغة الفرنسية والإسبانية. بيد أن هذه التقارير، ثمرة تعاون مجموعة من الباحثين، قد حررت باللغة الانجليزية ومن ثم ترجمت إلى اللغة الفرنسية والإسبانية!

أخيراً، هناك مجموعة من المواقع الإلكترونية والمقالات المنشورة في دوريات النشاط الراديكاليين، الذين يعارضون نمط النمو التقليدي ويناقشون قضية التطور الأعمى للدول المتقدمة على حساب الفقراء، تستأثر باهتمام جمهور العموم. ثم هناك دوريات ورقية متوفرة أيضاً على شبكة الانترنت مثل "Mouvements"، "Mauss"⁴ وأيضاً "Silence" التي تركز على الجانب السياسي للاقتصاد الإيكولوجي وتتميز بالحدة النقدية لمقالاتها.

في الختام، يمكن القول بأن هناك مجموعة من الباحثين الذين حرروا كتباً ومقالاتٍ حول موضوع (ثيمة) الاقتصاد الإيكولوجي (أو أحد جوانبه)، حيث نجد هناك غنى كبيراً في

¹ يعتبر رونيه باسيت أحد الرواد البارزين في الاقتصاد الإيكولوجي خلال نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات

بفرنسا، انظر [المترجم]: PASSET René, 1979. L'économie et le vivant, Paris, Payot.

² "Civil Society Engagement with Ecological Economics" و "Engagement de la société civile avec l'économie écologique" (إشراك المجتمع المدني في الاقتصاد الإيكولوجي). ثمرة تعاون بين منظمات غير حكومية وباحثين في الاقتصاد الإيكولوجي، وقد مولت المشروع المفوضية الأوروبية ويقدم مختلف دراسات الحالة العلمية [المحرر].

³ "The Economics of Ecosystems and Biodiversity" و "l'Économie des écosystèmes et de la biodiversité" (اقتصاد النظم الإيكولوجية والتنوع البيولوجي) مشروع بحث مماثل لـ CEECEC مَوْلته أيضاً المفوضية الأوروبية [المحرر].

⁴ Revue du Mouvement anti-utilitariste en sciences sociales دورية الحركة المناهضة للنفعية في العلوم الاجتماعية [المحرر].

..... الترجمة في مجال الاقتصاد الإيكولوجي

الأدبيات المتعلقة بهذا المجال. كما تجدر الإشارة إلى عدم وجود دورية محكمة ناطقة بالفرنسية متخصصة في الاقتصاد الإيكولوجي، على عكس الدول الناطقة بالانجليزية: دورية "Ecological Economics"، ولذا تظهر صعوبة إيجاد مرادفات فرنسية للمصطلحات الانجليزية الناشئة، كما هو الحال في الحقل العلمي - خاصة العلوم الجديدة - نجد نفس الأمر بالنسبة للغة الإسبانية: في الواقع، مع أن الدول الناطقة باللغة بالاسبانية لا تتوفر هي الأخرى على دورية محكمة متخصصة في الاقتصاد الإيكولوجي، فإن إسبانيا (تحديداً كاتالونيا) تتوفر على مركز للبحث في المجال "مركز العلوم والتكنولوجيات البيئية l'Institut de ciència i tecnologia ambientals" الذي يعد ذا أهمية كبرى مقارنة بنظيره الفرنسي. هذا وقد تزايدت أعداد الباحثين الأمريكي-لاتينيين المهتمين والناشرين في هذا المجال، وهذا ما أفرز غنى في البحوث الوثائقية والمصطلحية بالإسبانية.

2. "الديمومة"¹ وتغير البرادغيم

إن الاقتصاد الإيكولوجي علم اجتماعي متعدد التخصصات يقدم رؤية جديدة للعلاقة بين الاقتصاد والبيئة، ويعتبر أن الاقتصاد نسق فرعي من النظام الإيكولوجي العالمي، ويبحث عن تقييم "ديمومة" *soutenabilité* التبادلات بين هاذين القطبين بفضل التحليل المتعدد المعايير. تشمل هذه المعايير عناصر الاقتصاد والإيكولوجيا بوجه عام، وأيضاً عناصر من الإيكولوجيا الصناعية، الإيكولوجيا السياسية، الفيزياء، البيولوجيا، الجيولوجيا، السوسولوجيا، الأنثروبولوجيا، الفلسفة.

من منظور علم الترجمة، أول صعوبة مصطلحية تواجهنا ك مترجمين ترتبط بالتعبير الجديد "الدوام" *soutenable* المشتق من مصطلح "الديمومة" *soutenabilité*. نترجم صفة "soutenable" بالفرنسية عن المصطلح الانجليزي "sustainable" و "sostenible" بالاسبانية، ولا يجوز الأحيان

¹ يستخدم الباحث مصطلح "الديمومة" "La soutenabilité" بدلاً من مصطلح "الاستدامة" "La durabilité" [المترجم].

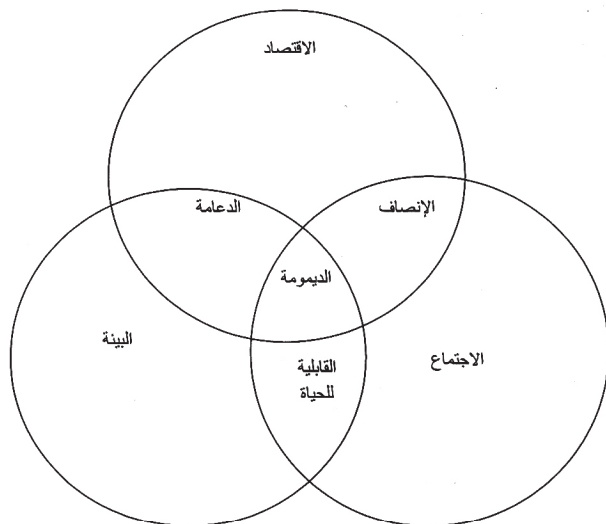
أن تترجم في أي حال من الأحوال بمصطلح "الاستدامة durable"، حتى لو أثبتت هذه الترجمة واستُعملت بوجه عام في العلوم البيئية "Les sciences environnementales". في الواقع، يعتبر دعاة الاقتصاد الإيكولوجي الفرانكفوني أن مصطلح "durable" ترجمة سيئة لصفة "الديمومة sustainable"؛ هذه الأخيرة من المفترض أن تشير إلى أن النشاط الاقتصادي يجب أن يكون "داعماً" للبيئة أو "مسانداً" لها. يسمح مصطلح "الدوام" بترجمة أفضل لفكرة الإمكانيات الاقتصادية، مع الرغبة في معارضة مبدأ "التنمية المستدامة développement durable". يُنظر إلى هذه الكلمة الرنانة من قبل خبراء الاقتصاد الإيكولوجي كتبرير للرأسمالية وحجة للتسويق وتمديد استغلال الموارد دون تغيير حقيقي في السلوك، لذا فهم يرفضون صفة "الاستدامة" ومصطلح "التنمية" من منطلق تشكيكهم في الاستدامة الوهمية لاستغلال الموارد الكامنة وراء مفهوم "التنمية المستدامة"¹.

مع ذلك، يرمي كل من الاقتصاد الإيكولوجي والتنمية المستدامة إلى هدف مشترك: أن يأخذ بعين الاعتبار جميع الأجيال الحالية والأجيال المستقبلية في التنمية الاقتصادية. لكن خبراء الاقتصاد الإيكولوجي يعتبرون هذا الهدف غير محقق من قبل "التنمية المستدامة"، ويدعون إلى ضرورة إعادة النظر في الحدود البيئية والاجتماعية للاقتصاد بصرامة أكثر، وهو ما يترجمه تحول المصطلحات الفرنسية. من المثير للاهتمام أن نلاحظ أنه لا المصطلح الانجليزي sustainable ولا الاسباني sostenible سوف يتغير من مجال لآخر، في حين أدى تطرف المفاهيم الفرنسية بالضرورة إلى تحول لا يمس الدال فقط وإنما المدلول أيضاً. سيكون الزاماً على المترجمين الفرانكفونيين المسؤولين عن ترجمة نص مرتبط بالعلوم البيئية، في اختيارهم لمصطلح "الاستدامة" أو "الديمومة"، الإشارة إلى أفكار الاقتصاد الإيكولوجي إذا اختاروا المصطلح الأخير. لكن اللغة الانجليزية والإسبانية أكثر حياداً منذ مدة طويلة، نظراً

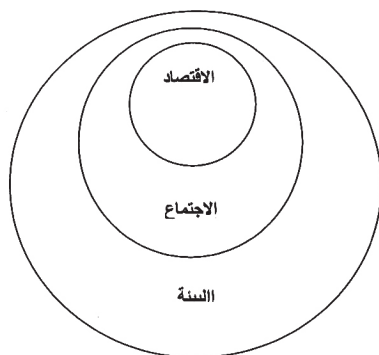
¹ هذه الفكرة مشتركة بين الاقتصاد الإيكولوجي والسوسيولوجيا الإيكولوجية والبيئية، حيث يجري ربط التنمية المستدامة بالاقتصاد النيوليبرالي وتبرير الهيمنة الرأسمالية على البيئة والإنسان في المرحلة المعاصرة [المترجم].

..... الترجمة في مجال الاقتصاد الإيكولوجي

لكون نفس المصطلح متاحاً باللغتين.



ديمومة ضعيفة



ديمومة قوية

المصدر: MARÉCHAL Aurélie, 2011, « Économie écologique : principes de base », dans Etopia n° 8, <http://www.etopia.be/spip.php?article1741>, consulté le 28 octobre 2011.

يتحدى الاقتصاد الإيكولوجي الشبكة الشهيرة للتنمية المستدامة المدرجة في تقرير Brundtland¹، التي تشير إلى كون المكونات الثلاثة للتنمية المستدامة (الاقتصادية، البيئية والاجتماعية) متقاطعة بالضرورة بعضها مع بعض، حتى لو كانت مكتفية بذاتها. في الواقع، تظهر المكونات الاقتصادية والاجتماعية كـ "جيل عفوي" في الشبكة التقليدية، نظراً لكون أي من المكونين لا علاقة له بالمجال البيئي. يفضل خبراء الاقتصاد الإيكولوجي تمثيل هذه المجالات الثلاثة بالدمى الروسية التي يلاءم بعضها بعضاً: يُنظر إلى المكون الاقتصادي ككل فرعي من المكون الاجتماعي المستقل عنه، وهذا الأخير هو في حد ذاته كلٌ فرعي للبيئة المستقلة عن الكل.

3. مصطلحات ذات طبيعة استعارية

كما رأينا سابقاً، يتميز الاقتصاد الإيكولوجي بالتغير البراديمي: مصطلحاته تكشف ذلك. في الواقع، مجموعة من مصطلحات هذا المجال المعرفي عبارة عن مجازات وتمثيلات تشير إلى الرؤية الجديدة للطبيعة²: "الأبضية [الاستقلابية] الاجتماعية *métabolisme social*"، "البصمة المائية *empreinte hydrique*"، "الخصام البيئي *passif environnemental*"، "الدَّين الإيكولوجي *dette écologique*" على سبيل المثال لا الحصر. نلاحظ بداية الاستعمال المكثف لمصطلح "البصمة *empreinte*" و"الدَّين *dette*". إن استعمال الاستعارة البيداغوجية لـ "البصمة"، الذي برز سنة 1992 مع William Rees و Mathis Wackernagel في إشارة إلى أداة لتقييم الضغوط لجماعة على جماعة أو منطقة أخرى³، أصبح جدّ مبتذل في السنوات الأخيرة ضمن حقل العلوم الاجتماعية. أما بالنسبة لاستعارة "الدَّين"، إضافة إلى استعارة "الخصام البيئي"، فإنها تدل

¹ Commission mondiale sur l'environnement et le développement de l'ONU, 1988, Rapport Brundtland, Notre avenir à tous, Montréal, Éditions du Fleuve.

² تلك صفة معظم العلوم الاجتماعية في الفترة المعاصرة [المترجم].

³ DUCHEMIN Eric, 2001, « Mathis Wackernagel et William Rees, notre empreinte écologique », dans Vertigo, <http://vertigo.revues.org/5230>, consulté le 4 novembre 2012.

..... الترجمة في مجال الاقتصاد الإيكولوجي

على المجاز الاقتصادي للايكولوجيا الذي يتميز به هذا الحقل المعرفي. مع ذلك، سيكون من الخطأ الاعتقاد بأن هذه الاستعارة هي تصوير بسيط للبيئة في مصطلحات اقتصادية، بل إن الأمر يتعلق بمحاولة التوفيق بين هذين الحقلين المعرفيين بتسليط الضوء على ترابطهما. في الواقع، لا يستبعد "الدَّين الإيكولوجي" الحصول على تعويضات مادية موجهة للفقراء الذين يعانون معاناة مباشرة من الأضرار البيئية. دون تناسي البعد السوسيوي-اقتصادي، تسعى هذه الاستعارة في المقام الأول إلى تسليط الضوء على الأزمة الإيكولوجية: يكمن هدفها في إظهار أن الاقتصاد يولد نوعاً آخر من الديون الخطرة، إن لم تكن أخطر من الديون المالية في حد ذاتها. نفس الشيء نجده مع مصطلحي "الرأسمال الطبيعي" *capital nature* و"السلع والخدمات البيئية" *biens et services environnementaux*¹، اللذين لا ينسبان قيمة تجارية لموارد الطبيعة ولكن يبينان أنه من الممكن أن يُنظر إليها كشكل من أشكال الرأسمال ذي أهمية كبرى، نظراً لكونها شرطاً قَبْلِيّاً لخلق أشكال أخرى من الرأسمال من طرف الإنسان. يستعمل خبراء الاقتصاد الإيكولوجي هذه المصطلحات بحرص شديد خوفاً من أن يؤدي استخدامها إلى "تتقيد الطبيعة" *monétarisation de la nature*². وفق هذا المعنى، يعارض خبراء الاقتصاد الإيكولوجي مناصري أهم علم مجاور: الاقتصاد البيئي *l'économie environnementale*.

4. الاقتصاد الإيكولوجي في مواجهة الاقتصاد البيئي

من المنير للاهتمام أن نلاحظ أنه في العديد من مصطلحات الاقتصاد الإيكولوجي ("العدالة البيئية" *justice environnementale*، "البصمة البيئية" *empreinte environnementale*، "الدَّين الإيكولوجي" *dette écologique*) نجد صفة "الإيكولوجي" *écologique* بديلاً لصفة "البيئي" *environnementale* والعكس صحيح، دون أن يؤثر ذلك في المعنى العام للمصطلح. مع ذلك،

¹ يستخدم هذان المفهومان بنفس المعنى ضمن حقل السوسولوجيا الإيكولوجية [المترجم].

² MERINO-SAUM Albert et al., 2012, « Que peut-on apprendre de l'économie écologique ? », dans La vie des idées, <http://www.laviedesidees.fr/Que-peut-on-apprendre-de-l.html>, consulté le 6 avril 2012.

هناك فرق وليس تمييز: الاقتصاد الإيكولوجي والاقتصاد البيئي. من الضروري أن نأميز بين هذين المجالين المعرفيين على المستوى الاصطلاحي مع الأمر غير يسير لسبب وجيه: يعتبر العديد من خبراء الاقتصاد الإيكولوجي أنهم يسرون جنباً إلى جنب. ومع ذلك، يوجد هناك فرق جوهري بين هذين الحقلين المعرفيين: إذا كان الاقتصاد البيئي راضياً بتعيين القيمة النقدية للبيئة من أجل تقييم تأثير الاقتصاد على البيئة، فإن الاقتصاد الإيكولوجي يذهب أبعد من ذلك في محاولة لاستعمال المؤشرات البيئية "المؤشرات البيوفيزيائية" *biophysiques* إضافة إلى المؤشرات الاجتماعية، ويتميز باهتمامه بالمحصلة الطاقية لاستغلال الموارد الطبيعية ويسعى لزيادة الأداء مع تقليل الضغط على الموارد الطبيعية وآثارها الاجتماعية السلبية على التنمية الاقتصادية. لهذا يسعى مناصروه لتطوير مؤشرات جديدة فضلاً على المؤشر النقدي.

مع ذلك، سيكون من الخطأ اعتبار أن الحدود بين هذين البراديجمين تجعلهما مجالين معرفيين مغلقين. في الواقع، مع أن العديد من خبراء الاقتصاد الإيكولوجي يتحفظون على فكرة إعطاء دور الهيمنة للمؤشر النقدي، فإن معظمهم يؤكد أن تضمين هذا المؤشر في تقييم "الديمومة" الاقتصادية، إلى جانب مؤشرات أخرى، لا يكون إلا لإقناع الرأي العام وتغيير الاتجاهات السائدة. تجدر الإشارة إلى أن مفهوم المؤشر "l'indicateur" يُستعمل على نطاق واسع ضمن حقل العلوم الاجتماعية وبصيغة ثابتة بالنسبة لهذا النوع من العلوم.

وعلى هذا، يصعب في كثير من الأحيان القيام بتحديد مصطلحي لأحد هذه العلوم دون الآخر، لأن بعض المصطلحات تستعمل بمعنى مشترك بين العلمين، حتى مفهوم "الرأس المال الطبيعي" "le capital naturel"، المذكور سابقاً، وتحمل معنى مختلفاً في نفس الوقت. ضمن الاقتصاد الإيكولوجي، لا يمكن لـ "الرأس المال الاقتصادي" بأي حال من الأحوال أن يكون بديلاً عن "الرأس المال الطبيعي"، على حين في الرأس المال البيئي يمكن للأول [الرأس المال الاقتصادي] أن يعوض الثاني [الرأس المال البيئي] (أنظر الشبكة السابقة). يجب على المترجم أن يأخذ بُغية الاعتبار هذه التمايزات من أجل فهم أفضل للنص الأصلي.

5. مصطلحات متشربة إيديولوجيا لا تسمح بالتوافق

هناك إذن اختلافات كثيرة بين خبراء الاقتصاد البيئي وخبراء الاقتصاد الإيكولوجي، خاصة ضمن هذا الأخير الذي يتميز بتنوع كبير في الآراء. يرجع الأمر في شق منه إلى كون الإيكولوجيا السياسية، فرعاً من الإيكولوجيا، تؤثر بثقلها في الاقتصاد الإيكولوجي. ينعكس هذا الموقف على طبيعة المصطلحات المستعارة، مثل "العدالة البيئية *justice environnementale*"، "تصدير النفايات السامة *exportation de déchets toxiques*" وأيضاً مصطلح "النقص *décroissance*" الذائع الصيت. تبين هذه الأمثلة أن الأمر يتعلق بمصطلحات متداولة على المستوى السياسي، نظراً لكونها تحمل في طياتها إرادة الشجب والتنديد، ولاسيما مصطلح "النقص" الذي تتوافق حوله آراء الخبراء في المجال. في الواقع، هناك عدد كبير من خبراء الاقتصاد الإيكولوجي غير راضين عن الطابع الاستفزازي والساخط لاستخدام هذا المفهوم ويفضلون مصطلح "الندرة *acroissance*" ("agrowth" بالإنجليزية و"acrecimiento" بالإسبانية). يمكن القول إن هدف مصطلح "النقص" يبدو للوهلة الأولى أكثر راديكالية، لأنه من الممكن أن نعتقد في كونه تعبيراً عن نمو سلبي، على حين مصطلح "الندرة" لا يعبر عن سوى غياب النمو، لذلك سيكون من الصعب تعريف كل مفهوم على حدة من الناحية العلمية. وكما أوضح Serge Latouche في مؤلفه "بحث قصير في نقص الصحة *Petit traité de la décroissance sereine*"، بشكل مترادف تقريباً، فإن الأمر يعكس في المقام الأول مساهلة نموذج النمو الذي فرضه النظام الرأسمالي، من وجهة نظر المعارضين على النمو.

يوضح مصطلح "النقص" من جديد تداخل التخصصات في هذا المجال المعرفي، والذي يقسم الباحثين ويمنعهم من تكوين رؤية فريدة للحقل المعرفي¹: يرغب البعض في أن يظل أكثر علمية ويرفض هذا المصطلح الذي يستعمله عدد كبير من الباحثين دون الخوف من أن

¹ يستخدم هذا المفهوم على نطاق واسع ضمن حقل العلوم الاجتماعية: السوسيولوجيا، الأنثروبولوجيا، الاقتصاد... [المترجم].

يتمازج مع ألوانهم السياسية، إضافة إلى تطبع الاقتصاد الإيكولوجي بقدْر كبير بالرؤى اليسارية، ومن ثم يؤثر هذا الأمر في عمل المترجمين، الذين ينحازون، بطريقة أو بأخرى، لأحد الجانبين حينما يترجمون أو يقررون اختيار أحد هذين المصطلحين.

6. مصطلحات تخفي معنى جديد

إذا كانت هناك خلافات بشأن الجوانب العلمية، الإيديولوجية والمصطلحية، كما رأينا للتو، فإن ذلك يرجع في شق منه إلى التعددية التي تطبع المجال. في الواقع، يمثل خبراء الاقتصاد الإيكولوجي خلفيات علمية مختلفة، إضافة إلى كون معظم مصطلحات هذا العلم مشتركة مع علوم أخرى ونادراً ما تكون مصطلحات خاصة بالاقتصاد الإيكولوجي. زيادةً على ذلك، نرى أن هذا "التجفيف المصطلحي" ينعكس على التغيرات الدلالية لبعض المصطلحات المستعملة.

لنأخذ على سبيل المثال مصطلح "العوامل الخارجية externalité". في مجال الاقتصاد، يشير المفهوم إلى العواقب اللاطوعية، الإيجابية أو السلبية، لنشاط اقتصادي. لكن دعاة الاقتصاد الإيكولوجي يهتمون في المقام الأول بالعوامل الخارجية السلبية، ويذهبون أبعد من ذلك حينما يعرفون هذه العوامل الخارجية بكونها "تكاليف الانتقال نحو الأضعف"¹، معارضين في ذلك موقف اللامسؤولية المرتبطة تقليدياً بهذا المصطلح. وعلى هذا، لا تشمل العوامل الخارجية السلبية، وفقاً لخبراء الاقتصاد الإيكولوجي، إلا العواقب السوسيو- بيئية الخطيرة لاقتصاد الإنفاق، نظراً لكونها عادة ما تؤثر تأثيراً مباشراً على الفقراء (الذين يعتمدون على الطبيعة اعتماداً مباشراً).

ثمة مثال آخر مثير للاهتمام وهو مصطلح "اللاتناظرية incommensurabilité". نلاحظ أولاً أن مصطلح "اللاتناظر incommensurable" يستعمل في اللغة العامة، ولذا يمكن للمترجم المبتدئ ألا ينتبه إلى المعنى الدقيق للمصطلح، مع كل النتائج المحتملة لتأويل النص الأصلي

¹ MARTÍNEZ ALIER Joan, 2009, « Hacia un decrecimiento sostenible en las economías ricas », dans Revista de economía crítica, n° 8, http://www.ecologiaradical.com.mx/VB/Biblioteca/Hacia_un_Decrecimiento_Sostenible_en_las_Economías_Ricas.pdf, consulté le 10 septembre 2011.

..... الترجمة في مجال الاقتصاد الإيكولوجي

وتكوين نص جديد. إنها واحدة من صعوبات الترجمة في عالم العلوم الاجتماعية عامة، ومجال الاقتصاد الإيكولوجي خاصة (يمكن أيضاً أن نُذكر بمفهوم "النقص" *décroissance* كمثال آخر). ومع أن صفة "اللاتناظر" تستخدم في اللغة العامة، إلا أنها تستخدم أيضاً في المجال العلمي، في إشارة إلى استحالة المقارنة بين قيمتين بوحدة قياس مختلفة. في حقل الاقتصاد الإيكولوجي، يطبق هذا المبدأ الأساسي ضمن مجال التنمية الاقتصادية في علاقته بالبيئة: يتعلق الأمر بفكرة أنه من الصعب (أو ضد الطبيعة) تقييم المحيط الحيوي بمصطلحات نقدية "monétaires" انطلاقاً من صعوبة قياس الخدمات التي تقدمها كميًا¹.

7. المنافسة

ثمة مشكل كبير آخر يصادف المترجم في الاقتصاد الإيكولوجي مرتبط بكثرة التضاربات المصطلحية (المرادفات وشبه المرادفات). مرة أخرى، نجد أن هذه الظاهرة منتشرة بكثرة في حقل العلوم الاجتماعية، نظراً لكون ما يميز هذه العلوم عن العلوم "الحقة" هو مرونة بنائها النظري، الذي يعكس بالضرورة على بنائها المصطلحي. فضلاً على ذلك، هذه الظاهرة حاضرة بجلاء في العلوم الجديدة والعلوم المتعددة التخصصات: ما زال البحث في طور التنمية، الخبراء من روافد معرفية مختلفة، النظريات هامة والمصطلحات بذلك جامدة.

هذا، ومن المؤلف أن نجد ضمن الاقتصاد الإيكولوجي مجموعة من المصطلحات المترادفة ذات معنى واحد، سواء في اللغة المصدر [اللغة الانجليزية والاسبانية] أو اللغة الفرنسية [ومنه اللغة العربية]. من الواضح أن هذا الأمر يثير مشاكل جمة على مستوى الترجمة. أولاً، على المترجم الحريص على توظيف المصطلح الأكثر استخداماً في لغته ضمن مجال تخصصه، أن يعود إلى المعجم قبل أن يعرف أي هذه المصطلحات أكثر تكراراً: يمكن

¹ MERINO-SAUM Albert et al., Op. cit., p 6.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

أن نستشهد بمثال "البصمة المائية" ¹ L'empreinte hydrique الذي ترادفه مصطلحات "بصمة للماء empreinte eau"، "بصمة الماء empreinte de l'eau"، "بصمة حول الماء empreinte sur l'eau" "البصمة الهيدروليكية empreinte hydrologique".

إضافةً إلى ذلك، يمكن للمترجم أن يتشتت من جراء وفرة المرادفات، سواء في اللغة الأصلية أو اللغة الجديدة. يمكن أن يقوده ذلك إلى التساؤل عما إذا كان الأمر يتعلق بمفاهيم مختلفة، كما هو الحال مع مصطلح "الرأسمال الطبيعي" ومرادفه "الرأسمال البيئي" وأيضاً "الرأسمال الإيكولوجي".

غالباً ما ترتبط هذه الظاهرة بالمفاهيم المركبة. إضافةً إلى ذلك، ضمن هذه المفاهيم المركبة، من الشائع استبدال كلمة بأخرى مجاورة لها: إما بمرادف، أو شبه مرادف أو لا هذا ولا ذاك. مرة أخرى، من الصعب أن نتعرف المصطلح المرجعي. نجد نفس الأمر فيما يتعلق بمصطلح "تحليل تدفقات المادة analyse des flux de matière"، حيث نجد مرادفات أخرى: "تقييم تدفق المادة évaluation des flux de matière"، "حساب تدفق المادة comptabilisation des exportation de déchets" وفيما يتعلق بمصطلح "تصدير النفايات السامة toxiques" تُستعمل المرادفات الشبيهة التالية: "إسالة النفايات السامة déversement de déchets toxiques" و"نقل النفايات السامة transfert de déchets toxiques". في المثال الأخير، الكلمة التي تم تغييرها في خضم التضارب المفرداتي ("تصدير" أصبحت "إسالة" ثم "نقل") لا تمثل في حد ذاتها مصطلحاً شبيهاً للكلمة التي تشكل المصطلح المرجعي، لكن المعنى العام المركب للمصطلح ظل نفسه.

¹ مؤشر "الحجم الكلي لمياه الأمطار والمياه الجوفية والمياه السطحية لتعبئة السلع والخدمات المستخدمة من طرف الساكنة، إضافة إلى مياه الصرف الصحي التي يتم تصريفها في البرية بعد هذا الإنتاج" (GNEHM Felix, 2012, Étude de l'empreinte hydrique suisse, https://www.deza.admin.ch/ressources/resource_fr_209748.pdf, consulté le 9 mai 2012.)

8. استخدام الاختصارات الأنجلو - ساكسونية

بالنسبة لمجموعة من المصطلحات، مثل "تحليل تدفقات المادة" أو "الاعتماد الإنساني على صافي الإنتاج الأولي appropriation humaine de la production primaire nette"، يواجه المترجم المأزق التالي: في مساءلتنا للأدبيات العلمية الفرنسية في المجال، نجد أن معظم العلماء الناطقين بالفرنسية متأثرون بالانجليزية، ولا يترددون في استخدام مختصرات للمصطلحات الانجليزية في نصوصهم. على سبيل المثال: "HANNP" "الاعتماد الإنساني على صافي الإنتاج الأولي Human Appropriation of Net Primary Production" و "MFA" "تحليل تدفقات المادة material flow analysis". على المترجم أن يختار، إما أن يتبع مقارنة إرشادية ويعتبر أن استخدام المختصرات الأنجلو - ساكسونية مضلل، وأنه سيكون من الأفضل أن يختار الباحثون مصطلح (أو إشارة) فرنسية، ويختار بذلك البحث أو استعمال المصطلح المترجم، وإما أن يختار مقارنة وصفية ويعتبر أن هذه المختصرات الانجليزية هي الأكثر استعمالاً وتداولاً، ويستعملها بالضرورة، لتفادي تشتيت القارئ¹.

9. خاتمة

حاولت هذه المقالة إظهار أن ترجمة النصوص المرتبطة بالاقتصاد الإيكولوجي، خاصة، والعلوم الاجتماعية، عامة، هي علمية معقدة ومركبة تواجهها عوائق مختلفة، لاسيما لأن الأمر يتعلق بعلم جديد.

كما رأينا سابقاً، فإن الصعوبة الرئيسة التي تواجه الترجمة في الاقتصاد الإيكولوجي ذات طبيعة مصطلحية. في الواقع، لا تضم الأدبيات العلمية والمعمية باللغة الفرنسية مركباً بحثياً

¹ تظل هذه العلمية جد صعبة من الناحية الاستيمولوجية. يجب أن يكون المترجم متخصصاً في حقل الاقتصاد الإيكولوجي وليس مترجماً دخيلاً على التخصص، ومُلمّاً بمعظم الأدبيات المرجعية في حقل استيمولوجيا الاقتصاد والعلوم البيئية: منهجياً، موضوعاتياً، مفهوماً، إشكالياً [المترجم].

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

معادلاً للغة الأصلية [الإنجليزية] بالنسبة للمترجمين الناطقين بالفرنسية. فضلاً على ذلك، مع أن المصطلحات التقنية تبدو أحياناً مفهومة وواضحة، فإنها غالباً ما تخفى معنى محدداً ودلالة غير متوقعة. يمكن لمجموعة من المصطلحات أن تحظى بإجماع الخبراء والمتخصصين، أو تتخذ معنى مختلفاً عن المعنى المتداول في الحقول المعرفية المجاورة أو في اللغة المتداولة. أخيراً، إن المترجم مطالب بأن يعالج ظاهرة الترادف ومشكلة نموذجية العلوم الناشئة.

من ناحية أخرى، يعتبر التخصص الأبرز للعلوم المبتكرة هو الميل نحو استعمال مفردات جديدة. في الواقع، تقلب هذه العلوم الاجتماعية الجديدة الأفكار القبلية وتستبدلها بمفاهيم مهمة. كما نعلم فإن الثقافة واللغة مترابطان بالضرورة؛ وعندما تتطور المفاهيم، تتطور الأسماء وتستقر شيئاً فشيئاً في اللغة: بالأمس تحدثنا عن "التنمية المستدامة" غداً سنتحدث عن "نقص الديمومة" "décroissance soutenable".

مسرد المصطلحات الأكثر تداولاً في حقل الاقتصاد الإيكولوجي¹

العربية	الفرنسية	الإسبانية	الإنكليزية
نقص	acroissance	acrecimiento	agrowth
مؤشر بيوفيزيائي	indicateur biophysique	indicador biofisico	biophysical indicator
قرصنة بيولوجية	biopiraterie	biopirateria	biopiracy
دين الكربون	dette carbone	deuda de carbono	carbon debt
ندرة	décroissance	decrecimiento	degrowth
استنزاف الموارد الطبيعية	épuisement des ressources naturelles	agotamiento de los recursos naturales	depletion of natural resources
دين إيكولوجي	dette écologique	deuda ecológica	ecological debt
بصمة إيكولوجية	empreinte écologique	huella ecológica	ecological footprint
كون (إنتروپيا)	entropie	entropía	entropy
خير بيئي	bien environnemental	bien ambiental	environmental good

¹ كما رأينا سابقاً، تتميز مصطلحات الاقتصاد السياسي بتعدد مرادفاتها. لذلك فإن المصطلحات التي تظهر في المعجم هي تلك الأكثر استعمالاً في مجال البحث.

..... الترجمة في مجال الاقتصاد الإيكولوجي

environmental justice	justicia ambiental	justice environnementale	عدالة بيئية
environmental liability ¹	pasivo ambiental	passif environnemental	خصام بيئي
environmental service	servicio ambiental	service environnemental	خدمة بيئية
exosomatic	exosomático	exosomatique	لاحسي
export of toxic waste	exportación de residuos tóxicos	exportation de déchets toxiques	تصدير النفايات السامة
externality	externalidad	externalité	العوامل الخارجية
human appropriation of net primary production	apropiación humana de la producción primaria neta	appropriation humaine de la production primaire nette	الاعتماد الإنساني على صافي الإنتاج الأولي
incommensurable	inconmensurable	incommensurable	اللاتناظر
material flow analysis	análisis de los flujos de materiales	analyse des flux de matière	تحليل تدفق المادة
natural capital	capital naturel	capital naturel	رأسمال طبيعي
relational good	bien relational	bien relationnel	الخير العلائقي
social metabolism	metabolismo social	métabolisme social	الأيضية [الاستقلابية] الاجتماعية
sustainable	sostenible	soutenable	ديمومة
water footprint	huella hídrica	empreinte hydrique	بصمة مائية

¹ يمكن لهذا المصطلح أن يشير أيضاً إلى "responsabilité environnementale" المسؤولية البيئية، في اللغة الفرنسية [واللغة العربية أحياناً] حسب السياق.

المراجع

- GEORGESCU-ROEGEN Nicholas, 1995. La décroissance. Entropie - Écologie – Économie, nouvelle édition, (première édition : 1979), présentation et traduction de MM. Jacques Grinevald et Ivo Rens, Paris, Sang de la terre.
- VIVIEN Frank-Dominique, 2005. Le développement soutenable, Paris, La découverte.
- PASSET René, 1979. L'économie et le vivant, Paris, Payot.
- LATOUCHE Serge, 2007. Petit traité de la décroissance sereine, Paris, Mille et une nuits.
- MERINO-SAUM Albert et al., 2012. « Que peut-on apprendre de l'économie écologique ? », dans La vie des idées, <http://www.laviedesidees.fr/Que-peut-on-apprendre-de-l.html>, consulté le 6 avril 2012.
- BONAÛTI Mauro, 2002. « À la conquête des biens relationnels », dans Silence n° 280, <http://kropot.free.fr/Silence-decroissance.htm#SOMMAIRE>, consulté le 2 février 2012.
- MARÉCHAL Aurélie, 2011. « Économie écologique : principes de base », dans Etopia n° 8, <http://www.etopia.be/spip.php?article1741>, consulté le 28 octobre 2011.
- DIEMER Arnaud et al., 2007. « L'écologie industrielle : quand l'écosystème industriel devient un vecteur du développement durable », dans Développement durable et territoires, <http://developpementdurable.revues.org/412>, consulté le 2 novembre 2012. DOI : 10.4000/developpementdurable.4121
- MARTÍNEZ ALIER Joan, 2009. « Hacia un decrecimiento sostenible en las economías ricas », dans Revista de economía crítica, n° 8, [http://www.ecologiaradical.com.mx/VB/Biblioteca/Hacia un Decrecimiento Sostenible en las Economías Ricas.pdf](http://www.ecologiaradical.com.mx/VB/Biblioteca/Hacia_un_Decrecimiento_Sostenible_en_las_Economías_Ricas.pdf), consulté le 10 septembre 2011.
- TEEB, 2008. L'économie des écosystèmes et de la biodiversité : rapport de mi-parcours, <http://www.teebweb.org/Portals/25/Documents/TEEB%20for%20Business/TEEB%20for%20Bus%20Exec%20French.pdf>, consulté le 23 février 2012.
- CEECEC, 2010. Le manuel du CEECEC : l'économie écologique de bas en haut, <http://www.ceecec.net/wp-content/uploads/2010/10/FRENCH-HANDBOOK-FINAL.pdf>, consulté le 20 décembre 2011.
- DUCHEMIN Eric, 2001. « Mathis Wackernagel et William Rees, notre empreinte écologique », dans Vertigo, <http://vertigo.revues.org/5230>, consulté le 4 novembre 2012.

إشكاليات المصطلح السيميائي بين واقع الترجمة واختلاف الهويات

أ.د. ناسية عادل

جامعة عبد الرحمان ميرة - الجزائر

إنّ لكلّ جديد قديماً أحدثه، ولكلّ قديم جديداً يثبت مدى صموده؛ وهذا الأمر ينطبق على العلوم؛ فهي وليدة العقل البشري والصراعات الحاصلة منذ القدم من أجل الصمود والاستمرار. لكن دون مصطلحات تعبّر عن العلوم، تفقد تصديقيتها، وهذا الأمر يتطلب للعلم مصطلحات تجعله حياً ومستمراً في زمن الصراعات، البارزة خاصة في سوق الاستعمال، هذا من جهة، وتوضيحه لعدم التباسه في ذهن القارئ من جهة أخرى؛ فإنّ جهل مصطلحات علم معين ومدلولات هذه المصطلحات يؤدي بالضرورة إلى عدم فهم العلاقات الواردة والحاصلة بين وحدات هذا العلم من جهة، ولأنّ الفهم الصحيح للمصطلحات وضبطها يساعد على تطوير تصوّرنا حول علم من العلوم من جهة أخرى. ولأنّ المصطلحات تعدّ ثمار العلم القائم بذاته وتعود عليه، نصل إلى أنّ المصطلح خاضع للتخصيص ولا يتحدد إلاّ في إطاره؛ فقد عبّر محمد كمال حسين عن هذه النقطة الهامة في تحديد المصطلح فقال: "أنّ طبيعة المصطلحات تجعلها صورة حيّة لتطور العلوم، وهي تدلّ على ما في تاريخ العلم من صواب وخطأ، وهي جزء لا يتجزأ من أساليب التفكير العلمية. وتاريخ المصطلحات هو تاريخ العلوم، وكلّ علم جديد يحتاج إلى مصطلحات جديدة، وكلّ تصور جديد يدعو صاحبه إلى إيجاد مصطلحات جديدة".¹ هذا في حقل التخصص الذي يستدعي عرض مصطلحات المفاتيح التي تسهل على القارئ أو الباحث التعرف بشكل جليّ بهذا الحقل، والتمييز بين ما جاء فيه وما عرض في

¹ محمود فهمي الحجازي، الأسس اللغوية لعلم المصطلح، مكتبة غريب، دط، القاهرة: دت، ص 13.

حقول معرفية أخرى قريبة منه، مثل الحقول اللغوية فهي متعددة ولكن خادمة بعضها بعضاً في أغلب الأحيان من النحو، والصرف، والصوت، والتركيب، البلاغة، والدلالة، والتداولية، والسميائية؛ لذا وجب هنا الضبط والتدقيق لعدم الوقوع في الخطأ، وقبله باثني عشر قرناً أشار الجاحظ إلى هذه القضية حين قال: "فلولا حاجة الناس إلى المعاني وإلى التعاون والترادف لما احتاجوا إلى الأسماء"¹ فالإنسان يحتاج إلى بني جنسه للتعامل معه والتعاون من أجل الاستمرار؛ وهذا ما ولد اللغة وسيلة للاتصال والتواصل حسب الجاحظ، وفي هذا الصدد يقول ابن حزم الأندلسي أيضاً: "لابد لأهل كل علم وأهل كل صناعة من ألفاظ يختصون بها للتعبير عن مراداتهم وليختصروا بها معاني كثيرة"²؛ أي إن لكل صناعة أو علم على حد سواء لابد أن تكون له مصطلحات تساعد أهل الصناعة على التواصل والتفاهم فيما بينهم؛ لذا وجب على أهل كل علم تخصيص مصطلحاتهم بالضرورة، لكن هذه المشكلة تلحقها أخرى حين يُنقل علم من لغة إلى لغة أخرى؛ لذا فإن نقل العلم يقتضي نقل المصطلحات من اللغة الأصلية إلى لغة أخرى أيّاً كانت، ويتطلب أولاً معرفة ما يرمي إليه في اللغة الأصلية، وما البعد الذي يمكن له أن يتخذه في اللغة المترجم إليها، وما إذا كان الموروث اللغوي قد يستوعب المصطلح أو يحمل دلالة هذا المصطلح ليكون مقابلاً للمصطلح الأجنبي. يقول الجاحظ: "ولابد للترجمان من أن يكون بيانه في [الترجمة نفسها] وزن عمله [المعرفة نفسها]، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها حتى يكون فيها ساء وغاية (...) وكلما كان الباب من العلم أعسر وأضيق والعلماء به أقل كان أشد على المترجم وأجدر أن يخطئ فيه، ولن نجد البتة مترجماً يفي بواحد من هؤلاء العلماء"³، فاللغة العربية مثلاً تسعى دوماً لإعطاء صورة مقربة

¹ الجاحظ، الحيوان، ج 5، ص 201. وقال في موضع آخر: "كل قوم ألفاظ حظيت لديهم فتراهم يرددونها بأعيانها في استعمالاتهم"، أي لكل مصطلح دلالة خاصة به ويستعمل لغرض دون آخر.

² عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ط 2، تونس: 1986، ص 45.

³ أبو عثمان الجاحظ، الحيوان، ج 5، ص 289.

..... إشكاليات المصطلح السيميائي بين واقع الترجمة واختلاف الهويات

لهذه المصطلحات الواردة في العلم الذي تريد نقله إلى لغتها، في حين قضية الوضوح تعود بالدرجة الأولى إلى وضوح المفهوم الذي يدل عليه؛ أي: وضوح المدلول (الصورة الذهنية أو المعنى) يؤدي إلى وضوح الدال (الصورة السمعية) وذلك كله في إطار التخصيص. يقول جون ديوبوا وآخرون عن المصطلح في معجمهم: "يعتبر المصطلح وحدة اصطلاحية دالة — بسيطاً أو مركباً — يحدد فكرة معينة ... المصطلح عبارة عن كلمة لها دور في الجملة، وهي تحديد المعنى الذي يقصد منه"¹ إذن هو رمز لغوي لمدلول معين، لذا نتج عن ذلك ضرورة "التدوين" لاستقرار المصطلح، فتعددت طرائق التدوين من البسيطة العادية على شاكلة المعاجم، وهذا الأمر اهتمت به المعجمية؛ أي إن عملية التدوين جعلت صناعة المعاجم تتخصص هي الأخرى، إلى جانب مجلات وكتب متخصصة في مجال دون الآخر. وهذا العمل كله يدخل في إطار عملية منهجية اعتمدتها الهيئات والمجامع اللغوية في وضع المصطلحات، وهي ظاهرة التعريب التي تعدّ أحد أهم مقومات التخطيط اللغوي، تلازم اللغة لتبقى هذه الأخيرة محافظة على أصالتها؛ فإن قلنا إن اللغة حيّة دينامية وجب علينا أن ندرك من خلال هذا أنها تعبر بالضرورة عن مستجدات العصر، فكما يقول نوام تشومسكي: "منذ الآن ساعد اللغة طائفة من الجمل (المتناهية أو غير المتناهية)، كل جملة متناهية في طولها، ومركبة من مجموعة متناهية من العناصر؛ أي إن اللغة تعدّ قالباً جامداً، إلّا إذا كانت دينامية حركية تواكب عصر المعلوماتية. هذا عن المصطلح عموماً وإذا كان الحديث عن المصطلح السيميائي فلا بدّ من التأصيل له ونحاول الحديث عن مفهومه في اللغة الأصل وعند الترجمة هل قدم له مفهوم قريب للمفهوم الذي يحمله في اللغة الأصل أم اختلف المفهوم؟ وهل قدم لدال واحد مدلول واحد أم لا؟

بادئ ذي بدء المصطلح السيميائي، هو ارتباط العلم بالمصطلح أو العكس، والعلاقة تلازمية بينهما، فهي بذلك علاقة الدال بالمدلول، فإن غاب أحدهما دلّ عليه الآخر. لكن في أغلب الأحيان نجد للمصطلح عدّة دلالات تستدعيها التخصصات والمجالات العلمية المختلفة،

¹ Jean Dubois et autres, Dictionnaire de linguistique, Larousse, 1994 pour la p ed, P480.

وهذا لا يعني حتماً أنّ هذه المصطلحات هي نفسها، بل مختلفة باختلاف حقل التّخصص الذي ينتمي إليه، فمصطلح "الخبر" مفهوم يختلف بين اصطلاح النحاة (المسند) الذي يقع عليه العمل، وبين اصطلاح البلاغيين. لكن في الأساس هناك علاقة أو تداخل بين المصطلحين خاصة في هذين المجالين. كما نجد هذا الاصطلاح في استعمال علماء السيميائ حالياً في حقل التواصل، أو سيميائ التواصل هو نقل الرسالة بين المرسل والمرسل إليه.

نخلص إلى القول إنّ لكلّ علم مصطلحاته، والعلاقة الموجودة بين العلم ومصطلحاته هي علاقة الدال والمدلول. إذا كان المصطلح هو "اتفاق مجموعة ما على تسمية شيء باسم ما بعد أن ينقل هذا الاسم من معناه اللّغوي إلى معنى آخر لمناسبة بينهما، مثل الاشتراك والتشابه، والغرض من ذلك بيان مفهوم الشيء المنقول إليه وتحديدته"¹ فالمصطلح السيميائي بأهمية العلم نفسه وبصعوبته، فليس بإمكان أيّ منا التعمق والنظر في المصطلح السيميائي والتأصيل له.

إنّ الدراسات اللّغوية في مجملها تقرّ أنّ أصل المصطلح الغربيّ sémiotique يعود إلى الجهود اليونانيّة؛ حيث يقول برنار توسان: "أصل الكلمة يوناني "sémion" الذي يعني "علامة" و"logos" الذي يعني خطاباً... وبامتداد أكبر، كلمة "logos" تعني العلم، فالسيميولوجيا هي علم العلامات؛ أيّ إنّّه ترجم المصطلح الأجنبيّ sémiotique بالمقابل العربيّ السيميولوجيا في حين يذهب عبد الواحد مرابط إلى أنّه يوجد في الغرب مصطلحان يدلان على علم واحد هو "علم العلامات" أولهما sémiologie والثاني sémiotique ليتفق مع برنار توسان أنّهما كلمتان مركبتان تشتركان في السابقة (sémio) الدالة على "العلامة" وأصلها اليونانيّ هو (sémeion). لكن سرعان ما نجدهما يختلفان في اللاحقة (suffix)، ففي المصطلح الأول نجد (logie) التي يعود أصلها إلى الكلمة اليونانية (logos) الدالة على "الخطاب" وهي تطلق كذلك على "العلم" وفي المصطلح الثاني نجد (tique) التي يعود أصلها إلى اللاتينية لتدلّ بذلك على النسبة الديدكتيكية. أما فيصل الأحمر فيرى أنّ السابقة الموحدة في المصطلحين دالة على "العلامة"

¹ التّنهاوي، اكتشاف اصطلاحات الفنون، ج 1، ص 212.

..... إشكاليات المصطلح السيميائي بين واقع الترجمة واختلاف الهويات

وأما اللاحقة (tique) فتدلّ على "العلم" هي أيضاً. إذن من خلال هذا العرض الأولي لأصل المصطلحين نجد اختلافاً، فهل يتوقف هنا أم أنه يمتد إلى المفهوم؟ هل هما مصطلحان لمفهوم واحد؟ وهل قضية المصطلح تتوقف عند الغرب أم تنتقل بانتقال العلم؟ هذه الإشكاليات وأخرى يطرحها هذا العلم باختلاف اتجاهاته.

يستدعي الأمر إذن أن نتعرض لقضية توافق واختلاف مصطلحي sémiologie و sémiotique والمقابل العربي "السيميولوجيا" و "السيميائيات" على الترتيب. نجد الباحثين يختلفون حول هذه القضية، ونتج عن هذا الاختلاف انقسامٌ إلى فرق يؤيد كل منهم آراءه بالحجج والبراهين، وهذا الانقسام ناجم عن اختلاف وجهات النظر والمرجعية الإيديولوجية التي يعود إليها كل فريق. فالأول يدعو إلى ضرورة الفصل بينهما للاختلاف الموجود بينهما، فمصطلح السيميولوجيا يدرس الدليل على أنه ثنائي في حين السيميائيات لا يكون الدليل إلا ثلاثياً، والأول يؤسس على الوظيفة الاجتماعية والثاني مرتبط بالوظيفة المنطقية. هذا حسب حنون مبارك، يؤيد هذا الرأي كلّ من عبد القادر فاهيم الشيباني في ترجمته لقاموس (المصطلحات المفاتيح في اللسانيات، لـ "ماري نوال غاري بريور")، فقد تبنى بذلك فكرة هذا الأخير بضرورة الفصل بينهما،¹ أما الفريق الآخر يرى أن تفضيل مصطلح على آخر راجع إلى الخلفية الإيديولوجية، ففي حين يفضل الأوروبيون مصطلح sémiologie لأنّ منبعه أوروبي خالص، صاحبه اللغوي فردينان دي سوسير؛ يذهب الأمريكيون إلى تفضيل sémiotique لأنّه نتاج الفيلسوف الأمريكي شارل سندرز بورس، فإذا كان الحديث عن الاتجاهات والمدارس المنبثقة عن الفكر السوسيري يكون مصطلح sémiologie هو الحاضر بالضرورة. أما المباحث والاتجاهات المتفرعة عن تصورات بورس، فنجد مصطلح sémiotique يفرض نفسه. يقول في هذا الصدد عبد الواحد مرابط: "وهكذا فإنّ هذا التباين الإستمولوجي بين مؤسسي السيمياء جعل مصطلح (Sémiologie) أكثر ارتباطاً بالمباحث والاتجاهات المتفرعة عن سوسير، في

¹ برنار توسان، ما هي السيميولوجيا، تر: محمد نظيف، إفريقيا الشرق، المغرب: 2000، ص 9.

حين ظل مصطلح (Sémiotique) أكثر استعمالاً في ما يتفرع عن تصورات بورس من مباحث واتجاهات¹. ومن الذين أقرّوا هذا نجد اللسانيين الغربيين من بينهم غريماس وكورتيس في قاموسهما²، أما عند العرب فنجد عبد الواحد مرابط، فيصل الأحمر، عصام خلف كامل، رشيد بن مالك... إلخ. لكن أكثرهما انتشاراً هو السيميوطيقا، فقد أقرّ مؤتمر "لاهاي" عام 1969 ضرورة الأخذ بمصطلح "السيميوطيقا". لكن الإشكال بقي قائماً، وذلك راجع إلى أنّ كلّ طرف يلتزم باستعمال المصطلح الذي يتفق وإيديولوجيته.

السيميوطيقا هي دراسة علمية للعلامات تقوم على تصنيف خاص يميز بين الإشارة والرمز والأيقونة، ويكمن الاختلاف عن السيميولوجيا في إعطائها الامتياز للغة والمجتمع. هي علم عام لدراسة الأنظمة السيميائية بما فيها النصوص الأدبية³. أما عن السيميولوجيا فيقول سوسير: "إنّ اللّغة نسق من العلامات التي تعبر عن الأفكار، وإنّها التقارب بهذا مع الكتابة وأبجدية الصّم والبُكم، ومع الشعائر الرمزية، ومع صيغ اللباقة ومع العلامات العسكرية... وأي القوانين تحكمها"⁴. في حين يربط الأمريكي بورس هذا العلم بالمنطق ليقول: "ليس المنطق بمفهومه العام إلّا اسماً آخر للسيميوطيقا، والسيميوطيقا نظرية شبه ضرورية أو نظرية شكلية للعلامات"⁵؛ لأنّ منطلقه كان فلسفياً محضاً. لكن نجد معظم الباحثين يتفقون على أنّه

¹ فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، منشورات الاختلاف والدار العربية للعلوم ناشرون، ط 1، الجزائر/ لبنان: 2010، ص 12.

² عبد الواحد مرابط، السيمياء العامة وسيمياء الأدب من أجل تصور شامل، منشورات الاختلاف والدار العربية للعلوم ناشرون، ط 1، الجزائر/ لبنان: 2010. ينظر كذلك: ماري نوال غاري بريور، المصطلحات المفاتيح في اللسانيات، تر: عبد القادر فهيم الشيباني، ط 1، الجزائر: 2007، ص 95.

³ المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات (إنجليزي - فرنسي - عربي)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم مكتب تنسيق التعريب، ط 1، المغرب: 2002، ص 134.

⁴ فردينان دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، تر: صالح القرمادي ومحمد الشاوش ومحمد العجينة، الدار العربية للكتاب، طرابلس/ تونس: 1985، ص 37.

⁵ Larousse (Dictionnaire encyclopédique, langue française et culture générale), Librairie Larousse/VEUF 2001, p p 1440, 1441

..... إشكاليات المصطلح السيميائي بين واقع الترجمة واختلاف الهويات

"علم العلامات" أو نظرية العلامات" أو "العلم الذي يدرس العلامات".

أما عن نقل المصطلح إلى العربية، فقد كان وفق الطرائق المتعارفة، فهناك من فضل التعريب؛ أي نقله صوتياً وذلك وفق الأوزان العربية وهما السيميولوجيا (sémiologie) والسيميوطيقا أو السيميائيات (sémiotique) وهما أكثر انتشاراً بين الباحثين. لكن نجد عدداً لا بأس به من الترجمات سواء كانت اشتقاقية أو من خلال المعنى أو حتى بما يقابل هذه المفاهيم من مصطلحات عربية، نجدها في المعاجم القديمة، فكلمة سمة، سيماء، سيمياء وسيميائية ذكرت في "لسان العرب"، كما نجدها في القرآن الكريم: "سيماهم في وجوههم" [الفتح: 29]؛ وهي بالمفهوم العام تدل على علامة، وهناك إذن علاقة مشابهة وتضمن، فقد اقترن هذا المصطلح منذ وجوده عند الأطباء بتشخيص العلامات المرضية، وهو مرتبط بأعراض المرض. أما عند الفلاسفة فهو مرتبط أكثر بالجانب الجدلي وذلك عند أفلاطون "فهو عنده فن الإقناع"¹....

نجد عدة مقابلات عربية للمصطلح الأجنبي (Sémiotique) وذلك باستقراءنا مجموعة من المؤلفات العربية والمترجمة التي تتحدث عن الموضوع طبعاً. فمن بين تلك الواردة نذكر: السيمياء، السيميائية، السيمائية، السيميائيات، السيميوطيقا، علم العلامات، علم الأدلة، الدلائلية، علم الدلالة، الرمزية وحتى الأعراضية... إلى غير ذلك، فمن الممكن أن تكون أكثر من هذا لأنّ عملنا لم يقتصر على استقراء جميع ما كتب في هذا المجال أو المترجم. لكن من العينة التي كانت بحوزتنا، توصلنا إلى أنّه تختلف باختلاف: أولاً المرجعية أو الخلفية الفكرية التي يعود إليها الباحث إما إنجليزية أو فرنسية، ثانياً من ناحية المعنى الذي يختلف من سوسير إلى بورس، ثالثاً اختلاف طرائق الوضع. فمن الذين نجدهم استعملوا "السيمياء" للدلالة على العلم عبد الواحد مرابط، لكنه يستعمل المصطلح نفسه عند ربطه باتجاه معين (سيمياء التواصل، سيمياء الأدب)، وكذلك سعيد الغانمي في كتابه المترجم عن "روبرت شولز" (السيمياء والتأويل)، ومن الذين فضلوا "سيميائية" رشيد بن مالك في جلّ أعماله المؤلفة والمترجمة نذكر

¹ عبد الواحد المرابط، السيمياء العامة وسيمياء الأدب، ص 18.

منها: (مقدمة في السيميائية السردية)، (السيميائية أصولها وقواعدها)، (مستقبل الدراسات السيميائية في الوطن العربي)، وكتابه المترجم عن "آن إينو" (تاريخ السيميائية). لكن في هذا الكتاب الأخير تأرجح بين مصطلحي السيميائية والسيمولوجيا، وهذا الأخير يستعمله حين يحيل على أعمال دي سوسير؛ حيث كان أحد العناوين الصغيرة "سوسير والسيمولوجيا" وذهبت نادية بوشفرة إلى تبني مصطلح "السيميائية" في كتابها الموسوم (مباحث في السيميائية السردية)، وكذا السعيد بوطاجين (الاشتغال العملي دراسة سيميائية "غدا يوم جديد" لابن هذوقة). كما عمد إلى ذلك جمال حضري في ترجمته لكتاب "جوزيف كورتيس" (مدخل إلى السيميائية السردية والخطابية) إلى جانب "غريب إسكندر" في كتابه (الاتجاه السيميائي في نقد الشعر العربي). أما الباحث التونسي "محمد الناصر العجيمي" فنجدّه يستعمل مصطلحاً مغايراً تماماً لتلك التي أشرنا إليها سابقاً وهو "علم الدلالة" ونحن نرى أنّه بهذه الترجمة قد يُحدث لبساً في أذهان الباحثين خاصة المبتدئين؛ إذ يوجد علم آخر ترجم بهذا المقابل ألا وهو (sémantique) وهو معروف ومتداول على هذه الشاكلة، فعلى الرغم من التوضيح الذي قدمه في الهامش (رقم 30 ص 21)؛ فإنّ ذلك لم يُزَلِّ الغموض، كما استعمل إلى جانبه مصطلحاً آخر أقل غرابة "العلاميّة" وهو اشتقاق من "العلامة" التي تعدّ موضوع العلم. في حين يستعمل كلّ من "محمد نظيف" و"محمد الرغيني" مصطلح "السيمولوجيا" للدلالة على هذا العلم، وهو أقل انتشاراً من مصطلح السيميوطيقا والسيميائية. لكن يتجه بعض الباحثين إلى استعمال آخر هو "السيميائيات"، من بينهم "الطائع الحداوي" (سيميائيات التأويل والإنتاج ومنطق الدلائل)، وعبد القادر فهم الشيباني (السيميائيات العامة أسسها ومفاهيمها)؛ وذلك حتى حين تحدّث عن تصور سوسير يقول "سيميائية سوسير"، كما نجد أيضاً في هذا الاتجاه "حنون مبارك" في كتابه (دروس في السيميائيات)، وأيضاً سعيد بنكراد (السيميائيات والتأويل مدخل لسيميائيات شارل. س. بورس)، فالإي جانب السيميائيات استعمل مصطلح نظرية العلامات، وهو من حيث المعنى (المفهوم) نفسه؛ أي إنّ لم يبتعد عن الصواب في رأينا. كما أنّنا لا نجدّه يخلط بين العلم العام والاتجاهات، فللدلالة على اتجاه بورس قال السيميوطيقا، لأنّها خاصة بتصوره الفلسفي

..... إشكاليات المصطلح السيميائي بين واقع الترجمة واختلاف الهويات

والمنطقي، وحين الحديث عن تصور سوسير يستعمل مصطلح "السيميولوجيا"؛ فهو لم يفضل مصطلحاً على آخر، إنّما ربط كلاً منهما بالعالم الذي أنتجه. لكن مع هذا طغى المصطلح الأول على معظم فصول الكتاب، وهذا راجع بالضرورة إلى أنه كتاب متعلق بأعمال بورس، وهو واضح من العنوان، إلى جانب هؤلاء نجد "فيسل الأحمر" في معجمه (معجم السيميائيات) يتحدث عن قضية المصطلح الغربي وانتقال المشكل إلى العربية بانتقال العلم. لكننا نجد لديه استعمالاً غريباً ألا وهو "علم السيميائيات" ومن المعروف أنّ اللاحقة "ات" دالة في العربية على العلم من مثل "البصريّات" والصوتيات" وهذا ما ذهب إليه عبد الرحمان الحاج صالح حين فضل مصطلح "اللسانيات" على باقي المصطلحات. لكن سرعان ما فضل "فيسل الأحمر" المصطلح الذي ذهب إليه "المسدي" في كتابه (الأسلوبية والأسلوب) وهو "علم العلامات"، كما احتفظ في طيات كتابه بالاستعمال الأول وهو "السيميائيات"، لكن مع هذا نلاحظ خطأ واضحاً بين العلم العام والاتجاهات المختلفة لهذا العلم فنجد يقول (سيميائيات المسرح، سيميائيات السردية، سيميائيات الدلالة...)؛ عند الحديث عن جانب أو اتجاه معين نستعمل سيمياء بالمفرد (الذي يُعرّف بالإضافة؛ أي إضافة اتجاه معين)، لكن السيميائية نقصد بها العلم العام الذي تتدرج ضمنه كلّ هذه الاتجاهات؛ زيادةً على ذلك يمكن أن نستند إلى قول عبد الرحمان الحاج صالح إنّ إضافة اللاحقة "ات" التي تدل على العلمية تسمح لنا بأن نستعمل "السيميائيات" للدلالة على العلم العام، هكذا نكون قد اخترنا مصطلحين من بين كلّ تلك الاستعمالات، وهذا الأمر يجعلنا أمام دراسة موضوعية حول هذين الاستعماليين؛ فالأول متعلق بالنظر أكثر؛ أي نستعمله في الجانب النظري القريب إلى التوجه الفلسفي المنطقي، أما الثاني فهو متعلق بالتطبيق والممارسة، وهذا أكثر منطقية ويجعل المتلقي يفرق بين العلم والاتجاه أو بين الكلّ والجزء.

إنّ الحديث عن أيّ علم حديث يستدعي بالضرورة هذا التذبذب والفوضى في المصطلح وحتى في المفهوم. لكن ما لا يمكن إنكاره هو أن هذه المشكلة مطروحة حتى في الوسط الغربي انتقال العلم إلى الوطن العربي انتقلت المشكلة معه.

مساهمات عربية في مفردات صناعة الطباعة

إنجازات وتاريخ

د. منيب خضور

سورية

مقدمة

يتسم التراث العالمي للشعوب بأهمية بالغة في الحفاظ على الذاتيات الثقافية وفي إقامة الجسور بين الماضي والحاضر وفي المستقبل. ومن أهم ما يشكل ويحفظ التراث الوثائق الكامنة في دور المكتبات والمحفوظات وغيره، ويعتبر الجزء الثقافي من التراث أساسياً لأنه يُبرز اختلافات الشعوب ولغاتها وثقافتها، لكن هذا التراث تهدده حالات الضياع والطمس فثمة جزء من التراث الثقافي في العالم يندثر لأسباب طبيعية كحموضة الورق التي تحيلها إلى فئات، وجزء آخر يندثر بفعل الكوارث الطبيعية أو الحروب، ولذلك كله تأثير في دور المكتبات والمحفوظات من حيث التخريب والتدمير.

من هنا كان لابد من صون التراث الثقافي وتيسير سبل الانتفاع به بزيادة الوعي بوجوده وأهميته وإتاحة الوصول إليه بكافة الوسائل الممكنة، وانطلاقاً من ذلك تأتي مشاركتي بهذا الموضوع دعماً لصون التراث العربي الثقافي لما فيه خير للأمة، والذي أحد مجالاته التراث الوثائقي في مجال الطباعة عند العرب.

بداية يجب أن يركز كل سجل وثائقي على الأقل على أحد المعايير المحددة ليصنف ضمن التراث الثقافي.¹ واستناداً إلى ذلك يمكن اعتبار المساهمات العربية في المجال الطباعي تراثاً

¹ عبد العزيز عبيد، تونس، ذاكرة العالم صون للتراث الوثائقي، المجمع الثقافي أبو ظبي، الإمارات، 1995.

ثقافياً وثائقياً لأنها تحقق في حقيقة الأمر أكثر من معيار من المعايير الأساسية التي تجعلها كذلك، فمن حيث معيار التأثير كان لإحدى المواد المشاركة بالعملية الطباعية تأثير بالغ في مجريات العملية الطباعية متجاوزةً حدودها الإقليمية، وكذلك من حيث معيار الزمان فما زال يُستعمل منذ نشوء بدايات العملية الطباعية الأساسية وحتى يومنا هذا. أما من حيث معيار الناس فلقد كان للعرب دور كبير وواضح في تصنيع وتحضير بعض مواد العملية الطباعية وبنشوء فكرة الطباعة من أساسها كما سيتضح لاحقاً. أما من حيث معيار الموضوع فلقد أسهمت صناعة الطباعة مساهمة مباشرة في حفظ التراث العالمي والوطني على كافة الأصعدة إضافة لمعايير أخرى يمكن أن تجعل المساهمات العربية في مجال الطباعة تراثاً ثقافياً متميزاً يجب الاهتمام به والحفاظ عليه ليكون جسراً بين الماضي والمستقبل مروراً بالحاضر على كافة أوجه المجالات الطباعية.

الطباعة من حيث التعريف هي إعادة إنتاج نسخ متكررة لمختلف الأنواع من الكتابة والصور والرسوم، ويجري ذلك باستعمال مواد أولية طباعية مختلفة يجري تصنيعها أو تحضيرها وباستعمال طرق وتجهيزات تقنية طباعية متعددة.

صناعة الطباعة هي الاستعمال الأمثل لدمج هذه المواد الأولية المتعددة الأشكال والمصادر في التجهيزات والطرق التقنية بحسب الهدف المنشود.

مجموعة المواد التي تدخل في صناعة الطباعة كثيرة ومتنوعة فمنها على سبيل المثال الورق، الحبر، الصمغ العربي، المواد المرطبة، المواد الكيميائية، المعادن، الزيوت وغيرها كثير من المواد المساعدة لإنجاز العملية الطباعية.¹ عندما ظهرت الطباعة أحدثت تطوراً غير مسبوق في فكر الإنسان؛ وبدأت ترسم ملامح الحضارات الجديدة وتشكل الوعاء الأنسب لنشر علومه ومعارفه وخبراته. فقد ساور الإنسان حلم تكرار المواد التي يريد تداولها منذ القدم فاستعمل المصريون القدماء طريقة الحفر على الخشب لطباعة الوثائق الرسمية على ورق

¹ د. منيب خضور، الطباعة علم وخبرة، مكتبة الأسد، دمشق - سورية، 2014.

مساهمات عربية في مفردات صناعة الطباعة

البردي، وصنع الصينيون والكوريون من خشب الكمثرى ألواحاً وقوالب طباعية؛ عندما قاموا بحفر الأجزاء المحيطة بما يُراد طباعته وترك الأخيرة بارزة على الألواح بشكل معكوس لتحبر ثم تكبس على الورق. وتورد العديد من المراجع اسم المخترع الصيني **بي شانج أول** من وضع الأحرف الخزفية المتحركة لنقل الحروف والرسوم المراد طباعتها. ولأن طرق الطباعة القديمة كلها كانت تقوم على فكرة الكبس (الضغط)، ولأن الأحرف الخزفية لا تتحمل ضغطاً شديداً لم يلق اختراعه الشهرة والذيع الكافي، إلى أن تحولت طرق الطباعة من الحفر على الخشب إلى الحفر على المعدن على يد الكوريين منذ وقت مبكر.

ويرى بعض المؤرخين أن الطباعة الخشبية انطلقت من الصين، على حين يرى آخرون أن الكلدانيين هم أول من عرف الطباعة الخشبية، وهم من أوجدوا فكرة الحفر على الآجر وشيّه لإكسابه صلابة يمكن استخدامه في طباعة عدد كبير من النسخ، وهم الذين توصلوا لفكرة الحفر على الخشب بدلاً عن الآجر، وفريق ثالث ينسب فكرة الطباعة الخشبية إلى الكوريين؛ على حين يرى فريق آخر أن العرب هم أول من طبق فكرة الطباعة الخشبية. وعلى الرغم من أهمية فكرة الطباعة بالقوالب الخشبية يرفض بعض الباحثين تسميتها طباعة ويفضلون تسميتها طباعة كليشية، ويُرجعون بداية تاريخ الطباعة لاختراع الحروف المتحركة على يد غوتنبرغ.

أولاً: الإنجازات

1. مساهمات عربية في نشوء فكرة الطباعة

ان فضل الحضارة الإسلامية ومن ثم العرب على الحضارة الإنسانية في الكثير من العلوم والفنون لا ينكره أحد، ومنهم المنصفون من الكتاب الغربيين، فالقرآن الكريم أتى بمقومات العلم وأسسها وهي القلم والكتاب والقراءة كما جاء في سورة العلق وفي كثير من السور الكريمة، وعندما توفرت في ديار العرب والمسلمين شروط وجود المطابع وبالتوازي أصبحت موجودة، حيث كان من أهم موانع وجودها الخوف من التزوير والتدليس في كتب المسلمين،

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

فقد كان هذا الخوف من أهم الأسباب¹ في عدم بناء المطابع في ديار المسلمين، إضافة لسبب آخر هو وجود النساخ والخطاطين الذين يقومون بما تقوم به المطابع والذين كانوا بكثرة في المجتمعات الإسلامية.

ان الكتابة التي عرفها المسلمون في تاريخ نشأة الإسلام هي جوهر العملية الطباعية اليوم، فقد ازدهرت الكتابة في عواصم ومدن العالم الإسلامي ورافقها صناعة وتجارة الورق والرق الحيواني الذي كان نظير الورق، ومن عطاء مهنة النسخ والكتابة جاءت مدارس الخطوط بتنوع أنسابها وأسمائها فخلدت أيدي النساخ (كمطابع) المسلمين، هذا الموروث العلمي العظيم عندما كانت أوربا تعيش في ظلام دامس.

ان عدم وجود المطابع في ديار العرب والمسلمين في تلك الحقبة لا يعني عدم معرفتهم فكرة الطباعة قبل ذلك، وحتى قبل ثورة المطابع بأوروبا التي ظهرت في عصر الإصلاح بعد التخلص من سلطة الكنيسة السياسية. فلقد اكتشف علماء الآثار في بابل قوالب فخارية ناتئة الحروف، كان ملوك الكلدان يتخذونها لطبع نسخ من أوامرهم الرسمية قبل نحو ألف سنة من ميلاد السيد المسيح عليه السلام، كما أشار لذلك الأب لويس شيخو اليسوعي،² وإلى ذلك أيضاً أشار المستشرق بروغشتال، وهو أن عرب الأندلس لم يجهلوا فن الطباعة وآلة الطبع، كلامه هذا موثق في كتاب "الإحاطة في أخبار غرناطة" سنة 1375م الذي ترجمه أبو بكر القلوسي الأندلسي، وإضافة لذلك جاء في كتاب الحلة السرية لابن الأثير" ص 137 عن بدر مولى الأمير عبد الله أنه كان "يكتب السجلات في داره ثم يبعثها للمطبع فتطبع وتخرج إليه فتبعث للعمال"، إن دل هذا على شيء فإنه يدل على أن المسلمين في تلك الحقبة كانوا يعرفون فن الطباعة سواء على الحجر أو على الخشب، ولذا يحق لأهل المشرق أن يفتخروا بأنهم هم أصحاب السبق في فن الطباعة عن الأوربيين.

¹ د. عبد الكريم السمك، الطباعة في المشرق العربي، مجلة أحوال المعرفة، السعودية - مكة، 2015، العدد 77.

² الأب لويس شيخو اليسوعي، تاريخ فن الطباعة في المشرق، دار المشرق، بيروت، 1979.

مساهمات عربية في مفردات صناعة الطباعة

لقد استعملت الحكومات القديمة النقش على الحجر، وكان لابد لها حينئذ من أحجار عدة تنقش على كل واحد منها نسخة التبليغ الذي تريد أن توصله للسكان بوضعه في المعابد التي يُكثر الناس التردد عليها، ولتأكيد ذلك هناك ما يعرف بحجر الرشيد المشهور الذي كان وسيلة للوقوف على سر الكتابة المصرية، لقد وُجد من هذا الحجر نسختان، إحداها أخذها الإنكليز أثناء حملة بوناپرت ووضعوها في المتحف البريطاني والثانية عُثر عليها بعد ذلك وتم وضعها في المتحف المصري.¹

كان ظهور المطبعة إنجازاً حضارياً كبيراً في القرن الخامس عشر الميلادي، على يد يوهان غوتنبرغ الألماني (1397-1468م) وكان ذلك هو البديل العظيم للنسخ والوراقة، اللذين كانا السبيل الوحيد لانتقال المعرفة وانتشار العلم. ومهما أُوتيت بعض الكتب حظاً من كثرة نسخها ومخطوطاتها (مثل كتاب تاريخ الطبري الذي كان يوجد منه في خزانة كتب الفاطميين بمصر مئتان وألف نسخة) فسيظل للمطبعة أثرها الضخم في انتشار العلم والتقاء الحضارات، وتبادل الثقافات.

لقد كان المهد الأول للطباعة العربية عالمياً في إيطاليا، منذ أوائل القرن السادس عشر كما هو معروف، وكانت أول مطبعة عربية في مدينة فانو وبها صدر سنة 1514م الموافق 920 هجرية أول كتاب عربي مطبوع وهو "صلاة السواعي، الصلوات الليلية والنهارية" حسب طقوس كنيسة الإسكندرية الأرثوذكسية، وجاء الكتاب في 211 صفحة.² وقد تبعت إيطاليا بلدان أوروبا وعواصمها، ثم الآستانة (إسطنبول) عاصمة الخلافة العثمانية أسبق مدن الشرق في الطباعة وبعد ذلك في لبنان وسائر بلاد الشام.

أول ما ظهرت الطباعة بالحروف العربية بالمفهوم التقليدي بالمنطقة العربية كانت في بلاد الشام في عهد السلطان العثماني أحمد الثالث سنة 1726م ويعود فضل ذلك إلى شخص يدعى

¹ د. حيدر حيدر، الصحافة العربية، جامعة دمشق، سورية، 2016.

² محمود محمد الطناحي، أوائل المطبوعات في مصر، المجمع الثقافي أبو ظبي - الإمارات، 1995.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

عبد الله زاهر الحموي "1684-1748م".¹ فقد أنشأ أول مطبعة بالحروف العربية بحلب بالتعاون مع البطريرك الثالث أنثاسيوس الدباس في سنة 1722م، ونتيجة خلاف بينهما رحل زاهر إلى دير القديس يوحنا الصايغ في الشوير - لبنان، نشطت أعمال هذه المطبعة ما بين عامي 1734 وحتى وفاته عام 1748م، بعد أن طبعت 27 كتاباً، وما زالت أصول هذه المطبعة في المتحف اللبناني، وبعدها تتالت المطابع بالحروف العربية.

2. مساهمات عربية في مفردات صناعة الطباعة

نقصد بمفردات صناعة الطباعة، المواد الأساسية والمساعدة الداخلة في العملية الطباعة لإنجازها من بدايتها حتى لحظة جهوزية المادة المطبوعة لأيدي القراء، وسوف نستعرض بعضاً من هذه المواد التي كان للعرب فيها دور بارز سواء في اكتشافها أو استعمالها أو حتى تصديرها للعالم الخارجي، والتي يمكن أن تعتبر أحد أشكال المساهمات العربية في هذا المجال.

الصمغ العربي

تعتبر مادة الصمغ العربي من المواد المساعدة في عملية الطباعة (الأوفست) ولكن لا يمكن الاستغناء عنها، إذ يستعمل محلول الصمغ العربي لحماية الشكل الطباعي (البلاك) قبل مرحلة الطبع وبعد عمليتي التظهير والتنشيط، ويجري ذلك بوضع طبقة رقيقة من الصمغ العربي على سطح البلاك بواسطة إسفنجية، هذه الطبقة الرقيقة تعمل على حماية المعلومات الموجودة على البلاك وحفظها من الخدوش أو الأشعة فوق البنفسجية، وبهذا يبقى البلاك محافظاً على خواصه الطباعية بالجودة العالية، وتُزال هذه الطبقة قبل المباشرة بعملية الطبع بمسح البلاك ثانية بإسفنجية مبللة بالماء الفاتر.²

الصمغ العربي هو مستحلب من جذوع وأغصان شجرة الهشاب Acacia Sensgal وشجرة

¹ أديب مرو، الصحافة العربية نشأتها وتطورها، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1966، ص 133.

² د. منيب خضور، الطباعة علم وخبرة، مكتبة الأسد، دمشق - سوريا، 2014.

..... مساهمات عربية في مفردات صناعة الطباعة

الطلح *Acacia Seyal*، وهو مادة بيضاء تميل إلى البني البرتقالي وتتكسر إلى قطع "زجاجية" إذا حُفظت بطريقة مناسبة، يظل الصمغ عقوداً من الزمن دون تغيير وهو مادة مركبة من الكربوهيدرات ويعود استخدامه لزمن بعيدة في كثير من الصناعات الغذائية والدوائية وغيرها. يعتبر السودان أكبر منتج لمادة الصمغ العربي في العالم فهو ينتج ما مقداره 80% من الإنتاج العالمي وقد ساهم بما مقداره 8.6 من جملة عائدات الصادرات السودانية¹ في عام 1995 ويعود سبب ذلك للمناطق الزراعية الشاسعة في غرب وأواسط السودان بشجرة الهشاب، ويستطيع السودان أن يؤثر في العملية الطباعية بتحكمه بهذا الإنتاج إذا أراد ذلك، وهو بتوفير هذه المادة يساهم مساهمة فعّالة في الحفاظ على استمرار صناعة الطباعة وجودتها، إضافة لذلك يستعمل الصمغ العربي رابطاً في صناعة الألوان والأحبار الطباعية، وكذلك بسبب كثافته 1.1 غرام لكل سم مكعب ودرجة حموضته 4.7 استعمالته مناسبة لكثير من المجالات الطبية والغذائية والصناعية.

فالعرب السودانيون ساهموا توفير هذه المادة لصناعة الطباعة في المحافظة على الجودة الطباعية وأيضاً في الريعية الاقتصادية، إذ لا يمكن الاستغناء عن الصمغ العربي في طرق طباعة الاوفست.

الورق

الورق كمادة أساسية في صناعة الطباعة من اختراع الصيني (تساي لون) عام 105م الذي يصادف العام الأول من حكم (شينغ يوان) من عهد أسرة هان الشرقية في الصين. وقد نقل إلى آسيا الوسطى من منطقة سينكيانغ في أواسط القرن السابع الميلادي². ولعل مطلع القرن الخامس هو بدء تاريخ صناعة الورق في سينكيانغ، ووصل الورق إلى بلاد العرب في أيام بني أمية.

¹ هالة أحمد الأمين، السودان، تطور الصادرات السودانية، وزارة الاستثمار السودانية، 2006، التقرير 11.

² الإسكندر ستييتشيفيتش، ترجمة: م الأرناؤوط، تاريخ الكتاب، المجلس الوطني للثقافة - الكويت، 1993، 48/1.

إن نقل صناعة الورق والطباعة من الصين إلى الغرب قد مهد الطريق لنشر العلوم والحضارات وتبادلها، ودفع تطور الحضارات العربية إلى الأمام بقوة عظيمة، وأسهم إسهاماً عظيماً في نشوء نهضة شعوب العالم في الفنون والأدب.

في عام 751م أسر العرب في حملة طراز بعض الجنود الصينيين الماهرين في صناعة الورق، فنقلوا هذه الصناعة إليهم وبذلك أنشأ العرب أول مصنع للورق في سمرقند (أوزبكستان) قبل أي مكان آخر.¹ وقد ذكر هذا الحدث في كل من كتاب (رحلة إلى الوبغور) الذي ألفه الكاتب العربي تميم بن بحر في النصف الأول من القرن التاسع، وكتاب (لطائف المعارف) للثعالبي، وكتاب (تاريخ الهند) للبيروني (973-1050).

وفي عامي 793 و794م أنشأ هارون الرشيد أول مصنع ورق في بغداد، ثم تتابع إنشاء مصانع الورق واحداً بعد الآخر في دمشق وطرابلس وحماة وتهامة (منطقة تاريخية من أقاليم شبه الجزيرة العربية وهي السهل الساحلي المحاذي للبحر الأحمر بين أقاليم الحجاز واليمن ومن أشهر مدنها مكة المكرمة) وغيرها من الأماكن. وكان الورق المصنوع في سمرقند يتمتع بشهرة عظيمة لجماله وخفة وزنه، لذلك ظل من أهم صادراتها إلى أوروبا طيلة عدة قرون. وكان الورق الدمشقي جيد النوعية، وسمي في أوروبا "Charta damascene".²

لقد هيا العرب بإنشائهم مصانع الورق الظروف الملائمة لتعميم استعماله. وقد أصدر جعفر بن يحيى البرمكي وزير هارون الرشيد أمراً لجميع الدواوين الحكومية باستعمال الورق بدل القراطيس البردية والرقوق. ومع انتهاء القرن العاشر، كان الورق قد تعمم، وحل محل القراطيس البردية والرقوق في العالم الإسلامي كله بسبب ثقل وزنها وتعذر الكتابة عليها أولاً وحفظها ثانياً. وأقدم المخطوطات العربية المكتوبة على الأوراق والتي لا تزال محفوظة إلى اليوم هي (غريب الحديث) الذي ألفه أبو عبيد الهروي، القاسم بن سلام في القرن التاسع، وهي

¹ ف. برات هولد، من تركستان إلى اختراع المغول، جامعة أوكسفورد، 1928، ص 236-237.

² T. F. Carter، اختراع الطباعة في الصين وانتشاره غرباً، نيويورك، 1995، ص 135.

محفوظة الآن في مكتبة جامعة ليدن.¹

نُقلت صناعة الورق إلى أوروبا عبر الشمال الإفريقي والقسطنطينية. وكان مصنع الورق في مصر قد أنشئ عام 900 تقريباً، ثم أنشئ في المغرب عام 1100، وفي الأندلس عام 1150. وبعدها أنشئت مصانع الورق في مختلف الدول الأوروبية. وأول مصنع ورق شهده العالم المسيحي هو ما أنشأه جان مونغولفير الفرنسي في فيدالون عام 1157، وقد سبق لهذا الرجل أن وقع أسيراً في يد العرب، وتعلم صناعة الورق في دمشق كما جاء في² كتاب الطباعة في الصين وانتشارها غرباً ص 136.

في بحث آخر للأستاذ عصام سليمان موسى - جامعة الشرق الأوسط للدراسات العليا - قسم الإعلام - عمان - الأردن، المنشور في مجلة جامعة دمشق - المجلد 27 - العدد الثالث والرابع لعام 2011، يقول من أبرز المساهمات العربية التي أدت دوراً في تطوير المعرفة ومن ثم الحضارة الإنسانية أداتان الأولى هي الخط العربي والثانية تطوير الورق في القرن الثامن الميلادي في عصر العباسيين، وتأثيرهما الإيجابي كان أولاً على العرب وثانياً على أوروبا. ويتابع ويقول إن تطوير الورق أدى دوراً بارزاً في تقدم عصر الكتابة وظهور العصر الذهبي في الفكر العربي الإسلامي وقدم ثورة اتصال جديدة هي المطبعة، وهذا الأمر ما كان ممكناً دون الورق وهذا فضل للعرب على العالم لا يمكن تجاهله.

الورق في العصر العباسي³

كان من أهم الأسباب في بلوغ الحركة العلمية غايتها من النهضة الواسعة استخدام الورق، إذ أخذ يعم منذ بداية العصر العباسي الأول، وكانوا قبل ذلك يكتبون على الجلود والقراطيس المصنوعة بمصر من ورق البردي. ولم يلبث الفضل بن يحيى البرمكي أن أنشأ في عهد

¹ الشيخ أحمد مغنية، تاريخ العرب، دار الصفوة، بيروت - لبنان، 1994

² T. F. Carter، اختراع الطباعة في الصين وانتشاره غرباً، نيويورك، 1995، ص 135.

³ شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، دار المعارف المصرية - القاهرة، 1969، ص 103.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

الرشيد مصنعاً ببغداد للورق، ففشت الكتابة فيه لخبثه وغلبت على الكتابة على الجلود والقراطيس.

وحقيقة الأمر أن توفر الورق في العصر العباسي الأول كان سبباً رئيساً في صعود الدولة العباسية فيه، لذا فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف جرى تصنيع الورق وتطويره؟

العرب وصناعة الورق

يرى الباحثون ان العرب استعملوا الورق في مطلع القرن السابع الميلادي، لكنهم لم يصنعوه قبل منتصف القرن الثامن الميلادي. وتعد خطوة استعمال الورق خطوة كبيرة في تاريخ الحضارة الإنسانية، فهي تمثل نقلة نوعية في الانتقال من مرحلة الكتابة على الحجر والفخار والجلود بأنواعه المختلفة والقماش بأنواعه (مثل الكتان الذي استُعمل طيلة العهد الأموي وبداية العباسي) إلى أن ظهر الورق الصيني وأنهى كافة الاستعمالات المذكورة وغيرها.¹ وقد ظهر أول كتاب عربي من الورق عام 770 للميلاد في عهد المنصور، الذي أقر أيضاً إنشاء بيت الحكمة.

لم تبدأ صناعة الورق عند العرب قبل منتصف القرن الثامن للميلاد كم أسلفنا سابقاً، وتكشف أن العرب تعلموا صناعة الورق من الأسرى الصينيين، إذ يروي المؤرخ (أبو منصور الثعالبي) الذي عاش في القرن الحادي عشر الميلادي أن الأسرى الصينيين الذين وقعوا في قبضة القائد العربي زياد بن صالح الذي هزم جيشه القوة الصينية وفتح منطقة أواسط آسيا، قد عملوا على إدخال صناعة الورق إلى سمرقند عام 751 ميلادية.²

ويبين الثعالبي في كتابه المذكور أن ورق سمرقند كان من نوعية جيدة، وأن صناعة الورق قد قضت على استعمال الرق والبردي، وأن الصناعة أخذت تنتشر على نطاق واسع

¹ حمودة، محمود عباس، تاريخ الكتاب الإسلامي المخطوط، دار غريب للنشر والطباعة والتوزيع، 1994، القاهرة.

² المؤرخ أبو منصور الثعالبي، لطائف المعارف، دار إحياء للكتب العربية القاهرة، ق 11، ص 218.

..... مساهمات عربية في مفردات صناعة الطباعة

وأصبحت مادة للتصدير من سمرقند بعد أن أصبح ورقها يتمتع بشهرة عالمية. ومن الأسباب التي جعلت سمرقند المركز الذي توجد فيه صناعة الورق توفر الماء الغزير فيها، وهو ما تحتاجه تلك الصناعة.¹ كما أن سهول سمرقند الخصبة وفرت ما احتاجته الصناعة من محاصيل القنب. ونتيجة لذلك أصبح الورق الأبيض الناعم المصنع في سمرقند مادة تجارية مهمة لا تقل جودتها عن جودة الورق الصيني. لذا فإن أي مركز تنتقل إليه صناعة الورق في المستقبل يجب أن تتوفر فيه المياه بكثرة، وهذا ما جعل بغداد المحطة التالية لتصنيعه.

يستتج مما سبق أن العرب أدخلوا صناعة الورق في القرن الثامن الميلادي مأخوذة عن الصينيين وعملوا على تطويرها، لكن السؤال الذي يبرز هنا: كيف صنع العرب الورق، وهل طوروا الصناعة أم أبقوها على حالها كما تعلموها؟

في رواية المؤرخ المعز بن باديس الزجاجي الذي عاش في القرن الحادي عشر الميلادي وبعنوان عمدة الكتاب وعدة نوي الألباب يشرح بدقة طريقة صناعة الورق من مادة القنب الأبيض على النحو التالي:

.... ينقع القنب ويسرح حتى يلين ثم ينقع بماء الجير ويفرك باليد ويجفف وتكرر العملية ثلاثة أيام ويبدل الماء في كل مرة حتى يصبح أبيض ثم يقطع بالمقراض وينقع بالماء حتى يزول الجير منه ثم يدق في هاون وهو ندي حتى لا تبقى فيه عقد ثم يحلل في الماء ويصبح مثل الحرير ويصب في قوالب حسب الحجم المراد وتكون قطع الورق مفتوحة الخيطان فيرجع القنب ويضرب شديداً ويغلى في قالب كبير بالماء ويحرك حتى يجف ويسقط ويؤخذ له دقيق ناعم ونشاء في الماء البارد ويغلى حتى يفور ويصب على الدقيق ويحرك حتى يروق فيطلى به الورق ثم تلف الورقة على

¹ المستشرق الألمانية زيغريد هونكة، شمس العرب تستطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون، منشورات المكتب التجاري للطباعة، 1964 بيروت.

قصبة حتى تجف من الوجهين ثم يرش بالماء ويجفف ويصقل.¹
نخلص من روايتي الثعالبي وابن باديس، اللتين كتبنا بعد صناعة وإنتاج الورق بثلاثة قرون إلى ما يلي:

إن وصف ابن باديس الدقيق لصناعة الورق يبين أن المبادئ الأساسية لهذه الصناعة كانت معروفة ومطبقة من قبل العرب في ذلك التاريخ وهي نفسها من حيث المبدأ للقواعد الأساسية لصناعة الورق المتبعة حالياً.²
وإن هذه الصناعة قد رسخت وأثبتت أنها صناعة ناجحة اقتصادياً، وأنها أصبحت مهمة ومفيدة إلى درجة أن أقدم المؤرخون على تسجيل تفاصيل تاريخها وصناعتها، ولذا فإن هذا الإنجاز من المساهمات الرئيسة للعرب في إحدى المفردات الرئيسة في مجال الطباعة.

تطوير الصناعة: إسهام العرب الرئيس

بحسب رواية ابن باديس فإن الورق في سمرقند صنع من القنب، لكننا نجد عند الباحثين المحدثين كالباحث (بلوم) مثلاً أن الورق صنع من الخرق البالية باستعمال أساليب متطورة لعجن المواد الناتجة ومزجها بالنشاء، ويعدُّ (بلوم) هذا الإنجاز الإسهام الرئيس للعرب في تطوير صناعة الورق، أي استعمال تقانة عجن الألياف وإعدادها للكتابة بمزجها بالنشاء.³
وكنا عرفنا أن الصينيين قد سبقوا العرب بصناعة الورق واستعملوا خرق الحرير المقطعة التي كانت تنتع بالماء حتى تتحول إلى عجينة ناعمة. ويتم بعد ذلك تجفيف هذه العجينة لتصبح ورقاً.

¹ المعز بن باديس الزجاجي، عمدة الكتاب وعدة ذوي الألباب، تحقيق إياد الطباع، منشورات وزارة الثقافة السورية، 2006.

² د. منيب خضور، الطباعة علم وخبرة، مكتبة الأسد، دمشق - سوريا، 2014.

³ بلوم وجوناثان، الورق قبل الطباعة وقصة الورق في العالم الإسلامي، New Haven: Yale University Press، 2001.

..... مساهمات عربية في مفردات صناعة الطباعة

نستنج من روايات الباحثين السابقين، أولاً أنّ العرب قد عملوا على تطوير هذه الصناعة وثانياً استمرت هذه الصناعة بالأسلوب نفسه الذي طوره العرب حتى وقتنا الحالي، هذان الاستنتاجان يبينان بصورة قاطعة فضل العرب على الإنسانية حتى يومنا هذا وإن استغرق هذا التطوير لصناعة الورق سبعة قرون من آخر تطوير لهم للأحرف الأبجدية والكتابة.

ثانياً: التاريخ

1. تاريخ الطباعة العربية في أوروبا

إن فن وصناعة الطباعة ما كان له أن ينتشر في العالم لو لم يسبقه اكتشاف صناعة الكاغد (الورق) في الصين أولاً في بداية القرن الثاني الميلادي¹ ومن ثم انتقال هذه الصناعة إلى المسلمين، فاحتكروا إنتاجه سبعة قرون وانتظرت بعدها الطباعة في أوروبا هذه القرون السبعة حتى تنتشر فيها صناعة الكاغد ليصل الألماني يوهانس غوتنبرغ إلى شرف اكتشاف صناعة الطباعة، مع إصرار بعض مؤرخي صناعة الطباعة على أن غوتنبرغ تعلم فن وصناعة الطباعة بالحروف المنفصلة من الهولندي لورنزيانسون الذي طبع كتب النحو اللاتينية. ويرى سفندال أنه من المحتمل أن بعضاً من هذه الكتب طبع بطريقة القوالب الخشبية،² ومع كل هذا من المعروف أن أوروبا كانت تستهلك كثيراً من الكاغد العربي الذي كان يصدر إليها من بغداد ودمشق عبر القسطنطينية ومن شمال إفريقية عبر صقلية ومن الأندلس عبر فرنسا، حتى تعلمه الأوروبيون منهم. إن أول مصنع للكاغد في أوروبا أسسه جان مونت جولييه في جنوب فرنسا عام 1147م، جولييه هذا شارك في الحملة الصليبية الثانية، ووقع أسيراً لدى المسلمين وقضى مدة أسره في دمشق التي كانت هي وبغداد وشاطبة وفاس من أهم مراكز صنع الكاغد في

¹ الاسكندر ستييتشفيتش، ترجمة: م الأرناؤوط، تاريخ الكتاب، المجلس الوطني للثقافة - الكويت، 1993، 48/1.

² سفندال، تاريخ الكتاب من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر، ترجمة محمد صلاح الدين حلمي، ص 100، 1958 القاهرة.

العالم الإسلامي في ذلك الوقت، فلا بد أنه أطلع على وسائل تصنيع الكاغد في دمشق فنقلها إلى فرنسا وبعد ذلك بنحو قرن من الزمن أنشئ أول مصنع للكاغد في إيطاليا عام 1226م، ولم يحلَّ القرن الرابع عشر إلا وأصبحت إيطاليا المصدر الرئيس للكاغد إلى أوروبا، فانحسر الطلب على الكاغد الإسلامي.¹ وبدأ الكاغد الأوربي يتسرب إلى الأسواق العربية. الحق أن صناعة فن الطباعة لم يكن اكتشافاً أوروبياً فقط فقد سبقهم إليها الصينيون ومن بعدهم المسلمون، فتعلم الأوربيون من العرب هذا الفن من جملة ما تعلموه من المظاهر الفكرية والتقنية الإسلامية. ففي الوقت الذي كانت فيه الكتب تطبع في اليابان وكوريا والصين وبلاد الإيغور (حالياً منغوليا) بواسطة القوالب الخشبية ثم بالحروف المتحركة كان إنتاج الكتب في العالم الإسلامي عموماً وأوروبا خصوصاً يعتمد على النسخ، إضافة لذلك نعلم أنه كان هناك بعض المحاولات الطباعية في استعمال العالم الإسلامي للقوالب الخشبية في طباعة الكتب الدينية وخاصة المصحف الشريف والأدعية وورق الكوتشينة أو الشدة.²

ويؤيد هذا ما يزيد على خمسين وثيقة من الوثائق العربية المطبوعة على الرق والكاغد وقماش الكتان التي اكتشفت في واحة الفيوم بمصر مع الوثائق البردية المعروفة ببرديات الدوق راينر، وهي التي تعود إلى ما بين عام 287 و751 هجرية، توزعت على مكتبات القاهرة وهايدلبرغ وبرلين والمتحف البريطاني ومكتبة جامعة كمبردج ومتحف جامعة بنسلفانيا. أكثرها محفوظ في المكتبة الوطنية بفيينا³ وهي موصوفة وصفاً دقيقاً شاملاً في فهرس منشور.⁴

وحول انتقال فن الطباعة من المشرق الإسلامي إلى أوروبا يقول جاك ريسلر "لعل أهل جنوة قد استوردوا من تحف الشرق إلى أوروبا سر طبع أوراق النقد بطريق الحروف

¹ المرجع السابق.

² Cf. Rosenthal. F., Gambling in Islam, E.J. Brill-Leiden, 1975.

³ G. Levi Della, An Arabic Book Print, in: The Scientific Monthly 59, Dec. 1944.

⁴ PBRF; "Papyrus Erzhrzog Rainer" Wien, 1894.

المتحركة.¹

الطباعة العربية في أوربا مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بصناعة الكاغد أولاً، وحمى التنصير ثانياً، والهيمنة الاستعمارية ثالثاً، وتطور الاستشراق ووصوله إلى نظام مبني وفق قواعد منظمة رابعاً، وربما لا أبالغ في القول إنه لو لم يتعلموا الأوربيون صناعة الكاغد من المسلمين الذين احتكروا صناعته سبعة قرون في سمرقند ودمشق والقاهرة وشاطبة (حالياً مدينة اسبانية) وفاس لما كان هناك طباعة في أوربا والعالم.

تعلم الأوربيون أيضاً من العرب الطباعة على القوالب الخشبية وشاعت هذه الطريقة في طباعة الكتيبات الدينية الصغيرة للجمهور الشعبي الأمي حول القديسين مع صورهم في كل من ألمانيا وهولندا خلال العقد الأخير من القرن الثامن للهجرة (الرابع عشر للميلاد)² قبل أن يولد غوتنبرغ، فعمل شيوخها آنذاك كان حافزاً إلى تطويرها. ثم إن هناك رواية قديمة تقول: إن إيطاليا وأخته قد استطاعا طبع قصة غرام الإسكندر المقدوني في القرن الثالث عشر للميلاد (السابع للهجرة) بطريقة القوالب الخشبية التي استوردت تقنياتها من مصر،³ ولعل أقدم ما طبع من الحروف العربية بطريق القوالب الخشبية في أوربا ما ظهر في كتاب برايدنباخ "رحلة إلى الأرض المقدسة" المطبوع في ماينز بألمانيا سنة 1486 م.

إن ظهور الإسلام وانتصاره على أقوى قوتين عسكريتين وسياسيتين في العالم وهما الفرس والروم وانتشاره السريع في كثير من الأقطار النصرانية مثل الشام وشمال إفريقيا والأندلس، ومن ثم إخفاق القوى الصليبية واندحارها أمام صلاح الدين وخيبة أمل الكنيسة لدخول التتار في الإسلام طواعية، وتنامي قوة الدولة العثمانية ووقوف جيشها أمام أسوار فيينا، وإخفاق جميع الجهود التنصيرية الهائلة على الرغم من وقوع أكثر البلدان الاستعمارية تحت الحكم

¹ Geschiedenis van, Arabische Culture, Utrecht-Antwerpen, 1960, p 193-129.

² سفندال، تاريخ الكتاب من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر، ترجمة محمد صلاح الدين حلمي، ص 100، 1958 القاهرة.

³ P. Lunde, A missing Link, (Aramco World Magazine 32/2), New York, 1981, 22/1.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

الاستعمار الأوربي، والذعر الذي أصاب أوربا إثر سقوط القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح عام 857 هجرية الموافق لعام 1453م، كل ذلك حير عقول الأوربيين وجعل علماءهم يتخبطون في معرفة سر هذا الدين.¹

إن ما سبق ولد شعوراً حافزاً لدى غوتتبرغ وهو في بدايته على أن تنشر مطبعته بعد أقل من سنة من سقوط القسطنطينية كتاباً يحذر فيه أوربا من خطر الإسلام ومن تنامي قدرته في الشرق وخطره الماحق على أوربا والكتاب المذكور مطبوع بحروف غوتتبرغ سنة 1454 ولم يبقى منه سوى نسخة واحدة لعلها محفوظة بمكتبة الدولة في ميونخ.

كل ذلك وغيره من العوامل الأخرى التي أخافت أوربا من الإسلام دفعت الأوربيين إلى ارتياد البلدان العربية وإسطنبول مما أدى إلى ظهور سيل من كتب الرحلات المملوءة بالمغامرات والعجائب حول الشرق وأهله، وهذا الأمر ساهم لاحقاً في ظهور الكتب بأحرف عربية وأدى إلى ظهور الطباعة العربية في مطابع الدول الأوربية.

ففي إسبانيا نشر الراهب بيدرو دي الكلا أول كتاب في إسبانيا بدافع معرفة اللغة حوى حروفاً عربية طبعت على قوالب خشبية² في جزأين نشرهما معاً عام 1505 ميلادية.

وفي سنة 1566م صدر كتاب العقيدة النصرانية باللغة العربية لرئيس أساقفة بلنسية مارتن بيريز دي أيلالا ومن بعده تواترت الكتب الموجهة دينياً لتعلم اللغة العربية بغرض تسهيل تنصير المسلمين الذي أعطى دفقاً كبيراً لظهور الطباعة باللغة العربية.³

أما في إيطاليا فإن حماسة الفاتيكان في ضم عديد من الكنائس الشرقية إلى كرسي روما وخوفه من انضمامهم للكنائس البروتستانتية كان وراء إنشاء مطبعة الكلية الجزويتية في روما التي أصدرت أول كتاب بالعربية عام 1566م بعد أن تم تجهيز المطبعة بأسس الطباعة العربية.⁴

¹ قاسم السامرائي، الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، دار الرفاعي، الرياض، 1983.

² Lambrecht, E., Catalogue de la Binliotheque de Ecole, Paris, 1897, 93/1.

³ قاسم السامرائي، الطباعة في أوربا، المجمع الثقافي أبو ظبي - الإمارات، 1995، محاضرة.

⁴ عبد العزيز عبيد، تونس، ذاكرة العالم صون للتراث الوثائقي، المجمع الثقافي أبو ظبي، الإمارات، 1995.

..... مساهمات عربية في مفردات صناعة الطباعة

أما في إنكلترا فنتيجة انتقال الحمى التنصيرية إليها قام أوردبيكوك بترجمة كتاب اللاهوتي الهولندي هوخودي خروت إلى العربية الذي نشره في أكسفورد عام 1660 فاختار منه فصولاً وسمّاها كتاب مفتاح الخزائن ومصباح الدفائن ونشَرَتْهُ في لندن مطبعة J. D. Macbride بدون تاريخ. ووزعته شركة الهند الشرقية في منطقة الخليج العربي.¹

وأما في ألمانيا فكان هناك فئة أخرى تهتم بالوصول إلى معرفة ما كتب بالعربية في علم الفلك والطب وغيره، ويظهر هذا الاهتمام في كتاب المستشرق الألماني يعقوب كرستمان الذي ترجم مخطوطة العالم الفلكي أحمد بن محمد بن كثير الفرغاني في "الحركات السماوية" ونشرها في فرانكفورت عام 1590م.²

وأما في هولندا فقد بدأت الطباعة العربية في مدينة لايدن عام 1585م واستعانت بأحد حفاري الخشب على تقطيع الحروف العربية ونشرت نماذج منها ضمن كتاب صغير في عام 1595م، ونشرت أيضاً في عام 1613م كتاباً في القواعد العربية، اختارته جامعة لايدن لتدريس العربية.³

2. تاريخ الطباعة العربية في المشرق العربي (بلاد الشام وتركيا)⁴

لا يزال العلماء يعترفون إلى اليوم بأن المطبعة هي أشد التقنيات فاعلية والتي لم يخترع الإنسان مثيلاً لها، وهي الأساس في تقنيات المعلومات والاتصالات الآن، حيث إن دورها لا يقتصر على الجانب التقني فقط، بل إن لها إضافةً إلى ذلك دوراً تاريخياً واجتماعياً وثقافياً بارزاً في حياة الشعوب منذ خمسة قرون، فالمطبعة ليست مجرد آلة وتجهيزات أخرى، فقد

¹ قاسم السامرائي، الطباعة في أوروبا، المجمع الثقافي أبو ظبي - الإمارات، 1995، محاضرة.

² المرجع السابق.

³ المرجع السابق.

⁴ وحيد قدورة، أوائل المطبوعات العربية في تركيا وبلاد الشام، المجمع الثقافي أبو ظبي - الإمارات، 1995، محاضرة.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

ساهمت بقسط وافر من التحولات الفكرية والاقتصادية والاجتماعية التي عرفتتها الشعوب، وتعتبر أولى بوادر تفتح العرب على الاكتشافات والعلوم الحديثة التي عرفتها أوربا، إذ تعد الطباعة أول تقنية سلمية مهمة يستعيرها العرب من الخارج بعد حوار وصراع طويل بين المصلحين والمحافظين.

لم يكن فنّ الطباعة بأشكاله المختلفة غائياً عن المسلمين والعرب، على الأقل من حيث درايتهم واطّلاعهم على أساليبه كما أشرنا سابقاً، إن لم يكونوا قد مارسوه عملياً في بعض الأوقات في أشكاله البدائية، فقد واكبوا التحولات التي عرفتها فنّ الكتابة الجديد والمتجدد منذ استعمال الألواح الخشبية حتى اختراع الطباعة بالأحرف المنفصلة. ويمكن تفسير الجذور البعيدة للطباعة العربية من خلال ما يلي:

أساليب الطباعة البدائية عند العرب

استعمل المسلمون فنّ الطباعة بالألواح الخشبية منذ العهد العباسي الأول (القرن الثاني الهجري/التاسع الميلادي) وقد أخذوه من الصينيين الذين اخترعوه منذ القرن الثاني الميلادي فطبّعوا على القماش والورق وطوروا أساليب هذا الفن إلى حد يجعلنا نتساءل: هل كان للعرب مساهمة في اختراع أساليب الطباعة بالأحرف المنفصلة قبل الأوربيين أو استعمالها على الأقل؟

إن ما يبرر هذا التساؤل هو وجود إشارات عن مساهمات محتملة للمسلمين بالأندلس قبل سقوط غرناطة وبعده في تطوير طرق الطباعة:

الإشارة الأولى ما ورد في مصدرين أندلسيين متأخرين يتحدثان عن فنّ غامض للطباعة، الأول لابن الخطيب وعنوانه "الإحاطة في أخبار غرناطة" الذي ذكر أن أبا بكر القلوسي أهدى للوزير الحاكم كتاباً عن خصائص صناعة الحبر وأدوات الطباعة وهذا الكتاب فريد في محتواه، والمصدر الثاني لابن الأثير الذي ذكرناه سابقاً في كتابه "الحلة السرية".

الإشارة الثانية هي ترخيص السلطان العثماني بايزيد الثاني لليهود الذين استقروا في تركيا

..... مساهمات عربية في مفردات صناعة الطباعة

بعد ما طردوا من إسبانيا بإقامة مطابع عبرية لهم عام 1494. وإذا كان باستطاعة اليهود الذين كانوا يقيمون بالأندلس ممارسة عملية الطباعة، فهل سيكون ذلك عسيراً على المسلمين المهاجرين أيضاً من الأندلس، وقد عرفوا بمهاراتهم في الصناعات المختلفة ومنها النقش على المعادن، وكذلك بإسهامهم العلمي في شتى مجالات المعرفة. وهنا نطرح السؤال التالي: هل كان المسلمون الأندلسيون يمارسون فنّ الطباعة بالأحرف المنفصلة منذ القرن الخامس عشر؟ وهل قاموا بطباعة الكتب؟

إذا لم يكشف التاريخ عن آثار ومصادر توضح: أكان المسلمون قد استخدموا فعلاً المطبعة بالأحرف المنفصلة قبل القرن الثامن عشر، فإن هناك أدلة كثيرة تبين أنهم كانوا يعلمون ويواكبون نشاط المطابع التي ظهرت بالصين ثم في أوروبا.¹

كيف اطلع المسلمون على هذا الاختراع؟

فيما يتعلق بمواكبة الاختراع الصيني، هناك مصدر إسلامي من القرن الرابع عشر الميلادي وهو كتاب "جامع التواريخ" للوزير فضل الله بن عماد بن علي رشيد الدين (1318-1247) الذي تحدّث عن زيارته للصين ومشاهدته للمطبعة ووصف الأحرف المنفصلة للغة الكاتاي. وفيما يتعلق بمواكبة الاختراع الأوربي هناك عدة شهادات تبين ذلك من بينها شهادة إبراهيم متفرقة الذي تحدّث في "رسالة وسيلة الطباعة" عن اهتمام العلماء المسلمين بفنّ الطباعة وتحمسهم للاستفادة منه منذ عهد طويل (نشرت هذه الرسالة في أول كتاب أصدرته مطبعة استانبول عام 1728 وهو صحاح الجوهري - وفي مجلة المكتبات الفرنسية ترجمة لهذه الرسالة) إلا أن هناك عراقيل منعتهم من إقامة مطابع بالأحرف العربية المنفصلة قبل سنة 1726م.

تؤكد مثل هذه الشهادات وغيرها اطلاع المسلمين على اختراع المطبعة في الصين أولاً

¹ وحيد قدورة، أوائل المطبوعات العربية في تركيا وبلاد الشام، المجمع الثقافي أبو ظبي - الإمارات، 1995، محاضرة

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

ولاحقاً في أوروبا، إلا أن موقفهم منها كان سلبياً فأعرضوا عنها فسبقهم الأوروبيون في طباعة الكتب بالأحرف العربية.

طبع الأوروبيون كتباً عربية كثيرة منذ سنة 1514م ووصل عددها إلى 167 كتاباً قبل أن يظهر أول كتاب عربي مطبوع في المشرق.

3. تاريخ الطباعة العربية في المغرب العربي¹

عندما نتحدث عن تاريخ الطباعة في المغرب العربي نجد أن تلك البلدان العربية رغم مجاورتها لأوروبا والواقعة على مرمى البصر من إسبانيا وإيطاليا مثلاً كانت من أواخر البلدان العربية اتصالاً بالطباعة واستعمالها، على حين كانت بلاد الشام ومصر - وهي ليست قريبة قرب المغرب العربي من أوروبا - أسبق منه بزمان كثير إلى استجلاب المطبعة واستعمالها.

يعود الفضل في دخول أول مطبعة عربية إلى المغرب لمواطن مغربي الأصل هو الفقيه السيد الطيب الروداني قاضي مدينة تارودانت في جنوب المغرب عام 1280 هجرية، وكان قد تعرف بها في مصر، أثناء عودته من الحج في ذلك العام، حيث اعتمد على خبير مصري في شراء المطبعة التي كانت مطبعة حجرية، لما لاقته المطبعة الحجرية في أول الأمر من قبول ونجاح في جميع البلاد الإسلامية لأسباب تقنية وفنية وثقافية واجتماعية واقتصادية، ذلك أنها ملائمة للخط العربي ومطاوعة لأشكاله المتنوعة، كما أنها لا تقتضي نهائياً على حركة النسخ والنساخين الذين كانوا يتعيّشون من نسخ الكتب. وُضعت المطبعة في مدينة مكناس، وأول ما طبع فيها كتاب الشمائل للترمذي عام 1282 هجرية. توقفت المطبعة عن العمل لأسباب فنية وإدارية، ثم عادت للعمل على يد السيد محمد بن محمد الأزرق الذي تعلم صناعة الطباعة في مطبعة بولاق بمصر بتوجيه من السلطان محمد الرابع.

أما الطباعة في تونس فبدأت قبل بدئها في المغرب بنحو عشرين عاماً وبنتيجة مجهود

¹ محمد بن شريفة، تاريخ الطباعة العربية في المغرب العربي، المجمع الثقافي أبو ظبي - الإمارات، 1995، محاضرة.

.....مساهمات عربية في مفردات صناعة الطباعة

فردي خاص للراهب بورجاد، إذ كان لديه مطبعة حجرية بحروف عربية، أخرج فيها ترجمة عربية لكتاب له عنوانه: مسامرة قرطاجنة، تقع في جزأين عام 1266 هجرية الموافق 1849 ميلادية. ولم تظهر الطباعة الحجرية بشكل واضح ورسمي إلا في عهد المشير محمد باي الذي اشترى مطبعة حجرية من باريس وجلبها مع لوازمها إلى تونس العاصمة وكان افتتاحها سنة 1857 ميلادية وأول ما طبع فيها الوثيقة التي تدعى عهد الأمان.

أما الطباعة في الجزائر فلم يكن للطباعة العربية خلال القرن التاسع عشر مكان بسبب احتلالها من قبل فرنسا عام 1830م وتطبيق سياسة الدولة المستعمرة، وكان يقال إن أول ما طبع بالعربية في الجزائر صحيفة المبشر سنة 1847م.

4. تاريخ الطباعة في شبه الجزيرة العربية ومصر

يعود تاريخ ظهور الطباعة في شبه الجزيرة العربية إلى سبعينيات القرن التاسع عشر الميلادي، حين أسس العثمانيون أول مطبعة في صنعاء عقب استيلائهم على اليمن مرة ثانية في عام 1289 هجرية الموافق 1872م. وبرغم اتفاق المصادر على أسبقية ظهورها في هذا الجزء من شبه الجزيرة العربية فإننا نجد اختلافاً واضحاً بين الدارسين في تحديد تاريخ تأسيسها. والمتداول بين أوائل الذين عرضوا لتاريخ هذه المطبعة وأقدمهم فيليب دي طرازي إضافة لجرجي زيدان عند حديثه عن جريدة صنعاء أن تأسيسها كان عام 1877م.¹ غير أن خليل صابات يُعدّ أول من نص صراحة على أن عام 1877م الموافق لعام 1294 هجرية هو العام الذي عرفت فيه اليمن بداية الطباعة بقوله: على الرغم من تأخر هذه البلاد ثقافياً واجتماعياً فقد عرفت الطباعة منذ سنة 1877م، أي قبل أن تعرفها العربية السعودية بنحو خمس سنوات، وقد أمر بإنشاء أول مطبعة السلطان عبد الحميد الثاني في مدينة صنعاء عاصمة البلاد.² عرفت هذه المطبعة بمطبعة صنعاء وفي بعض المراجع بمطبعة ولاية اليمن

¹ محمد عبد الرحمن الشامخ، نشأة الصحافة في المملكة، دار العلوم، الرياض، 1982، ص 43.

² خليل صابات، تاريخ الطباعة في الشرق العربي، دار المعارف القاهرة، 1956، ص 327.

وكانت متواضعة، جداً يدل على ذلك النمط الطباعي الذي جاءت عليه سالنامة اليمن المنشورة عام 1298 هجرية. وكان أول عمل صدر عنها كما يرى بعض الباحثين اليمنيين والعرب نشرة صغيرة عنوانها: يمن موجهة للعاملين في الإدارة العثمانية بولاية اليمن من عسكريين ومدنيين، وأن العدد الأول منها صدر في عام 1872م الموافق 1288 هجرية.

أما في **الحجاز** فتاريخ إنشاء المطبعة الثانية في شبه الجزيرة العربية جاء واضحاً ومحدداً دون أدنى خلاف عليه، فحسب ما تورده المصادر العربية والأجنبية فإن عام 1300 هجرية الموافق لعام 1883 ميلادية هو العام الذي شهدت فيه مكة المكرمة تأسيس أول مطبعة فيها، ويعود الفضل في إنشاء أول مطبعة عربية في السعودية إلى الوالي العثماني الوزير عثمان نوري باشا،¹ وعرفت باسم المطبعة الميرية التي كان لها مقر مستقل يدل على الاهتمام بها، وتعتبر مطبعة متكاملة إدارياً وفنياً في ذلك الوقت. ومنذ بداية ظهورها توجهت نحو طباعة الكتب باللغات العربية والتركية، وقد ساعد الوضع الثقافي في مكة المكرمة الذي كان نشطاً في تلك الحقبة على هذا التوجه بسبب توفر عديد من علماء سبق لهم نشر أعمالهم خارج حدود مكة المكرمة، ومن الكتب الكثيرة التي طبعت عام 1300 هجرية كتاب عمدة السالك وعدة المناسك تأليف العلامة شهاب الدين ابن عباس بن النقيب المصري الشافعي الذي يحتوي على 110 صحيفة، ويتضح للمتابع أن الكتب المطبوعة في الحجاز لا تختلف كثيراً من الناحية الفنية عن المطبوعة في مطبعة بولاق بمصر حيث تبين محاضرةً للأستاذ يحيى محمود بن جنيد الساعاتي أن ما طبع في المطبعة الميرية يمثل 94% من مجموع ما طبع في شبه الجزيرة العربية في المدة المحددة لدراسته في إعداد محاضرته، في حين كان نصيب مطبعة صنعاء فقط 6%، وأن الاتجاهات الموضوعية للنشر فيها غلب عليها الاتجاه الديني وتلتها موضوعات اللغة والأدب فالمعارف العامة، ثم التاريخ فالعلوم، وأخيراً المنطق.²

¹ عبد القدوس الأنصاري، موسوعة تاريخ مدينة جدة، ط 2، جدة، 1980، ص 326.

² يحيى محمود جنيد الساعاتي، الطباعة في شبه الجزيرة العربية، المجمع الثقافي أبو ظبي - الإمارات، 1995، محاضرة

مساهمات عربية في مفردات صناعة الطباعة

وأخيراً لا بدّ من التطرق إلى ظهور الطباعة في مصر¹ حيث تعتبر الطباعة فيها في الوقت الراهن متطورة أكثر من كل البلدان العربية، لما فيها من الجامعات والبحوث العلمية في هذا المجال، إضافة لتوفر كافة التقنيات الحديثة في مجال الطباعة وأهم من ذلك هو متابعة تطور هذه الصناعة.

بدأت الطباعة في مصر بدخول الحملة الفرنسية سنة 1798م حين حمل نابليون معه مطبعة صغيرة طبع منشوراته وأوامره باللغة العربية.² وأطلق على هذه المطبعة اسم "المطبعة الأهلية" واستمرت بالعمل إلى عام 1801، حين اندحر نابليون وخابت حملته. مرت فترة من الزمن - زهاء عشرين سنة - وليس في مصر طباعة ولا مطبعة، حتى استقر الأمر لمحمد علي باشا، الذي تولى حكم مصر سنة 1805م فأنشأ مطبعة بنفس الاسم (وقد قيل أنشأها على أنقاض المطبعة الأهلية الفرنسية) وكان ذلك في سنة 1819-1821م، ثم نقلت هذه المطبعة إلى بولاق، على ضفاف النيل وتعرف إلى يومنا هذا بمطبعة بولاق أو المطبعة الأميرية، أو الميرية، وأقدم مطبوع بها هو " قاموس إيطالي وعربي " طبع سنة 1822م وألفه القس رافائيل زخور راهب. وقد طبع في هذه المطبعة خلال المدة من عام 1872م الموافق 1289 هجرية إلى عام 1295 هجرية أي خلال ست سنوات زهاء نصف مليون نسخة، ولم تظهر المطابع الأهلية في مصر إلا بعد قرابة أربعين عاماً من إنشاء مطبعة بولاق.

خاتمة:

في الوقت الذي كانت فيه أوروبا غارقة في عصور من الظلام والانحطاط، كانت الحضارة العربية القديمة تقدم للبشرية جمعاء أفضل الإنجازات العلمية في عصرها الذهبي، عندما كانت مدن مثل بغداد والقاهرة ودمشق والقيروان وفاس وقرطبة تعج بالعلماء والمخترعين والصناع المهرة، الذين قدموا العديد من النظريات والمساهمات العلمية، التي نحيا بها إلى يومنا الحالي

¹ محمود محمد الطناحي، أوائل المطبوعات في مصر، المجمع الثقافي أبو ظبي - الإمارات، 1995.

² أديب مروة، الصحافة العربية نشأتها وتطورها، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1966، ص 133.

وهذا كله يعتبر جزءاً من التراث العربي.

إن الحفاظ على التراث العربي الذي يتجلى ببعض جوانبه بحفظ الوثائق التراثية لهذه النظريات والمساهمات، لهو ذو أهمية بالغة لكافة بلدان العالم، وخاصة لتلك الوثائق المهددة بالطمس والاندثار، وإن إتاحتها لمن يريد الانتفاع بها وجعلها في متناول أكبر عدد ممكن من الناس باستعمال الوسائل التقنية الحديثة هو بحد ذاته عمل يُشكر كل القائمين والمُشرفين عليه.

هنا يجب ألا ننسى تأثير المستشرقين في خدمة التراث العربي من حيث جهودهم المقدمة في ذلك الاتجاه وحفظهم للتراث العربي، مع أن اهتمامهم بدأ يخف لأسباب مختلفة، وأن دراساتهم انتقائية تثير الجدل وبحسب أهدافهم، ولذلك لا بد من ضرورة إجراء دراسات متخصصة بأعلام المستشرقين الذين يكتبون في التراث العربي.

إن صناعة الطباعة من جملة المواضيع التي تدخل في صلب التراث العربي لما للعرب فيها من مساهمات وإنجازات، سواء في توفير بعض موادها الأولية أو في نشوء فكرتها من حيث المبدأ أو وضع أفكار لتطويرها منذ القدم ووجود براءات اختراع في العصر الراهن الحديث منفذة ومسجلة بالدول الأوروبية بأسماء عربية في هذا المجال، ومن هذا المنطلق جاء هذا البحث الخاص خدمة للتراث العربي والإسلامي.

لا شك أن المطبعة التي هي نتاج صناعة الطباعة أثرت في الحياة العربية وفي نشر المعرفة وتعجيل حركة التقدم الفكري والأدبي والعلمي، مع أن بداية المحاولات الطباعية كانت بواسطة القوالب الخشبية في العالم الإسلامي، ثم تطورت إلى ميكانيكية ولم تنتشر في العالم الإسلامي بسرعة لدواعٍ جمالية وغيرها، وإن ظهور الطباعة العربية في أوروبا بعد ظهورها في العالم الإسلامي يعود إلى أسباب كثيرة منها توفير الورق بسهولة وحمى التصوير والهيمنة الاستعمارية ودراسات المستشرقين.

مما لا شك فيه أن للمطبعة العربية دوراً كبيراً في التحولات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية في العالم الإسلامي، لأن معرفة المسلمين بالطباعة قديمة منذ أن مارسوا سك

..... مساهمات عربية في مفردات صناعة الطباعة

النقود واستخدام القوالب الطباعية. لكن تأخرهم وتدهورهم حال دون تطويرها إلى الطباعة على الآلات، وإن الكتب التي نشرت في القديم مرحلة القرن الثالث عشر لم تكن تُطْمَنُّ الباحثين والأكاديميين لأن الناشرين لم يحافظوا على النص ولم يسلكوا في إخراجها المنهج العلمي برغم اقتربهم من ذلك المنهج ببداية القرن الرابع عشر، ولاشك أن معالجة موضوع من هذا القبيل لهو مهم لإزالة الغشاوة وإيضاح بعض الحقائق التي لم يسלט عليها الضوء سابقاً ويمكن أن تعطي صورة أولية ودافعاً قوياً للباحثين للتعلم أكثر في صلب حيثيات هذا الموضوع لإعطاء صورة أعلى دقة ووضوحاً تفيد المهتمين لاحقاً.

مواقف حاسمة في تاريخ موضوع الحساب:

اسمه، طبيعته، ترجمته

أحمد محمد جواد محسن الحكيم

باحث أكاديمي عراقي

مقدمة

تثير المادة التي نتعامل مع الأعداد وخواصها، قضايا ذات اهتمام خاص، لأنّ طبيعة هذه المادة واسمها، الذي يُطلق عليه "الحساب" أو "علم العدد" كانت عرضة للتغيرات، خلال المراحل الزمنية المتعاقبة، نتيجة لتأثر هذه المادة وانتقالها بين ثقافات وحضارات أساسية، كالإغريق والهندوس والعرب والمسلمين والغرب الأوربي، ساهمت مساهمة كبيرة في تكوين اسم هذه المادة ومحتواها. لذلك سنبين في هذه الدراسة أصالة كلمة "الحساب" في اللغة العربية، كما سنوضح الاختلاف والتباين في ترجمة كلمات أوربية، نتعامل مع الأعداد، إلى اللغة العربية. بعد ذلك سنتعرض إلى المراحل التاريخية التي مرّ بها اسم "الحساب" وطبيعته، عند الإغريق القدماء، ثم عند العرب والمسلمين، وفي أوربا الغربية، بخاصة التأثير المتبادل بينها من خلال ترجمة المعارف والعلوم ونقلها وتطويرها. ثم نبين كيف تغير اسم الحساب في المناهج الدراسية المعاصرة، بعد أن كان أحد الأركان الأساسية في التعليم الابتدائي. أخيراً، سنشير إلى بعض الخلط والالتباس في ترجمة مصطلحات أجنبية تخص الأعداد وحساباتها، إلى اللغة العربية.

أولاً: "الحساب" كلمة أصيلة في اللغة العربية

لم يأخذ العرب القدماء كلمة "الحساب"، من لغات الشعوب القائمة آنذاك كالفارسية

والهندوسية والرومية والإغريقية، كما فعلوا مع كلمات أخرى، مثل الهندسة والدرهم والدينار، إنما كانت هذه الكلمة نابعة من صلب اللغة العربية منذ نشأتها. ومن أهم المؤشرات على ذلك، الحاجة القديمة الملحة للمجموعات البشرية في الجزيرة العربية للتعامل مع المتطلبات الضرورية للحياة الاجتماعية، كمعرفة مقدار ما يمتلكه الإنسان وتحديد كميته، ومن ثم إجراء زيادة كمية على أخرى، أو نقصان كمية من أخرى. فضلاً على المقارنة والموازنة بين المقادير. أضف إلى ذلك أن هذه الأعمال تتطلب أيضاً تقديراً ومناقشةً وتدقيقاً ومساءلةً ومكاشفةً وتخميناً وظناً. مجمل هذه المعاملات، ساهمت مساهمةً كبيرة في ابتكار مفاهيم العدّ والعدد والحساب، لوصف هذه العمليات العقلية التي تشارك في تنظيم حياة الإنسان وتراقبه. وفي هذا المقام يذكر ابن منظور في لسان العرب، عن سبب تسمية الحساب، بقوله: وإنما سُمي الحساب في المعاملات حساباً، لأنه يُعلم به ما فيه كفاية ليس فيه زيادة على المقدار ولا نقصان.¹ كان هذا المؤشر الأول على أصالة كلمة الحساب. المؤشر الثاني، هو تشابه كلمة "الحساب" في اللغة العربية وقرابتها مع كلمات أخرى من اللغات السامية القديمة كالسريانية والعبرية والحبشية والأمهرية، كما جاء في المعجم الكبير، الذي ذكر اسم الحساب ومعناه في هذه اللغات: ففي العبرية hasab (حاشف): حَسَبَ، ظَنَ. وفي السريانية hsab (حشف): حَسَبَ. وفي الحبشية hasaba (حَسَبَ): حَسَبَ، فَكَّرَ. وفي الأمهرية asaba (أَسَبَ): حَسَبَ، فَكَّرَ.² المؤشر الثالث، هو حضور لفظ "الحساب" الواسع المبكر في اللغة العربية، بخاصة في شعر العرب والقرآن الكريم. فقصائد العرب القديمة، تضم كثيراً مفهوم الحساب واشتقاقاته المختلفة. فمثلاً، يذكر النابغة الذبياني، قد تكرر ذكره كثيراً، دقة حسابات زرقاء اليمامة بقوله:

¹ ابن منظور، لسان العرب، مج 1، ط 6، بيروت، دار صادر، 1997م، ص 310.

² عبد الصمد علي محروس وإقبال زكي سليمان، المعجم الكبير، ج 5، القاهرة، مجمع اللغة العربية، 2000م، ص 314.

..... مواقف حاسمة في تاريخ موضوع الحساب: اسمه، طبيعته، ترجمته

فَحَسَبُوهُ فَأَلْفَوْهُ كَمَا حَسَبَتْ تِسْعاً وتسعين لم تَقْصُ ولم تَرِدْ¹
كذلك في قول الأعشى:

فَإِذَا تُحَاسِبُهُ النَّدَامَى لَا يُعَدِّينِي حِسَابَهُ

عداه عن الأمر صرفه وشغله. أي إنه لا يبالي أن يحاسبه، فهو سخي يبذل في شربها. حسابها مصدر حاسبه.² أما القرآن الكريم، فهو مليء بلفظ الحساب ومعانيه المتشعبة، كما في قوله تعالى: ((هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب)) يونس/5.

ثانياً: كلمة "الحساب" ترجمة غير مطابقة للألفاظ المناظرة لها

عادةً ما يقوم المؤلفون العرب بترجمة ألفاظ أوربية تخص الأعداد، كالإنكليزية arithmetic، والفرنسية arithmetique، والإيطالية arithmetica، والإسبانية aritmetica، وغيرها إلى "الحساب" أو "علم الحساب"، وهي ترجمة شائعة ومعروفة ومقبولة لدى الجميع تقريباً، في عصرنا الحالي، لكنها ترجمة غير مطابقة لجذور هذه الكلمات، ولا لمعناها الأصلي. من الواضح أن هذه الكلمات، متقاربة شكلاً ولفظاً، بسبب أصولها وجذورها الواحدة، كما تبين ذلك كثير من المراجع والمصادر. على سبيل المثال، يذكر قاموس أكسفورد للكلمات القديمة concise تسلسل تطورها بالفرنسية، مثلاً، كانت arismetique، وهي من اللاتينية المتأخرة arismetica، بعدها من اللاتينية arithmetica، وأخيراً من الإغريقية arithmetike. التي تتألف من مقطعين arithmeo أي العدّ، وهو من arithmos بمعنى العدد. أما المقطع الثاني فهو tekhné الذي يعني فن.³ لذلك تكون الكلمة المركبة بمعنى "فن العدد" أو "علم العدد". وهي

¹ علي الهروط، ديوان النابغة الذبياني، شرح محمد بن ابراهيم الحضرمي، الكرك، جامعة مؤتة، 1992م، ص 10.

² محمد حسين، ديوان الأعشى الكبير، الجماميز، مكتبة الآداب، 1950م، ص 289.

³ E.Mcl, The concise, Oxford Dictionary, 4th Ed., Oxford, 1950, P.61.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

بالحروف الإغريقية $\alpha\rho\iota\theta\mu\delta\iota\kappa\iota\kappa\omicron$ ، وتلفظ بالعربية إرثماطيقى أو إرثماطيقا، والمقطعان هما $\alpha\rho\iota\theta\mu\omicron$ و $\delta\iota\kappa\iota\kappa\omicron$.

كما يؤكد ذلك سمث (smith) في كتابه "تاريخ الرياضيات"، بقوله: إن الكلمة اليونانية $\alpha\rho\iota\theta\mu\delta\iota\kappa\iota\kappa\omicron$ (arithmetike) هي من (arithmos)، العدد، التي دخلت إلى اللاتينية بالكلمة arithmetica.¹ ويذكر ألفريد هوبر في كتابه المترجم إلى العربية باسم "رواد الرياضيات"، الشيء ذاته لكن بوضوح أكثر بقوله: وقد أطلق الرياضيون الإغريق على "علم الأعداد" عندهم الكلمة arithmetike، وذلك لأن كلمة arithmos تعني "عدد"، كما تعني كلمة techne "علم". ويمضي بالقول: وهنا ينبغي ألاّ يخدعنا الاستعمال الحالي لكلمة arithmetic فنظن أن arithmetike (وهي بالإغريقية) لها أية صلة في الأصل بالعمليات التي نجريها الآن ونطلق عليها هذا الاسم،² أي الحساب.

على هذا الأساس فإن ترجمة أي كلمة من تلك الكلمات الأوربية التي ذكرناها، سيكون "علم العدد" أو "نظرية الأعداد" بالمفهوم الإغريقي، وليس "الحساب". الأمر الآخر الذي له أهمية بالغة، هو أن محتوى موضوع "علم العدد" الإغريقي، يختلف عن محتوى جميع الكلمات الدالة على arithmetic، وعن "الحساب" لدينا، في العصر الحديث. هذا الاختلاف سنبينه بالتفصيل فيما بعد.

ثالثاً: المراحل التاريخية التي مرّ بها اسم الحساب

لمعرفة الجذور التاريخية لسبب ترجمة كلمة "arithmetike" وما يناظرها من ألفاظ أوربية، إلى كلمة "الحساب"، وليس إلى "علم العدد"، في العصر الحديث، لا بدّ من البحث عن اسم المادة التي تتعامل مع الأعداد وطبيعتها، عبر حضارات أساسية، كان لها دور مؤثر كبير في تغيير اسم هذه المادة. إذ إن الذي يحكم ذلك هو محتواها من الناحيتين المجردة والعملية. هذه

¹ Smith, D.E., "History of Mathematics", vol. II, New York, Dover, 1958, P.9.

² ألفريد هوبر، رواد الرياضيات، ترجمة لييب جورج، القاهرة، مكتبة النهضة، 1965م، ص 87.

..... مواقف حاسمة في تاريخ موضوع الحساب: اسمه، طبيعته، ترجمته

الحضارات كانت، بالأساس، عند الإغريق القدماء، والهندوس، والعرب والمسلمين، والأوروبيين. وتتميز هذه الحضارات بأنها كانت متداخلة، متبادلة التأثير، من ناحية انتقال المعارف فيما بينها، وهذا الأمر أدى إلى تغيير في اسم الحساب، اعتماداً على وجهة نظر كل حضارة منها. لذلك سنبحث هذه القضايا بشيء من التفصيل.

1. موضوع الأعداد عند الإغريق القدماء

لقد خضع اسم الموضوع الذي يتعامل مع الأعداد وخصائصها عند الإغريق القدماء، إلى اعتقاداتهم الفكرية، القائمة على الفصل بين المعارف النظرية والعملية. يرجع ذلك إلى فلسفتهم التي تعتبر التفكير من مميزات الرجل الحر، وتترفع به عن العمل ببديه أو الاشتغال بما يتصل بالناحية العملية.¹ ويبين رنيه تاتون في كتابه "تاريخ الحساب"، أن هذا الفصل، أساسه عنصريٌّ بقوله: نظر الإغريق إلى المشاكل الحسية نظرة حقد وازدراء، ووجهوا أبحاثهم نحو التأمل المجرد المترفع.² لذلك وضع الإغريق الأسس الثابتة للتمييز بين القضايا العملية وبين الدراسات النظرية. أو حسب تعبيرهم بين الرياضيات "النافعة" والرياضيات "المجانية" أو غير الهادفة لشيء إلا لذاتها وذات العلم.³ على هذا الأساس، ربط الإغريق، العلاقات النظرية بين الأعداد، بالناحية المجردة، وتوسعوا في ذلك. بهذه الطريقة فصلوا القسم النظري، من موضوع الأعداد، عن القسم العملي الحسابي الدارج في الحياة اليومية، إذ أصبح كلٌّ منهما موضوعاً قائماً بذاته، منفصلاً عن الآخر، وأطلقوا اسماً خاصاً على منهما، بحيث يُظهر كل اسم طبيعة المادة التي يحويها. فالنظري هو arithmetica، والعملي هو logistica، كما يبين ذلك جون ماكليش في كتابه "العدد"، فيقول: ميز الإغريق بين نظرية الأعداد، التي دعيت "أرثيمطيقا"

¹ أحمد أبو العباس، علم الحساب، القاهرة، مكتبة النهضة العربية، 1956م، ص 36.

² رنيه تاتون، تاريخ الحساب، ترجمة موريس شربل، بيروت — باريس، منشورات عويدات، 1986م، ص 12.

³ جون ماكليش، العدد، ترجمة خضر الأحمد وموفق دعبول، عالم المعرفة، ع 251، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1999م، ص 168.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

arithmetica، والممارسة التي دعيت "لوجيستكا" logistica¹، أي "فن العمليات". ومن هؤلاء الإغريق الذين قاموا بهذا التمييز، أفلاطون،² وفيثاغورس،³ وجيمينوس الرودي.⁴ فالارثماتيكا تمثل الجانب النظري وموضوعها العدد مطلقاً، الذي ارتبط ارتباطاً وثيقاً بدراسة طبيعة الأعداد المجردة والعلاقات فيما بينها، بخاصة تصنيف الأعداد من فردية وزوجية وناقصة وكاملة وأولية ومتحابة، وكيفية توليد بعضها من بعض، فضلاً على دراسة المربعات السحرية. وردت هذه الموضوعات في كتاب أقليدس "الأصول"، الذي اشتهر بالقضايا الهندسية.⁵ أما "اللوجيستكا"، عند الإغريق القدماء، فتمثل الجانب العملي، وهو فن إجراء العمليات، الذي يتضمن الطرائق الحسابية، كالجمع والطرح وما يحتاجه الباعة في الأسواق وغيرها.⁶⁻⁷ فالعملية الحسابية بالذات كانت تدعى logismos، وكان المحاسب يدعى logistes (وكان الاسم يعطى أيضاً لمراقبي حسابات الدولة بأثينا)، أما الطرائق الحسابية فكانت تدعى logistica (ومنها اشتقت الكلمة الإنكليزية: logistic التي اندثر استعمالها بهذا المعنى في الوقت الحاضر).⁸ لكن استعمالها أي "اللوجيستكا" عاد، في الزمن الحالي، بمعنى آخر هو "فن إجراء اجراء العمليات غير الحسابية"، التي تخص النقل في القضايا الحربية وغيرها، التي كثيراً ما تتناولها وسائل الإعلام والدارسون والباحثون، دون أن ينقلوها إلى العربية.

¹ المصدر السابق، ص 168.

² تاريخ الحساب، مصدر سابق، ص 12، 108.

³ توبياز دانترج، العدد لغة العلم، ترجمة أحمد أبو العباس، القاهرة، مكتبة مصر، 1954م، ص 44.

⁴ جورج سارتون، تاريخ العلم، ج 5، ترجمة إبراهيم بيومي مذكور وآخرون، القاهرة، دار المعارف، 1961م، ص 139.

⁵ أحمد سليم سعيدان، علم الحساب عند العرب، مجلة عالم الفكر، مج 2، ع 1، الكويت، 1971م، ص 161.

⁶ المصدر السابق، ص 161.

⁷ العدد، المصدر السابق، ص 168.

⁸ تاريخ العلم، ج 5، مصدر سابق، ص 141.

2. الحساب عند العرب والمسلمين زمن الترجمة الأولى من الهندوسية

يمكن اعتبار عملية ترجمة المعارف ونقلها إلى اللغة العربية من الهندوسية، التي بلغت ذروتها بداية عصر الدولة العباسية، المرحلة الأولى للترجمة، وهذا الأمر أحدث منعطفاً كبيراً في طبيعة المادة التي تتعامل مع الأعداد من ناحية اسمها ومحتواها. لا بدّ، هنا، من التأكيد أن اسم المادة عند العرب كان "الحساب"، كما ذكرنا، وقد اتخذ الجانب التطبيقي. لكن التعامل مع الأعداد كان يجري دون استعمال أي رموز، وإنما بواسطة الألفاظ. فضلاً على ذلك كان إجراء العمليات الحسابية، يجري عقلياً دون استعمال الورق والقلم. نعود الآن إلى عصر الترجمة الأولى، فقد اتصل العرب بالهندوس وترجموا عن لغتهم السنسكريتية، قبل أن يتصلوا بالإغريق وتُترجموا عنهم.¹ على هذا الأساس اطلع العرب والمسلمون على ما للهندوس من حساب وترقيم ودرسوه بكل عناية، لأن هذا الحساب كان يتضمن طرائق لإجراء عمليات أساسية كالجمع والطرح والضرب والقسمة وغيرها. ثم قاموا بشرح ذلك في كتب ورسائل عديدة. ولتمييز هذا الحساب الذي نقلوه عن الهندوس، عما كان لديهم، أطلقوا عليه "الحساب الهندي"، أي حسب الطريقة الهندية، وهو أول تغيير يحدث لاسم الحساب.² كما أطلق المسلمون على "الحساب الهندي"، أسماءً أخرى مثل "حساب الغبار" أو "حساب التخت والتراب"، لأن الحساب الهندي وصل إلى العالم الإسلامي على هيئته المميزة بلوح خشبي أو نحوه، مغطى بطبقة خفيفة من الغبار.³ تتبين هذه الصفة الهندية للحساب في كثير مما ذكره الكتاب والمؤلفون، العرب والمسلمون في عناوين مؤلفاتهم، وفي تضاعيف نصوصهم. على سبيل المثال يقول أبو بكر الصولي في مؤلفه "أدب الكتاب": وأجمع الحساب من كل جنس وملة، بكل خط ولغة... وتكلموا في أوائل العدد ونهاياتها بكلام كثير، أحسنه ما قال الهند...

¹ أحمد سليم سعيديان، علم الحساب العربي، عمان، جمعية عمال المطابع التعاونية، 1971م، ص 12.

² بطرس البستاني، دائرة المعارف، مج 7، بيروت، دار المعرفة، 1883م، ص 25.

³ دولاند ر. هيل، العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ترجمة أحمد فؤاد باشا، عالم المعرفة، ع 305، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2004م، ص 38.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

وقالوا: الحساب الهندي أخرج لكثير العدد.¹ كذلك جاءت هذه الصفة في عنوان كتاب لمحمد بن موسى الخوارزمي (ت نحو 232 هـ/841م)، في موضوع الحساب، وهو غير كتابه المعروف "الجبر والمقابلة". ومما يؤسف له فقدان النسخة العربية لكتاب الحساب هذا، مع أن الأوربيين، في القرون الوسطى، قد ترجموه إلى اللاتينية، لكن بأسماء مختلفة، وربما أكثر من رسالة واحدة، لكن عنوانه باللغة العربية، كما ذكره جوان فيرنيه في كتاب "تراث الإسلام"، هو: "الجمع والتفريق بحساب الهند".² وبعد كتاب الخوارزمي في الحساب الهندي، توالى مؤلفات عديدة تبين الصفة الهندوسية للحساب. فمثلاً: كتاب "الفصول في الحساب الهندي" لأبي الحسن الإقليديسي، وقد كتبه في دمشق سنة 341هـ (953/952م)، وكتاب "أصول حساب الهند" لكوشيار بن لبان الجيلي (القرن العاشر/الحادي عشر الميلادي)، وكتاب "المقنع في الحساب الهندي" لعلي بن أحمد النسوي (نحو سنة 1030م)، وكتاب "جوامع الحساب بالتخت والتراب" لنصير الدين الطوسي المتوفي سنة 1274م.³ كما ذكر ابن النديم في الفهرست، كتباً في الحساب الهندي لعلماء عرب ومسلمين، منهم، سنان بن الفتح له كتاب التخت في الحساب الهندي، والأنطاكي (ت 376 هـ) له كتاب التخت الكبير في الحساب الهندي.⁴ لكن الصفات الهندوسية والتخت والغبار، لم تستمر طويلاً، لذلك لا نجد في أعمال العلماء المتأخرين، هذه الصفات، كما عند ابن البناء المراكشي (1256-1321م)، وغيث الدين الكاشي (ت 1436م)، وبهاء الدين العاملي (1547-1622م)، لكننا نجد استثناءً لذلك عند أبي الحسن علي القلصادي

¹ محمود شكري الآلوسي، أدب الكتاب للصولي، تعليق محمد بهجة الأثري، بغداد، المكتبة العربية، 1341 هـ، ص 374.

² جوزيف شاخت وكليفورد بوزورث، تراث الإسلام، ج 2، ط 3، ترجمة حسين مؤنس وإحسان صدقي العمدة، عالم المعرفة، ع 234، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1988م، ص 193.

³ أحمد سليم سعيدان، الفصول في الحساب الهندي، لأبي الحسن الإقليديسي، ط 2، حلب، منشورات جامعة حلب، معهد التراث العلمي العربي، 1985م، ص 15.

⁴ ابن النديم، الفهرست، دار المعرفة، بيروت، (د.ت)، ص 392.

(825-891هـ)، الذي له كتاب باسم "كشف الأسرار عن علم الغبار".¹

3. الحساب عند العرب والمسلمين زمن الترجمة الثانية من الإغريقية

تعد حركة نقل المعارف، المتصلة بمجال الأعداد وغيرها، من اليونانية إلى العربية، المرحلة الثانية التي قام بها العرب والمسلمون، بعد الهندوسية، لكنها ليست بعيدة عنها، إذ بلغت ذروتها أيضاً في العصر العباسي. وبهذا تمت ترجمة نصوص ذات أهمية كبيرة في هذا المجال، نهاية القرن التاسع الميلادي، بخاصة، كتب أفليدس، ونيقوماخوس، وديوفانتس، وفيثاغورس. وهنا لم يتأثر اسم "الحساب"، كما حصل عند الترجمة من الهندوسية، إنما دخل فرع جديد، من ناحية اسمه ومضمونه، هو: "الإرثماطقي"، الذي يمثل الجانب النظري للأعداد، كما ذكرنا ذلك سابقاً. إن تأثير دخول هذا الفرع كان من ناحية ترجمته في زماننا الحالي (سنعود لهذا الأمر). وقد اهتم العرب والمسلمون بهذا الجانب اهتماماً واسعاً. لكن الذي يعنينا هنا هو ترجمته إلى اللغة العربية، في العصر العباسي، وما بعده. إذ إن قسماً قليلاً، من المترجمين والمؤلفين نقله نقلاً صحيحاً، إلى "علم العدد"، غير أن هناك الكثير، من استعملوا اللفظ اليوناني، أي "الإرثماطقي". لكن القضية الجيدة أنهم جميعاً لم يترجموه إلى "علم الحساب"، لأن الحساب، كان معروفاً لديهم وهو يضم الجانب العملي، وليس النظري. ومن الذين نقلوا مصطلح "الإرثماطقي" إلى "علم العدد" ثابت بن قرة الحراني (211-288هـ)، عند قيامه بترجمة كتاب "الإرثماطقي" لنيقوماخوس الجراسيني، وقد عني بنشره وتصحيحه ولهم كوتش، ونشره معهد الآداب الشرقية في بيروت.² ومع أن هناك آخرين من المؤلفين، قد استعملوا الترجمة الصحيحة، "علم العدد"، فإن هناك غير واحد استعمل المصطلح اللاتيني بلفظه، وهو "الأرثماطقي"، سواء من معاصري ثابت بن قرة أو الذين أتوا من بعده. وفي هذه

¹ علي عبدالله الدفاع، المدخل إلى تاريخ الرياضيات عند العرب والمسلمين، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1981م، ص 175، 193، 218.

² ولهم كوتشي اليسوعي، كتاب المدخل إلى علم العدد لنيقوماخوس، ترجمة ثابت بن قرة، بيروت، معهد الآداب الشرقية، المطبعة الكاثوليكية، 1959م، ص 11، 60-59.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

الناحية نجد مفارقات واختلافات، عند قسم من المؤلفين، عند الحديث عن اسم هذا الكتاب وترجمته. فإبن النديم في الفهرست يذكر كتاب ثابت بن قرة، بشكل صحيح، فيقول: له من الكتب: رسالة في الأعداد،¹ إلا أنه حين يذكر نيقوماخس، يكتب اسم كتابه باللفظ اليوناني، فيقول: وله من الكتب: كتاب الارثماطيسي،² وهو ما فعله البغدادي في هدية العارفين، حين يتكلم عن ثابت بن قرة، فيقول: له كتاب جوامع كتاب نيقوماخس في الإرثماطيسي.³ لكن القفطي في أخبار العلماء، لم يذكر اسم الكتاب باللغة العربية، إنما اكتفى بلفظه اليوناني، فيقول عن ثابت بن قرة: وهو ترجم كتاب الإرثماطيسي.⁴ كذلك نجد أن ابن النديم عندما يذكر أبا يوسف يعقوب الكندي (185-252 هـ)، يبين كتابه بلفظه اليوناني، فيقول: وكتبه في علوم مختلفة مثل المنطق والهندسة والحساب والإرثماطيسي... ومن كتبه في الحسابيات رسالته في المدخل إلى الإرثماطيسي،⁵ والشيء نفسه فعله القفطي في أخبار العلماء.⁶ أما عن أبي الوفاء البوزجاني (328-388 هـ)، فيقول ابن النديم في الفهرست إن من كتبه: "المدخل إلى الإرثماطيسي"، و"فيما ينبغي أن يحفظ قبل كتاب إرثماطيسي".⁷ الشيء الغريب في موضوع الترجمة، أن هناك من المتأخرين من يستعمل اللفظ اللاتيني، على سبيل المثال، أن ابن خلدون (ت 1407م)، في مقدمته يذكر في تصنيفه للعلوم العقلية "الإرثماطيسي" عوضاً عن "علم العدد"، فيقول: ... فهذه أصول العلوم الفلسفية، وهي سبعة: المنطق وهو المقدم منها، وبعده التعاليم، فالإرثماطيسي أولاً، ثم الهندسة، ثم الهيئة، ثم الموسيقى، ثم الطبيعيات، ثم الإلهيات.⁸

¹ الفهرست، مصدر سابق، ص 380.

² الفهرست، مصدر سابق، ص 377.

³ اسماعيل البغدادي، هدية العارفين، مج 1، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1951م، ص 246.

⁴ إبراهيم شمس الدين، أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي، بيروت، دار الكتب العلمية، 2005م، ص 93.

⁵ أخبار العلماء، مصدر سابق، ص 273.

⁶ الفهرست، مصدر سابق، ص 394.

⁷ يوحنا قمير، ابن خلدون، ط 2، بيروت، دار المشرق، 1983م، ص 94.

⁸ تاريخ الحساب، مصدر سابق، ص 17.

4. الحساب في أوروبا الغربية

خضع موضوع الأعداد والحسابات، في أوروبا الغربية، لتغيرات في اسمه ومضمونه خلال مراحل تاريخية متعاقبة هي: حقبة المؤثرات الإغريقية الضئيلة، ثم عند وصول علوم العرب والمسلمين إليهم، وأخيراً حقبة عصر النهضة الأوروبية.

أ. **حقبة المؤثرات الإغريقية الضئيلة:** تمتد هذه الحقبة، في أوروبا الغربية، منذ الغزو الروماني لليونان وتكوين الإمبراطورية الرومانية، ثم سقوطها عام 476م، إلى حين وصول علوم العرب والمسلمين إليهم، التي حدثت تقريباً، في نهاية القرن العاشر والحادي عشر الميلاديين. ومع كل هذا التداخل بين الغرب الأوربي واليونان، تأثرت أوروبا الغربية، تأثراً محدوداً بمكونات حضارة الإغريق، بما يخص موضوع الأعداد، إذ تركزت في مجال القياس وأنواع التفكير العملي التي يحتاج إليها.¹ يصف المؤرخون هذه الحقبة، بأنها كانت قاحلة من النشاط العلمي الحقيقي، باستثناء بعض الدروس والدراسات البدائية التي كان يجريها الرهبان في بعض مدارس الأديرة،² الذين قام قسم منهم بالتأليف والترجمة المحدودة المختصرة اعتماداً على معارف الإغريق، إذ ساهموا في إدخال بعض الكلمات الإغريقية في موضوع الأعداد والحسابات. ومن الرهبان الذين برزوا، في القرنين الخامس والسادس الميلاديين، الروماني الذي عاش من 475م (أو 480م) إلى 524م، وقد كان لفظ اسمه متبايناً في اللغات الأوروبية. ففي الإنكليزية يُدعى Boethius، وفي الفرنسية يُكتب Boece. لذلك اختلف العرب أيضاً، في عصرنا الحالي، حين نقلوا هذا الاسم إلى العربية، فهو بوثيوس عن الإنكليزية، وبويس عن الفرنسية. ومن الرهبان الآخرين، نذكر كاسيودوروس Cassiodorus (نحو 470-564م)، وإيزيدوروس Isidoros (نحو 570-636م). ومن الكلمات الأساسية التي أدخلها هؤلاء الرهبان، إلى اللغة اللاتينية، كلمة "arithmetic"، لكن بصورة

¹ جميل الملائكة، حالة أوروبا العلمية قبل انتقال علوم العرب الرياضية والفيزيائية إليها، مجلة المجمع العلمي

العراقي، مج 16، بغداد، 1968م، ص 38.

² تاريخ الحساب، مصدر سابق، ص 17.

محدودة جداً، في الجانب النظري للأعداد فقط، لذلك لم تكن شائعة في الحياة العملية. سبب ذلك يعود في معظمه، إلى اعتماد هؤلاء الرهبان على الكتب اليونانية النظرية، ثم قلدوهم بذلك. من الكتب الهامة التي اعتنوا بها وتحتوي مصطلح arithmetic اليوناني كتاب "Introductionis Arithmeticae" للعالم اليوناني نيكوماخوس Nicomachus¹⁻² ومن القضايا الأخرى التي ساعدت على إدخال لفظ arithmetic تبني التقسيم الرباعي الإغريقي لعلوم التعاليم (الرياضيات)، يسمى "الرباعية" Quadrivium، ويضم أربعة فروع: علم العدد arithmetic، الهندسة، الفلك، الموسيقى³⁻⁴ لكن استعمال مصطلح arithmetic لم يكن يحظى بتأييد تام ولم يكن شاملاً، في أوربا، القرون الميلادية الوسطى، ربما أنه لم يكن ذا أصول لاتينية، كما يبين ذلك سمث في كتابه "تاريخ الرياضيات"، إذ يذكر مثلاً على ذلك، ما ورد في مخطوطة منسوبة للفرنسي جيربرت Gerbert، نحو (950-1003م)، إذ لم يكتب كلمة arithmetic كما ينطقها الإغريق، وإنما نقلها حرفياً إلى اللغة اللاتينية بمقطعيها numerorum seientia أي "علم الأعداد". ثم يورد سمث مثلاً، على هذا الابتعاد عن استعمال اللفظ اليوناني، من الحاضر، كما هو الحاصل عند الألمان في عصرنا الحالي، إذ إنهم ما زالوا يحتفظون بكلمة Arithmetik للجزء النظري فحسب من هذا العلم، لكنهم يستعملون كلمة Rechnug (الحسابات) عوضاً عن الكلمة الإغريقية اللوجستيك⁵. أما كلمة "اللوجستيك" اليونانية، فلم تدخل أوربا اللاتينية، بمعنى "فن الحسابات"، فقد طغت عليها كلمة آلة "المعداد" abacus، لأن الحسابات كانت تُجرى بوجه عام بواسطة هذه الآلة في

¹ حالة أوربا العلمية، مصدر سابق، ص 35.

² المصدر السابق، ص 40.

³ فوريس وديكترهوز، تاريخ العلم والتكنولوجيا، ج 1، ط 2، ترجمة أسامة الخولي، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، 1992م، ص 102.

⁴ تاريخ الرياضيات، سمث، مصدر سابق، ص 7.

⁵ المصدر السابق.

..... مواقف حاسمة في تاريخ موضوع الحساب: اسمه، طبيعته، ترجمته

بدايات القرون الوسطى، وأصبحت هذه الكلمة مرادفاً لـ فن العمليات (اللوجستيك)، وتعني أي نوع من الحسابات البدائية.¹ وعلى هذا الأساس يسمى اسم الحساب العملي في أوروبا القرون الوسطى "حساب المعداد"، ويشار إلى الحاسبين بالمعداد على الطريقة الرومانية بالمعدادين.² فضلاً على لفظ "abacus"، كان هناك كلمات أخرى يستعملها الغرب اللاتيني هي: reckon, number, compute, count, calculate. ومما ينبغي ذكره أنه لم يكن ثمة اتفاق، بين المصادر الغربية، عن أصول الكلمتين calculate, abacus. فقد يكون أصلهما يونانياً،³ أو لاتينياً،⁴ كما أن كلمة abacus قد تعود إلى الساميين.⁵

ب. حقبة المؤثرات العربية الإسلامية. بدأت تدخل المؤثرات العربية الإسلامية، إلى أوروبا اللاتينية، في مجال الرياضيات، في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين عن طريق إسبانيا وصقلية،⁶ نتيجة تشكيل مراكز للترجمة من العربية إلى اللاتينية،⁷ فكان الحدث الأهم في هذه الترجمات، الذي أعطى اسماً جديداً للحساب في أوروبا الغربية، ترجمة كتاب محمد بن موسى الخوارزمي في الحساب، إلى اللاتينية، ثم المؤلفات التي قامت على أساسه. وعلى ذلك، أصبحت أوروبا اللاتينية تطلق على الحساب، اسماً جديداً مشتقاً من لفظ كلمة "الخوارزمي"، ليناسب اللهجات المتنوعة فيها، مثل: algoritmi, algorism, alchorismi, augrism. وفي هذا المقام يذكر سمث في كتابه تاريخ الرياضيات أحد هذه الأسماء بقوله: انطلاقاً من حقيقة كون حساب الخوارزمي، قد تمت ترجمته إلى اللاتينية على هيئة Liber Algorismi (كتاب الخوارزمي)... أصبح يدعى algorism لتمييزه

¹ حالة أوروبا، مصدر سابق، ص 57.

² رواد الرياضيات، مصدر سابق، ص 23.

³ The concise, P. 166, 1

⁴ العدد لغة العلم، مصدر سابق، ص 28.

⁵ ول ديورانت، قصة الحضارة، ج 17، ترجمة محمد بدران، بيروت، دار الجيل، 1953م، ص 169.

⁶ تاريخ الحساب، مصدر سابق، ص 24.

⁷ تاريخ الرياضيات، مصدر سابق، ص 9.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

عن العمل النظري للأعداد الذي ما زال يدعى arithmetic¹ كما أصبح يُشار إلى الحاسبين بهذا الحساب بالخوارزميين algorists². كل هذه الأسماء جاءت أيضاً لتمييز هذا الحساب عن الحساب بالمعداد الذي ذكرناه. أما السبب الرئيسي الذي دعا الأوربيين يطلقون اسم "الخوارزمي" باللغة اللاتينية على حسابهم العملي، فهو أن محتوى هذا الحساب كان يتضمن مادة وطريقة جديدة في الأرقام وإجراء العمليات الحسابية، لأنها تقوم بموجب النظام العشري الموضعي ذي المراتب لكتابة الأعداد جميعها عن طريق رموز عشرة، من الصفر إلى التسعة، وهذا الأمر جعل من العمليات الحسابية بسيطة، يمكن معها الاستغناء عن الأدوات المساعدة مثل المعداد والعمل مباشرة بالأعداد ذاتها.³ إذن في هذه الحقبة أصبح لدى أوروبا الغربية اسمان للحساب العملي، أحدهما "الحساب بالمعداد" الذي يجري حسب الترقيم الروماني، والآخر الحساب الخوارزمي، اعتماداً على الأرقام الجديدة التي نقلها العرب والمسلمون عن الهندوس. لكن الأوربيين لم يستطيعوا إدراك حسنات هذا الترقيم بسرعة، لذلك بقي الصراع بين الطريقتين مدةً زمنية طويلة إلى أن انتشر الترقيم الموضعي في كل أوروبا، وفي مطلع القرن الخامس عشر (الميلادي) كان استعماله شاملاً تقريباً.⁴ لذلك بقي اسم "الخوارزمي" للدلالة على "الحساب" والترقيم الجديد خلال القرون الوسطى بكمالها،⁵ وبعد قرن تقريباً تم نسيان الحساب بالمعداد.

ج. الحساب في أوروبا عند عصر النهضة. بعد نهاية القرون الوسطى، في أوروبا الغربية، واعتباراً من القرن السادس عشر الميلادي، حدثت تغيرات كبرى في أسماء موضوع "الأعداد": arithmetic, logistic, algorism abacus, arithmetic. فكلما حدث تحول كبير في

¹ حالة أوروبا العلمية، مصدر سابق، ص 57.

² العدد، مصدر سابق، ص 168.

³ تاريخ الحساب، مصدر سابق، ص 66.

⁴ المصدر السابق، ص 66.

⁵ رواد الرياضيات، مصدر سابق، ص 87.

..... مواقف حاسمة في تاريخ موضوع الحساب: اسمه، طبيعته، ترجمته

محتواها، فبعد أن كان مضمونها الجزء النظري للأعداد، في زمن الإغريق، كذلك توقفها أو أفلوها، في القرون الوسطى في أوروبا الغربية، عادت في عصر النهضة لتدل على الجزء العملي للأعداد، وهو فن الحسابات، أي أخذت محتوى اللوجستيك، وهذا ذهب إلى موضوع آخر، يؤكد ذلك العديد من المؤلفين الغربيين، فمثلاً يقول ألفرد هوبر في كتابه "رواد الرياضيات": وعلى ذلك توقف إطلاق اسم *arithmetica*، كما كان يكتب في العصور الوسطى، على "علم الأعداد" واستبدلت به الكلمة العربية "الجبر". ولم يعد اسم *arithmetic* للظهور حتى القرن الثامن عشر، عندما لم يعد يطلق على النوع الراقي من الرياضيات الذي كان يمثلته، بل على *logistic*... ومنذ القرن الثامن عشر تستعمل كلمة *arithmetic* في المعنى الذي تستعمل فيه الآن.¹

أما سبب هذا التحول الكبير، في معنى هذه الكلمة، فقد جاء نتيجة قضية غريبة، وهي حدوث خطأ في اشتقاقها، وأصبحت تكتب باللاتينية *arismetica*، في القرون الوسطى، كما ذكرت ذلك العديد من المراجع الغربية. حدث هذا الاشتقاق من تصور خاطئ عن أصول كلمة "*arithmetic*"، فقد أدخل بهذه الكلمة حرف *r* آخر، وأصبحت كأنها ذات علاقة بكلمة "*metric*"،² أي "قياس". لذلك ترد هذه الكلمة في القرن الثامن عشر بالصورة: *ars-metrica*، كما لو أنها جاءت من الأصل اللاتيني: من *ars* أي "فن" و"*metrica*" أي قياس، بدلاً من الأصل اليوناني *arithmos-techné*، كما سبق أن رأينا.³ لا بدّ من الإشارة هنا، إلى أن هذا التصور الخاطئ حدث بسبب أن الغرب اللاتيني كله تقريباً قد نسي علوم اليونان وفقد تراثهم ولغتهم.⁴ لكن بعد أن بدأ الغرب، في نهاية القرون الوسطى، عملية ترجمة المخطوطات اليونانية مباشرة، وتبين لهم أن صياغة هذه الكلمة هو *arithmetic* وليس *arsmetrica*، عادوا للكلمة اليونانية، لكن

¹ تاريخ الرياضيات، مصدر سابق، ص 8.

² رواد الرياضيات، مصدر سابق، ص 86.

³ حالة أوروبا العلمية، مصدر سابق، ص 55.

⁴ تاريخ الحساب، مصدر سابق، ص 112.

بمحتوى عملي، وهو يختلف عما كان عند الإغريق. إذن يمكننا القول إن الأوربيين، أخذوا محتوى الحساب العملي من العرب والمسلمين، وركبوا له اسماً يونانياً arithmetic، لا يدل على محتواه. أما المحتوى النظري، الذي يهتم بخواص الأعداد، فقد حول الأوربيون، في العصر الحديث، اسمه إلى اسم آخر هو "نظرية الأعداد" Number Theory، وليس arithmetic، وهو علم مجرد، وضع أسسه الإغريق، كما رأينا، وبحث فيه العرب والمسلمون ثم الأوربيون مثل: فيرما وأيلر وليجاندر وجاوس وأنشتاين، في القرن التاسع عشر.¹

أما الكلمات algorism, abacus, logistic، فكانت جميعها تدل على إجراء العمليات الحسابية، مما أوجد منافسةً وصراعاً بين مُستعمليهما، في أوروبا الغربية القرون الوسطى، من أجل الحصول على أفضل وأسهل نتائج هذه الحسابات. فكلمة logistic قد اندثر استعمالها بمعنى "العمليات الحسابية"، لأن الإغريق قد وضعوا طرقاتاً حسابية معقدة جداً، بسبب نظامهم العددي الذي يعتمد على الأحرف الإغريقية.²⁻³ لكن هذه الكلمة لم تختف نهائياً، وإنما تغيرت دلالاتها وأصبحت، في العصر الحالي، بمعنى "فن العمليات"، للنقل وغيرها كما ذكرنا. على هذا الأساس شاع في الغرب اللاتيني استعمال المعداد abacus الذي يستعمل الأرقام الرومانية، وهي بطبيعة الحال أيسر من الأرقام الإغريقية.⁴ أما بعد أن تعلم الأوربيون، علم الحساب العملي، عن طريق كتاب الخوارزمي في الحساب، فأصبح اسمه algorism يدل على الحساب لديهم. ونظراً لسهولة حساب الخوارزمي، مقارنة بالحساب الروماني، فقد انتصر أصحاب الخوارزمية algorists على أصحاب المعداد abacists في بداية القرن السادس عشر الميلادي، وبعد قرن تم نسيان abacists. أما كلمة algorism فلم تستمر طويلاً، لتدل على الحساب، عند

¹ المصدر السابق، ص 93.

² رواد الرياضيات، مصدر سابق، ص 18.

³ تاريخ الرياضيات، ص 7.

⁴ حالة أوروبا العلمية، ص 38.

..... مواقف حاسمة في تاريخ موضوع الحساب: اسمه، طبيعته، ترجمته

الأوربيين في القرون الوسطى، إذ إنها بقيت عندهم إلى حلول القرن الثامن عشر الميلادي¹ عندما عادوا إلى الاسم اليوناني arithmetic، لكن بمحتوى عملي وليس نظري. غير أن كلمة algorism التي تشير إلى اسم الخوارزمي بطريقة واضحة، لم تختف نهائياً، وإنما ظهرت في العصر الحديث بشكل معدّل هو algorithm بعد أن غيروا في حروف الكلمة الأولى لتصبح كأنها يونانية، فضلاً على أن معناها تغيّر، ليدل على خطة محددة لحل مسألة معينة.

5. الحساب عند العرب زمن الترجمة الثالثة من أوروبا الغربية

عندما بدأ العرب الاتصال بالحضارة الغربية، في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، تقريباً، نشطت حركة الترجمة إلى اللغة العربية، فضلاً على القيام بحركة التأليف والنشر. الذي يعنينا هنا هو طبيعة ترجمة المؤلفات التي تخص موضوع الأعداد والحسابات في المناهج التعليمية، إذ اتفق معظم الكتاب على ترجمة كلمة arithmetic إلى "الحساب". أما محتوى مادة هذا الموضوع فقد كانت، في معظمها، تقليداً مباشراً، لما جاء في الكتب الغربية، وهو الحساب العملي. يتضح من ذلك، على سبيل المثال، ما كانت عليه الترجمة زمن "محمد علي" في مصر، إذ كانت الدولة عندما تقرر فتح مدرسة تُنقل مناهجها عن مدرسة مماثلة في الخارج، وتُحضر مع المناهج مجموعة من الكتب المستعملة هناك، وتُكلف المترجمين ترجمتها لتكون في أيدي الطلاب.² ومقابل هذه التبعية الكاملة هناك من عمل على المزج بين علوم الغرب ومعارف التراث العربي الإسلامي، كما فعل بطرس البستاني في كتابه: "كشف الحجاب عن علم الحساب"، الذي أصدره عام 1887م، كما يقول في مقدمته: وقد أخذت فيه مآخذ الأفرنج في وضع العلامات. وأخذت منهم ما لاوجود له في تصانيف العرب مما اخترعه المتأخرون من أرباب هذا الفن.³

¹ Ball , W. W. Rose, A short Account of the History of Mathematics, New York, Dover, 1960, P.131

² منية المحروس وآخرون، الفلسفة والعلوم الإنسانية، الثالث الثانوي الأدبي، دمشق، وزارة التربية، 2005-2004م، ص 103.

³ بطرس البستاني، كشف الحساب في علم الحساب، بيروت، مطبعة الأمريكان، 1887م، المقدمة.

رابعاً: التباس وخلط في ترجمة مصطلحات موضوع الأعداد

يقع كثير من المترجمين والمؤلفين العرب المعاصرين، في التباس وخلط عند ترجمة مصطلحي: arithmetic وlogistic، لأن المصطلح الأول له معنيان اثنان في زمانين مختلفين. ففي زمن الأغريق القدماء كان معنى arithmetic هو "علم العدد" النظري، أما في العصر الحديث فمعناه "علم الحساب" العملي، لذلك يترجمون هذه الكلمة إلى "الحساب"، بوجه عام دون النظر إلى عامل الزمن. أما المصطلح الثاني logistic فالالتباس يحدث مع كلمة logic، لذلك يترجمونها إلى "علم المنطق"، بسبب تشابه حروفهما ولفظهما. والحقيقة أن الأمثلة عديدة على هذا الخلط لكننا سنذكر بعضاً منها.

ففي ترجمة كتاب "العدد" لجون ماكليش نجد النص التالي: "ويعتقد اليونانيون المتأخرون أن فيثاغورس ابتكر علم الحساب. من المؤكد أنه الشخص الذي أعطى لعلم الحساب اليوناني الأهمية التي يستحقها. فنظريته العددية وتمييزه بين اللوجستية وعلم الحساب سادا طوال قرون لاحقة".¹ الخلط هنا واضح جداً لأن الحديث عن علوم الإغريق، فالصحيح أن يكون "علم العدد" عوضاً عن "علم الحساب". أضف إلى ذلك أنه لم تترجم كلمة "اللوجستية"، التي ينبغي أن يكون معناها "فن العمليات الحسابية". والالتباس يكون أشد وضوحاً عند ذكر "الرابعة الفيثاغورية" لعلوم التعاليم التي وضعها الإغريق القدامى وتحوي أربعة موضوعات من ضمنها "علم العدد" وليس "الحساب". ورد هذا الخلط كثيراً في الترجمات العربية، كما في المثال الآتي الذي يتحدث عن قسمة الفنون الحرة: إلى ثلاثية (المنطق والنحو وعلم البيان) وإلى رباعية (الحساب، الجيومتريا، الموسيقى، علم الفلك).² المفروض هنا "علم العدد" بدلاً من "علم الحساب". ويتغير المعنى كلياً عند ترجمة كلمة arithmetic إلى "الحساب" في القول الشهير

¹ العدد، مصدر سابق، ص 116، 108.

² رنيه تاتون، تاريخ العلوم العام (العلم القديم والوسيط)، ترجمة علي مقلد، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1988م، ص 583.

..... مواقف حاسمة في تاريخ موضوع الحساب: اسمه، طبيعته، ترجمته

المنسوب إلى عالم الرياضيات جاوس (1777-1855م)، وهو: "الرياضيات ملكة العلوم وأن الحساب ملكة الرياضيات".¹ المقصود هنا "علم الأعداد" وليس "الحساب"، لأن كلمة arithmetic كانت تعني في عصره، علم الأعداد، وليس مدلولها الحالي مجرد مسائل مبسطة في العدد.² أما الخلط الآخر فيتضح عند ترجمة "اللوجستية" بكلمة "المنطق"، كما في النصين الآتين: "وأما ما نفهمه ونقصده نحن اليوم "فن الحساب" فقد اتبعوه (أي الإغريق) هم بعلم المنطق".³ "إن علم المنطق العدّادي (نسبة للعداد) يتناول العمليات الست الأساسية...".⁴ واضح أن المقصود هنا هو "فن العمليات الحسابية"، وليس علم المنطق.

خاتمة

بعد هذا الإسهاب الواسع في موضوع "الحساب" والتغيرات التي حدثت في اسمه ومحتواه، فقد اندثر اسمه في المناهج الدراسية المعاصرة، خاصة في المراحل التعليمية الابتدائية، لكنه دخل في حالات معينة، في تركيب قسم من أسماء موضوعات الرياضيات، مثلاً : حساب التفاضل والتكامل أو حساب المثلثات. حتى محاولات إبقاء اسم الحساب في المراحل العالية، لم تجرِ نفعاً، فقد كان يُطلق على موضوع "نظرية الأعداد" اسم "الحساب العالي"، لكن اختفى هذا الاسم أيضاً، في بداية القرن العشرين الميلادي. أما محتوى الحساب، فنجد، قد اندمج في موضوعات أخرى كالجبر والهندسة المستوية، وأخذت اسماً واحداً هو "الرياضيات"، منذ عام 1970م تقريباً. أضف إلى ذلك قد طغت الحلول الجبرية، في كثير من الحالات، على الحلول

¹ فريدريك هـ. بل، طرق تدريس الرياضيات، ج 2، ترجمة وليم عبيد وآخرون، نيقوسيا، الدار العربية للنشر والتوزيع، 1986م، ص 56.

² رواد الرياضيات، مصدر سابق، ص 418.

³ زيفريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، ط 9، بيروت، دار الآفاق الجديدة، 2000م، ص 158.

⁴ تاريخ الحساب، مصدر سابق، ص 96.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

الحسابية. ولا بدّ، مرة أخرى، عند ترجمة مصطلح "arithmetic"، من تأكيد ضرورة مراعاة المرحلة الزمنية التي جاء فيها معنى هذا المصطلح. وأخيراً نأمل من المَعْنِين في التعريب أن يقوموا بترجمة كتاب الخوارزمي من نسخته اللاتينية إلى العربية، بسبب ضياع النسخة الأصلية العربية.

بحوث في التعليم العالي

بعض معوقات جودة التعليم العالي في البيئة العربية

أ. د. محمود باكير

جامعة اليرموك الخاصة

سورية

مقدمة

تُعد عملية ضمان الجودة Quality Assurance في قطاع التعليم العالي، على النحو المطروح الآن، جديدة على هذا القطاع، مع أنّ الإنسان اهتم منذ القدم بموضوع جودة أي عمل يقوم به. وثمة عدة أسباب دعت مؤسسات التعليم العالي في العالم إلى الاهتمام بهذا الموضوع، منها، على سبيل الذكر لا الحصر، تنوع أهداف مؤسسات التعليم العالي، وظهور أنماط جديدة لهذه المؤسسات، وتنوع مستوى الشهادات والمؤهلات، والاعتراف المتبادل، وغير ذلك. لهذا أضحت الجودة التعليمية واحدة من أهم تحديات التعليم عموماً، والتعليم العالي خصوصاً، في عالم متنافس في ظل العولمة. لذلك أصبح هناك وكالات لضمان الجودة التعليمية في عديد من الدول.

بدأ مفهوم "الجودة" في مطلع الستينيات من القرن العشرين في الشركات الصناعية، والتجارية، قبل القطاعات الأخرى. وهو مصطلح اقتصادي ظهر، أساساً، بناءً على التنافس بين الدول والشركات. وكان الهدف الرئيس عندها هو الحصول على رضا الزبون، والمنتج الأفضل. وهذا أفضى إلى ولادة مفهوم "ضبط الجودة الشاملة" Total quality control (TQC) في حينها. ويُعد الرياضي إدوارد ديمينج عراب الجودة الشاملة. إنّ إدارة الجودة الشاملة Total quality management (TQM)، فلسفة إدارية تنظر إلى المؤسسة على نحو شامل لإحداث تغييرات إيجابية فيها.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

وُبُعِيدَ ذلك بدأت عملية ضمان الجودة في التعليم العالي تشق طريقها الخاص بها بعد تحريض من إدارة الجودة الشاملة، وضبط الجودة الشاملة، وغيرها. وهذا فرضته طبيعة منظومة التعليم، وخصوصيتها. لذلك كان لابداً من تطوير مفاهيم خاصة بها، فضلاً على تطوير فلسفة تعبّر عن طبيعة هذه المنظومة.

وتجدر الإشارة إلى أن عملية ضمان الجودة التعليمية لا تهدف إلى مقارنة كل مؤسسات التعليم العالي بالنسبة إلى "مقياس ذهبي"، أو بنسبة بعضها إلى بعض. لأن قطاع التعليم العالي متنوع جداً في كل النواحي. فكل مؤسسة جامعية لها رسالة، ورؤية، وأهداف خاصة بها، وكل منها يركّز على جانب معين من جوانب التعليم العالي.

هذا وثمة بعض الصعوبات العامة التي تعترض هذه العملية في أي منظومة تعليم عالٍ، مثل: ضعف ثقافة الجودة، وضعف البيانات والمعلومات وطرق التقويم، ومقاومة التغيير عند العاملين في المؤسسة، وصعوبة قياس المعرفة، والخوف من التقويم والأمن الوظيفي عند العاملين. بيد أننا سنتعرض في هذه الدراسة لبعض المعوقات التي تعترض عملية ضمان الجودة في التعليم العالي في البيئة العربية. وذلك لأنّ التوقف عند المعوقات، أو الصعوبات، أمر ضروري قبل البدء بأي مشروع، حتى لا نُفاجأ بتلك المعوقات أثناء مسيرتنا، ويكون ذلك سبباً في تثبيط العزيمة. ولاسيما أنّ الجودة التعليمية عملية حيّة، بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، وهي في هذا تختلف في طبيعتها عن الجودة في المجالات الأخرى. هذا وقبل التطرق إلى تلك المعوقات لابد من الوقوف قليلاً عند طبيعة عملية ضمان الجودة نفسها في القطاع التعليمي.

إنّ عملية ضمان الجودة التعليمية ليست مجرد قائمة من النصائح، والأوامر، والتعليمات، تصدرها إدارة المؤسسة التعليمية، بل هي في جوهرها منظومة منطقية، وفكرية، متكاملة، وتتسم بالاتساق. وتبدأ عادةً، برسالة mission المؤسسة، وأحياناً تبدأ برؤيتها vision. ويجب أن تكون " عقيدة " من نوع خاص لمجموع العاملين في هذه المؤسسة. فكل ما يتعلق بمسيرة المؤسسة من تصورات، ومفاهيم، وسلوك، وقرارات، وأنظمة، وغير ذلك، يجب أن ينبثق من

..... بعض معوقات ضمان جودة التعليم العالي في البيئة العربية

هذه " العقيدة ". أو بمعنى آخر، فإنّ هذه العملية بناء منطقي ينطوي على عقيدة نظرية هدفها بناء الإنسان، وجملة من المبادئ الأساسية، يُستمد منها الحكم على مختلف مخرجات المؤسسة. ويجب أن نكون محكومين في كل ذلك بقول الرياضي البريطاني (G. H. Hardy - 1947 - 1877): "إنّ الأفكار مثل الألوان، أو الكلمات، يجب أن يناسب بعضها بعضاً بطريقة منسجمة". لذلك فإنّ "الاتساق" ضروري جداً، ولا يمكن مجانبته في هذا البناء المنطقي. ونعني "بالاتساق" عدم ظهور أفكار، أو تصورات، أو تعليمات، متناقضة. والمعوقات التي يمكن أن تظهر في البيئة العربية هي التي قد تعيق عملية "الاتساق" تلك. ويبدو أنّ سبب كون عملية ضمان الجودة ذاتَ بناء منطقي هو أنّ الجودة، أصلاً، ولدت على يد اثنين من الإحصائيين: إدوارد ديمينج (المشار له آنفاً)، ووالتر شيوارت، فضلاً على المهندس جوزيف يوران. إذ هاجر ديمينج بعد الحرب العالمية الثانية إلى اليابان، وهناك انطلق بمشروعه في الجودة في الصناعة والتجارة. وفي السبعينيات انتقلت الجودة الصناعية إلى الولايات المتحدة على يد ديمينج وتلاميذه.

هذا ولكل مجتمع معوقاته في عملية ضمان الجودة التعليمية نابعة من طبيعة ذلك المجتمع، ومن ظروفه، وتركيبته، وطبيعة مؤسساته التعليمية، وعلى نحو خاص، من الفلسفة التعليمية لتلك المؤسسات. والمجتمع العربي، له خصوصيته، كما هو الحال في المجتمعات الأخرى.

أهم المعوقات

إن من أبرز المعوقات التي يمكن أن تواجه عملية ضمان الجودة في البيئة العربية هو أنّه ليس هناك ما يمكن تسميته، "اتساق داخلي" في أي منظومة من منظومات التعليم العالي العربية، سواء على مستوى "القيم الجوهرية" core values، أو الرسالة، أو الأهداف، أو على مستوى الفلسفة التعليمية، أو حتى على مستوى ذهنية العاملين فيها. إذ يتعايش في مؤسسات التعليم العالي العربية خريجو الولايات المتحدة، مع خريجي بريطانيا، وفرنسا، وروسيا، والهند، وغير ذلك من الدول. وكثيراً من الأحيان لا نجد غلبةً لفلسفة تعليمية على أخرى في تلك المؤسسات. بل كثيراً ما يطفو على السطح نوع من التباين، والاختلافات، إن لم نقل

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

خلافات. وفي أحيان أخرى يأخذ هذا التباين شكل الصراع، إن سُمح له بذلك. وهذا التباين يُعد أحد المعوقات الأساسية، لأنّ ثمة اختلافاً في أنظمة، وأولويات تقييم ضمان الجودة على المستوى العالمي، مع أنّ ضمان الجودة (وفق الإعلان الدولي للتعليم العالي الصادر عن الأمم المتحدة) مفهومٌ متعدد الأبعاد يشمل جميع وظائف التعليم العالي، وفعالياته: التدريس، والبرامج الأكاديمية، والبحث العلمي، والعاملين الإداريين، والطلاب، والمباني والتجهيزات، والخدمات المساعدة للعملية التعليمية. بيد أنّه في الأعماق تختلف تجارب الدول المتقدمة في مقاربتها لهذا المفهوم، وفي التركيز على أحد الأبعاد دون غيره. فبريطانيا، مثلاً، وتحديدًا وكالة ضمان الجودة في التعليم العالي The quality assurance agency for higher education (q.a.a) تعطي الأولوية في نظام تقييم ضمان الجودة لجودة العمليات التدريسية، والبحث العلمي، وإنتاج المعرفة. فهي تركز على ما يسمى اصطلاحاً "المقارنات المرجعية" Subject benchmark statement، وعلى آليات وضع المناهج الدراسية، وعلى الممتحنين الخارجيين external examiners. أما الولايات المتحدة فتعطي الأولوية لتقييم الأداء، وأهلية المؤسسة التعليمية، وقدرتها على الاستمرار في تحقيق أهدافها. وربما يكون السبب الكامن في ذلك هو ما يضره - عادة - المهاجر من عقدة الوجود والقدرة على الاستمرار في بلد المهجر. في حين أنّ اليابان بنت تجربتها على المؤشرات الكمية. وقد يكون سبب ذلك هو أنّ تجربتها في الجودة ولدت على يد عدد من الرياضيين، وخاصة أنهم كانوا إحصائيين، لذلك نزعة التكمية لديها واضحة للعيان. وهذا يؤكد ما ينسبه بعضهم إلى أرسطو من أن "هوية أي شيء تعتمد على طريقة نشوئه".

وهذا يفضي إلى أنّ خياراتنا في الدول العربية لم تُحسم بعد بسبب هذا التباين، فضلاً على عدم نضج تجاربنا في هذا المجال. لأنّه من المعروف أنّ قطاع التعليم العالي في الدول العربية، بمعناه المعاصر، يُعد حديثاً نسبياً قياساً بغيرنا من الدول الغربية. وفي التجارب الناضجة تكون، عادة، الخيارات واضحة، ومبلورة.

مداخل ضمان الجودة

من المفيد الإشارة إلى أنّ هناك مدخلين أساسيين لضمان الجودة التعليمية:

1. المدخل الأول: الجودة الجوهرية في التعليم العالي - The intrinsic qualities of higher

education: يكون التركيز فيه على الجودة الأكاديمية، وذلك بالبحث عن الحقيقة، والوصول إلى المعرفة. لذلك تكون الأولوية في هذا المدخل لتعليم الطلاب وإنتاج المعرفة.

2. المدخل الثاني: الجودة العملية في التعليم العالي The extrinsic qualities of higher

education¹: يكون التركيز فيه على خدمة المجتمع المحلي، وسدّ احتياجاته المتغيرة.²

واختبار أحد هذين السبيلين يؤثر في طبيعة البرامج الدراسية في المؤسسة التعليمية، وحتى في طبيعة المؤسسة ذاتها، وفي طريقة التعليم والتعلم، ومحتوى المادة التعليمية.³

فضلاً على ذلك، السؤال المحوري في عملية ضمان الجودة ليس: ماذا يجب أن نفعل؟، بل كيف يجب أن نفعل؟ وهذا، كما هو واضح، له علاقة بالكيفية، أي بالأسلوب المتبع لتحقيق ما هو مطلوب. أو بمعنى آخر، يرتبط ذلك ارتباطاً عضوياً بالإنسان المعنيّ به القيام بتلك العملية، وأيضاً بالإنسان الذي هو هدف لهذه العملية.

ومن المعروف أنّ التركيز والاهتمام، في المؤسسات التعليمية في العالم، أصبح على عملية التعلم، وليس على عملية التعليم. لذلك أضحت الحديث في أدبيات الجودة التعليمية عن "مخرجات التعلم" Learning outcomes، وليس مخرجات التعليم Teaching outcomes. ومن ثمّ

¹ الجودة الشاملة في التعليم، تحرير: رشدي أحمد طعيمة، دار المسيرة (عمان)، 1426/2006.

² المعنى الحرفي (المعجمي) للعبارة هو الجودة العرضية (غير الجوهرية) في التعليم العالي، بيد أن هذه الترجمة لا تفي بالغرض في اللغة العربية. وارتأينا أن تُترجم إلى "الجودة العملية"، والمهم هو المقصود من العبارة أكثر من الكلمات المستخدمة.

³ وهذا ليس مستغرباً، فحتى في الرياضيات، أكثر العلوم موضوعية، كانت تختلف بعض موضوعات دراستها في أوروبا الغربية عن أوروبا الشرقية (قبل تفكك الاتحاد السوفيتي)، حيث كانت تركز هذه الأخيرة على الجانب التطبيقي (النفعي).

آل الاهتمام إلى الطالب ذاته، محور العملية التعليمية، وليس إلى المدرس. ولهذا عديد من المبررات، من أهمها تطور العلم المتسارع. لذلك أضحي التركيز على التعلّم مدى الحياة Lifelong learning. وهذا أفضى إلى أن يكون دورُ المدرس تمكينَ الطالب من أن يصبح متعلماً فاعلاً، وأن يفهم أنماط تعلمه. لهذا أصبحت إحدى المهارات التي يجب على كل خريج ناجح التحلي بها، هي أن يعرف كيف يتعلم، فضلاً على مهارات عامة Generic skills، ومهارات الاختصاص Subject specific skills. في حين أنّ معظم طلابنا في الدول العربية معتادون الاتكالية، والاستعانة بغيرهم، من غير حاجة فعلية لذلك. ويعزى سبب هذا إلى أصول اجتماعية، وثقافية عميقة.¹ علماً أنّ أحد معايير الاعتماد العالمية لأي برنامج دراسي، في عديد من الدول المتقدمة، هو: هل بنية البرنامج الدراسي المعني تعطي فرصة كافية للطلاب للدراسة المستقلة من غير اعتمادٍ على المدرسين؟

أثر العلم والسياسة في الثقافة العربية (تسييس العلم بدلاً من "علمنة" السياسة)

للوقوف على واحدة من أهم المعوقات في عملية ضمان الجودة التعليمية في البيئة العربية، لا بدّ من معرفة أثر العلم والسياسة في الثقافة العربية. لأنّ الدراسات الحديثة تشير إلى أنّ اللحظات الحاسمة والأساسية في تطور الفكر العربي الإسلامي، تاريخياً، لم يكن يحددها العلم، بل السياسة. يشير المفكر المغربي محمد عابد الجابري إلى أنّ الصراع في الثقافة العربية لم يكن بين "الميتوس" و"اللوغوس" (بين الأسطورة من جهة والعلم والفلسفة من جهة أخرى)، كما كان الشأن في الثقافة اليونانية. ولا كان بين العلم والكنيسة كما كان عليه الأمر في التجربة الأوروبية الحديثة، بل كان الصراع في الفكر العربي بين نظامين معرفيين يؤسس كل منهما إيديولوجيا معينة: "النظام البياني"، و"النظام العرفاني". وعندما دخل "النظام البرهاني" طرفاً

¹ مقدمات لدراسة المجتمع العربي، هشام شرابي، الأهلية للنشر والتوزيع (بيروت) 1977، الصفحة 48.

..... بعض معوقات ضمان جودة التعليم العالي في البيئة العربية

ثالثاً دخل ليقوم بوظيفة في ذلك الصراع، وأصبح منذ اللحظة الأولى موجهاً بذلك الصراع محكوماً به.¹ أما العلم فقد بقي على هامش المنظومات الفكرية، والإيديولوجية، المتصارعة، وبذلك لم تتح له الفرصة ليساهم في تكوين العقل العربي كلاً. هذا وقد صنّف الجابري العلوم، وجميع أنواع المعارف، في الثقافة العربية الإسلامية، إلى ثلاث مجموعات: علوم البيان، من نحو، وفقه، وكلام، وبلاغة، يؤسسها نظام معرفي واحد، يعتمد قياس الغائب على الشاهد، منهاجاً في إنتاج المعرفة. وعلوم العرفان، من تصوف، وتفسير باطني للقرآن، وسحر، وعلم تنجيم... الخ، ويؤسسها نظام معرفي يقوم على "الكشف والوصل"، و"التجاذب والتدافع" منهاجاً. وعلوم البرهان، من منطق، ورياضيات، وطبيعيات (بفروعها المختلفة)، وإلهيات، ويؤسسها نظام معرفي واحد يقوم على الملاحظة التجريبية، والاستنتاج العقلي، منهاجاً. ويشير الجابري إلى أنّ العقل العربي عقل بياني، بمعنى أنّه تكوّن من خلال تشييده لعلوم البيان التي أبداع فيها إبداعاً كبيراً، وأنّ هذه العلوم قد بلغت قمّتها مع بداية تاريخها، وأنّ العقل العربي لم يضيف، وما كان يستطيع أن يضيف جديداً إلى ما أبدعه فيها خلال عصر التدوين. أيّ أنّه بقي سجيناً لإنتاج هذا العصر.² ويعني الجابري بالعقل العربي: العقل الذي تشكل داخل الثقافة العربية، في الوقت الذي هو نفسه عمل على إنتاجها وإعادة إنتاجها.³ ويؤكد ذلك ما تنص عليه فرضية الحتمية اللغوية (Linguistic Determinism) التي قال بها الفيلسوف الألماني ولهايم هبولدت في القرن التاسع عشر الميلادي، التي أعاد طرحها مرة أخرى في النصف الأول من القرن العشرين إدوار سابير: "إنّ الناس تُبَعّ في تفكيرهم، وإحساسهم، ومشاعرهم، ونظرتهم إلى الكون، للعادات التي اكتسبوها من خلال ممارستهم للغة قومهم".⁴ لذلك انشغل الباحثون

¹ تكوين العقل العربي، د. محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت)، ط 2006، الصفحة 345.

² المصدر نفسه، الصفحة 339.

³ المصدر نفسه، الصفحة 5.

⁴ مجلة "عالم الفكر"، الكويت، مج 28، العدد 3- يناير/مارس 2000، الصفحات 9-28.

بتحديد أثر اللغة في تشكيل الفكر، وفي عملية التفكير. ولهذا لا غرابة في قول بعضهم: "اللغة تصنعنا أكثر مما نصنعها". وأثر اللغة العربية كان بارزاً في تكوين العقل العربي بسبب علوم البيان. وما يؤكد ذلك هو أنّ اللغة، أي لغة، تؤدي وظيفة في نمو التفكير الرياضي، وفي طبيعته. فإما أن تتشظ جانباً معيناً في هذا التفكير، أو من الممكن أن تقوم بخلاف ذلك، وتضعف جانباً آخر. فإذا سلّمنا بما نقوله الدراسات اللسانية حول أنّ اللغات السامية تميل إلى التأليف المتجبرن، فإنّ هذا قد يساعدنا على فهم لماذا طلابنا، عموماً، في المدارس في الوطن العربي يجدون الجبر أسهل كثيراً من الهندسة، لكون اللغة العربية إحدى اللغات السامية. يقول الباحث المعروف في تاريخ العلوم عند العرب رشدي راشد: "وفي دراسة حديثة حول الارتداد الدلالي للمفهوم يعرض كيف أنّ اللغات السامية تميل إلى التأليف المختصر والمجرد "المتجبرن" على نقيض الميل "الآري المهندس". وبحسب هؤلاء المؤلفين فإنّ البنية الألسنية هي المسؤولة عن تطوّر "علم البناءات الجبرية".¹

وبعد كل ذلك بقي العقل العربي في منأى عن تأثير العلم العربي الإسلامي، يقول الجابري: "فقد ظل العلم العربي، علم الخوارزمي والبيروني وابن الهيثم وابن النفيس وغيرهم، خارج مسرح الحركة في الثقافة العربية فلم يشارك في تغذية العقل العربي ولا في تجديد قوالبه وفحص قبلياته ومسبقاته".² ويضيف الجابري: "لم تجد آراء ابن الهيثم ولا منهجيته العلمية "مقبولة" في الثقافة العربية، فلم يتردد لها صدى ولا كان لها أي أثر في تكوين العقل العربي، ولذلك فهي لا تجد نفسها، أعني أننا لا نجد لها معنى وتاريخاً إلا داخل ثقافة أخرى هي الثقافة الأوروبية بالذات".³ فالحسن بن الهيثم المتوفى سنة 430 هـ كان أثره في الحضارة الأوروبية، وفي تشكيل فكرها العلمي أكثر بكثير من أثره في تكوين العقل العربي، فلا نجد

¹ تاريخ الرياضيات العربية، رشدي راشد، ترجمة: حسين زين الدين، مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت)

1989، الصفحة 64. هذا ويقصد رشدي راشد بهؤلاء المؤلفين الكاتبين L. Massignor & M. Arnaldz.

² تكوين العقل العربي، الصفحة 347.

³ تكوين العقل العربي، الصفحة 350.

..... بعض معوقات ضمان جودة التعليم العالي في البيئة العربية

لآرائه ومنهجه العلمي، من شك منهجي بناءً، أيّ صدى داخل الثقافة العربية.

مشكلة "التلقين" المزمنة

إنّ واحدة من أهم مشاكل التعليم في البلاد العربية هي طريقة التعليم نفسها، ونعني بها عملية تلقين الطالب، وحشوه بالمعلومات، والاعتماد على الذاكرة دون سواها من خلال الحفظ الاستساخي. وجذور هذه الطريقة ضاربة في أعماق تاريخ التعليم لدينا. لذلك نجد أنّه كان يُطلق على الطالب الذي يحفظ درس شيخه من المرة الأولى "المُعيد"، لأنّه كان باستطاعته أن "يُعيد" دروس الشيخ حرفياً، بعد انتهاء الدرس للطلاب الذين لا يستطيعون حفظه من المرة الأولى. أي إنّ التركيز في عملية التعليم لدينا كان، وما زال، على إعادة تمهيداً لعملية البصم. ولذلك تسمي كثير من الجامعات العربية الطالب الأول الذي يُعيّن في الجامعة بعد تخرجه "معيداً". وهذا يؤكد قول عالم الأنثروبولوجيا (علم الإناسة) الفرنسي كلود ليفي شتراوس (1908-2009): "أقصر السبل إلى فهم منطق تفكير شعب معين هو دراسة لغته".

لهذا فإنّ همّ الطالب لدينا منصبٌّ على الحفظ بعيداً عن الفهم والإدراك، أو التساؤل والبحث، فاقداً بذلك أي تفاعل إيجابي يمنحه فسحةً للتفكير، وبهذا يُحرم الدارس من النشوة العقلية المرافقة لعملية الفهم. يقول الدكتور هشام شرابي عن الطفل العربي: "يتعلم الطفل باكراً جداً كيف يستجيب طوعاً للتلقين، فما إنّ يبدأ بالكلام حتى يجري تدريبه على ترديد الأسماء، كأسماء الأهل والأقارب، وينال مكافأة جزيلة على استجاباته الصحيحة، ثم يجد في المدرسة الابتدائية وبعدها، أنّ أسلم طريقة للدراسة وأكثرها إرضاءً للمعلم هي طريقة الصم".¹ لذلك يكثر في مدارسنا استخدام عبارة "التسميع"، وهو الاستظهار الذي يقوم به التلميذ في المدرسة، بعيداً عن أي إدراك لمعنى الموضوعات التي يرددها. كما يقول هشام شرابي: "إنّ حياة العربي تبدأ وتنتهي بالتلقين، أما العنصر المشترك بين التلقين والعقاب فهو أنّ كلاهما يشدد

¹ مقدمات لدراسة المجتمع العربي، الصفحة 41.

على السلطة ويستبعد الفهم والإدراك، أي إنَّ كلاً منهما يدفع إلى الاستسلام ويمنع حدوث التغيير".¹

وواقع الحال في التعليم العالي لا يختلف عنه في مرحلة التعليم ما قبل الجامعي. لذلك: "أصبح كثير من الطلاب الجامعيين العرب يحنون إلى الاعتماد على الذاكرة في دراستهم، ويميلون إلى تقبل ما يتلقونه أو يقرؤونه في الكتب من دون نقد أو تحليل أو تمحيص. وتحول التعليم العالي بوجه عام إلى مجرد استنكار، وحفظ، وتكرار آلي للحقائق المحفوظة، بدلاً من أن يكون أداة لتنمية الذكاء والتفكير العلمي".² وهذا النسق من التعليم يولّد نوعاً من التفكير النمطي عند الطلاب، الذي ينتشر كثيراً في مؤسساتنا التعليمية في مختلف مراحلها.

ومن المشاكل التي تعانيها المجتمعات العربية، التي لها أثر سيئ في عملية ضمان الجودة التعليمية، عملية "المسايرة" في مجتمعاتنا. لأنّه من المعروف أنّ: "العائلة العربية توجه الفرد منذ طفولته نحو الأشخاص أكثر مما توجهه نحو الأشياء، فأول تدريب يتلقاه الطفل هو فن المعاشرة".³ والتدريب على فن المعاشرة هو في الواقع تدريب على المسايرة".⁴ لذلك فإنّ طرائقنا التربوية تساعد على نمو الروح الاجتماعية عند الطفل أكثر مما تساعد على نموه الفكري. "والمسايرة أكثر من مجرد سلوك تقليدي، فهي تفترض موقفاً ذهنياً يتهرب من المواجهة المباشرة ومن معالجة المشكلات في جذورها، موقفاً يفتش عن الحلول في تسويات مؤقتة".⁵ وبقطع النظر عن الفوائد الإيجابية التي يجنيها الفرد من تعلمه فن المعاشرة فإن ذلك يكون على حساب جودة العمل. وذلك لأنّ "الميل إلى المعاشرة يجمع بين الناس في علاقات

¹ المصدر السابق، الصفحة 41.

² السلطوية في التربية العربية، د. يزيد عيسى السورطي، عالم المعرفة (الكويت)، 2010، الصفحة 17.

³ مقدمات لدراسة المجتمع العربي، الصفحة 42.

⁴ المصدر السابق، الصفحة 43.

⁵ المصدر السابق، الصفحة 43.

..... بعض معوقات ضمان جودة التعليم العالي في البيئة العربية

التسلية ويفرق بينهم في علاقات العمل".¹

استقلال الجامعات

وإحدى عقبات ضمان الجودة التعليمية في البلاد العربية (وربما في عديد من دول العالم الثالث) هو عدم استقلال الجامعات الحكومية عن السلطة السياسية، والجامعات الخاصة عن المالك. لهذا نلاحظ أن رسائل عديد من الجامعات العربية، في حال وجودها، تكون عباراتها إنشائية عامة خالية من أي مغزى، أو قيمة حقيقية. لذلك ليس لهذا النوع من الرسائل أي تأثير فعلي في حياة المؤسسة، وفي تطورها، ونموها. لأن أهم دور لرسالة الجامعة، أي جامعة، هو تعزيز استقلالها، وبلورة شخصيتها، التي يصعب تحقيقها بعيداً عن الاستقلالية. ومن ثم يصعب أن تملك هذه المؤسسات ثقافة مؤسساتية خاصة بها. فضلاً على أن الاستقلالية تنقل الجامعات من النمطية إلى التنوع، والخصوصية. كما أن ارتباط الجامعة بالسلطة السياسية كثيراً ما يعيق حريتها الأكاديمية التي تُعدّ الرئة التي تتنفس بها الجامعة.

الشفاهية والكتابية

من المعروف أنه تم الكشف في السنوات الأخيرة عن فروق أساسية في طرق تحصيل المعرفة والتعبير بالكلام، وذلك بين الثقافات الشفاهية الأولية (ثقافات بلا معرفة بالكتابة على الإطلاق) والثقافات العميقة التأثر بالكتابة.² وقد كان هذا موضوع كتاب تُرجم إلى اللغة العربية بعنوان: "الشفاهية والكتابية" (Orality and Literacy). وقد أُشير في الكتاب إلى أن كثيراً من الدراسات أكدت انتماء الأدب العربي بشكله الفصيح والشعبي إلى دائرة الأدب

¹ المصدر السابق، الصفحة 45.

² انظر الشفاهية والكتابية، والترج أونج، ترجمة: حسن البنا عز الدين، عالم المعرفة (182)، الكويت، الصفحة 47.

الشفاهي المتحول في بعض أحواله إلى الكتابة.¹ وهذه الدراسة تشير إلى أن ثمة عقلاً كتابياً، وعقلاً شفاهياً. ومن السمات التي تميز الفكر والتعبير الشفاهيين الإطناب. وهذه الأخيرة تتناقض مع روح العلم ومع جودته، لأن العلم، كما هو معروف، اقتصاد في التفكير. ونتيجةً للثقافة الشفاهية نجد أن المجتمعات العربية تنمي الكفاءات الكلامية عند الأطفال وتعززها من خلال وسائلها التربوية في البيت وفي المدرسة. يقول هشام شرابي: "إنّ الطفل الذي يلقي قصيدة إلقاءً ناجحاً ينال الإطراء والتشجيع أكثر مما يناله الطفل الذي يحل مسألة صعبة أو يرسم صورة جميلة".² وهذه البيئة تشجع نمو المقدرة الكلامية لدى الطفل على حساب المقدرة العقلية. لذلك نجد أطفالنا ينفرون من الفكر العلمي ويعانون منه، وعلى نحو خاص الفكر الرياضي، الذي يعد قوام الفكر العلمي. وهذه عقبة كأداء أمام عملية الجودة التعليمية، لأنّ الفكر العلمي أضحى الآن يؤثر في معظم فروع المعرفة الإنسانية، هذا بقطع النظر عن أثره في الاختصاصات العلمية. حتى إنّ المفهوم المعاصر للعقل، على أنه "لعب وفق قواعد"، وشيوع النزعة الموضوعاتية (axiomatic)، أي الفرضية - الاستنتاجية، في كثير من العلوم حديثاً قد انطلقت من تعريف المنطقي والفيلسوف البريطاني برتراند رسل (1872-1970) للرياضيات على أنها جملة القضايا التي تنتج من القضايا.

¹ المصدر السابق، الصفحة 44.

² مقدمات لدراسة المجتمع العربي، الصفحة 146.

بحوث في الحضارة العربية الإسلامية

المكتبات العربية في العصور الوسطى

أ. د. عبد المجيد مهنا

رئيس قسم المكتبات والمعلومات

كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة دمشق

مرحلة العصور الوسطى (المكتبات في العصور الإسلامية)

إن تاريخ المكتبات في الإسلام يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتاريخ العربي الإسلامي، حيث إن الإسلام يحض على العلم ويعتبره فريضة على كل مسلم، وقد ابتدأ القرآن الكريم نزوله بالآيات: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم﴾¹، وكانت الآية التالية ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾²، وقوله تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾³.

وتعدّ المكتبات في الحضارة الإسلامية من أهم المؤسسات الثقافية التي عني بها المسلمون، وكان لها دور كبير في الحياة الثقافية والعلمية بين المسلمين وفي العالم، وقد أحب المسلمون الكتب حباً ملك عليهم مشاعرهم، حتى إنهم استوعبوا الإنتاج المعرفي الذي قدمته الحضارات التي سادت قبلهم كالليونان، والفرس، والهند، والصين، ومصر، والعراق، وترجموا إلى اللغة العربية جزءاً كبيراً من تراث الأمم من يونان وأقباط وهنود وسريان وكلدان، وفرس، وقد

¹ سورة العلق (1-5).

² سورة القلم (1).

³ سورة المجادلة (11).

يصح القول إن الحضارة الإسلامية حضارة كتب ومكتبات، حيث ذكر ول ديورانت في كتابه (قصة الحضارة) "لم يبلغ حب الكتب في بلد آخر من العالم إلا في بلاد الصين في عهد منج هوانج ما بلغه في بلاد الإسلام في القرون الثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر"، هذا وقد اهتم الخلفاء بتأسيس المكتبات وجمعوا فيها الكتب المؤلفة والمترجمة كما أنشؤوا المكتبات في المدارس والمساجد. وقد زاد من هذه النهضة العلمية والثقافية استعمال الورق في الكتابة وأعطوا الحبر ألواناً مختلفة وزخرفوا وجوه الكتب وزهّبوها. وبدأت حركة التأليف منذ منتصف القرن الأول الهجري وشهد القرن الثاني ظهور الكتب ونشطت حركة تدوين التراث والتاريخ متأثرة بطريقة كتابة الحديث. وفي القرنين الثالث والرابع رأينا ازدهاراً لحركة التأليف والتدوين خصوصاً بعد إقامة صناعة الورق في بغداد. وكان من الطبيعي أن تؤدي هذه النهضة العلمية إلى جمع الكتب وإنشاء المكتبات الخاصة كمكتبات الخلفاء وكبار رجال الدولة، ثم ما لبثت أن تحولت إلى مكتبات عامة ولقد أوصى بها أصحابها أن تحفظ في المساجد والمدارس.¹

وعليه سنتعرّف في هذا المبحث بتطور المكتبات في العصور الإسلامية المختلفة بدءاً من عصر صدر الإسلام مروراً بالعصر الأموي والعصر العباسي وبداية التدوين والنسخ واكتشاف الورق وانتهاءً بالعصر الفاطمي والعصر الأندلسي، كالآتي:

أولاً: المكتبات في عصر صدر الإسلام (الكتابة زمن الرسول الكريم والخلفاء الراشدين)

لقد كانت الكتابة والتدوين غير منتشرين أول الأمر لدى العرب وخاصة في العصر

¹ التميمي، حيدر: بيت الحكمة العباسي ودوره في ظهور مراكز الحكمة في العالم الإسلامي - بغداد: زهران للنشر، 2000، ص 156-159.

..... المكتبات العربية في العصور الوسطى

الجاهلي:¹ حيث كان العرب في الجاهلية مولعين بفصاحة اللسان، وصحة الكلام، وإلقاء الشعر ومولعين باللغة العربية ويمتدحونها في خطبهم وعند إلقاء الشعر، لكنهم لا يعرفون القراءة والكتابة ويعبدون الأصنام ولهم مشاكلهم القبائلية. ولكن بسبب الحركة الدينية التي جاء بها الإسلام، وما فيها من حث على العلم والقراءة، وما نتج عن ذلك من حفظ للقرآن والحديث في الصحائف والكتب - بدأت تنتشر الكتابة، ومن ثم المكتبات البسيطة في المساجد.²

ومن أشهر ما دُوّن في العصر الجاهلي من أحداث عاشت تلك الحقبة ما قيل من أشعار، وأجودها التي كانت تقال في سوق عكاظ، وبخاصة في المباريات التي تقام بين القبائل في كل يوم تقريباً ولمدة شهر كامل، هي تلك الأشعار التي سميت بالمذهبات والتي احتفظ فيها الملوك والأمراء، ولكن العرب كان يسمونها بالمعلقات لأن القصائد الفائزة كانت تكتب على الحرير المصري بأحرف من ذهب وتعلق على جدران الكعبة في مكة، وهي سبع قصائد يرجع تاريخها إلى القرن السادس الميلادي. وكان هناك مصادر أخرى وهي: المفضليات، ديوان الحماسة لأبي تمام، ديوان الحماسة للبحتري، كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة، مختارات ابن الشجري، جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي.³

ولقد كان - إبان الدعوة الإسلامية في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي زمن تنزيل القرآن - طائفة من الصحابة وكل إليهم كتابة القرآن وتدوينه، وعرفوا بكتّاب الوحي ويذكر أنهم قد سجلوا أقساماً كثيرة متفرقة من الكتاب العزيز على سعف النخيل أو رفاق الحجارة أو اللحاء العريضة أو ما شابهها من المواد. وبعد أن توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم كان هناك عدد كبير من الصحابة الذين يحفظون القرآن الكريم غيباً وعلى رأسهم شيخ القراء زيد بن ثابت، فلما استحرّ القتل في الصحابة وخاصة القراء منهم أثناء حروب الردّة

¹ إن الجاهلية اسم أطلق على أحوال العرب قبل الإسلام لانتشار الوثنية وعبادة الأصنام، وتفشي العدوان في تلك الحقبة، ولم يعرف عن تلك المرحلة إلا ما قبل ظهور الإسلام بنحو قرن ونصف القرن.

² مرجع سابق: الجواهري، خيال محمد مهدي، ص 30-35.

³ المرجع السابق، ص 36-39.

زمن أبي بكر رضي الله عنه، خاف على القرآن من الضياع فاستشار الصحابة في جمع القرآن الكريم في قرطاس واحد فوافقوا عليه وألفوا لجنة لهذا الغرض يرأسها زيد بن ثابت فكتبوا القرآن على الرق لطول بقائه أو لأنه الموجود عندهم حينئذ،¹ ولما أتى الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان ورأى اختلاف الأمصار وحتى لا يحدث اختلاف في القراءات بين المسلمين نسخت خمسة مصاحف أرسلت إلى الكوفة والبصرة ودمشق ومكة والمدينة وأبقى عثمان لنفسه مصحفاً عرف بالمصحف الإمام، ومنذ ذلك الزمن حفظ النص الأصلي للقرآن الكريم بشكل لا مثيل له في تاريخ الإنسانية جمعاء، وذلك مصداقاً لقوله جلّ شأنه: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ وقد تطوّر تدوين القرآن وضبط رسميه، وأصبح المسلمون يتأنقون في كتابة المصاحف وتجميلها وفي ندب الخطاطين لنسخ المصاحف، وكذلك بدؤوا يستعملون القرآن الكريم عنصراً زخرفياً تزيينياً في المساجد والجوامع، فيذكر صاحب الفهرست أن أول من كتب المصاحف في الصدر الأول ويوصف بحسن الخط خالد بن أبي الهياج، وكان سعد نصبه لكتابة المصاحف والشعر والأخبار للوليد بن عبد الملك وهو الذي كتب الكتاب الذي في قبلة مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالذهب من «والشمس وضحاها» إلى آخر القرآن، ثم انتشرت نسخ القرآن إضافةً إلى مدوناتٍ متفرقةٍ للأحاديث النبوية.

من جهة ثانية كثير من المسلمين أحبوا الكتب حباً ملك عليهم ألبابهم ومشاعرهم وأنسأهم الأهل والولد، وهم كثيراً ما يتغنون بالكتاب وفضله ومميزاته فتشعر عندما تقرأ أقوالهم أنهم يتكلمون عن أشياء عزيزة عليهم.²

وأما عن أفضلية الكتب فقد قالوا أن الكتاب هو الجليس الذي لا ينافق ولا يُملُّ ولا يعاقبك

¹ الفلقشندي، أحمد بن علي: **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، (محمد حسين شمس الدين: شارح ومعلق)، بيروت: دار الكتب العلمية، 1987، ج 14، ص 475.

² حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله: **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، (غوستاف فلوغل: محرر)، بيروت: دار صادر، 1995، ج 7، ج 1، ص 19.

..... المكتبات العربية في العصور الوسطى

إذا جفوته ولا يفشي سرّك،¹ وقد تغنى الشعراء بالكتب ومحبتها فقد قال أحدهم:

نعم الأنيس إذا خلوت كتاب تلهو به إن ملك الأحاب
لا مفشياً سرّاً إذا استودعته وتُفاد منه حكمة وصواب²

وقال الآخر:

ولكل صاحب لذة متزّه أبداً ونزهة عالم في كتبه³

ولعل أشهر من أحب الكتب ومدحها ودافع عنها الجاحظ، إذ أورد في كتابه الحيوان العجب العجائب في مدحه الكتب وإظهار محاسنها ومميزاتها، وقال ذو الرمة لعبس بن عمر اكتُبْ شعري فالكتاب أحب إلي من الحفظ لأن الأعرابي ينسى الكلمة قد سهر في طلبها ليلته فيضع كلمة في وزنها ثم ينشدها الناس والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاماً بكلام.⁴

وقد كانت الكتب تقرن أحياناً بالسلاح وتوازن بها فقد قال المهلب لبنيه يا بني: إذا وقفت في الأسواق فلا تقفوا إلا على من يبيع السلاح أو يبيع الكتب.⁵

إن هذا الحب العظيم للكتب كان نتيجة للتدوين والنقل والتأليف الذي ظهر منذ ظهور الإسلام حتى القرن الثاني للهجرة، وهو في ذات الوقت كان أحد الدوافع الأساسية للتأليف والنقل والتدوين، وهكذا فإن ما يُذكر من مدونات في هذا العصر - وبعضه من موروث العصر الجاهلي - تلك المعاهدات والرسائل، والوثائق والأنساب التي احتفظت بها القبائل وبعض الإمارات.

¹ ابن الطقطقي، محمد بن علي طبابا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، (مدوح حسن محمد:

محقق ومحرر)، القاهرة: مكتبة الثقافة الإسلامية، 1999، ص 4.

² ابن عبد ربه الأندلسي، أحمد بن محمد: العقد الفريد، ط 2، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1996 ج 7، ج 4، ص 201.

³ المرجع السابق، ج 4، ص 201.

⁴ الجاحظ البصري، أبو عثمان بحر: الحيوان، [القاهرة]: دار النقدم، 1907، ج 7، في مج 2، ص 33.

⁵ مرجع سابق: ابن الطقطقي، محمد بن علي طبابا، ص 3.

وبوجه عام يمكن القول، ليس هناك ما يستحق أن يوصَف بأنه مكتبة في ذلك العهد، إلا ما كان من الاحتفاظ ببعض المدونات من النسخ سواء في البيوت أو المساجد ونحو ذلك.¹

ثانياً: المكتبات في العصر الأموي

بعد أن اتسعت رقعة الدولة الإسلامية قلَّ الاعتماد على الذاكرة وأصبح الاعتماد على الكلمة المكتوبة، كما أن المسلمين بدؤوا بالاحتكاك بالأمم الأخرى وحضارتها، وبدأت عملية التمازج بينها فكانت مرحلة التدوين والنقل والتأليف، وكانت الكتابة تجري في العصر الأموي على القراطيس المصنوعة في مصر من لحاء البردي، وجاء اختراع الورق أو الكاغد عاملاً حاسماً في نشر المعرفة وغزارة المؤلفات وبدأ عهد ازدهار الكتب والمكتبات في الإسلام.²

ومن الملاحظ أن هناك كثيراً من الكُتَاب القدامى والمحدثين يصفون العصر الأموي عامة بالجذب والقحل من النواحي العلمية ولاسيما إذا وزن بالعصر العباسي ويذكرون أن النقل والتأليف لم يبدأ إلا في العصر العباسي فيذكر حاجي خليفة أن علوم الأوائل كانت مهجورة في العصر الأموي، ولما ظهر آل العباس كان أول من عُني منهم بالعلوم الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور وكان رحمه الله مع براعته في الفقه مُقَدِّماً في علم الفلسفة وخاصة في النجوم محباً لأهلها.³

ولكن الصورة ليست على هذه الدرجة من القتامة، وليس العصر الأموي كما ذكر حاجي خليفة وغيره، بل وُجد فيه مؤلفون ووجدت فيه كتب ومكتبات ووجد فيها معرّبون ونقّلة ووجدت فيه حركة علمية هامة، ذلك أنه من المستحيل أن تكون العلوم قد نبتت من لا شيء في العصر العباسي فهذا الشيء يخالف طبيعة الأشياء. صحيح أن الأوائل كانوا يكرهون

¹ حسن، سعيد أحمد: أنواع المكتبات في العالمين العربي والإسلامي، عمان: دار الفرقان، 1984، ص 40.

² حمادة، محمد ماهر: المكتبات في الإسلام: نشأتها وتطورها ومصائرهما، ط 3، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1981، ص 5-7.

³ مرجع سابق: حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله، ج 1، ص 34.

..... المكتبات العربية في العصور الوسطى

تسجيل شيء من العلوم، ولكن هذه الكراهية كانت منصبة على الحديث الشريف بوجه خاص وذلك لئلا يختلط¹ بكتاب الله تعالى، ولكن الحاجة العلمية إلى الحديث الشريف باعتباره الأصل الثاني للتشريع الإسلامي، وامتداد الإمبراطورية الإسلامية وتعمد الحياة الإسلامية وتنوعها، كل ذلك يعدّ من العوامل التي ساعدت على التغلب على ذلك الكره وجعلت علوم الحديث تنشط نشاطاً ملحوظاً وكلما كثرت المواد المساعدة على التدوين والتسجيل ورخص ثمنها كثر التدوين وسهلت عملياته وازدادت الكلمة المكتوبة انتشاراً.

وهناك كثير من الأدلة والشواهد التي تثبت وجود كتب ومكتبات في العصر الأموي كما تثبت أن النقل والتدوين والتأليف بدأت في هذا العصر، فمن جهة النقل من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، فإنه جرى في عهد خلافة عمر بن عبد العزيز في دمشق خلال القرن الأول الهجري،² وفي بغداد في القرن الثاني الهجري زمن الخلفاء العباسيين (المنصور والمأمون).

هذا وإن أول من أمر بتدوين القصص والأخبار والتأريخ هو معاوية بن أبي سفيان، فعندما تسلم الخلافة قال: أردت أن يكون عندنا من يحدثنا بأخبار من سبقنا وهل يشبه ما نحن فيه اليوم.

وأشاروا عليه برجل بحضرموت معمر اسمه آمد بن ابد الحضرمي، كما ورد عليه عبيد بن شريه من المعمرين باليمن وكان آية في معرفة تواريخ اليمن وملوك العرب والعجم، فأمر معاوية كتابه أن يدونوا ما يتحدث به عبيد بن شريه في مجلسه. إن أول نقل أو تعريب في الإسلام كان في عاصمة الشام أيام خالد بن يزيد بن معاوية (حفيد الخليفة الأموي الأول معاوية بن أبي سفيان، وابن الخليفة الثاني يزيد بن معاوية الذي كان مهتماً بالعلوم وراعياً للمشتغلين بها، وهو أول من اهتم من العرب بعلم الكيمياء وترجم فيه الكتب)، لقد كان خالد بن يزيد ذا همة ومحبة للعلم، فقد أحضر جماعة من فلاسفة اليونان ممن كانوا بمصر وأمرهم

¹ ابن النديم، أبي الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق: الفهرست، (يوسف علي الطويل: ضبطه وشرحه وعلق عليه)؛ (أحمد شمس الدين: وضع فهرسه)، بيروت: دار الكتب العلمية، 1996، ص 338.

² المرجع السابق، ص 338.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

بترجمة الكتب من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي، وخالد هو أول من جمعت له الكتب وجعلها في خزائن الإسلام، وفي دمشق على الأرجح أنشئت أول دار للكتب في العالم الإسلامي، ودمشق أول عاصمة أنشئت فيها دار ترجمة فالشام أول سوق نفقت فيها بضاعة العلم والأدب، وخالد بين يزيد أول من عني بعلوم الفلسفة وكان مقيماً في حلب سنة 85 هجرية، ومن الأشخاص الذين ورد اسمهم كناقلين ومترجمين جبلة بن سالم.

وللشاميين منذ القدم ميل إلى النقل من الأمم الأخرى هكذا فعلوا في كل قرن، فقد كان النقلة منهم في القرنين الأول والثاني وما تلاها وهم أقدر على تعلم اللغات، والمتتبع لأخبار النقل يجد أن معظمهم من السوريين سكان الشام والجزيرة والعراق، وللسوريين شأن كبير في نشر العلوم بين الأمم ونقلها من أمة إلى أخرى من أقدم أزمنة التاريخ، ونقل العلوم من لسان إلى آخر لا يتيسر إلا باستيعاب تلك العلوم وتفهمها، فضلاً على إتقان اللغات اللازمة لذلك، ولهذا كان أكثر أولئك المترجمين أهل علم واطلاع واسعين فيما اشتغلوا بنقله، وفيهم من ألف في فروع العلم المختلفة. إن أول عملية نقل حدثت في الإسلام كانت بفضل خالد بن يزيد بن معاوية، والذي نقل له "اصطفن" من الإسكندرية وكان النقل من السريانية والقبطية إلى العربية.

إن عمل خالد بن يزيد تزامن مع عمل آخر في النقل أمر به مروان بن الحكم، ويشير ابن جليل بكتابه "طبقات الأطباء والحكماء"، أن الطبيب البصري الذي عاش في العصر الأموي ترجم كتاب "أهرن بن أعين القس" إلى العربية.¹

وفي زمن الخليفة عبد الملك بن مروان كان يترجم الدواوين من اليونانية إلى العربية في سورية ومن الفارسية إلى العربية في العراق وبلاد فارس وذلك على يد الحجاج، ومن القبطية إلى العربية في مصر على يد عامل الخليفة في مصر عبد العزيز بن عبد الملك، وقد استمرت عملية النقل زمن الخلفاء الأمويين وصدر الخلافة العباسية. وتذكر كتب التاريخ² أن جبلة بن

¹ مرجع سابق: حمادة، محمد ماهر، 1981، ص 6-9.

² سيد، أيمن فؤاد: طبقات الأطباء والحكماء لابن جليل، القاهرة: منشورات المعهد الفرنسي، 1955، ص 15.

..... المكتبات العربية في العصور الوسطى

سالم كاتب الخليفة هشام بن عبد الملك كان ينقل من اللغة الفارسية إلى العربية، كما جرت عملية نقل تواريخ الأمم من الفارسية إلى العربية زمن هشام بن عبد الملك..¹

وقد زهى العصر الأموي بوجود أشخاص أمثال الإمام مالك الذي أمضى شطراً كبيراً من عمره في هذا العصر، حيث أسس المذهب المالكي المعروف، ومع أن كتابه الموطأ يعود في تأليفه وخصائصه وزمّنه إلى العصر التالي، فإن المؤلف استقى مادته من مؤلفات سابقة على زمنه وعلى كتابه، كما هو واضح من الكتاب نفسه ومن إشارات، وهذا دليل قوي على وجود مؤلفين سابقين على زمان الإمام مالك، وعلى أن التأليف الأصيل قد بدأ في هذا العصر الذي حفل أيضاً بعدد كبير من المؤلفين ومنهم عبد الحميد الكاتب الذي كان كاتباً لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية وقتل سنة 132 هـ على يد العباسيين، وقيل عن عبد الحميد أنه فتق أكمّام البلاغة ووطّد ومهّد الطريق أمام الكتاب من بعده حتى قيل إنه ما من كاتب إلا ولعبد الحميد عليه دينٌ ويذكر ابن خلكان أن مجموع رسائله مقدار ألف ورقة.

وطبعاً لم يصلنا منها شيء وتدل الحوادث المفردة والجمال المبتورة المنقولة عنه على بلاغة جيدة وإيجاز معجز.

أما عبد الله بن المقفع الفارسي الأصل فقد تلمذَ عند عبد الحميد، وهو الذي نقل إلى العربية كتاب (كليلة ودمنة) وألف كثير من الكتب كالأدب الصغير والأدب الكبير وقد تأثر ابن المقفع بعبد الحميد الكاتب وبالعصر الذي عاش فيه ودرس آراءه في السياسة والاستبداد في فصل منحول إضافة إلى كتاب كليلة ودمنة، مما جعل الخليفة العباسي المنصور ينقّم عليه ويعمل على تصفيته.²

¹ المرجع السابق، ص 15.

² ابن خلكان، أبو العباس شمس أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، (محمد عبد الرحمن المرعشلي: عمل على تقديمها)؛ (رياض عبد الله عبد الهادي: أعد فهرسها)، دار إحياء التراث العربي، 1997، ج 4، ص 2، ص 395.

وأيضاً من الأطباء الذين ظهروا في مدة حكم الأمويين ابن آثال طبيب معاوية بن أبي سفيان وأبو الحكم، العالم بأنواع العلاج والأدوية وعلاقة بن كريم الكلابي، عالم الأنساب والأخبار وأحاديث العرب القديمة وزباد بن أبيه.

(ونستطيع أن نجمل مميزات العصر الأموي بأنه عصر وضعت فيه جميع البذور الأولى للحضارة الإسلامية والكتاب الإسلامي والمكتبات الإسلامية فقد دُوِّن فيه القرآن الكريم ووزَّع على الأمصار وبدأت عملية جمع الحديث الشريف على يد عمر بن عبد العزيز، وبدأت عملية نقل الكتب من اللغات الأخرى مثل: اليونانية والفارسية والقبطية إلى العربية، وبدأت الدراسات الإسلامية الفقهية المستندة إلى الحديث الشريف بالظهور، وجمعت فيه الأنساب والأشعار وظهرت المكتبات الخاصة).¹

أنواع المكتبات في العصر الأموي

1. المكتبات الخاصة

أنشئ العديد من المكتبات الخاصة في العصر الأموي ومنها: مكتبة الصَّحابي الجليل عبد الله بن عباس، التي استغرق بعضها حملٌ بغير، وكذلك مكتبة عروة بن الزبير، ومكتبة أبو عمر بن العلاء الذي كانت كتبه عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له إلى قريب السقف ثم إنه تنسَّك فأخرجها كلها (أحرقها أو أتلَّفها) ثم ندم بعد ذلك وعاد إلى ما كان فيه من طلب العلم والرواية فلم يكن عنده إلا ما حفظ بقلبه.²

لا ننسى في هذا العصر العلَّامة ابن شهاب الزُّهري الذي ملأ الدنيا بمصنَّفاتِه وتآليفه، حتى قيل: إنَّه إذا جلس في بيته وضع كتبه حوله، فينشغل بها عن كل شيء من أمور الدنيا، وقال تلميذه معمر بأن خزائن الخلفاء تحوي عدداً كبيراً من الدفاتر كلها إملاءات وكتابات أستاذه الزهري، كذلك هناك رسالتان تبادلها الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز وسالم بن عبد الله

¹ المرجع السابق، ص 15.

² المرجع السابق، ج 3، ص 136.

..... المكتبات العربية في العصور الوسطى

بن عمر بن الخطاب، كذلك ورد ذكر عدد من الحكام والكتاب على أنهم من مؤلفي الكتب في مختلف المواضيع ولكن لسوء الحظ لم ترد كتاباتهم ولم تصل كتبهم كما ذكر ياقوت الحموي في معجمه الإرشادان.¹

هذا ولقد عنى العرب في هذا الطور من حياتهم بالإنسان ولذلك من المعقول جداً ومن الممكن جداً أن أغلب الأسر العربية الشريفة حفظت شجرات أنسابها في مكتباتها الخاصة ولاسيما إذا تذكرنا أن العصر عصر عصبية قبلية وعصر موالى وسادة وعصر تنابذ وتفاجر.²

ومن أشهر المكتبات الخاصة في العصر الأموي مكتبة خالد بن يزيد التي تعد أول مكتبة أكاديمية علمية بالإسلام وهو مؤسسها وكان يُلقَّب بحكيم آل مروان، وهو أول من عمل على ترجمة الكتب اليونانية والقبطية في الكيمياء والطب، وكان خالد مهتماً بالفلك إذ إنه زود مكتبته بمواد فلكية أخرى غير الكتب، فقد روى ابن السيناوي أنه رأى في مكتبة الخلفاء الفاطميين في القاهرة في القرن الخامس الهجري كرة أرضية مصنوعة من النحاس صُنِعَ بطليموس الحكيم الفلكي المشهور، وقد نقش عليها أنها كانت في حوزة الأمير خالد بن يزيد بن معاوية.

وقد ذكر "جوزيف هل" في كتابه الحضارة العربية "أن خالد بن يزيد بن معاوية الذي شغل بدراسة الكيمياء وتعلّمها على يد راهب، قد ألف ثلاثة كتب في الموضوع تناول في الأول منها ذكر أستاذه وتعاليمه".³

وأيضاً كانت خزانة كتب محمد بن الحسين، وقد جمع فيها الكتب الدينية والتاريخية وكتب الأنساب والأدب واللغة وتستدل على ذلك مما رواه ابن النديم حيث ذكر: "أنه كان بمدينة

¹ ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي: معجم البلدان، بيروت: دار صادر، 1984، مج 5، ص 131.

² علي، محمد كرد: خطط الشام، ط 3، دمشق: مكتبة النوري، 1983، ج 6 في مج 3، ج 1، ص 172.

³ مرجع سابق: حمادة، محمد ماهر، 1981، ص 47-50.

الحديثه رجلٌ يُقال له محمد بن الحسين جماعه للكتب، له خزانه لم أر لأحد مثلهَا كثرةً، تحوي عدداً من الكتب العربية في النحو واللغة والأدب والكتب القديمة"، وكذلك أوجد عبد الحكيم الجحفي في مكة نادياً أدبياً اجتماعياً وألحق به مكتبة وجعل فيه دفاتر من كل علم وذلك في النصف الأول من القرن الأول للهجرة.¹

2. مكتبات الخلفاء:

لاشك أن مكتبات الخلفاء حَفَلت بعدد كبير من الكتب والشعر العربي ولاسيما الجاهلي منه ما يتصل بموضوع الأنساب والتفاخر بها ويتصل بها، والسبب في ذلك أن الشعر العربي الجاهلي راجت سوقه آنذاك، وقد كان القوم يجتمعون بالمربد (قرب البصرة) ويتناشدون الأشعار ويتفاخرون ويتساجلون ويتهاجون بجميع أنواع الشعر قديمه وحديثه، وقد برز عدد من الشعراء في ذلك العصر أشهرهم الثلاثة المعروفون جرير والأخطل والفرزدق ونقائضهم ولذا فإن من المرجح أن هذه الأشعار كانت تجمع وتسجل وتحفظ في المكتبات الخاصة بالأفراد. ولاشك أن المكتبات الخلافية كان فيها عدد كبير من هذه المجموعات الشعرية، ومنها مكتبة قصر الخلافة التي أنشأها الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة، إذ كانت في قصر الخضراء في مركز الدولة الأموية بدمشق، وكان يطلق عليها بيت الحكمة. ومن أجل تزويد المكتبة بالمصادر المعرفية أمر الخليفة بجمع القصص الاجتماعية والأخبار وتسجيلها على أوراق البردي وجلود الحيوانات وغيرها من مواد الكتابة التي كانت معروفة.² وجمعها في هذه المكتبة، ويذكر أن معاوية كان يجلس في مكتبه ويقضي أوقات فراغه فيها ليطالع الكتب والمخطوطات والرسائل، وكان يشرف بنفسه على ترتيب مكتبة الخلافة في قصر الخضراء. وقد تابع الخلفاء الأمويون الاهتمام بهذه المكتبة، مثل عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك، ففي عهد الأخير نقلت بعض المؤلفات الفارسية

¹ المرجع السابق، ج 1، ص 174.

² مرجع سابق : ابن خلكان، أبو العباس شمس أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، ج 2، ص 395.

..... المكتبات العربية في العصور الوسطى

القديمة وترجمت إلى اللغة العربية. وحرّض خلفاء بني أمية على ترجمة بعض المؤلفات اليونانية وعُنُوا بجمع الكتب والمخطوطات، مما أدى إلى زيادة رصيد المكتبة منها، واهتم هؤلاء الخلفاء بتنظيم الكتب والمخطوطات وغيرها من الرسائل الخاصة والوثائق الرسمية.¹

ثالثاً: المكتبات في العصر العباسي

مع امتداد الفتوحات الإسلامية اطلع العرب والمسلمون على حضارات الأمم السابقة ونقلوا وترجموا ما استطاعوا إليه سبيلاً، فألفوا وأبدعوا حتى أنتجوا للعالم أجمع حضارة لا يزال العلم الحديث يركز على قواعدها والمبادئ التي سارت عليها. وكان نتيجة ذلك ازدهار حركة التأليف والترجمة وإنشاء المكتبات في مختلف أرجاء العالم الإسلامي لأغراض مختلفة خلال العصر العباسي ودخل بعضها في نواذر حكايات التاريخ، واحتوت المكتبات عشرات الآلاف من المجلدات والمخطوطات، وفي هذا الصدد تقول (زيغريد هو نكه): إنه في عام 891 م بلغ عدد دور الكتب في بغداد وحدها أكثر من مئة دار، وعندما وصل العباسيون إلى الحكم وحصل الاختلاط بينهم وبين الفرس واليونان دفعهم ذلك إلى الاطلاع على كل شيء مما كان عندهم من آثار المتقدمين من العلماء والحكماء والفلاسفة. وكان الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور أول من اعتنى بترجمة بعض الكتب العائدة لتلك الحضارات، وقد قام بعملية الترجمة طبيبه جورجيس بن جبرائيل الذي كان يشرف على علاجه، فترجم له كتباً كثيرة إلى العربية، كما ترجم ابن المقفع كاتب المنصور كتاب كليلة ودمنة إلى العربية وغيرها من الكتب، ويعتبر الخليفة محمد المهدي (158-169 هـ) أول من ورد ذكره في التاريخ من الخلفاء العباسيين، حيث أنه اعتنى بجمع الكتب، وهو والد هارون الرشيد الذي ورث دفاً علم أوصى له بها أبوه أبو جعفر المنصور عند وفاته وكان شديد الحرص عليها.

ويؤيد عناية المهدي بجمع الكتب ما أثبتته المؤرخ ميخائيل الكبير البطريرك السرياني حين

¹ حمادة، محمد ماهر: المكتبات في العالم: تاريخها وتطورها حتى مطلع القرن العشرين، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1982، ص 130-135.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

قال: ذكر المؤرخ داوود الشرقي أنه عثر في الكتب التي جمعها الخليفة المهدي ونقلها إلى بغداد على الخبر التالي " لما خرج يوحنا فم الذهب إلى المنفى نقش على باب كنيسة أنسطاسيا في القسطنطينية قوله: إني تركت للكنيسة 800 مجلد من الشروح والميامر والتراجم والكتابات.

ويعدّ عصر الرشيد والمأمون العصر الذهبي لعملية النقل من سائر اللغات إلى العربية، فقد أصبح هذا العمل في زمانهما " عملاً رسمياً تتولاه الدولة وتتفق عليه من موازنتها وتحشد له أعظم النقلة والعلماء والمفكرين وتؤسس المؤسسات العلمية وتراسل الملوك والحكام من أجل الحصول على الكتب والمخطوطات وترسل البعثات في طلب الكتب العلمية والطبية والفلسفية، وعموماً نقل المسلمون إلى لسانهم معظم ما كان معروفاً من العلم والفلسفة والطب والفلك والرياضيات والأدبيات عند سائر الأمم المتقدمة في ذلك العهد فأخذوا من كل أمة أحسن ما عندها.

لقد بنى الرشيد مؤسسة كبرى للقيام بهذا العمل الجليل كان عملها أول الأمر النقل ثم تطورت زمن المأمون وأصبحت مؤسسة علمية من الطراز الرفيع وأطلق عليها "بيت الحكمة" وأصبحت في مدة خلافته أكاديمية بالمعنى العلمي تحتوي على أماكن للدرس وأماكن لخزن الكتب والنقل والتأليف، وكان للحملات العسكرية التي قام بها الرشيد هدف علمي هو الحصول على المخطوطات والكتب النادرة، وكانت هذه الحملات توجه إلى المدن المشهورة والتي تعتبر معقلاً للثقافة¹ كعمورية وأنقرة وغيرهما، وكانت خزائن هذه المدن مملوءة بالمخطوطات النادرة والنميسة. ومن ضمن الشروط التي يجري الصلح عليها بين الرشيد وحكام هذه الدول، هو الحصول على الكتب التي يرغب في الحصول عليها، ويأمر بترجمتها، وبذلك كانت حركة الترجمة أقوى منها في عهد المنصور، وقد عهد الرشيد إلى شيخ النقلة وطبيبه الخاص يوحنا ابن ماسويه بعد أن عينه رئيساً لبيت الحكمة وكلفه بترجمة الكتب التي غُنت من أنقرة وعمورية، كما عهد الرشيد للقيام بشؤون خزانة كتب الحكمة إلى شخص يتقن الفارسية هو

¹ مرجع سابق: حمادة، محمد ماهر، 1981، ص 24-25.

..... المكتبات العربية في العصور الوسطى

الفضل بن نوبخت أبو سهل الفارسي الأصل، وهو من أئمة المتكلمين وقد تولى أمور خزانة الحكمة وكان ينقل كتب الحكمة الفارسية إلى العربية، وكان الرشيد من المتواضعين للعلماء والمغرمين بهم.¹

ومن النقلة الذين خدموا الرشيد والمأمونَ الحجاج بن يوسف بن مطر، فقد نقل كتاب "أقليدس" "أصول الهندسة" مرتين الأول زمن الرشيد وسمي الهاروني، والثانية زمن المأمون وسمي المأموني.

وإذا انتقلنا إلى عصر المأمون نجده تم ما بدأه جده المنصور وأبوه الرشيد فأقبل على طلب العلم في مواضعه واستخرجه من معادنه بفضل همته وقوة نفسه فدخل ملوك الروم وأنحفهم بالهدايا وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة، وقد سار على سياسة والده في توجيه الغزوات نحو المدن التي تحتوي خزائن المخطوطات للحصول عليها، كما أنه لجأ إلى مراسلة ملوك الروم في القسطنطينية وصقلية وقبرص وغيرها من المدن طالباً تزويده بما لديهم من مخطوطات وكلف أمهر المترجمين ليرجموها فترجمت وحضَّ الناس على قراءتها ورغبهم في ذلك ونفقت سوق العلم في زمانه.

وقامت دولة الحكمة في عصره وتنافس أولو النباهة في العلوم كما وجدوا اهتمامه وعطاياه، فكان يجالس العلماء ويأنس بمنابرتهم ويتلذذ بمذاكرتهم فينالون عطاياه وهذه سيرته مع العلماء والفقهاء والمحدثين والمتكلمين أهل اللغة والأخبار والمعرفة حتى أصبحت الدولة العباسية تضاهي الدولة الرومية أيام اكتمالها وزمان اجتماع شملها.

وكان المأمون يجد لذة في البحث والدرس والمناظرة والجدل العلمي والتأليف والنقل فكان يجمع العلماء ويطلب إليهم إجراء المناظرة بين يديه ويشارك بها بنفسه.

وقد اجتمع لدى المأمون في بيت الحكمة عدد من العلماء والباحثين أمثال: سهل بن هارون، وسعيد بن هارون، وسلم والحجاج بن مطر، وابن البطريق، ويوحنا بن ماسويه.

¹ المرجع السابق، ص 25.

وعهد المأمون إلى حنين بن إسحاق بمراقبة النقل من اليونانية إلى العربية، وكانت أكبر مكتبة نقل إلينا خبرها في ذلك العصر (خزانة الحكمة أو بيت الحكمة)، ويشير أحمد أمين في كتابه ضحى الإسلام إلى أن هذه الخزانة أو البيت محاط بغموض، هل كانت مكتبة فقط أو مكتبة ومعهداً ومرصداً؟ وأين كان مكانها؟ وهل أنشأها الرشيد أم المأمون ويخلص أحمد أمين إلى أن الرشيد هو الذي وضع نواة هذه المكتبة ثم نمت وتطورت وازدهرت وقويت في عصر المأمون، ويشير أحمد أمين إلى أن خزانة الحكمة كانت في عهد الرشيد وكان يعمل فيها علماء مختلفو الثقافات، فيوحنا بن ماسويه له مقدرة على ترجمة الكتب اليونانية وابن نوبخت ينقل من اللغة الفارسية ما يجده من كتب الحكمة الفارسية، والراوية علان الشعبي الفارسي الأصل كان يعمل ضمن المجموعة.

وكانت خزانة الحكمة في عهد الرشيد مكاناً فيه كتب، وله رئيس ديوان وفيه كانت تنسخ الكتب اليونانية والفارسية وتترجم، وكان بيت الحكمة مجلساً للترجمة أو النسخ أو الدرس أو التأليف، فيجلس النساخ في أماكن خاصة بهم ينسخون لأنفسهم أو بأجر وكذلك المترجمون والقراء والمؤلفون.¹

ومن بين هؤلاء محمد وأحمد أبناء أو بني موسى، ويعرفون بأبناء المنجم لقد تفانوا في طلب العلوم القديمة وبذلوا الأموال الطائلة وأحضروا النقلة وأرسلوا حنين بن إسحاق إلى بلاد الروم فجاءهم بطرائف الكتب وغرائب المصنفات وكانوا ينفقون في الشهر (500 دينار) للنقل والملازمة ولهم مؤلفات عديدة، وكان بيت الحكمة يحوي فريقاً من المجلدين همهم الكتب وحفظها حتى لا تتأثر بكثرة الاستعمال وحمايتها لتعمر مدة طويلة ومن هؤلاء المجلدين يرد اسم ابن أبي الحريش وأيضاً اسم علان الشعبي، وقد كان المشرف على النسخ هو المسؤول عن تزويد المكتبة بالكتب الجديدة وما يلزم العمل من أوراق ومحابر وغيرها، أما الاسم فأحياناً يستعمل العلماء اسم بيت الحكمة وأحياناً خزانة الكتب، فالخزانة كلمة معروفة وهي اسم

¹ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ط 1، القاهرة: المطبعة الوهبية، [د.ت]، ص 143.

..... المكتبات العربية في العصور الوسطى

الموضع أو المكان الذي يخزن فيه الشيء.¹ وقد ورد في القرآن الكريم ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾² «ولا أقول لكم عندي خزائن الله»³ فاستعملوه للدلالة على المكان الذي حفظت فيه الكتب، وقد استعملت كلمة خزانة للدلالة على ذلك، فقد روي أن الجاحظ أراد أن يهدي محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم كتاب سيبويه، فقال له ابن الزيات أو ظننت أن خزاننا خالية من هذا الكتاب.

ويذكر أحمد أمين بكتابه (ضحى الإسلام) أن بعض المؤرخين قد بالغوا عندما زعموا أن بيت الحكمة كان جامعة كبيرة ملحق بها مكتبة ومرصد، ويشير إلى أن هذه المكتبة كانت ملحقة بقصر الخليفة وقد اعتاد الخلفاء أن يفعلوا هذا في قصورهم، فكان في قصر قرطبة مكتبة وفي قصر الخليفة الفاطمي العزيز بالله مكتبة، كما أن للمأمون مكتبة خاصة به أفرد لها حجرة من حُجَر القصر وكان يشرف عليها سهل بن هارون إضافةً إلى إشرافه على بيت الحكمة.

وكان المأمون ينفق الكثير على العاملين في مكتبته وبيت الحكمة، وكانت رواتبهم أعلى بكثير من رواتب الموظفين الآخرين، كما أن محمد بن عبد الملك الزيات الذي كان وزيراً للوائق قد بلغ عطاؤه للنقلة والنساخ في كل شهر ألفي دينار.

هذا وقد استمرت خزانة الكتب في العمل وتأدية رسالتها بعد المأمون ولكنها فقدت كثيراً من أهميتها مع توالي الزمن، وقد كانت لا تزال موجودة في أواسط القرن الرابع الهجري.⁴

لقد اهتم خلفاء بغداد فيما بعد على ضعفهم وقلة مواردهم بالعلم والمدارس والمكتبات كل الاهتمام فهذا الخليفة الناصر لدين الله قد كان محباً للعلم جامعاً للكتب اعتنى بالمكتبات وأسس المكتبة النظامية عندما أعاد عمارتها ونقل لها ألوف الكتب النفيسة، وأيضاً أنشأ الرباط

¹ أمين، أحمد: ضحى الإسلام، ط 2، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة، 1934، ج 2، ص 63.

² سورة الحجر، الآية 21.

³ سورة هود، الآية 31.

⁴ المرجع السابق، ص 63.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

المعروف بالرباط الظاهري غربي بغداد ونقل إليه كتباً كثيرة، كما اهتم بتغذية خزائن الخلفاء التي كانت موجودة واشترى لها الكتب ونظمها أحسن تنظيم، وقد وُكِّلَ مهمة اختيار الكتب إلى شخص يدعى (مبشر بن أحمد بن علي الرازي) واعتمد عليه في اختيار الكتب التي وقفها على الرباط الخاتوني.

وفي عهد المستنصر بالله الذي تولى الخلافة بعد الناصر، والذي عرف عنه حبه للعلم والعلماء واهتمامه بالكتب والمكتبات، حيث أسس المدرسة المستنصرية التي أصبحت في وقتنا الحاضر الجامعة المستنصرية وقد ارتبط اسمه بهذه المؤسسة، ويذكر أن الخليفة المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين أنشأ خزانتي للكتب نقل إليهما نفائس الكتب وجعل المسؤول عن الأولى صدر الدين بن التيار، وجعل متولي الثانية عبد المؤمن بن فاخر الأرموي، وكان الخليفة يجلس بعض الوقت في الخزانتي بالتناوب، وهاتان الخزانتان أُقيمتا في دار الخلافة الخاصة.¹

والدليل على ذلك أنه عندما أمر سنة 641 هـ بعمل خزانة الكتب الأولى في داره حليت جدرانها بأشعار نظمها شعراء الديوان:

أنشأ الخليفة للعلوم خزانة	سارت بسيرة فضله أخبارها
تبدو عروساً من غرائب حسناتها	درر الفضائل والعلوم نثارها
أهدى مناقبه لها مستعصم	بالله لآلائه أنوارها

أما الخزانة الثانية فقد أسسها في أخريات أيامه وكان يمضي شطراً من وقته في الخزانتي.²

أما بلاد الشام فإن أشهر أمراء سورية الذين اهتموا بالعلم والأدب وشجعوا عليه هو سيف

¹ خليفة، شعبان عبد العزيز: الكتب والمكتبات في العصور الوسطى، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 1997، ص 281-293.

² المرجع السابق، ص 293.

..... المكتبات العربية في العصور الوسطى

الدولة الحمداني في القرن الرابع الهجري وكان مقره حلب، فقد اجتمع حوله أعظم الأدباء والشعراء والعلماء أمثال المتنبي وأبو فراس وابن خالويه والفارابي، وقد اهتم سيف الدولة بالنقل وكان عنده طبيب يدعى عيسى الرقي ينقل من السرياني إلى العربي وقد أوجد سيف الدولة مكتبة كبرى جعلها في عهد شاعرين أخوين مشهورين هما محمد بن هاشم وأبو عثمان سعيد بن هاشم.

لقد حفل هذا العصر - العصر العباسي - والعصور التي تلتها بمئات العلماء والباحثين الذين عشقوا الكتب وأحبوها حباً ملك عليهم ألبابهم ومشاعرهم وأنساهم ملذات الدنيا حتى الأهل والأولاد ومن هؤلاء يرد ذكر الجاحظ والفتح بن خاقان نديم المتوكل والقاضي إسماعيل بن إسحاق.¹

وبناءً على ماسبق يمكن القول أن الحضارة الإسلامية قد عرفت أنواعاً متعددة من المكتبات لم تعرفها أي حضارة أخرى ولقد انتشرت هذه المكتبات في جميع أرجاء الدولة الإسلامية، فوجدت المكتبات في قصور الخلفاء، وفي المدارس والكتاتيب والجوامع. وكما أنها وجدت في عواصم الإمارات فقد وجدت كذلك في القرى النائية، والأماكن البعيدة، مما يؤكد تأصل حب العلم لدى أبناء هذه الحضارة، ومن الجدير بالذكر أن العرب أطلقوا على المكتبة أسماء عدة منها دار الكتب أو خزانة الكتب.

أنواع المكتبات في العصر العباسي وأسباب ظهورها

تعود أسباب انتشار المكتبات الإسلامية بوجه عام وازدهارها وتطورها في العصر العباسي للأسباب التالية:

1. ازدهار حركة التأليف والترجمة.
2. انتشار صناعة الورق في بغداد والبلاد الأخرى.
3. ظهور حركة الوراقين وهم أصحاب الحوانيت أو الدكاكين التي كانت تنسخ وتبيع وتؤجر الكتب.

¹ مرجع سابق: حمادة، محمد ماهر، 1981، ص 56-57.

4. تشجيع الخلفاء والحكام المسلمين للعلم والعلماء.¹

ويمكن القول: إن معظم أنواع المكتبات التي نعرفها اليوم قد عرفت في الحضارة العربية الإسلامية وخاصة في العصر العباسي، عصر الإبداع والنضج في الحضارة العربية الإسلامية، ونذكر منها:

1. المكتبات الأكاديمية:

وهذه المكتبات من أشهر المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية، وقد وجه الإسلام جلّ عنايته إلى طلب العلم وجعل القرآن الكريم الأشخاص غير المتعلمين في عداد الأموات.²

ومن أشهر المكتبات الأكاديمية نذكر:

مكتبة بيت الحكمة: تعتبر أول بيت للحكمة في عصر الدولة العباسية، كما تعتبر من أهم المكتبات في الحضارة العربية وأعظمها شأنًا، لما كانت تحتويه من الكتب النفيسة في جميع فروع العلم والمعرفة وبمختلف اللغات، وكان ذلك في بداية حكم أبي جعفر المنصور (158-135هـ/774-752م)، أي في الحقبة التي تميزت بالتأليف وحركة الترجمة والنقل من اللغات الأخرى وخصوصاً في كتب الطب والفلك والهندسة والآداب والفلسفة والتاريخ.³

ولهذه الخزانة ذكر مشنت في كثير من المراجع العربية قديمها وحديثها، وقد عرفت في بعضها باسم «بيت الحكمة» وفي بعضها الآخر باسم «دار الحكمة» - فالخزانة والبيت والدار يراد بها: المحل الذي تجمع فيه الكتب وتتضد بنظام معلومات ليطالع فيها ويستفاد من علومها.⁴

¹ عطا الله، خضر أحمد: بيت الحكمة في عصر العباسيين، القاهرة: شركة دار الإشعاع للطباعة، 1989، ص 71-28.

² الصوفي، عبد اللطيف: لمحات من تاريخ الكتاب والمكتبات، دمشق: دار طلاس، 1987، ص 87.

³ مرجع سابق: الجواهري، خيال محمد مهدي، ص 119.

⁴ عواد، كوركيس: خزائن الكتب القديمة في العراق منذ أقدم العصور حتى سنة 1000 للهجرة، بيروت: دار الرائد العربي، 1986، ص 105.

..... المكتبات العربية في العصور الوسطى

دار العلم ببغداد (أو مكتبة سابور بن ازدشير): أسسها سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة في منطقة الكرخ سنة 382هـ، وكان يطلق على هذه المؤسسة تسميتان مختلفتان: إحداهما خزانة الكتب والثانية دار العلم، وقد أوقف الوزير أوقافاً كثيرة مجزية على الدار كانت كافية للإنفاق عليها طوال مدة حياتها ولم تحتج لأحد طوال هذه المدة وقد بلغ عدد كتبها أكثر من عشرة آلاف مجلد من أصناف العلوم، منها مئة مصحف مخطوط بخطوط بني مقله. وكان الكثير من العلماء يَفْقُونَ نسخاً من مؤلفاتهم أو ممتلكاتهم على هذه المكتبة، كما كانت مركزاً ممتازاً يلتقي فيه العلماء والباحثون للقراءة والدرس وطالما نفذت فيه المناظرات والمناقشات.¹

وقد ازدهرت هذه المكتبة ازدهاراً رائعاً وارتفع صيتها وطارَت سمعتها فوق الآفاق وقصدها الأدباء والعلماء والشعراء من مختلف الديار الإسلامية وكان المؤلف يُسَرُّ عندما تقبل مكتبة سابور العامة نسخة من كتابه هديةً، هذا ويعتبر أبو العلاء المعري الشاعر المعروف أشهر من قصد بغداد لزيارة دار العلم والتعرف بمحتوياتها وبالعلماء والأدباء الذين كانوا يرتادونها، وقد كان المشرف على دار العلم عندما زارها المعري الشريف المرتضى وبقي يتردد عليها عاماً وبعض العام حتى صار بينه وبين العاملين فيها صداقة وصحبة، وقد ظلت المكتبة حتى عام 451هـ حيث شبت نار هائلة واحترقت دار العلم ونهبت بعض كتبها، ويذكر بعض المؤرخين أن المكتبة أحرقت أثناء دخول طغرل بك بجيشه إلى بغداد.²

2. المكتبات الخاصة:

انتشر هذا النوع من المكتبات في جميع أنحاء العالم الإسلامي على نطاق واسع وجيد، بحيث يمكن القول بأن هذا النوع من المكتبات قد فاق في بعض الأحيان غيره من الأنواع الأخرى، ومن أمثلتها: مكتبة سعد بن عباد الأنصاري التي حوت طائفة من أحاديث الرسول

¹ عليان، ربحي مصطفى (ب): المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية، عمان: دار صفاء، 1999، ص 139.

² الهوش، أبو بكر محمد: لمحة حول الكتاب والمكتبات في الحضارة الإسلامية، طرابلس، ليبيا: جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، 1990، ص 41.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

صلى الله عليه وسلم، ومكتبة صاحب بن عبادة التي بلغت عشرات المجلدات، ومكتبة الخليفة المستنصر الأموي، ومكتبة الفتح بن خاقان، ومكتبة ابن العميد، وغيرها.

3. مكتبات الخلفاء:

وهي نوع من المكتبات التي انتشرت على امتداد العالم الإسلامي من المشرق إلى المغرب وهذه المكتبات كان ينشئها الخلفاء والأمراء والحكام من أجل أنفسهم، وقد جعلوها حلقات للمناظرة والسمو والمحاضرات والعلوم المختلفة، كما كانت من أجل نشر مذهب يعتنقه الحكام والأمراء، ومن أمثلتها: تلك المكتبة التي أسسها السامانيون في بلاد خراسان، وخزانة الكتب في العصر الفاطمي، ومكتبة الحكم الثاني.¹

4. المكتبات العامة:

وهي مؤسسات ثقافية، يُحفظ فيها تراث الإنسانية الثقافي وخبراتها، ليكون في متناول المواطنين من كافة الطبقات والأجناس، والأعمار، والمهن، والثقافات، ومن أمثلتها: مكتبة بني عمار في طرابلس الشام. وكان لهم وكلاء يجوبون العالم الإسلامي بحثاً عن الروائع لضمها إلى المكتبة، وكان بها خمسة وثمانون ناسخاً يشتغلون بها ليلاً نهاراً، وكذلك مكتبة قرطبة التي أسسها الخليفة الأموي الحكم المستنصر سنة (350هـ/961م) في قرطبة.²

ومن الجدير بالذكر أن ما شجع على انتشار المكتبات العامة في الإسلام أن من عادة العلماء والوزراء والأغنياء أن يوقفوا بعد وفاتهم مكتباتهم الخاصة لمدنهم كما فعل صاحب بن عباد إذ وقف مكتبته لمدينة الري فأصبحت مكتبة عامة، ولم تخل هذه المكتبات من المشرفين على شؤونها لحفظ وصيانة ممتلكاتها من السرقة والنهب. وكان أغلبهم من العلماء المعروفين بالعلم والأمانة حيث كانت هذه المكتبات تفتح أبوابها للجميع دون تمييز، وتذكر كثير من المصادر أنها كانت مفتوحة لجميع الناس على مختلف مستوياتهم من طلبة ومتعلمين وباحثين

¹ مرجع سابق: الصوفي، عبد اللطيف، ص 68.

² المرجع السابق، ص 68.

..... المكتبات العربية في العصور الوسطى

وعلماء وأدباء.

إن التطور الأساسي الذي أصاب المكتبات العامة يتمثل في إضافة حجرة أو قاعة خاصة تلحق بمكان وجود مجاميع الكتب، وفي عددٍ كبير من رواد المكتبات لم يرتادوها من أجل الحصول على المخطوطات وحسب بل لمناقشة بعض الأفكار وتبادل وجهات النظر حول نقاط هامة.¹

ومن المرجح أن فهرس المؤلف أول ما استعمل في الكتب العربية العامة، وكان قائمةً بالكتب، ولم يكن ما يشير إلى أن مداخل الفهرس قد رتب هجائياً. وعندما يتسع حجم المجموعات كانت تندر الحاجة إلى تصنيف تلك المخطوطات بحسب مواضيعها العامة وأهم تلك الموضوعات: العلوم القرآنية والحديث والفلسفة وفقه اللغة والأدب والشعر وكان اسم المؤلف والعنوان يكتبان على ظهر الكتاب، وكانت توضع أحياناً قطعة من الورق ملصقة على الرف يكتب فيها أسماء الكتب لكل موضوع أو رف وما ينقصه من الكتب أيضاً.²

5. المكتبات المدرسية:

أولت الحضارة العربية الإسلامية بإنشاء المدارس اهتماماً بغية تعليم الناس جميعاً وبها (أي المدارس) ألحقت المكتبات وهو الشيء الطبيعي المكمل لهذا الرقي والازدهار، وتقول النصوص التاريخية إن أول من أسس مدرسة في الإسلام هو نظام الملك وزير السلاجقة في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، ومن المكتبات أيضاً مكتبة ابن جبيرة، ومكتبة مدرسة الفاخريّة في بغداد، وهناك المدرسة المستنصرية النظامية في بغداد التي احتوت على مكتبة ضخمة ضمت ما يزيد على ستة آلاف مجلد، وطورت بعض المدارس كالمدرسة

¹ قرانجي، فؤاد: المكتبات والصناعة المكتبية في العراق، بغداد: وزارة الإعلام، 1972، ص 17-18.

² حسن، حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية في الغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1981، ص 408.

المستنصرية لتكون جامعة تحمل اسم المستنصر فيما بعد وتمتلك المكتبة اللائقة بها.¹ كما تم إنشاء خزانة المدرسة البشيرية ببغداد في أواخر العصر العباسي، وقد ذكر ابن الفوطي خبر فتحها في حوادث سنة 653هـ/1255م بقوله: "فيها، فُتحت المدرسة البشيرية، بالجانب الغربي من بغداد التي أمرتُ ببنائها زوجة الخليفة المستنصر أم ولده أبي نصر، المعروفة بباب بشير، وجعلتها وقفاً على المذاهب الأربعة، على قاعدة المدرسة المستنصرية، ووقفت عليها وقوفاً كثيرة قبل فراغها، وجرى افتتاحها يوم الخميس ثالث عشر جمادى الآخرة، وحضر الخليفة وأولاده فجلسوا في وسطها".²

وبوجه عام يمكن القول إنه قد انتشرت المدارس في الإسلام انتشاراً واسعاً في مدن العراق وسوريا ومصر، وقد أُلحقت بمعظم المدارس الإسلامية مكتبات.

6. مكتبات المساجد:

إن المكتبات في الإسلام قد نشأت مع نشأة المساجد، إذ يعتبر المسجد من مظاهر الحضارة وعناصرها الإسلامية نظراً لأهميته الكبيرة في الحياة الدينية والسياسية والفكرية، ومن أمثلتها: مكتبة الجامع الأزهر، كذلك مكتبة الجامع الكبير في القيروان. وإذا كانت مكتبات المساجد تقوم بوظيفة المكتبات المدرسية والجامعية خلال القرون الأولى من تاريخ الإسلام، فقد زودت المدرسة المستنصرية النظامية في بغداد في منتصف القرن الخامس الهجري بمكتبة ضخمة كان فهرسها كما يقال يضم ستة آلاف مجلد، واشتهرت بعض هذه المدارس كالمستنصرية لتكون جامعة تحمل اسم المستنصر العباسي فيما بعد.³

من ناحية ثانية اهتم العرب المسلمون بفهرسة وتصنيف مكتباتهم، وقد اشتهر كل من

¹ الصوفي، عبد الله إسماعيل: المكتبات وخدماتها، عمان: جمعية عمال المطابع التعاونية، 1991، ص 80.

² ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، بيروت: دار الفكر، 1987، ص 307.

³ علي، محمد كرد: رسائل البلغاء، ط 3، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة، 1946، ص 244.

..... المكتبات العربية في العصور الوسطى

الكندي والفارابي، اللذين اهتمتا بتصنيف وتنظيم المكتبات، وقيل عن الكندي إنه أول من قام بوضع تصنيف للعلوم كان قريباً إلى حد ما من تصنيف أرسطو كما يعتبر تصنيف الفارابي لعلوم عصره، واحداً من أقدم التصنيف العربية، وكان له تأثير واضح في كل التصنيف التي وضعت من بعده. وفيما يخص الفهارس فقد وضعت لبعض المكتبات ومجموعاتها ومنها: فهرس مكتبة الري (10 مجلدات)، مكتبة الحكم الثاني "دواوين شعرية" بلغت (44 فهرساً: في الفهرس الواحد عشرون ورقة)، والمدرسة النظامية كان لها (فهرس بـ 6 آلاف مجلد).¹

وهكذا نجد أن الحضارة والثقافة العربية قامت وتطورت نتيجة لوجود العديد من العوامل ومنها: الورق، التدوين والنسخ، النقل والترجمة، التأليف، فضلاً على تعمق المعرفة وتصنيف العلوم، كما تبين في هذا العصر مدى اعتناء العرب بجوانب الكتاب الفنية وهي: الورق، والتجليد، والزخرفة، والتدوين، إضافة إلى الجوانب الموضوعية.

نهاية المكتبات في العصر العباسي:

بعد أن بلغت مكتبات العصر العباسي ذروة ازدهارها وتكونها وبعد أن أدت دوراً عظيماً في تطور العلوم عند العرب في العصور الوسطى، أخذت هذه المكتبات بالانحطاط وانحسار دورها تدريجياً حتى غابت عن الوجود نهائياً عندما وجه إليها المغول والصليبيون الضربات القاضية. وخلاصة القول: إن هذه المكتبات انتهت واندثرت بتأثير عاملين: داخلي وخارجي:

- **العامل الداخلي:** في أواخر الدولة العباسية بدأت تضعف الدولة من جراء تفكك المجتمع الإسلامي والانقياد وراء المشاكل والثورات والحرائق التي أودت بحياة الكثير من المكتبات وساهم في ذلك أيضاً ظهور قوى جاهلة ومتعصبة كانت ترى في الكتب وخاصة المترجمة منها من اللغات الأجنبية خطراً يهدد كيان الأمة وحضارتها، فمثلاً أصر السلطان محمود الغزنوي على استخراج كتب علوم الأوائل من مكتبة الصاحب ابن عباد وأمر بإحراقها،

¹ العريس، محمد: مذكرات في منهج البحث التربوي وأسس التوثيق، بيروت: دار النهضة العربية، 2012، ص

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

وفي إسبانيا أحرقت كتب الفلسفة ولوحق الفلاسفة من قبل المنصور بن أبي عامر، إضافةً إلى جهل بعض الحكام وقد قامت الظروف الاقتصادية التي مرت بها ديار المسلمين بدورٍ في ذلك.

- **العامل الخارجي:** المتمثل بالغزو المغولي والحملات الصليبية التي قضت على كل أمل في متابعة العرب المسلمين مسيرتهم العلمية خدمة للحضارة الإنسانية، وصرفت طاقة العرب وتفكيرهم عن الاهتمام بالعلم وفتَّحَ لهم نحو مقاومة تلك الغزوات.¹

تعرض العالم الإسلامي خلال القرون 12-15 لهجمات منظمة من الغرب إلى الشرق بقصد تخريبه واجتياح أراضيه، فقد بدأ المغول هجومهم منذ أوائل القرن الثاني عشر وكان الموت والدمار يحل بكل مكان تطوَّه أقدامهم، فيذكر المؤرخون حوادث مذهلة عن عبث هولاء بتراث العرب فقد بني بكتب العلماء اصطبلات الخيول ومعالفها، وقيل أن مياه دجله تغير لونها لكثرة ما ألقى فيه من كتب وأوراق.²

تتفق الكثير من الدراسات على أن مكتبة بيت الحكمة استمرت موجودة طوال العهد العباسي إلى أن دخل التتار بغداد سنة 1258 م، وقتلوا المستعصم آخر خلفاء بني العباس فذهبت خزانة الكتب وذهبت معالمها وعفت آثارها.

ومن ناحية الغرب تعرض العرب للحملات الأوربية الصليبية قرابة قرنين من الزمن وإبان تلك الحملات طمست معالم أكبر مكتبة عامة قامت في حضارة الإسلام، وهي مكتبة بني عمار في طرابلس الشام. وفي الأندلس لقيت المكتبات نفس المصير بعد أن تمكن الإسبان من إحراق الكتب والمكتبات، فمثلاً أمر رئيس أساقفة غرناطة الكاردينال كسينمس بإحراق الكتب العربية، وبذهاب ذلك التراث طويت مرحلة من مراحل تطور الإنسان على الأرض. ومن المهم ذكره هنا هو أن عدداً كبيراً من أمهات الكتب العربية وفي مختلف العلوم قد تسرب إلى أوروبا

¹ مرجع سابق: عطا الله، خضر أحمد، ص 70-71.

² المرجع السابق، ص 71.

..... المكتبات العربية في العصور الوسطى

وأثرت في نهضتها وهذا باعتراف المنصفين منهم الذين يعترفون بأن نهضتهم مدينة لمؤلفات العرب في كافة حقول المعرفة.¹

وبناء على ما سبق يمكن القول إن الحضارة الإسلامية قد عرفت أنواعاً متعددة من المكتبات لم تعرفها أي حضارة أخرى، ولقد انتشرت هذه المكتبات في أرجاء الدولة الإسلامية مما يؤكد تأصل حب العلم لدى أبناء هذه الحضارة، وإن قصة المكتبات العربية الإسلامية في نشأتها وتطورها وانحطاطها هي في ذات الوقت قصة الحضارة العربية الإسلامية في نشأتها وتطورها وانحطاطها وهي تمثل ما كان عليه العرب من إبداع في تلك العصور.

رابعاً: مكتبات العصر الفاطمي

أسس الفاطميون دولتهم في شمال إفريقيا في تونس ثم توسعوا شرقاً وغرباً حتى تمكن الخليفة المعز لدين الله من احتلال مصر وضمها إلى إمبراطوريته وذلك سنة 375هـ وهو الذي أسس القاهرة والجامع الأزهر وجعل القاهرة عاصمته واستمرت الخلافة الفاطمية قائمة حتى سنة 567هـ عندما قضى عليها صلاح الدين. ولقد اهتمت هذه الدولة ولاسيما في عصر ازدهارها بالآداب والعلوم وجميع فروع المعرفة وترقت الحضارة في عهد ملوكهم الأوائل الذين حاولوا منافسة الخلفاء العباسيين، وجعل القاهرة مركزاً أساسياً وثقافياً وحضارياً ينافس كلاً من بغداد وقرطبة، ولذلك حاولوا جذب العلماء من كل مكان وأسسوا مراكز العلم والبحث والدرس وأغدقوا على العلماء العطايا والهدايا.²

ومن الملاحظ أنه كان هناك اهتمام منقطع النظير بالعلم والكتب والمكتبات، ذلك أن الدعوة الفاطمية قامت على نشر العلم وعلى نشر مبادئها عن طريق التعليم والإقناع والتوجيه وبث الأفكار بثناً غير مباشر، وكما أسلفنا كان أول من اهتم بالعلم على مقياس واسع المعز لدين الله

¹ نوفل، هائل: تاريخ الكتب والمكتبات، دمشق: دن، 1987، ص 201-204، ومرجع سابق: عواد، كوركيس، ص 31.

² مرجع سابق: حمادة، محمد ماهر، 1982، ص 100.

ثم خلفه ابنه العزيز الذي توسع كل التوسع في ميدان العلم والتعلم، وأنشأ داراً للعلم بجوار الجامع الأزهر سنة 378هـ وجعلها لخمسـة وثلاثين من العلماء. وكذلك اهتم اهتماماً بالغاً بالكتب وتفنن في جمعها والحصول عليها، وساعده على ذلك وزيره يعقوب بن كلثوم نفسه وكان محباً للعلوم مشجعاً لأهلها ونصيراً للفنون.¹

في الحقيقة توصف خزائن الفاطميين بأنها من عجائب الدنيا ولم يكن في جميع بلاد الإسلام دار أعظم منها وكان عندهم نوعان من الخزائن الأولى خزائن القصر الخارجية وعددها أربعون خزانة أشهرها خزانة الكتب التي يصفها ابن تغري بردي بقوله: "أما خزانة الكتب فكانت في أحد مجالس البيمارستان العتيق اليوم وكان فيها ما يزيد على مئة ألف مجلد في سائر العلوم يطول الأمر في عدتها أما خزائن القصر الداخلية فكان الاطلاع عليها محظوراً على العامة".

في حين أن العامة كان مسموحاً لهم الاطلاع على الخزائن الخارجية فقط، واحتوت المكتبات التي أنشئت في هذه الحقبة على نسخ متعددة وبخط المؤلف نفسه واهتم الخلفاء بجمع نواذر المؤلفات وأمهات الكتب النادرة والكتب المخطوطة بخطوط أشهر الخطاطين.²

وإحدى هذه الخزائن كانت في أحد مجالس المارستان العتيق وتحتوي على عدة رفوف في دور ذلك المجلس العظيم، والرفوف مقطعة بحواجز وعلى كل حاجز باب مقفل بمفصلات وقفل وفيها من أصناف الكتب ما يزيد على مئتي ألف كتاب من المجلدات، فمنها الفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة وكتب الحديث والتواريخ وسير الملوك والروحانيات والكيمياء ومن كل صنف النسخ، ومنها النواقص التي ما تمت، كل ذلك بورقة مترجمة ملصقة على كل باب خزانة وما فيها من المصاحف الكريمة في مكان فوقها. ومن عجائبها أنه كان فيها 1200 نسخة من تاريخ الطبري إلى غير ذلك. ويقال إنها كانت تشتمل على ألف وستمئة كتاب

¹ مرجع سابق: الجواهري، خيال محمد مهدي، ص 116.

² المرجع السابق، ص 135.

..... المكتبات العربية في العصور الوسطى

والواقع أن مكتبات الفاطميين كانت تحوي نسخاً عديدة من المؤلف نفسه.¹ حيث دأب الخلفاء الفاطميون في جمع أكثر ما يمكن الحصول عليه من نسخ كتاب واحد حتى لا يتاح لمكتبات بغداد وقرطبة اقتناء هذه الكتب، لذلك نجح الفاطميون في جمع عدد عظيم من نسخ بعض الكتب التي لم يكن لها وجود في المكتبات الأخرى.²

كذلك وجد في مصر مكتبات خاصة جمعها بعض الوزراء والأطباء والأفراد فقد أوجد يعقوب بن كليث السابق ذكره وزير العزيز بالله الفاطمي خزانة لنفسه، وقد اشتهر كذلك الأطباء بحب الكتب وجمعها فقد ذكر ابن أصيبعة عدداً من الأطباء الذين أولعوا بالكتب وجمعها، ولعل من أهمهم موفق الدين بن المطران وكانت له همة عالية في تحصيل الكتب، حتى إنه مات وفي خزانته من الكتب الطبية ما يناهز عشرة آلاف مجلد خارج عما استنسخه وكانت له عناية بالغة في استنساخ الكتب وتحريرها.³

واهتم الفاطميون بفرش مكاتبهم بأفخم الأثاث وفرش الأراضي بالبسط الجميلة المزخرفة وتعليق الستور الممتازة على الأبواب والممرات، فقد دخل أحد السياح مكتبة الفاطميين هذه فرأى فيها قطعاً من الحرير الأزرق غريب الصنعة فيها صورة أقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها ومسكنها وجميع المواطن المقدسة مبينة للناظر مكتوبة بأسماء طرائقها ومدنها وجبالها وبلادها وأنهارها وبحارها بالذهب والحرير.

واستمرت الدولة الفاطمية تهتم بالعلم والمكتبات إلى أن قام صلاح الدين بدخول القاهرة وألغى الخلافة الفاطمية سنة 567هـ، وأغلق مكتباتها وطرح محتويات جميع مكتبات الفاطميين للبيع بالمزاد العلني.⁴

¹ مرجع سابق: حمادة، محمد ماهر، 1982، ص 117.

² مرجع سابق: حسن، حسن إبراهيم، ص 435.

³ مرجع سابق: ابن أبي أصيبعة، ج 2، ص 292-293.

⁴ مرجع سابق: حمادة، محمد ماهر، 1982، ص 117-119.

ومن الجدير بالذكر أنه في سنة 461هـ عجز الخليفة المستنصر عن دفع رواتب الوزير أبي الفرج محمد بن جعفر المغربي والخطير بن الموفق في الدين، فأخذوا، فيما أخذاه عما يستحقانه، خمسة وعشرين جملاً موقرة كتباً، ولم تبق هذه الكتب عند الوزير مدةً طويلةً إذ إنها نهبت من داره في نفس السنة مع ما نهب من داره. وضعف سلطان الخليفة جداً حتى تجرأ كثير من الناس على سرقة الكتب والإبحار بها بالنيل وإرسالها إلى الإسكندرية أو المغرب وأغلبها من الكتب الجليلة، وقد هاجم عسكر السودان القصر ونهبوا محتوياته وأخذوا الكتب المجلدة أفخر تجليد فأحرقوا أوراقها واتخذوا من جلودها نعالاً لهم سوى ما غرق وتلف وحمل إلى سائر الأقطار.

ولما استردت الخلافة الفاطمية أنفاسها بدأ بعض الخلفاء يهتمون بالكتب والمكتبات، ولكن ليس على ذلك المقياس الواسع الذي شاهدناه سابقاً، يروي أبو شامة نقلاً عن العماد أن عدد كتب المكتبة آنذاك بلغ 120 ألف مجلد من العهد القديم مخلدة، ونقلت منها ثمانية أحمال إلى الشام، ويقدر أبو شامة عدد مجلدات مكتبات القصر إبان عزها ومجدها بمليون كتاب، وقد تولى بيعها ابن صورة دلال الكتب واستمر بيعها عدة أعوام.¹

هذه صورة قائمة مظلمة سوداء لكيفية بيع الكتب التي حوتها مكتبات الفاطميين والتي كانت فيما مضى من الدهر تاجاً تزهو به المكتبات الإسلامية إبان مجدها وعزها، ونرى من خلال هذه الصورة كيف تم نهب ذلك التراث العظيم وكيف تفرقت تلك الكتب.

لقد اقتدى الفاطميون بالعباسيين في بغداد والأمويين في الأندلس باقتناء الكتب النادرة في مختلف العلوم، وكما ذكرنا قد بدأ ذلك العزيز بالله ثاني خلفاء الفاطميين بمصر ووزيره يعقوب بن كلس الذي اشتهر بحبه للعلم وتشجيعه للعلماء، وقد تحققت أمنية الفاطميين بالمكتبات التي

¹ المقرئ، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي: **الخطط المقرئية**، بيروت: دار صادرة، 1980، ج 2، ص

أنشئوها،¹ من أشهرها:

آ. خزانة الكتب في القصر

اهتم الفاطميون كل الاهتمام بجميع فروع المعرفة وحاولوا جذب العلماء من كل مكان، وأسسوا مراكز العلم والبحث والدرس وأغدقوا على العلماء العطايا والهدايا وقد بلغ الاهتمام بالمكتبات ذروته في عهدهم وأصبحت القاهرة من أكبر المراكز الثقافية في العالم، ومارس الفاطميون دوراً مميزاً في نشر الثقافة وتطورها، فأسسوا في مصر المكتبات التي باتت تتفوق في ضخامتها وأهميتها على سائر المكتبات في العالم الإسلامي ومنها مكتبة بيت الحكمة في بغداد. وفي بداية الأمر أسس الخليفة الفاطمي مكتبة ضخمة في قصره بالقاهرة.

وتصف المستشرق الألمانية زيغرد هونكه في كتابها «شمس العرب تسطع على الغرب»: اهتمام الخليفة بالمكتبة وما أقتناه من كتب بقولها "لا يستطيع أحد أن يقارن نفسه بالخليفة العزيز في القاهرة حتى خليفة قرطبة، الذي بعث رجاله وسماسته إلى كل أنحاء الشرق ليجلبوا له الكتب فيزيد روائع مكتبته. ولكن أنى له أن يصل إلى ما فعله العزيز؟ لقد حوت مكتبة العزيز 1,600,000 مجلد فكانت بذلك أجمل وأكمل دار للكتب ضمت 6500 مخطوطة في الرياضيات و18,000 مخطوطة في الفلسفة، ولم يمنع هذا قط ابنه من بعده حين اعتلى العرش من أن يبني مكتبة ضخمة فيها ثمانى عشرة قاعة للمطالعة إلى جوار المكتبة القديمة".²

احتلت خزانة الكتب عدة قاعات في القصر الكبير الشرقي وتولى الجليس بن عبد القوي العناية بها والمحافظة على كتبها وتنظيم عملية الاستعارة والاستعادة وتحتوي هذه الخزانة على عدة رفوف مقطعة بحواجز ذكر بعض المؤرخين أنه كان فيها أكثر من مليون وستمئة ألف كتاب في الفقه والنحو واللغة والحديث والتاريخ والروحانيات والكيمياء التي زادت كتبها الخاصة على ثمانية عشر ألف كتاب، غير أدوات الهندسة والفلك ولم يتفق المؤرخون على

¹ أيوب، إبراهيم رزق الله: التاريخ الفاطمي الاجتماعي، [بيروت]: الشركة العالمية للكتاب، 1997، ص 168.

² مرجع سابق: عليان، ربحي مصطفى (ب)، ص 153.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

رقم واحد لعدد الكتب التي كانت في هذه الخزانة فبالغ بعضهم وقلل بعضهم الأمر، في الوقت الذي استولى فيه صلاح الدين على القصر.¹

يذكر المقرئ نقلاً عن أبي واصل أن خزانة الكتب كانت تزيد عن مئة وعشرين ألف مجلد، ومما ذكر أيضاً: أن المكتبة يوجد فيها من كتاب العين للخليل نيف وثلاثون نسخة بخط الخليل نفسه ومئة نسخة من كتاب الجهرة لابن دريد، وتزايد فيها على التوالي عدد النسخ بمرور السنين من كتاب الطبري ليصل الرقم إلى ألف ومنتى نسخة عند استيلاء صلاح الدين على الحكم، إن مثل هذه المكتبة لا يعقل أن يكون فيها أقل من مليون كتاب بدليل أن الأمر بأحكام الله عند وفاة وزيره الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي، صادر ممتلكاته فكان من جملة ما خمسمئة ألف كتاب نقلت كلها إلى مكتبة القصر.

وقد رعى الخلفاء هذه الخزائن رعاية جيدة حتى إنهم كانوا يتفقدونها من وقت لآخر فالعزیز بالله كان يتفقد خزانة الكتب ويجلس على دكة (رفة) عالية يستمع إلى أمينها (متولي المكتبة) يقرأ له أسماء الكتب الجديدة المختلفة ليوقع عليها الخليفة ويوافق على اقتنائها كما يعرض نسخاً مختلفة الأحجام من القرآن الكريم.²

ب. مكتبة دار الحكمة في القاهرة

على الرغم مما قام به العزيز من جمع أعداد ضخمة من الكتب ووضعها في مكتبته الكبيرة، فإن ما قام به الحاكم بأمر الله من اهتمام شديد بالمكتبة ومحتوياتها فاق الجميع، وجعل منه أعظم رجال التاريخ الذين اهتموا بأمور الكتاب والمكتبات على الإطلاق.

فقد أنشأ مكتبته العامة التي أطلق عليها دار العلم أو دار الحكمة في عام 395هـ بجوار القصر الغربي في وسط القاهرة ونقل إليها جميع الكتب التي كانت في العصور ويقدر عدد هذه الكتب بستمئة ألف مجلد، وتذكر المصادر أن المكتبة كان لديها مصورات جغرافية وآلات

¹ مرجع سابق: أيوب، إبراهيم رزق الله، ص 169.

² مرجع سابق: المقرئ، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي، ص 366-367، ص 409.

..... المكتبات العربية في العصور الوسطى

فلكية وتحف فنية وكرتان أرضيتان ووقف لها أماكن ينفق عليها من ريعها. وبُغية جعلها أكثر جاذبية فقد فرشت وزخرفت جدرانها، وعلقت على أبوابها وممراتها الستائر وخصص لها الخدم والعمال والموظفون الذين يقومون بخدمات الإعارة والتنظيم فيها.

وكان لها أمين يسمى الخازن يشرف على محتوياتها وموظفيها كما عُيّن لها مترجمون ومجلدون، وكان هناك عدد من المناولين الذين نسميهم الآن موظفي الإعارة، وكانت الإعارة مسموحة لعامة الناس، وضمت المكتبة النساخ ذوي المهارات العالية وجودة الخط كما خصصت قاعات خاصة للنسخ توفر ما يلزم من أقلام وحبر وورق. وكان الحاكم بأمر الله يشرف بنفسه على الحركة العلمية التي كانت تدور في دار العلم وكان يكرم العلماء الذين يشتركون في المناظرات والمجالس الدينية والعلمية التي كانت تقام داخل دار العلم، وكان من أسباب نشأتها إضافةً إلى نشر العلم والثقافة، منافسة بيت الحكمة في بغداد.¹ هذا وإن الغرض الأساسي من دار الحكمة هو تلقين أصول الدعوة الفاطمية الإسماعيلية، وجعلها مركزاً لنشر المذهب الفاطمي في شمال إفريقيا. ومن أشهر من تولى إدارة هذه المكتبة أبو نصر الشيرازي وبلغت مؤلفاته ثمانى مجلدات كبيرة، تناول فيها الموضوعات الخاصة لتأييد المذهب الإسماعيلي الفاطمي وهي العلوم الدينية والسياسية والأدبية والتأويلية.

ويوضح المقرئ في كتابه المشهور «الخطط المقرئية» أقسام المكتبة: التي كانت مقسمة إلى:

أ. قسم للفقهاء.

ب. قسم لقراء القرآن الكريم.

ج. قسم للمنجمين.

د. قسم خاص لأصحاب النحو واللغة.

هـ. القسم الخاص بالأطباء.

¹ مرجع سابق: عليان، ربحي مصطفى (ب)، ص 154، 136.

وكانت الدار مباحة لسائر الناس على مختلف طبقاتهم وعلى مختلف مستوياتهم الثقافية فمنهم من حضر للنسخ، ومنهم من يحضر للتعلم، وقد رصد الحاكم للإنفاق عليها وعلى أساتذتها وموظفيها وخدمها أموالاً ضخمة وخصص قسماً من أملاكه الخاصة التي وقفها لدار الحكمة هذه، ومما يذكر عنها أنها كانت مكتبة ضخمة منظمة ومرتبطة بشكل يسهل خدمة القراء فيها وعُين عليها مشرفاً أول الأمر القاضي عبد العزيز من أسرة النعمان الشهيرة التي خدمت الخلفاء الفاطميين وقتاً طويلاً، وكذلك عهد بالإشراف إما على خزائن القصر أو على دار العلم للوزير أبي القاسم علي بن أحمد الجرجاني، وقد اهتم الوزير بالمكتبة ورممها وأجرى فيها الإصلاحات اللازمة وأمر بأن يعمل فهرس عام، وعهد بهذه المهمة إلى القاضي أبي عبد الله القضاعي وابن خلف الوراق.¹

وقد خصص منذ البدء قاعة أو قاعات للمحاضرات والمناظرات، ذلك أن من أهم أغراض الدار البحث والمناقشة للوصول إلى بث الدعوة الفاطمية عن طريق التعليم والإقناع وقد اتخذت دار الحكمة منذ البداية طابعاً حرّاً فدعي إليها الأساتذة من المذهبين السني والشيوعي وقرئت فيها فضائل الصحابة. وكان يشرف على الدراسة فيها داعي الدعاة الفاطمي وهو كبير الدعاة الفاطميين والمشرف على سير الدعوة وبث المذهب، وقد جمعت المحاضرات التي ألقاها داعي الدعاة (المؤيد في الدين: أبو نصر هبة الله بن موسى بن أبي عمران) في كتاب سمي باسم المجالس المؤيدية وهي مجموعة المحاضرات التي كان يلقاها في دار الحكمة أو دار العلم في القاهرة وهي ثمانمئة مجلس تناول فيها موضوعات إسماعيلية شتى، دينية وأدبية وسياسية وتأويلية، والجدير بالذكر أن هذه المحاضرات كان ينشئها داعي الدعاة على لسان الخليفة وينوب عنه في إلقائها.²

وقد كانت المناظرات والمحاضرات تجري أحياناً بين يدي الخليفة، لكن هذه الأكاديمية

¹ مرجع سابق: الهوش، أبو بكر محمد، ص 28-30.

² مرجع سابق: أيوب، إبراهيم رزق الله، 102.

..... المكتبات العربية في العصور الوسطى

كثرت فيها المشاجرات والخصام والصدام بين المذاهب وأصبحت مسرحاً لدس الدسائس ونشر الآراء الفاسدة والمذاهب الهدامة، حتى اضطر الملك الأفضل الوزير الفاطمي إلى الأمر إلى إغلاقها في أوائل القرن السادس وذلك بسبب ما يسميه المقرئ نوبة القصار، وهما شخصان من جماعة يعرفون بالبديعية كانوا يجتمعون في دار العلم بالقاهرة، وكانوا خصوماً للإسلام وللمذاهب الثلاثة المشهورة. فلما توفي الأفضل أمر الخليفة الأمر بأحكام الله وزيره المأمون بن البطاحي باتخاذ دار العلم وفتحها على الأوضاع الشرعية ثم عاد القصار المذكوران سابقاً إلى الظهور وسكن القاهرة من جديد وبدأ بالتردد إلى دار العلم وأفسد فيها عقولاً.¹

ويبدو أن السبب الرئيسي في إغلاق الدار هو الجدل والخصام الديني والسياسي الذي شق الفاطميين آنذاك والتنازع على السلطة بين أولاد المستنصر بالله.

لقد اختلط أمر هذه الخزانة مع خزائن القصر التي أوجدها الخلفاء الفاطميون على كثير من الباحثين، فكانوا إذا تحدثوا عن دار الحكمة، أو دار العلم كما تسمى أحياناً، أدخلوا ضمنها الخزائن التي كانت موجودة في القصور، مع العلم أن الخزانتين مختلفتان - وجاء ذلك في أكثر من مصدر - منها كتاب «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» حيث يذكر صاحب الكتاب القصور الفاطمية أولاً ثم يذكر بعد ذلك دار العلم أثناء كلامه عن الحاكم.

ويظهر أن مصير هذه الأكاديمية ارتبط بمصير الدولة الفاطمية وبقية المكتبات التي كانت موجودة في القصور الفاطمية، حيث فقدت هذه المكتبة مجموعة كبيرة من كتبها أثناء الشدة العظيمة التي حلت بمصر في عهد المستنصر بالله الفاطمي، فاستولى الجنود والأمراء على الكثير من كتبها.²

وأصبحت الكتب تؤخذ من القصور الفاطمية سداً للديون حيث أخذ منها بعض الوزراء حمولة خمسة وعشرين جماً من الكتب وهذه الحمولة من الكتب هي وفاء لخمس ألف دينار،

¹ المرجع السابق، ص 44.

² مرجع سابق: حمادة، محمد ماهر، 1982، ص 117-119.

ولكن قيمتها تساوي أكثر من مئة ألف دينار .

أما الكتب التي أخرجت من دار العلم، فصارت إلى عماد الدولة ابن أبي الفضل وحملها معه إلى الإسكندرية ومن ثم نقلت إلى بلاد الغرب بعد وفاته، إضافةً إلى ما أصاب هذه المكتبات بعد سرقة محتويات القصر الفاطمي سنة 461 هـ إذ أُلقي ببعض الكتب في النار وبعضها الآخر في النيل وترك ما تبقى في الصحراء تسفُّ عليه الرياح والرمال حتى صار تلالاً عرفت فيما بعد بتلال الكتب، ولما كانت بعض هذه الكتب مجلدة تجليداً فنياً بجلود الحيوانات، اتخذ العبيد من جلودها نعالاً للأحذية! لقد كانت تلك خسارة فادحة لحقت بدور الكتب الفاطمية.¹

ج. مكتبة بني عمار في طرابلس الشام:

تعدّ هذه المكتبة من أشهر المكتبات عند نهاية القرن العاشر الميلادي وسميت في بعض الأحيان بدار العلم أو دار الحكمة، وفي الواقع تعود لأسرة آل عمار التي كانت تحكم في تلك الحقبة بطرابلس الشام، وقد ازدهرت الزراعة والتجارة والصناعة في عهدهم، ونشطت الحياة الاقتصادية.

لقد كانت أسرة آل عمار من الأسر المعروفة بحبها للعلم والأدب والسياسة، وأول من تولاها بالحكم هو أبو طالب عبد الله بن محمد بن عمار، وكان يحكم المدينة من قبل الفاطميين، حيث عمل ولياً وقاضياً في آن واحد سنة (434-464هـ/1030-1071م)، واستمر أمين الدولة ابن عمار على ولائه للفاطميين الذين أخضعوا طرابلس لحكمهم، واتخذوها مركزاً لنشر مبادئهم ومعتقداتهم، ولتكون عاصمة إمارته قاعدة دينية وثقافية وفكرية، وقد أسست هذه الدار سنة (462هـ/1069م) وقام بالإشراف عليها ثلاثة مسؤولين.

هذا وقد كان بنو عمار شيعة على المذهب الإسماعيلي واهتموا بهذه المكتبة وتغذيتها بعد إنشائها وكانوا يجوبون أقطار الإسلام بحثاً عن الكتب والمخطوطات النادرة، وكان فيها النسخ

¹ مرجع سابق: أيوب، إبراهيم رزق الله، 172.

..... المكتبات العربية في العصور الوسطى

يعملون باستمرار ليلاً ونهاراً، فقد ذُكر أن عدد النساخ كان أكثر من مئة وثمانين ناسخاً يتأوبون العمل ليل نهار، والكتب كلها أو أغلبها من أجمل الكتب المجلدة والمزخرفة والمحلاة بالذهب والفضة وبالخطوط المنسوبة لأشهر الخطاطين، ومنها عدد كبير جداً من الكتب بخطوط مؤلفيها، وقد حوت جميع أنواع وفروع المعرفة من طب وفلك وتنجيم وفلسفة وأدب وتاريخ، وقيل إن عدد كتبها بلغ ثلاثة ملايين مجلد وذلك إبان عزاها ومجدها، منها خمسون ألف نسخة من القرآن الكريم، وثمانون ألف نسخة تفاسير.¹

وقد اختلفت الآراء حول عدد الكتب التي احتوتها المكتبة ولكن هذا ليس بالمهم، بقدر معرفة النهاية التي آلت إليها هذه المكتبة العامة الشهيرة في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية. أما محتوياتها: فقد كانت هذه الدار تحوي المجاميع الكبيرة والواسعة في مجالات العلوم والطب والأدب والفلسفة والفلك، وكان فيها عند تأسيسها ما يقارب مئة ألف كتاب، ثم أخذت بالازدياد من جراء النسخ والتأليف، وتكرار النسخ جعل مجموعاتها تزيد بحيث أصبح مجموعها يناهز 3 ملايين كتاب، فإضافة إلى ما ذكر سابقاً احتوت على كتب قانونية ورومانية وفارسية وهندية، وامتازت هذه المخطوطات بالتجليد الجيد والزخرفة والتذهيب ووجود نسخ أصلية بأقلام مؤلفيها إضافة إلى ما اتسمت به تلك الحقبة من ازدهار في صناعة الورق وتوفره بقدر كبير، مما شجع على الكتابة والاستنساخ في طرابلس، وأضيفت إليها كتب جلبت من مصر بأعداد هائلة، وبأسعار غالية.

وتوجد إحصائية لمجاميع الكتب التي احتوتها بعض المكتبات الكبيرة في ذلك الوقت والمشهورة بالنسبة للمجاميع الموجودة فيها وهي:

1. مكتبة سابور في بغداد: عدد المجلدات 10,400 مجلد.
2. مكتبة الحكم في قرطبة: عدد المجلدات 600,000 مجلد.
3. مكتبة القصور بالقاهرة: عدد المجلدات 1,600,000 مجلد.

¹ مرجع سابق: الهوش، أبو بكر محمد، ص 38.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

4. مكتبة دار الحكمة بالقاهرة: عدد المجلدات 100,000 مجلد.

5. مكتبة مراغة: عدد المجلدات 3,000,000 مجلد.¹

وبطبيعة الحال هذه الإحصائية تبين تفوق دار العلم بطرابلس الشام على بقية المكتبات المذكورة، ولكن لم يذكر في الإحصائية بيت الحكمة في العراق، أما روادها فكانوا من جميع أنواع الطبقات ومن مختلف أنحاء الشام للاستفادة منها، وهم الطلبة والعلماء والفنانون والأدباء والشعراء والنحاة والفقهاء، ومنهم من تخرجوا في عدة مجالات علمية، وكانت ذات فائدة عظيمة لما احتوته من نفائس الكتب والمخطوطات.

ومن أشهر زوارها الفيلسوف أبو العلاء المعري، واحتوت على نسخ ديوان أبي الطيب المتنبي الذي زار مدينة طرابلس ومدح رجالها، وقد خدمت العلم والمعرفة والفقه والأدب، حيث اعتبرت من المعاهد العلمية الكبيرة.

أما **بناؤها**: فقد كان واسعاً وضخماً، ومثلما كانت بقية المكتبات الكبيرة في البلدان الإسلامية ومنها العراق، فالدار ضمت عدة قاعات، وخصصت كل غرفة أو قاعة إما للتعليم أو للقراءة أو للحلقات الدراسية إضافةً إلى غرف الاستساخ والتجليد والتذهيب والترجمة وقسمت الغرف حسب مجاميعها الموضوعية والعلمية مثل قاعة الفلسفة، وقاعة الطب، وقاعة العلوم، وقاعة للدين وغيرها للأدب.

أما **الموظفون**: فهم بطبيعة الحال مشرفون ومناولون وخازنون وموظفون آخرون، لما احتوت عليه المكتبة من مجاميع ضخمة وقراء كثيرين، حيث عمل أكثر من مئة وثمانين موظفاً لخدمة هؤلاء الزائرين ونسخ الكتب، وقد نظمت فيها الكتب تنظيمًا دقيقاً وأصبحت من المراكز المشهورة في ذلك العصر، وعمل بها أيضاً الطلبة العاملون بمهمة تنظيف المكتبة وترتيبها والعناية بفرشها وآثارها، وتوفير الإنارة، وأدوات الكتابة والأقلام والمحابر والورق وغيرها من اللوازم الضرورية، والقيام بالواجبات المطلوبة لضيافة التجار الآتين بالكتب

¹ مرجع سابق: عليان، ربحي مصطفى (ب)، ص 140-145.

..... المكتبات العربية في العصور الوسطى

النفيسة والقيمة من مختلف الأقطار لهذه المكتبة مقابل أجر يدفع لهم.¹
وتقول المصادر أن الصليبيين أحرقوا هذه المكتبة العامة مع محتوياتها وأرضها عندما احتلوا طرابلس عام 1009م.

فقد حدث أن دخل أحد القساوسة إلى المكتبة وشاهد الكتب من حوله، ويبدو أنه دخل القاعة المخصصة للقرآن الكريم، فتناول أول كتاب وفتحه فإذا هو القرآن الكريم فرماه، والنقط الثاني فإذا به مصحف شريف فرماه، وظل يفعل الشيء نفسه نحو عشرين مرة، فلما وجد جميع الكتب التي وقعت في يده نسخاً من القرآن اعتقد أن المكتبة كلها تتألف من مصاحف ولذا غضب وثار وقال: "هكذا مكتبة مملوءة بالمصاحف أحرقوها". ولم يدرك أنه دخل قسم المصاحف والتفاسير والذي يضم آلاف النسخ وهكذا ذهب التعصب والجهل الصليبي بثروة لن تعوض.²

خامساً: مكتبات العصر الأندلسي

إن حضارة الإسلام في إسبانيا نافست حضارة الإسلام في المشرق، وبلغ من عظمة قرطبة وازدهارها وخاصة إبان العهد الأموي في الأندلس أن كانت أعظم مدينة في أوروبا كلها، وتأتي على قدم المساواة مع القسطنطينية وبغداد إبان عزها.

إذ كانت تحوي 1600 مسجد وفيها مئتا ألف دار وثمانون ألف قصر منها قصر دمشق شيده بنو أمية حاكوا به قصورهم في بلاد الشام، وقد بلغ عدد أرباض قرطبة (ضواحيها) تسعة أرباض كل ربض كالمدينة الكبيرة ودور قرطبة ثلاثون ألف ذراع وفي ضواحيها ثلاثة آلاف قرية في كل واحدة منبر وفقهه، وقد قدر بعض المؤرخين عدد سكان قرطبة في أيام مجدها وعزها بمليون نسمة، وكان بالربض الشرقي من قرطبة مئة وسبعون امرأة كلهن يكتبن

¹ مرجع سابق: الهوش، أبو بكر محمد، ص 38.

² مرجع سابق: عليان، ربحي مصطفى (ب)، ص 140-141.

المصاحف بالخط الكوفي.

هذه ضاحية من ضواحيها فكيف ببقية الضواحي، وقد كانت شوارعها مبلطة وترفع قماماتها وتنتار شوارعها ليلاً بالمصابيح ويستضيء الناس بسروجها ثلاثة فراسخ لا ينقطع عنهم الضوء، وهذا شيء لم يحدث في أوروبا إلا في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر. وطبعاً لم تكن قرطبة وحدها بهذا الرقي الحضاري وإنما هي نموذج لما كانت عليه المدن الأندلسية.

لذلك لا غرابة أن انتشرت المكتبات في جميع أنحاء البلاد وكثر عشاقها وكثر التأليف والمؤلفون، خصوصاً بوجود حكّام شجعوا العلم وهم أنفسهم كانوا مثلاً عالياً في حب الكتب وجمعها والاهتمام بها كالحكم الثاني. ويبدو أن دخول الورق إلى الأندلس قد تأخر بعض الوقت، أو أن العادة في كتابة المصاحف على الرقوق ظلت سائدة برغم توفر الورق. ويذكر المقدسي عند كلامه عن أهل الأندلس "كانت مصاحفهم ودفاترهم في رقوق وأهل الأندلس أحذق الناس في الوراقة وخطوطهم مدورة".

وقد كان من عادة علماء الأندلس وفضلائها أن يرحلوا إلى المشرق وأن يحضروا معهم كتب المشاركة وعلومهم. فقد روى ابن بشكوال عن أبي حفص الزهراوي قوله: ساق سلمة بن سعيد بن شيخا من المشرق ثمانية عشر حملاً مشدودة من كتب، وسافر من استبحه إلى المشرق واتخذ مصر موئلاً واضطرب في المشرق سنين كثيرة جداً بجمع من الأثاث كتب العلم فكلما اجتمع من ذلك مقدار صالح نهض به إلى مصر ثم نزع بالجميع إلى الأندلس وكانت في كل فن من العلم ولم يتم له ذلك إلا بمال كثير حمله إلى المشرق وتوفي سلمة بن سعيد سنة 406هـ.

وممن كانت له في الأندلس همة عالية في جمع الكتب وجمع منها مقداراً عظيماً جداً القاضي أبو المطرف واسمه عبد الرحمن بن حمد بن عيسى... ابن إصبع، كان حسن الخط جيد الضبط جمع من الكتب في أنواع العلم مالم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس مع سعة

..... المكتبات العربية في العصور الوسطى

الرواية والحفظ والدراسة. وكان له ستة وراقين ينسخون دائماً وكان قد رتب لهم على ذلك راتباً معلوماً، وكان متى علم بكتاب حسن عند أحد من الناس طلبه للابتياح منه وبالغ في ثمنه فإن قدر على ابتياحه وإلا انتسخه منه وردّه إليه.¹

كذلك جمع ابن حزم المؤلف المشهور مكتبة كبرى ولكنها أحرقت أو أحرق بعضها بأمر ملك إشبيلية المعتضد بن عباد.

وقد اشتهرت قرطبة بحبها للكتب، كما اشتهرت إشبيلية بحبها للطرب واللهو وآلاتهما. يبدو ذلك واضحاً من نص أورده المقرئ عن مناظرة دارت بين ابن رشد من قرطبة وابن زهر من إشبيلية يقول المقرئ: فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة ما أدري ما تقول، غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حُمِلت إلى قرطبة حتى تباع فيها. وإذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حُمِلت إلى إشبيلية. قال وقرطبة أكثر بلاد الله كتباً بل لقد وجدنا بالأندلس نسوة عالمات اهتمن بجمع الكتب وبالأدب، فمن هؤلاء النسوة عائشة بن أحمد بن محمد بن قادم قرطبة، لم يكن في جزائر الأندلس في زمانها من يعدلها فهماً وعلماً وأدباً وشعراً وفصاحة وعفة وجزالة وحصافة، وكانت تمدح ملوك زمانها وتخطبهم فيما يعرض لها من حاجبها فتبلغ ببيانها حيث لا يبلغه كثير من الأدباء وقتها، ولا ترد شفاعتها وكانت حسنة الخط تكتب المصاحف والدفاتر وتجمع الكتب وتعنى بالعلم ولها خزانة علم كبيرة وحسنة ولها غنى وثروة تعينها على المروءة.

وقد انتشرت عادة اقتناء الكتب في الأندلس وإنشاء مكتبة كما ينشئ أحدنا الآن غرفة لاستقبال ضيوفه أو غيرها من الغرف، ومع أن رب البيت قد يكون جاهلاً أو غير مهتم بالكتب، ولكن كي يقال بين الناس في الحي أو البلدة أن فلاناً من الناس عنده خزانة كتب جيدة عامرة تحوي كتباً نادرة.

والواقع أن الثقافة العربية الإسلامية والتربية والتعليم انتشرت في القرن العاشر والحادي

¹ أمين، أحمد، ظهور الإسلام، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1961-1962، ج 4، ج 3، ص 13.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

عشر الميلاديين في إسبانيا المسلمة إلى درجة جعلت دوزي المؤرخ المشهور يقول بأن أغلب الناس في الأندلس أصبحوا قادرين على القراءة والكتابة. بل يمكننا أن نقول إن كل فرد تقريباً يعرف القراءة والكتابة. وقد انتقلت الثقافة العربية إلى الإسبان النصراري الذين أقاموا في البلاد الإسلامية وعاشوا تحت ظل الحكم الإسلامي، فقد سرت إليهم العادات الإسلامية وتعلموا اللغة العربية وكتبوا بها بل واقتنوا مكتبات عربية. يبدو ذلك واضحاً من نص يروى عن الكاتب الإسباني النصراني المتعصب ألفارو، ذلك أن هذا القس المهبوس ببعض كتب الإسلام كتب في كتب القرن التاسع الميلادي يقول "إن إخواني المسيحيين يدرسون كتب فقهاء المسلمين وفلاسفتهم لا لتنفيذها بل لتعلم أسلوب عربي بليغ، وأسفاه إنني لا أجد اليوم علمانياً يقبل على قراءة الكتب الدينية أو الإنجيل بل إن الشباب المسيحي الذين يمتازون بمواهبهم الفائقة أصبحوا لا يعرفون علماً ولا أدباً ولا لغة إلا العربية، ذلك أنهم يقبلون على كتب العرب في نهم وشغف ويجمعون منها مكتبات ضخمة تكلفهم الأموال الطائلة في الوقت الذي يحرقون الكتب المسيحية وينبذونها"، هذا وازدهرت مكتبات المساجد في هذا العصر كحالة بقية البلاد منها جوامع قرطبة وطليلة ولقد كان للحلقات التي تعقد في جامع طليطلة شهرتها وأهميتها، وجذبت إليها الطلاب المسلمين والنصارى على السواء، حتى كان يقصدها طلاب نصارى من جميع أنحاء أوروبا ويشمل ذلك إنجلترا واسكتلندا.

وقد احتفظت طليطلة بمكانتها هذه بعد سقوطها بيد الإسبان سنة 1085م حيث وجد فيها هؤلاء مكتبة حافلة بالكتب في أحد مساجدها. وقد بلغت شهرة هذه المكتبة من حيث هي مركز للثقافة أقصى البلاد النصرانية في الشمال.¹

ومن أهم المكتبات في ذلك العصر نذكر:

- مكتبة قرطبة: بدأ تأسيس المكتبات في الأندلس يشق طريقه بعد أن تهيأت الظروف

¹ التلمساني، أحمد محمد المقرّي: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، (إحسان عباس: محقق)، بيروت: دار صادر، 1988 ... مج، ج 1، ص 463-467.

..... المكتبات العربية في العصور الوسطى

والأسباب المطلوبة لإنشائها، فبعد أن توطدت أركان الدولة الأموية في الأندلس نعمت البلاد بحركة فكرية نشطة، وأخذت رياح التغيير تهب على الأدب نتيجة تغير البيئات والمناخات واستطاع المزاج الأندلسي أن ينفخ في قوالب الشعر البدوي العتيقة روحاً جديدة ويزيد من رقة الشعر وعمق العواطف، وهي استجابة لمفاتيح الطبيعة الجديدة، كما عني أهل الأندلس بالفقه واللغة مما زاد في حركة الكتابة الأدبية. لم يتوقف النشاط الفكري في الأندلس على أمور الفقه واللغة فقط، بل اتجه إلى الاهتمام بمسائل فلسفية يرجع الفضل في إثارتها إلى ابن مسرة القرطبي الذي كان يرأس في عام 900 حلقة من الطلاب والمريدين، كانت تجتمع إليه في إحدى الصوامع القائمة على منحدرات جبل قرطبة ونشأت في بقية المدن الأندلسية حلقات على غرار حلقة قرطبة ظلت تتعقد حتى القرن الثالث عشر.

وعرفت قرطبة فقه اللغة على يد القالي المتوفى سنة (356هـ/966م) كما اهتم الأندلسيون بالتاريخ وبلغ بزوغ نجم محمد بن القوطية، وهو من المعاصرين للقالي، بوصفه أحد أكبر كتّاب التاريخ في العصر الأندلسي وهو الذي أرخ وقائع الفتح الإسلامي.

ويذكر كارل بروكلمان في كتابه «تاريخ الشعوب الإسلامية» اهتمام عرب الأندلس بأمر الطب والعلوم الطبيعية بقوله (فقد حاول المغاربة التحرر من سلطان التقليد الشرقي والواقع أن الأندلس عرفت في عهد عبد الرحمن الثالث ترجمة جديدة لنظريات ديقوريدس في الأدوية المفردة وضعت على أساس نسخة يونانية أرسلت إليه من القسطنطينية وكان ولده الحكم الثاني نصيراً صادقاً للعلم والعلماء).¹

أثار تأسيس المكتبات في بغداد وغيرها من الدول الإسلامية ولعاً خاصاً في الأندلس وكان أعظم المولعين بتأسيس المكتبات وجمع الكتب الحكم الثاني المتوفى سنة (366هـ/976م) والذي اشتهر بشدة ميله للقراءة والاطلاع وكان محباً للعلم وأهله، شديد الرغبة في جمع الكتب

¹ بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية، (نبيه أمين: مترجم)؛ (مدير البعلبكي: محرر)، بيروت: دار العلم للملايين، 1949، ج 2، ص 3011-302.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

حتى إنه عين في المدن الأندلسية والسورية والمصرية وفي بغداد وفارس وخراسان مجموعات من الموظفين والتجار لجمع الكتب النادرة مهما غلا ثمنها، فجمع من الكتب النادرة المتنوعة ما لم يجمعه غيره من الملوك. وتذكر المصادر التاريخية أنه حينما انتهى أبو الفرج الأصفهاني المتوفى سنة 356 من كتابه الشهير «الأغاني» انتدب الحكم رسولاً خاصاً ليسجل هذا الكتاب في مكتبته في بادئ الأمر قبل استنساخه وتوزيعه، وتم له ما أراد وجلبه إلى مكتبة الحكم بقرطبة.

أنشأ الحكم المستنصر الذي تولى الخلافة فيما بين عامي 350-366 مكتبة قرطبة وأنفق عليها من الأموال الطائلة وجلب إليها الكتب من جميع الأمصار وحاول الحكم أن يجعل من مكتبته هذه مكتبة متميزة في مقتنياتها، فصرف بسخاء ودون تردد على شراء الكتب كما حصل على كتب كتبت خصيصاً لمكتبته واستنسخت الأعداد الكبيرة من الكتب لهذه المكتبة ومن بينها كتاب «أوقات الصناعات» الذي ألفه أبو الحسن عريب بن سيد وكتبه في قرطبة عام 961 ثم نُقِّحَ وترجم إلى اللاتينية من قبل دوزي في عام 1873م.

وكان الحكم شغوفاً بقراءة الكتب حتى قيل إنه قرأ معظم مقتنيات مكتبته وكتب تعليقاته في صدر كل كتاب، كما كان شغوفاً بتنظيم المكتبة وتصنيفها وترتيبها بالزخارف الفنية وترتيبها فعين عدداً من المجلدين المهرة لتجليد الكتب التي كتبت بحروف من الذهب وزينت بالتصاویر الجميلة وبلغ عدد الكتب التي ضمتها المكتبة قرابة 400,000 كتاب. وهذا ما أورده ابن خلدون وابن الأبار أنه إضافةً إلى عدد الصفحات التي دونت فيها أربعمئة ألف كتاب من كتبه في مختلف المواضيع فإن دواوين الشعر فقط قد غطت ثمانمئة صفحة من فهارس المكتبة، ووصف ريتهارت دوزي في كتابه «تاريخ المسلمين في إسبانيا» الحكم المستنصر بأنه فريد من نوعه من حيث اقتناء الكتب النادرة بقوله (لم يسبق أن تولى حكم إسبانيا حاكم عالم بهذه الدرجة. ومع أن جميع أسلافه كانوا رجالاً متقفين وأحبوا أن يغنوا مكتباتهم فإن أحد منهم لم

..... المكتبات العربية في العصور الوسطى

يبحث بشغف ونهم عن الكتب النادرة والثرينة كما فعل الحكم).¹

وهناك رواية أخرى تذكر عدد كتبها فقد روى المقرئ رواية أخرى عن بعض المؤرخين وقال بعض المؤرخين في حق الحكم أنه كان حسن السيرة مكرماً للقادمين عليه جمع من الكتب ما لا يُحَدّ ولا يوصف كثرة ونفاسة حتى قيل إنها كانت أربعمئة ألف مجلد، وأنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها.. وكان يستجلب المصنفات من الأقاليم والنواحي باذلاً فيها ما أمكنه من الأموال حتى ضاقت عنها خزائنه.

ولقد كان مصير هذه المكتبة فاجعاً ذلك أن المنصور بن أبي عامر الذي أصبح سيد الأندلس بعد وفاة الحكم أخرج من المكتبة جميع الكتب الفلسفية وكتب علوم الأوائل وأحرقها بالنار في الميدان العام في قرطبة إرضاءً للعامة والفقهاء في زمانه. وبعد وفاة المنصور وأثناء حصار البربر لقرطبة في مطلع القرن الخامس الهجري احتاج الحاجب واضح من موالي المنصور بن أبي عامر إلى مال فأمر بإخراج أكثر الكتب من مكتبة الحاكم وباعها، وذلك لتوفير المال أثناء الحصار الذي ضربته البربر على قرطبة في مطلع القرن الخامس الهجري وعندما دخل البربر قرطبة عنوة قاموا بنهب ما تبقى من كتب فيها وبهذا أسدل الستار على أكثر مكتبات الإسلامية انتقاءً للكتب الثمينة والنادرة.

لم يقتصر وجود المكتبات على قرطبة فحسب، بل كانت منتشرة في بقية المدن الأندلسية كغرناطة وأشبيلية ومالقة وإضافةً إلى تلك المكتبات التي كانت تؤسس في المدن وتستخدم كمكتبات عامة كانت هناك مكتبات خاصة للأدباء والعلماء منها ما هي إسلامية بحتة ومنها ما هي يونانية بيزنطية أو عبرية أو غيرها، وذلك بحكم سياسة التسامح التي اتبعتها العرب أثناء حكمهم الأندلس، ومع ذلك فقد بقيت قرطبة لمدة طويلة المركز الرئيسي للثقافة في الأندلس. ولما انقسمت المملكة الأموية والخلافة الأموية في الأندلس إلى ما يسمى ملوك الطوائف

¹ دوزي، ربهات: تاريخ المسلمين في إسبانيا D'ESPAGNE HYTOIRE DES MUSHNAMS الحروب الأهلية (حسن حبش: مترجم)، القاهرة: وزارة الثقافة، 1963، ج 1، ص 110-120، ص 245.

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

وأصبح هناك حكام في مختلف الأصقاع اهتم كثير منهم بالعلوم والآداب والكتب والمكتبات ونضرب مثلاً على ذلك بالمظفر بن الأفطس (من حكام القرن الخامس الهجري) صاحب انطليوس، فقد كان كثير الأدب جمَّ المعرفة محباً لأهل العلم وكان أديب ملوك عصره وقد ألف كتاباً اشتهر باسمه وهو الكتاب المظفري الذي جاء في خمسين مجلداً يشتمل على فنون وعلوم من مغازٍ وسيرٍ وجميع ما يختص به علم الأدب.¹

¹ مرجع سابق: التلمساني، أحمد محمد المقرّي، ج 3 - ص 390-394، ص 380.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ط 1، القاهرة: المطبعة الوهبية، [د.ت]، ص 723.
2. ابن خلكان، أبو العباس شمس أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، (محمد عبد الرحمن المرعشلي: عمل على تقديمها)؛ (رياض عبد الله عبد الهادي: أعد فهرسها)، دار إحياء التراث العربي، 1997، ج 4.
3. ابن الطقطقي، محمد بن علي طبابا: **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، (ممدوح حسن محمد: محقق ومحرر)، القاهرة: مكتبة الثقافة الإسلامية، 1999، ص 327.
4. ابن عبد ربه الأندلسي، أحمد بن محمد: **العقد الفريد**، ط 2، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1996، ج 7.
5. ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق: **الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة**، بيروت: دار الفكر، 1987، ص 240.
6. ابن النديم، أبي الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق: **الفهرست**، (يوسف علي الطويل: ضبطه وشرحه وعلق عليه)؛ (أحمد شمس الدين: وضع فهرسه)، بيروت: دار الكتب العلمية، 1996، ص 792.
7. أرمز، ولیم: **المكتبات الرقمية**، (جيريل بن حسين العريشي وهاشم سيد فرحات، مترجم)، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، 2006، ص 360.
8. الاتحاد الدولي لجمعيات ومؤسسات المكتبات IFLA: **توجيهات للمكتبات المتنقلة**، (سعاد بوعناق، مترجم)؛ (عبد اللطيف الصوفي، مراجعة)، سلسلة ترجمة معايير الافلام (24)، الاتحاد العربي للمكتبات والمعلومات (اعلم)، الجزائر: جامعة قسنطينة، 2010، تم النفاذ بتاريخ: 2016/7/14، على الرابط: <http://www.ifla.org/files/assets/hq/publications/professional-report/123-ar.pdf>
9. أمين، أحمد: **ضحى الإسلام**، ط 2، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة، 1934، ج 2.
10. أمين، أحمد: **ظهور الإسلام**، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1961-1962، ج 4.
11. أيوب، إبراهيم رزق الله: **التاريخ الفاطمي الاجتماعي**، [بيروت]: الشركة العالمية للكتاب، 1997، ص 301.
12. بدر، أحمد: **المدخل إلى علم المعلومات والمكتبات**، الرياض: دار المريخ، 1985، ص 358.
13. بروكلمان، كارل: **تاريخ الشعوب الإسلامية**، (نبیه أمين: مترجم)؛ (مدير البعلبكي: محرر)، بيروت: دار العلم للملايين، 1949، ج 2، ص 511.
14. التلمساني، أحمد محمد المقرئ: **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب**، (إحسان عباس: محقق)، بيروت: دار صادر، 1988 ... مج.
15. التميمي، حيدر: **بيت الحكمة العباسي ودوره في ظهور مراكز الحكمة في العالم الإسلامي**، بغداد: زهران

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

للنشر، 2000.

16. الجاحظ البصري، أبو عثمان بحر: الحيوان، [القاهرة]: دار التقدم، 1907، ج 7، في مج 2، ص 1089.
17. الجواهري، خيال محمد مهدي: من تاريخ المكتبات في البلدان العربية، دمشق: وزارة الثقافة، 1992، ص 412.
18. حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، (غوستاف فلوغل: محرر)، بيروت: دار صادر، 1995 - ج 7.
19. حسن، حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية في الغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1981، ص 736.
20. حسن، سعيد أحمد: أنواع المكتبات في العالمين العربي والإسلامي، عمان: دار الفرقان، 1984، ص 93.
21. حسنين، رجب عبد الحميد: المكتبات الرقمية: التخطيط والمتطلبات - cybrarians. Journal: ع 15، 2008 - تم النفاذ بتاريخ: 2016/7/18، على الرابط: http://www.journal.cybrarians.org/index.php?option=com_
22. حمادة، محمد ماهر: المكتبات في العالم: تاريخها وتطورها حتى مطلع القرن العشرين، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1982.
23. حمادة، محمد ماهر: المكتبات في الإسلام: نشأتها وتطورها ومصائرها، ط 3، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1981 - ص 232.
24. حمدي، عمر حسن: المكتبة في العالم العربي: تاريخها وطرق العمل بها، مصر: مكتبة الانجلو المصرية، 1959.
25. الخطيب، أحمد: الجامعات الافتراضية: نماذج حديثة، عمان: جدارا للكتاب العالمي؛ أريد: عالم الكتاب الحديث، 2006، ص 298.
26. خليفة، شعبان عبد العزيز: الكتب والمكتبات في العصور الوسطى، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 1997.
27. دوزي، ريتهارت: تاريخ المسلمين في إسبانيا: Espagne Hytoire des mushnams: الحروب الأهلية - (حسن حبش: مترجم)، القاهرة: وزارة الثقافة، 1963، ج 1، ص 254.
28. سيد، أيمن فؤاد الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات، ط 1، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 1997.
29. سيد، أيمن فؤاد: طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل، القاهرة: منشورات المعهد الفرنسي، 1955.
30. سلام، عبد الحافظ محمد: خدمات المعلومات وتنمية مقتنيات المكتبة، عمان: دار الفكر، 1997.
31. الصوفي، عبد اللطيف: لمحات من تاريخ الكتاب والمكتبات، دمشق: دار طلاس، 1987، ص 444.
32. الصوفي، عبد الله إسماعيل: المكتبات وخدماتها، عمان: جمعية عمال المطابع التعاونية، 1991.

..... المكتبات العربية في العصور الوسطى

33. العريس، محمد: **مذكرات في منهج البحث التربوي وأسس التوثيق**، بيروت: دار النهضة العربية، 2012، ص 257.
34. عطا الله، خضر أحمد: **بيت الحكمة في عصر العباسيين**، القاهرة: شركة دار الإشعاع للطباعة، 1989.
35. علي، محمد كرد: **خطط الشام**، ط 3، دمشق: مكتبة النوري، 1983، ج 6 في مج 3 ص 1904.
36. علي، محمد كرد: **رسائل البلغاء**، ط 3، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة، 1946، ص 532.
37. عليان، ربحي مصطفى (أ): **مقدمة في علم المكتبات والمعلومات**، عمان: دار الفكر، 1999، ص 377.
38. عليان، ربحي مصطفى (ب): **المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية**، عمان: دار صفاء، 1999، ص 231.
39. عواد، كوركيس: **خزائن الكتب القديمة في العراق منذ أقدم العصور حتى سنة 1000 للهجرة**، بيروت: دار الرائد العربي، 1986، ص 345.
40. فراج، عبد الرحمن: **مفاهيم أساسية في المكتبات الرقمية - مجلة المعلوماتية: ع 10، 2005 - تم النفاذ بتاريخ: 2016/6/25**، على الرابط: <http://informatics.gov.sa/magazine/modules.php?name=Sections&op=viewarticle&artid=101>
41. قاسم، حشمت: **المكتبة والبحث**، القاهرة: مكتبة غريب، 1983.
42. قاسم، حشمت: **مصادر المعلومات وتنمية مقتنيات المكتبة**، القاهرة: مكتبة غريب، 1988.
43. القرآن الكريم.
44. فزانجي، فؤاد: **المكتبات والصناعة المكتبة في العراق**، بغداد: وزارة الإعلام، 1972، ص 86.
45. القلقشندي، أحمد بن علي: **صحيح الأعشى في صناعة الإنشاء**، (محمد حسين شمس الدين: شارح ومعلق)، بيروت: دار الكتب العلمية، 1987، ج 14.
46. قنديلجي، عامر إبراهيم والسامرائي، إيمان فاضل وعليان، ربحي مصطفى: **مصادر المعلومات من عصر المخطوطات إلى عصر الانترنت**، عمان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2000، ص 388.
47. المطيري، عفاف تركي: **المكتبات غير التقليدية: الإلكترونية - الافتراضية - الرقمية**، (أحمد غنمان الماجدي، مراجعة)، سلسلة تبسيط علوم المكتبات: (12)، الكويت: وزارة التربية، 2010، ص 59.
48. المقرئزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقرئزي: **الخطط المقرئزية**، بيروت: دار صادرة، 1980، ج 2، ص 1044.
49. النباهوي، محمد أمين: **عالم الكتب والقراءة والمكتبات**، بيروت: دار ومكتبة الهلال، 2008.
50. نوفل، هابل: **تاريخ الكتب والمكتبات**، دمشق: دن، 1987.
51. الهوش، أبو بكر محمد: **لمحة حول الكتاب والمكتبات في الحضارة الإسلامية**، طرابلس، ليبيا: جمعية الدعوة

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

- الإسلامية العالمية، 1990، ص 155.
52. الهوش، أبو بكر: **التقنية الحديثة في المعلومات: المكتبات نحو إستراتيجيه عربية لمستقبل مجتمع المعلومات**، القاهرة: دار الفجر للنشر والتوزيع، 2002.
53. ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي: **معجم البلدان**، بيروت: دار صادر، 1984، مج 5، ص 2521.
54. Hastings, Kirk: **How to Build a Digital Librarian** - D-Lib Magazine :N (11), 1996- available at: <http://www.dlib.org/dlib/november96/ucb/11hastings.html> - Cited in(29/6/2016)

من أنشطة المركز
خلال النصف الأول من عام 2017

من أنشطة المركز خلال النصف الأول من عام 2017

تابع المركز في النصف الأول من عام 2017، تنفيذ مشروعاته وبرامجه المقررة للدورة المالية 2017-2018 على النحو التالي:

– تم إصدار الكتب التالية:

- الإحصاء الطبي
- دراسات في علم الترجمة
- جرى إنجاز وتسليم ترجمة كتاب لمصلحة إدارة العلوم والبحث العلمي في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.
- جرى إنجاز وتسليم ترجمة كتاب لمصلحة إدارة المعلومات والاتصال في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.
- جرى إنجاز وتسليم ترجمة كتابين لمصلحة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي.

– كتب في قيد الإصدار:

- مدخل إلى الكيمياء الدوائية
- تخطيط الأجهزة الطبية
- التحليل الاقتصادي الجزئي في التطبيق العملي
- يجري العمل حالياً على ترجمة كتاب لمصلحة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي

التعريب العدد الثاني والخمسون - حزيران (يونيه) 2017م

- يجري العمل حالياً على تسلم الدراسات الخاصة بالعدد 53 الذي يُتوقع صدوره في ديسمبر عام 2017.

- زوّد المركز بعض الجامعات بإصداراته في إطار مشروع دعم الجامعات والمؤسسات العلمية.

- شارك المركز بعرض إصداراته في المعارض التالية:

• معرض القاهرة الدولي للكتاب من 2017/1/26 إلى 2017/2/10

• معرض مسقط الدولي للكتاب من 2017/2/22 إلى 2017/3/4

• معرض أربيل الدولي للكتاب 4 - 2017/4/15

• معرض أبو ظبي الدولي للكتاب من 2017/4/26 إلى 2017/5/2

أنشطة المركز خارج البرامج:

- شارك الأستاذ الدكتور زيد العساف مدير المركز في اجتماع مجلس الأمناء للمنظمة العربية للترجمة في مقر المنظمة ببيروت بتاريخ 2017/2/25.

- شارك الأستاذ الدكتور زيد العساف مدير المركز في الدورة العادية السابعة بعد المئة للمجلس التنفيذي للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في مقر المنظمة بتونس 2017/4/12-10.

للإطلاع على إصدارات المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر

يرجى التفضل بزيارة موقع المركز على الشبكة (الإنترنت)

www.acatap.org

